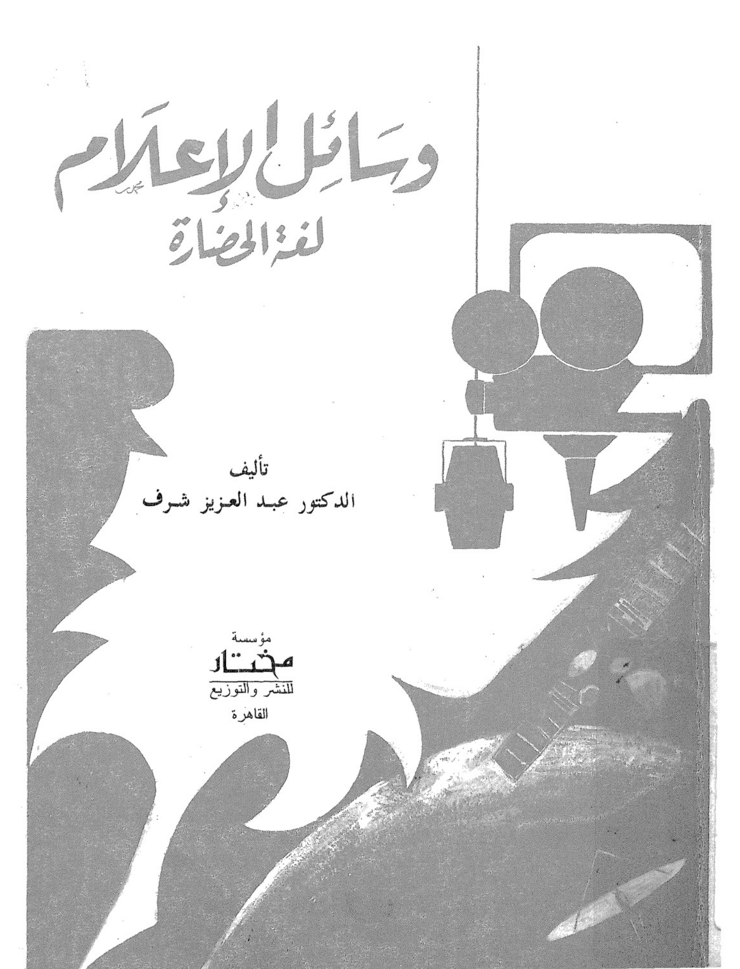


وسائل الإعلام
لغة الحضارة

تأليف

الدكتور عبد العزيز شرف

مؤسسة

مختار

للنشر والتوزيع

القاهرة

وسائل الإعلام

ولغة الحضارة

إهــــــــداء ٢٠٠٧

أسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

وسائل الإعلام ولغة الحضارة

دكتور
عبد العزيز شرف

مؤسسة
مختار
للنشر والتوزيع
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ بِاسمِ رَبّكَ ٱلّذِىٓ خلَقَ ﴾

قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الإعــلام ... ومستقبل الفصحى

إن التداول الفعلى للإعلام ، والاستخدام الفعال لوسائل الاتصال بوجه خاص يمكن أن يسهم بفعالية فى تنمية اللغة بوجه عام ، واللغة العربية بوجه أخص .

وذلك أن الوسيلة الوحيدة الفعالة فى الاتصال الجماهيرى التى نتمكن بها من إدراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هى اللغة .

وان وظيفة اللغة فى الاتصال الإعلامى هى تمثيل الرأى العام على مرآة تعكسه ، وفلسفة اللغة تنطوى على إنعاشها وتنسيقها بحيث تصبح مطية للرأى العام ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمز الحقيقة وشارة الواقع .

وانتهينا إلى أن اللغة المشتركة – والتى تمثلها لغة الإعلام أصدق تمثيل – هى فى الحقيقة تعبير لما يسميه السياسيون بالقومية . فذهبنا إلى التفرقة بين ثلاثة مستويات للتعبير اللغوى :

أولـهـا : المستوى التذوق الجمالى الفنى ويستعمل فى الأدب والفن .

وثانيها : المستوى العلمى النظرى التجريدى ويستعمل فى العلوم .

وثالثها : المستوى العملى الاجتماعى وهو الذى يستخدم فى الصحافة والإعلام .

وقد حاولنا أن نحدد ملامح لمنهج البحث الإعلامى فى اللغة ، من حيث سعيه إلى البحث فى ماهية اللغة باعتبارها أداة اتصال إعلامى ، وذهبنا إلى أن اللغة الإعلامية تقوم على الوظيفية الهادفة ، والإشراق ، والوضوح ، وتكاد تكون فنا تطبيقيا قائما بذاته .

وانتهينا إلى ضرورة التفرقة فى الوظيفة اللغوية بين « الأسلوب المعرفى » أى

الذى يؤدى إلى معلومات ، والأسلوب « اللامعرفى » الذى يؤدى إلى خرافات وأوهام ، لتنقية الأسلوب الإعلامى من الاستعمال التخديرى للغة فى الدعاية والسياسة وفى الباب الثانى بفصوله الثلاثة ، حاول البحث دراسة هذه « اللغة الإعلامية » من خلال « مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية » فذهب فى الفصل الأول من هذا الباب إلى أن اللغة الإعلامية هى اللغة العربية الفصحى ، وخواصها ظاهرة من تركيب مفرداتها وعبارتها تركيبا يرمى إلى « النمذجة والتبسيط » أخص الخصائص فى لغة الإعلام ، التى تستخدم الرموز المجسدة أو الأنماط أو النماذج التى تقوم مقام التجربة الفردية أو الجماعة لتنظيم التجارب الإنسانية العديدة . فهى لغة دالة ، ذات منهج متفرد فى وضع الألفاظ للمعانى الجديدة ، يؤكد الصلة بين المدلول الأصلى للفظ والمعنى المقصود منه أو الشىء المسمى . وهى لغة معرفية ، تؤدى إلى معلومات لا إلى خرافات وأوهام ، لأنها لغة منطقية فى تركيب حروفها ومفرداتها وقواعدها وعباراتها . كما أن اللغة العربية هى لغة الإيجاز المعرفى ، بحيث تعطى الحقائق بما يمكن من الدقة والسرعة ، ولا تستخدم عبارة واحدة لموضعين ملتبسين بل تستخدم كل عبارة لموضعها الذى لا لبس فيه .

تلك هى اللغة العربية فى وفائها بالمعانى المقصودة فى الاتصال الإعلامى على حسب إرادة المرسل والمستقبل ، أو على حسب ضرورة التفاهم بين الاثنين .

فاللغة العربية بذلك تضم فى ثناياها أخص خصائص لغة الإعلام ، وهى بيان العلاقات المتغيرة بين الإنسان والإنسان ، وبين المرء والبيئة ، اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو مادية ، أو غير ذلك من العلاقات أو تغييرها على نحو ما .

ولذلك فان البحث عندما يذهب إلى أن اللغة الإعلامية هى اللغة العربية الفصحى ، يعنى ذلك جميعا ، على نقيض ما يذهب إليه البعض فى اللغات الأوربية من أن لغة الإعلام ولغة الفن الصحفى بالذات مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة الأصيلة الفصيحة . لأن العربية تقوم على الوظيفية الهادفة وتتضمن اتصالا ناجحا أساسه الوضوح والسهولة والسلاسة والتبسيط ، فهى لغة عملية تعبر عن الحياة والحركة والعمل والإنجاز ، لأنها لغة قوم يتلازم عندهم القول والتفكير والعمل فى حياتهم .

وعلى ذلك فإن العربية الفصحى تمثل اللغة العليا المشتركة ، لشعوب تباعدت أصولها واختلفت أقاليمها وتفاوتت أمزجتها وميراثها الفكرى والثقافى والحضارى قبل الفتح الإسلامى ، وقد استطاعت العربية بمرونة فائقة أن تطوع دلالات الألفاظ وتتوسع فى المجاز . بحيث أصبحت لغة إعلامية مفهومة لدى العامة ، حيث لم تحل اللهجات الشعبية دون فهم ما يسمعون من نصوص الفصحى ، هذه اللغة « الديمقراطية » أصبحت لغة عالمية ، تصطنعها شعوب متعددة ، منذ استقرت الدولة العربية فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث من الهجرة والتعاون والشعور بالمواطنة والقومية . وفى ذلك مصدر من مصادر اعتزازنا بأن لغتنا لغة إعلامية ، فلغتنا من أغنى اللغات الكبرى تراثا ، وأطولها عمرا ، وأبقاها على الزمن إتصالا ، وقد وسعت ما وصل اليها من معارف الأقدمين فى الماضى ، وهى الآن تثبت قدرتها على الاتساع لثمار الفكر الإنسانى الحديث ، بل إنها تشارك بإنتاجها فى تنمية الثروة الأدبية والعقلية للعالم المعاصر .

ومن الحق أن نذكر أن أصوات الدعاة إلى إحلال العامية محل الفصحى قد خفتت ، وأن تقاربا ملحوظاً بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية قد حدث ، وذلك من تأثير ازدياد الجمهور القارىء وتطور وسائل الإعلام ، وتنوع فرص اللقاء والاحتكاك والعمل القومى المشترك بين المثقفين والجماهير .

ومن خلال هذا التقارب الذى حدث فى الوطن العربى بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية تولد لغة الإعلام لغة للصحافة والمكاتبات ، و التدوين والتسجيل فالإذاعة ، لغة للاتصال بالجماهير .

وذهب البحث إلى أن وسائل الإعلام هى من أفضل الوسائل لانتشار اللغة العربية الفصحى والربط بين رجال الفكر من جهة وبينهم وبين الجماهير فى العالم العربى من جهة أخرى . كما أن الإعلام باستخدامه العربية فى لغته يقدم للشعب ثروة لغوية ترفع من مستواه الثقافى والأدبى ، كما تعمل على توحيد الأمة العربية وفكرها . وبذلك يكون الإعلام قد أسهم فى تعميم العربية الفصحى كلغة جامعة مشتركة يقرؤها اليوم ويكتبها ويستمع إليها نحو ثمانين مليونا من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

ومن ذلك يبين معنى قولنا أن وسائل الإعلام جميعا مدرسة عملية فعالة سريعة الثمرات فعلينا أن نستخدمها طريقا حقيقيا لتحقيق وحدتنا اللغوية .

وجنح الفصل الأول إلى بحث خصائص التعبير الإعلامى فى اللغة العربية من مرونة وقدرة على الحركة ، واستيعاب لمنجزات الحضارة وروح العلم ، والإفصاح فى التعبير عن ذلك كله .

وتبين أن الإعلام قد أسهم فى صنع كلمات جديدة تتجه نحو التحيز للألفاظ الفصاح والسمو بالأسلوب الكتابى أو الإذاعى ويشيع الإعلام من فصيح ألفاظ الحضارة ما يشيع ، ويسهم فى تطور الوعى اللغوى ، والنقمة على الكلمة الدخيلة المطموسة أو العامية المبتذلة .

فلغة التعبير الإعلامى تشيع على أوسع نطاق فى محيط الجمهور العام ، فهى قاسم مشترك أعظم فى كل فروع المعرفة والثقافة والصناعة والتجارة والعلوم البحتة والعلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون والآداب ، ذلك لأن مادة الإعلام فى التعبير عن المجتمع تستمد عناصرها من كل فن وعلم ومعرفة .

وقد اكتسبت اللغة الإعلامية هذه المرونة ، من امتياز الفصحى بالعمق ، الذى يجعلها تنبض بالحياة ، والذى يجعلها تقوم على الترجمة الأمينة للمعانى والأفكار ، والاتساع للألفاظ والتعبيرات الجديدة التى يحكم بصلاحيتها الاستعمال والذوق والشيوع .

وبدأنا ببضع صفحات لمحاولة التعرف على بعض الاحتياجات لاستخدام وسائل الإعلام فى تحقيق التنمية والإثراء والتجديد . وانتهينا إلى أن أثر الإعلام فى التنمية اللغوية مرتبط بأثره فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، لأن الاتصال اللغوى الإعلامى أساس لكل عملية اجتماعية ، لأنه فى الحقيقة تفاعل المجتمع مع نفسه . وقد وجدنا عوامل هذه التنمية اللغوية ترتبط بتداول الإعلام بين الدول وتأثر الصحفيين والكتاب بالأساليب الأجنبية ، وتعريب الألفاظ الأجنبية بما يتفق ونظام العربية فى مادتها وتركيبها وهيئتها وبنائها ، وتكون هذه التنمية كذلك عن طريق إحياء رجال الإعلام لبعض المفردات القديمة للتعبير عن معان لا يوجد فى المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيرا دقيقا ، وكذلك عن طريق خلق ألفاظ جديدة للتعبير

عن أمور لا يوجد فى مفردات اللغة المستعملة ما يعبر عنها تعبيرا دقيقا .

وفى ذلك ما يجعل البحث يدعو إلى التطور الموجه فى وسائل الإعلام لتنمية الألفاظ فى لغتنا مع الرقابة والحذر ، حتى تنتظمنا الآن نحن أبناء العرب لغة واحدة مشتركة منسجمة .

الكلمة المطبوعة باعتبارها أداة من أدوات المساس بالعواطب البشرية والتأثير فى الفكر والسلوك ، تبدو مصدرا رئيسيا للاستمتاع بالنسبة للذهن اليقظ . وتسهم الصحافة العربية فى تجديد اللغة وتنميتها عن طريق عاملين رئيسيين ، أحدهما ، الكسب الخارجى عن طريق الترجمة البرقية ، كما أن المفردات فى اللغة الصحفية لا تستعمل تبعا لقيمتها التاريخية ، وإنما تخضع لقيمة وقتية محددة باللحظة التى تستعمل فيها ، وفى ذلك إثراء جديد عن طريق ألفاظ قديمة لأوضاع ومعان جديدة .

ولذلك اتجهت اللغة الصحفية نحو الوضع اللفظى لمختلف المعانى والأغراض ، فأضافت جديدا إلى اللغة مما لم تعرفه من قبل ، واستخدمت فى ذلك النحت والقياس والاشتقاق .

وقد وجدنا تقاربا شديداً بين لغة الصحافة وجهود المجمعيين وحراس اللغة من علمائها ، فأقرت المجامع آلافا من المصطلحات التى تستمدها من الصحفيين والكتاب ، الذين لم تحرمهم المجامع والهيئات العلمية اللغوية حق وضع المصطلح . كما ذهبت هذه المجامع إلى تسجيل الاستعمال الصحفى القريب من أصول اللغة ، والشائع بين الباحثين ، ليكون لغة موحدة بين الناطقين بالضاد .

على أن الصحافة مطالبة بتعميم المصطلح العلمى والحضارى فى جنسه العربى بين القراء لمسايرة ركب الحضارة الإنسانية من خلال فنونها التحريرية المختلفة . كما أن عليها أن تواصل عملها فى تجديد اللغة العربية ، فى حدود خصائصها وذوقها الأصيل . وهى بذلك تكون قد أدت بنجاح تام كل ما كان يأمل فيه المجددون من رجال اللغة ، وكل ما نادى به الغيورون على هذه اللغة .

وما جادت به الإذاعة على اللغة إنما جاء من ناحية الصوت ، وإبراز الخصائص الصوتية للغة الضاد ، عن طريق الإذاعة والإلقاء . كما ذهب البحث إلى

أن الإذاعة يمكن أن تكون عظيمة الأثر فى زيادة الثروة اللفظية بين عامة الشعب وفى توحيد نطق المفردات وفى التقريب بين اللهجات .

والخلاصة إذن أن وسائل الإعلام إذا ما أحسن استخدامها تستطيع حقا أن تساهم مساهمة لها قدرها فى التنمية اللغوية وتعميم اللغة المشتركة بين الجماهير العربية . وليس فى الأفق شيء ، ربما باستثناء التعلم المنتظم ، من يملك مثل هذه القدرة القوية لنقل الأفكار الجديدة والمفردات اللغوية من المدن العصرية إلى القرى التقليدية ، ولبناء روح القومية العربية من جديد ، ووسائل الإعلام ، كما رأينا ، أسرع من التعليم المنتظم ، وتخدم الكبار من السكان . فى حين يركز التعليم بصفة رئيسية على النشء ، وهى ليست بحال من الأحوال منافسة وإنما توسع دائرة التعليم المنتظم وتثريه ، إن الظروف مهيأة لاستخدام وسائل الإعلام العصرية فى التنمية اللغوية ، وتوحيد اللهجات ، وتعميم العربية الفصحى ، ولكن وسائل الإعلام فى البلدان العربية كما ذكرنا لا تستخدم الاستخدام الكافى فضلا عن أنها متخلفة ، والنتيجة أن تدفق الإعلام ضئيل وبطيء .

والآن ، وقد بلغنا نهاية الطريق الطويل الذى سار فيه هذا البحث (من محاولة تحديد ملامح لمنهج البحث الإعلامى فى اللغة) إلى دور الوسائل الإعلامية فى تنمية اللغة العربية وتعميمها ، يضع توصيات عما يمكن أن تفعله البلدان العربية بشأن أجهزة الاعلام :

– من واجب الدول العربية أن تفحص القيود المادية والقيود الإدارية الموضوعة على تداول الإعلام العربى ، بغية التعاون على حلها ومنع استغلالها ، ذلك أن تعميم اللغة المشتركة والتقريب بين اللهجات لن يتم ما لم يتدفق الإعلام من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فى القناة بين القادة الوطنيين والشعوب العربية .

ولذلك فإن إتاحة أفضل الفرص وأوسعها أمام تداول الإعلام – والصحف بوجه أخص – فى جميع أقطار الوطن العربى مشرفه ومغربه أمر أساسى فى عمليات التنمية اللغوية .

– تقديرا لدور الإذاعة والتلفاز فى التأثير اللغوى وتكوين الرأى العام العربى عن طريق ما يقدم من خلالهما من مواد سواء كانت إعلامية أو ثقافية أو فنية ، نظرا

لضيق مجال انتشار الكتاب والصحيفة وتفشى الأمية وقلة الفرص المتاحة للتأثر بوسائل التثقيف الأخرى كالمسرح والسينما ينبغى أن تعنى الدول العربية بالإذاعة والتلفاز باعتبارهما جزءا لا ينفصل عن السياسة الإعلامية فى كل قطر عربى بتدعيم القيم العربية القومية وتعميم العربية الفصحى لغة للتعبير من خلال الوسائل الفنية التى تجعل من اللغة أداة ملائمة للعرض الإذاعى .

– من واجب الدول العربية أن تحاول إقامة علاقة تعاون بين إدارات الحكومات المسئولة عن تنمية أجهزتها الإعلامية وتلك المسئولة عن التعليم وغيره من التنميات المتصلة ، ولسنا فى حاجة إلى القول بأن « تنمية التعليم والقدرة على القراءة والكتابة فى بلد من البلدان مرتبطة ارتباطا وثيقا بتنمية وسائل الاتصال بحيث يكاد يكون من المستحيل الفصل بين الاثنين . والسبب فى ذلك ليس راجعا إلى أن أحدهما يساعد الآخر فحسب ، بل أيضا لتأثير التعليم على أنماط الناس من حيث تلمسهم الإعلام أو إذاعتهم له ، على حد تعبير ولبورشرام ، فالاستثمار فى التعليم يساهم أكثر فى تلمس الإعلام والبحث عنه فى الكتب والمجلات والصحف .

وهكذا يكون التعليم منشطا هائلا لتدفق الإعلام المفيد من وإلى الفرد .

ولذلك فإن الخدمات الإعلامية العربية مطالبة بتجنيد الكفاءات فى وسائلها المختلفة لخدمة مناهج التعليم المدرسى وتعليم الكبار فى الأقطار العربية المختلفة وخاصة فيما يتعلق بمحو الأمية .

فالتعليم من أنجح الطرق لتجاوز العامية ، ولذلك يجب أن يلتزم التعليم بالفصحى فى كل مراحل التعليم العام ، وإلى اتخاذ الوسائل كافة لتعميم التعليم بالعربية فى الجامعات والمعاهد العليا .

– إن اللهجات العامية تعرقل شيوع الإرسال الإعلامى فى أقطار الوطن العربى وتحد من تأثيره المرجو ، وتهدد الجهد المبذول فيه فلا ينتفع به فى نطاق واسع ، ولذلك فإن مجانبة هذه اللهجات فى وسائل الإعلام بعامة كسب كبير للإعلام العربى بقدر ما هو كسب للغة القومية ووحدة الفكر العربى .

وإن صراع الفصحى والعامية قد تحسمه – على صعيد الإذاعة المرئية

والمسموعة – لغة الاتصال بالجماهير التي تخاطب المتعلم والأمى معا ، وتفى باحتياجات التطور والمعاصرة ، بحيث تصبح القضية هى نجاح الاتصال بالجماهير .

– إن أقسام الصحافة ومعاهد الإعلام بالجامعات العربية ، مطالبة بتحقيق هذا المنهج فى اللغة الإعلامية لتعميم الفصحى ودراسة العربية فى ضوء المنهج الإعلامى دراسة تنطلق من محاولة التصور التى أثبتها البحث فيما سبق ، نحو منهج لدراسة اللغة العربية ، وقيامها بوظيفتها ، يرتكز على ثمار علوم اللغة وما توصلت إليه من نتائج تفيد فى دراسة تأثير اللغة على الجماهير .

عبد العزيز شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

يشهد عالم اليوم اهتماماً متزايداً بالإعلام ووسائله ، وإيماناً صادقاً برسالته وأهدافه ، ذلك أن الإعلام فى العالم الحديث يتطور تطوراً مذهلاً ، نتيجة للتقدم التكنولوجى فى فنون الاتصالات وعلوم الإلكترونات وفنون الطباعة .. وفى الوقت الحالى تعد الدول العربية نفسها لتواكب هذا التقدم الإعلامى بإطلاق قمر صناعى عربى ، يقوم بالربط التلفزيونى والإذاعى لاستخدامه فى الأغراض الثقافية والإعلامية .

وهذا التطور المذهل فى ميدان الإعلام إن هو إلا امتداد للانتصارات التى حققتها اللغة فى سبيل تحقيق اتصال جماهيرى على امتداد واسع ، فأصبحت اللغة فى ظل الإعلام ذات سلطان ، لما لها من تأثير على تفكير الأفراد والجماعات وعلى شعورهم وسلوكهم ، ولذلك فإننا ننظر للانتصار الإعلامى الحضارى على قيود البث ، على أنه يفرض بالدرجة الأولى على وسائل الإعلام الارتقاء بمستوى اللغة العربية ، والتى عاشت ككل لغة إنسانية مراحل التطور البشرى ، منذ انبثاق الحياة الإنسانية وتعاملها بالكلمة المنطوقة ، ثم المدونة أو المكتوبة ، ثم مرحلة الطباعة ، إلى أن شهدت اليوم مرحلة الإذاعة وثورة الاتصالات الإعلامية .

وتأسيساً على هذا الفهم ، نطرح فى الصفحات التالية اختباراً للبحث فيما يتعلق بأثر هذه المرحلة الإعلامية على الوطن العربى من جهة ، وعلى اللغة العربية الفصحى من جهة أخرى ..

وإذا كانت « الرسالة هى الوسيلة » كما يذهب إلى ذلك عالم الإعلام الكبير مارشال ماكلوهان ، فإن الناس يتأثرون تأثراً لا شعورياً بوسائل الإعلام ، ولا يلبث هذا التأثر أن يصبح السر الحقيقى الكامن وراء السلوك الإنسانى .. وحين نذهب فى الدراسات الإعلامية إلى ذلك ، فإننا نجد تأييداً من أصحاب النظرية اللغوية ، حين يذهبون إلى أن البناء اللغوى لإحدى اللغات ، التى ينشأ عليها الناس ويلقنونها من أمهاتهم وآبائهم ، يخلق لديهم كذلك بناءً فكرياً وسلوكيا بذاته .. وكان من رأيهم أن

اللغة إنما هى « عالم لغوى وسط » يقوم بين العالم الموضوعى وبين الناس ، ويتربى عليه الفرد فى أثناء تعلمه لغة الأم . أى أن اللغة هى التى تحدد للأفراد والجماعات طريقة رؤيتهم للعالم وتجربتهم له ، كما تحدد موقفهم منه وأسلوب تعاملهم معه .

وأيًا كان أمر هذه النظرية ، فإن اللغة مكتوبة ومنطوقة ، قد أصبحت فى عصر ثورة الاتصالات الإلكترونية ، أبرز ملامح العصر الذى نسميه عصر الوسائل الجماهيرية الحديثة ، حيث بلغ التواصل بين الناس أقصى مداه وأضخم أبعاده ، فانضمت السينما وكذلك الراديو والتلفزيون إلى الوسائل المطبوعة لنشر الأخبار والأفكار والإمتاع ، إلى ماقدمته ثورة الاتصالات من أنواع من الاتصال الإقناعى ، بحيث يمكن **تعريف الإعلام بطريقتين** : الاتصال عن طريق الوسائل ، والاتصال بالجماهير ، ومع ذلك فالإعلام لايعنى الاتصال بكل شخص . فالوسائل تنحو نحو اختيار جماهيرها ، كما أن الجماهير تختار من بين الوسائل .

ولذلك فقد كان من الطبيعى أن نسعى فى بحثنا الفائز بجائزة اليونسكو العربية ، إلى تحديد معالم « **علم الإعلام اللغوى** » الذى يرتكز على كل ماكانت تقول به علوم النفس والاجتماع ونظرية المعرفة عن قوة تأثير الكلمة ، ويتوفر لغويًا على البحث فى قوة الكلمة ومدى تأثيرها الإعلامى .

وليست هذه السطور إلا إضافة يسيرة إلى جهود سابقة لأساتذة جيلنا ، ممن اشتغلوا بالدراسات اللغوية ، وتركوا لنا ثمار جهودهم مناراً على الطريق . وهذا الموضوع الذى عنيت به فصول هذا البحث ، إنما هو من حيث صلة اللغة العربية بثورة الإعلام والحضارة ، والتعرض للقضايا اللغوية التى تواجه الإعلام العربى المعاصر .

والبحث بذلك نحوٌ جديد من أنحاء الدراسة اللغوية الإعلامية ، يراد به شق طريقه أولا ، ثم تأصيل هذا الطريق بعد ، فى سبيل استكمال دراسة لغة الإعلام المعاصرة والإحاطة بها ، والوقوف عند كل جزئياتها وكلياتها . ولذلك حاولنا الكشف عن مزايا الفن والتعبير الإعلامى فى لغة الضاد ، لأنها فى مبدأ الأمر بحوث دعت إليها المناقشة فى موضوع الإعلام وتطوره أو تطور قواعده ، ومستقبله فى العالم العربى .

ولغة الإعلام هى لغة الحضارة ، بمعنى أنها قاسم مشترك أعظم فى كل فروع

المعرفة والثقافة والصناعة والتجارة والعلوم البحتة والعلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون والآداب ، وقد كان طبيعياً أن يسعى الإعلام للإفادة من مزايا اللغة العربية حضارياً ، ويحقق التحول العظيم بتضييق المسافة بين لغة الخطاب ولغة الكتابة ، ويفتح الطريق أمام اللغة الفصحى لتتسرب فى كل مكان ، وليكون لها فى التعبير الإعلامى سلطان .

وبعد ... فنرجو أن نكون قد وفقنا فى شق هذا الطريق ، فجل من لا يخطىء تحيزاً أو قصوراً فى عالم البشر ،

د . عبد العزيز شرف

الفصـــل الأوّل

اللغة فى نظرية الإعـلام

إن موضوع العلاقة بين اللغة والتعبير الإعلامى يتطلب نوعاً من الاتفاق حول المصطلحات الأساسية ، ذلك أن رقعة الخلاف قد اتسعت بين الدلالة المعاصرة وبين الدلالة القاموسية القديمة ، ومن أبرز الشواهد على ذلك مصطلح « اللغة » ، على حد تعبير أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس ؛ فنحن جميعاً نتفق اليوم على أن هذا المصطلح إنما يعنى فى المقام الأول ، أهم وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس ، وهى « اللسان » ، ومع ذلك فإن اللغة كانت عند الأقدمين ترادف ما نستعمله الآن من مصطلح « اللهجة » فاللسان العربى هو اللغة العربية بالمفهوم المتسع ، وقد تبلبل هذا اللسان فاستوعب لهجات مختلفة عرفت كل واحدة منها بأنها لغة ، كأن يقال « لغة مضر » أو « لغة تميم » ، أما الآن فإننا نقول اللغة الإنجليزية أو اللغة العربية ، ويعنى الدكتور يونس بذلك الكيان اللغوى لكل أمة من هذه الأمم على اختلاف اللهجات فى التلفظ والدلالة جميعاً .

وإذا كان المعنى الخاص قد غلب على المعنى العام فيما يتصل بمصطلح اللغة ، فإن التعبير الإعلامى ، وهو أضيق فى الدلالة من اللغة ، يتطلب منا أن نستشف علاقة اللغة بوسيلة الإعلام ، وهنا نذكر قول « هوبز » الفيلسوف الإنجليزى : « مثل الكلمات بالنسبة للعقلاء كمثل محل دفع النقود ، فإنهم لا يفعلون أكثر من تقديرها وعدها - ولكنها بالنسبة للبلهاء النقود نفسها » .

ذلك أن اللغة نسق من الإشارات موجود فى أى مجتمع ومن أجل هذا المجتمع ، فهى من أهم وسائل الاتصال ، ولذلك يجب أن نعرف كيف نعالجها وكيف نستخدمها فى وسائل الإعلام من خلال فهمنا لبنائها المعقد ، فليست الكلمات - وهى أصغر وحدات اللغة - أشياء غامضة خفية تحيط بها الأسرار والألغاز ، وإنما هى أحداث فى الزمان والمكان ، أو كما يقول « ليونيل روبى » فإن لها بعداً مادياً ، كما أنها ترمز إلى معان . فكأشياء مادية : اللغة تقال وتكتب ، والكلمة

المجهورة تسبق الكلمات المدونة لأن الناس تكلموا قبل أن يكتبوا .

« والكلمة المجهورة كشيء مادى هى صوت أو جرس أو جلبة تحدث بوساطة اهتزازات عضلات زورك ، وحركة هذه العضلات تحدث ذبذبات فى الهواء داخل فمك ، وهذه الحركات تحدث اهتزازات فى الهواء المحيط بك مارّاً خلال المنطقة التى تتحدث فيها – وهذه الذبذبات فى الهواء المحيط ترتطم بطبلتى أذن الشخص الذى تتحدث إليه فتحدث حركات فى جهازه العصبى ومخه ، وعندئذ يسمع كلماتك » . وهنا يحدثنا « روبى » ساخراً من ذلك الكذوب المحتال البارون فون مونشهاوزن الشهير ؛ عن أسطورته التى تزعم أن رجلا رفع عقيرته محيياً صديقاً له على الجانب الآخر من نهر الفولجا فى أحد أيام الشتاء القارسة البرودة . ويقول البارون إن البرد كان شديداً جدّاً لدرجة أن الكلمات تجمدت قبل أن تعبر النهر وتصل إلى الشاطىء الآخر ، وأن هذه الكلمات لم تسمع حتى جاء الربيع فساحت مع ذوبان الثلج وانطلقت إلى غايتها !

والبعد المعنوى للكلمة أهم من بعدها المادى ، فعندما نقول إن الكلمات لها معان ، فإن ذلك يعنى أن الناس اتفقوا على أن كلمة معينة مثل « الغلالة » تدل على الثوب الرقيق الذى يلبس تحت ثوب ضيق ، وهنا تتضح علاقة اللغة بالتعبير الإعلامى ، حين يكون الهدف منها هو نقل المعلومات .

وإذا كان مفهوم الإعلام قد ظل زمناً طويلاً غير محدد ، فإن نظرية ظهرت فى الأعوام الأخيرة تسمح لنا بأن نقوِّم موضوعيّاً كمية المعلومات التى تتضمنها أى رسالة سواء أكانت الرسالة تقريراً عن موضوع ما أم قصيدة للعقاد أم حديثاً تليفونيّاً أم مقطوعة موسيقية لعبد الوهاب أم تنبؤاً بحالة الطقس أم اكتشافاً يحقق ثورة فى ميدان العلوم . وتسمى هذه النظرية باسم نظرية الإعلام التى انبثقت من مشكلات عملية خالصة ، فوضع العالم الأمريكى كلودشانون عام ١٩٤٨ أساس نظرية الاحتمالات فى الإعلام ، وبعده بدأ الكثير فى تطبيقها فى مجالات واسعة من العلوم .

وكان أساس نظرية المعلومات الرياضية هو مفهوم عدم التحدد أو الانطروب Entropy ويذهب « ا . كندراتوف » إلى أن « شانون » هو صاحب الفضل فى إدخال مبدأ القياس الكمى للمعلومات التى يحتويها اختيارنا لأحداث بعينها من بين

سلسلة كبيرة من أحداث تقع وفق احتمالات مختلفة . ووسائل الاتصال تفيد فى نقل المعنى ، فهى ليست مجرد مركبات من أحرف أو رموز لشفرة اصطلاحية ، إن أول أهداف الاتصال اللغوى هو نقل المعنى ، والسياق هو الذى يعين قيمة الكلمة ، إذ أن الكلمة . كما يقول « فندريس » توجد فى كل مرة تستعمل فيها فى جو يحدد معناها تحديداً مؤقتا . والسياق هو الذى يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعانى المتنوعة التى فى وسعها أن تدل عليها ، والسياق أيضاً هو الذى يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التى تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذى يخلق لها قيمة « حضورية » .

وإزاء انتشار وسائل الإعلام واستخدام الكلمة مجهورة ومدونة ، يبرز هذا السؤال :

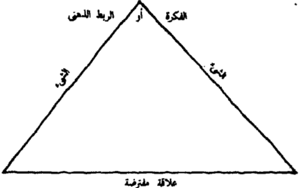
هل اللغة وسيلة واضحة يمكن الاعتماد عليها فى اتصال الناس بعضهم بعضاً ؟ كيف نتأكد من أن ملايين الناس قد وعوا قصد المرسل ومعناه وما رغب فى توصيله إليهم ؟

يمكننا أن نستعمل قول العالم النمساوى « بوهلر » : إن الكلام دليل على الحالة العقلية للمتكلم ورمز للرسالة وتنبيه للسامع ، ويظهرنا « ستيفن أولمان » على وظائف أساسية للكلام الإنسانى ؛ وهى أن **الكلام : معبر وموصل ومؤثر** ؛ ويتوقف الأمر على ما إذا كان الموضوع ينظر إليه من زاوية المرسل أو الرسالة أو المستقبل .

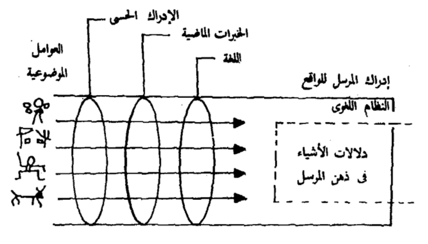
والكلمات — فى وسائل الإعلام — لها صورتان من الوجود : وجود بالقوة ووجود بالفعل . فكل كلمة — كما يقول « أولمان » أيضاً — تسمع أو تنطق تترك فى أثرها مجموعة من الانطباعات فى ذهن كل من المتكلم والسامع ، يشترك فيها الأول بطريق إيجابى ، وخاصة فى وسائل الإعلام ، بوصفه بادئاً بالاتصال ، والثانى بطريق سلبى ، بوصفه مستقبلا (بكسر الباء) .

ويشكل المعنى المشكلة الجوهرية فى علم الإعلام اللغوى ، ويمكننا أن نفيد هنا من تحليل الأستاذين « أوجدن » و « ريتشاردز » فى كتابهما : « معنى المعنى » والذى يتمثل فى مثلثهما المشهور ، حيث يذهبان إلى وجود عوامل ثلاثة تتضمنها أية علاقة رمزية :

أولها : الرمز نفسه ... وثانيها : المحتوى العقلى الذى يحضر فى ذهن السامع حين يسمع الكلمة ، وهذا المحتوى العقلى قد يكون صورة بصرية ، أو صورة مهزوزة ، أو حتى مجرد عملية من عمليات الربط الذهنى ، طبقاً للحالة المعينة . وهذا ما سماه هذان العالمان : « بالفكرة » أو الربط الذهنى Reference وهناك أخيراً الشيء نفسه الذى ارتبط ذهنياً بشيء آخر ، وهذا الشيء قد سمياه « المرتبط ذهنياً » Referent . وقد وضحت العلاقة بين هذه المصطلحات الثلاثة بصورة مثلث ، هكذا :



وربما يسعفنا النموذج التالى فى أن نقع على بعض الملاحظ حول علاقة اللغة والإدراك ، وعلاقتهما معاً بعملية الإعلام ككل :



وعملية الاتصال اللغوى فى الإعلام كما يدل عليها المصطلح ، تنطوى على القراءة والكتابة والكلام ، من خلال تحقيق جمع المعلومات ونقلها ، ولا يمكن للإعلامى أن يقوم بالمعجزات عند استخدامه لوسيلة الإعلام ، إلا أن عليه أن يفهم أسلوب الاتصال اللغوى فهماً صحيحاً . وينبغى أن يكون فى مقدوره مساعدة

جمهور المستقبلين على فهمه أيضاً . فمن الواضح أن عملية الإعلام تتم عن طريق اللغة ، وقد ذكر (جون لوك) أن الكلمات تثير الشك والغموض ، ومعنى أغلبها غير مؤكد ، بحيث إننا لو شغلنا أنفسنا بالكلمات وبقينا نحوم حول أسماء الأشياء فلن يكون غريباً أن تضل الكلمات السبيل ، فالمستقبل قارئاً وسامعاً يعرف القليل عن أهمية معانى الكلمات وعن أهمية الارتباك الناشىء عن تفسير كلمات الآخرين ، فيكون إذن على الإعلامى أن يساعد المستقبل على إدراك أسلوب الاتصال .

يقول « شرام » إننا عندما نتصل بغيرنا فإننا نحاول أن نقيم مشاركة مع من نتصل به ، أو بعبارة أخرى ، أننا نحصل على المرسل والمتسلم لرسالة معينة (١) .

فالمرسل على حد تعبير « شرام » يحاول توصيل معلوماته أو مشاعره التى يحولها إلى كلمات مسموعة أو مكتوبة ، وبعد أن ترسل الرسالة يتوقع المرسل أنها قد رسمت فى ذهن المتسلم الصورة نفسها التى كانت فى ذهنه (٢) .

لقد أصبحت وسائل الإعلام بالنسبة للإنسان المعاصر شيئاً مفروغاً منه ، ولكنه مع ذلك لا يتدبر فى أثر هذه الوسائل على تفكيره وسلوكه ، أو على سير مجتمعه ، غير أن هناك ما يدل على أن الكثيرين فى مجتمعنا المعاصر قد أصبحوا يدركون – على الأقل – أثر وسائل الإعلام . ففى السبعينات ظهر مدى النضج فى النقد ، بحيث يبدو أن طوائف كثيرة من الشعب قد بدأت تفكر فى الإعلام ملياً ، وليس معنى ذلك أن كل نقد موجه إلى الإعلام مقنع – وفى الحقيقة أن تحديد المصطلح يحتاج بداءة إلى التعرف على طبيعة الإعلام الأساسية ؟ (٣) .

وفى البداية يحتاج المصطلحان : « اتصال واتصالات » إلى إيضاح . فالاتصال ببساطة هو عملية الاتصال ، والاتصالات هى الوسائل التكنولوجية المستخدمة لتنفيذ هذه العملية . والاتصال – إذن – هو حقيقة أساسية للوجود

---

(1) Wilbur Schramm, (Haw Communication Workes) , The Process and Effects of Mass Comunication, University of Illinois Press Urkana, 111 1955. P.3.

(2) Ibid., P.4.

(٣) وليام ل . ريفرز وتيودور بيترسون وجاى و . جنسن (ترجمة الدكتور إبراهيم إمام) : وسائل الإعلام والمجتمع الحديث - القاهرة ١٩٧٥ .

الإنسانى والعملية الاجتماعية . بل إن الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية ، وهو الذى يجعل التفاعل بين الجنس البشرى ممكناً ، ويمكن الناس من أن يصبحوا كائنات اجتماعية . وفى عملية الاتصال « نهدف إلى إحداث تجاوب مع الشخص المتصل به . وبعبارة أخرى نحاول أن نشاركه فى استيعاب المعلومات أو فى نقل فكرة أو اتجاه »[٢] .

ووفقا لما ورد بقاموس ويبستر عن تعريف الاتصال ، نجد أنه يمثل « عملية يتم فيها تبادل المفاهيم بين الأفراد ، وذلك باستخدام نظام الرموز المعروفة » . فالاتصال يتضمن تفاعلات متبادلة ، أولها يتمثل فى **إرسال واستقبال الرسائل** ، وثانيها فى **تحرير وفهم** تلك الرسائل ، والثالث فى المشاركة والتناغم مع أفكارها . وهذه التفاعلات يمكن تشبيهها بالمراحل المتداخلة التى تتضمنها الهندسة وعلما النفس والاجتماع ، فمن الناحية الهندسية نجد الوسائل يقصد بها إرسال واستقبال الإشارات . وهكذا ، على نحو ما يفصله أرفنج لوج وغيره من العلماء .

وإذا حللنا عملية الإعلام فى الاتصال بالجماهير وجدنا أنها تشتمل على خمسة عناصر رئيسية هى [١] : **المرسل** الذى يصوغ فكرته فى رموز معينة ، ويبعث بها إلى **المستقبل** الذى يفك هذه الرموز ويفسر معناها ، ثم يستجيب لها معبراً عن رده أو انطباعه برسالة جديدة يصوغها فى رموز ، ويبعث بها إلى المرسل الأول الذى يستقبلها ويحل رموزها ويستجيب لها . وهكذا تدور دورة الاتصال وتشكل أهم خصائص المجتمع المتفاعل .

والواقع أن عملية الإعلام تجرى فى سلسلة ذات حلقات متماسكة ويؤدى ضعف أى حلقة فيها إلى ضعف السلسلة كلها . فالمرسل والمستقبل والرسالة ووسيلة الإعلام حلقات متصلة متكاملة فى عملية الإعلام .

فالمصدر أو المرسل أو المحرر ، ينبغى – كما يقول ابن وهب [٣] – أن يكونوا « أصح ديانة وأكمل أمانة ، وأظهر صيانة ، لأنهم مأمونون على الدماء والأموال »

(1) Wilbur Schravam, ed., The process and Effects of Communication (1960) p.3.

(٢) دكتور إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن وهب (تحقيق الدكتور أحمد مطلوب) : البرهان فى وجوه البيان بغداد ص ٤١٧ ، ٤٢٠ .

وهو يقول هذا الكلام فى صدد حديثه عن « صاحب الخبر » فى الحضارة الإسلامية ، حيث يمثله بأنه « عين الوزير أو (المجتمع) التى ينظر بها فى رعيته ، ورائده فى مصالح من تحت يده . فليس ينبغى أن يتقدمه أحد فى الصدق والثقة والأمانة غير القضاة ومن جرى مجراهم « ومتى نصّب الوزير لرفع الأخبار من يخالف هذه الصفة ، فقد غشّ نفسه ، وأضاع الحزم فى سياسته ، وخان الأمانة فى رعيته .... وعلى الوزير أن يوسع على صاحب الخبر فى رزقه ويشترى بذلك دينه وأمانته ، ويعلمه أنه إنما فعل ذلك به من بين نظرائه ، لئلا تشره نفسه إلى أموال الرعية ، ولا يحتاج إلى استئكالها والتكسب منها » .

وقد عنى الباحثون المحدثون بدراسة هذا العنصر فى عملية الإعلام ، ويرجع الفضل إلى عالم النفس النمساوى الأصل الأمريكى الجنسية « كرت لوين » فى تطوير ما أصبح يعرف بنظرية الحاجب الإعلامى Gatekeeper ، حيث تصل المادة الإعلامية إلى الجمهور فى رحلتها الطويلة عبر نقاط أو « بوابات » يتم فيها اتخاذ قرارات بشأن ما يدخل وما يخرج ، وكلما طالت مراحل رحلة الأخبار حتى تظهر فى إحدى وسائل الإعلام ، ازدادت المواقع التى يصبح فيها من سلطة فرد أو عدة أفراد تقرير ما إذا كانت الرسالة ستنتقل بنفس الشكل أو بعد إدخال بعض التعديلات عليها . لذلك نؤثر تعريب هذا المصطلح « بالحاجب الإعلامى » وليس « بحارس البوابة » كما يحب بعض الفضلاء ، لأن الدلالة العربية لكلمة « الحاجب » تقربنا من المفهوم الحديث ، فالحاجب كما يقول ابن وهب :

« هو المؤتمن على الأعراض ، وأداء الأمانة فى الأعراض أوجب منها فى الأموال ، لأن الأموال وقاية للأعراض » فكذلك ينبغى لوسائل الإعلام أن تجعل « حجابها » ممن صحت عقولهم « وغريزتهم ، وحسن خلقهم ، ولانت كلمتهم » وهؤلاء « الحجاب » هم الإعلاميون العاملون فى الوسائل المختلفة ، ذلك أن الرسالة تمر بمراحل كثيرة وهى تنتقل من المصدر إلى المستقبل ، ومن أجل ذلك عنيت الدراسات الحديثة بتناول تأثير الظروف المحيطة برجال الإعلام ، وتأثير النواحى المهنية عليهم ، والجوانب الفنية والمادية لعملهم [(١)] .

---

(١) انظر : د . جيهان رشتى : الأسس العلمية لنظريات الإعلام ١٩٧٥ .

والمرسل فى نموذج الإعلام الإسلامى ، يجب أن يختار بعناية – كما يقول ابن وهب [١] – حتى « يكون أفضل فى عقله ، وضبطه ، وأدبه ، وعارضته ودينه ومروءته . فقد كان يقال « ثلاثة يدل على أهلها : الهدية على المهدى ، **والرسول على المرسل** ، والكتاب على الكاتب » . وكان يقال : « رسول الرجل مكان رأيه وكتابه مكان عقله » . وكذلك جعل الله عز وجل – رسله أفضل خلقه ، وأخبر أنه اصطفاهم على العالمين ، فقال فى سورة الأنعام (الآية ١٢٤) : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

وعلى المرسل أو الرسول فى عملية الإعلام أن « يؤدى ما حمل – كما قال الله عز وجل : – ﴿ فإنما عليه ما حمّل ﴾ (سورة النور ٥٤) وكما قال : ﴿ **فهل على الرسل إلا البلاغ المبين** ﴾ . (سورة النحل ٣٥) . وإنما وجب عليه البلاغ ، لأن الرسالة أمانة ، فعليه تأديتها ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ (سورة النساء ٥٨) . وليس للرسول أن يزيد فى الرسالة ، ولا أن ينتقص منها ، لأن ذلك خيانة للأمانة ، إلا أن يكون المصدر فوض إليه أن يتكلم عنه بما يرى ، فقد قال الشاعر :

وإن كنت فى حاجة مرسلا   فأرسل حكيماً ولا توصه

ويذهب ابن وهب إلى أن المرسل – المصدر « عليه أن يتخير من الرسل من لا يكون فيه من العيوب التى يذكرها وهي : الحدة والحسد والغفلة والعجلة » فإن صاحبها يضع الأشياء فى غير مواضعها ، ويسبق بها أوقات فرصتها . وقد قيل : « ربُ عجلة تهب ريثا » .

وفى كتابنا الكريم آيات ينبغى أن يتمثلها المرسل فى الإعلام الحديث لما ترسمه من مثل عليا . قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ : (سورة النحل آية ١٢٥) فالإعلام يقوم فى الأصل على الإقناع ، والنظرية الإسلامية فى الإعلام تنهى عن الإكراه ، قال تعالى : ﴿ **وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مُريب . فلذلك**

---

(١) نفس المرجع ص ٣٢٠ .

فادعُ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأمرتُ لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ (سورة الشورى آية ١٤ — ١٥) .

﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصيرٌ بالعباد ﴾ (سورة آل عمران آية ٢٠) .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ۞ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾
(سورة آل عمران آية ١٠٣ — ١٠٤)

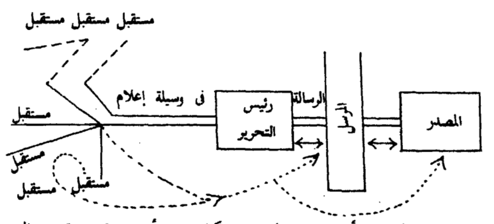
﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إنْ عليكَ إلا البَلَاغ ﴾ .
(سورة الشورى آية ٤٨)

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ (سورة سبأ : آية ٢٨) .

كما نص القرآن الكريم فى آيات كثيرة على الأخلاق التى يجب أن يتميز بها رجل الإعلام بوجه عام ، والتى يتميز بها الرسول الكريم ﷺ ، بوجه خاص ومن هذه الأخلاق : الصبر وحسن المعاملة والجدل بالتى هى أحسن والإعراض عن الجاهلين والمنافقين والبعد عن الغلظة قال تعالى :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (سورة آل عمران آية ١٥٩) .

فإن تمتع المرسل فى عملية الإعلام بهذه الأخلاق الحميدة ، وكان إلى جانب ذلك متمتعا بمهارات اتصالية إعلامية بلغ لوسائل الإعلام مرادها فى الاتصال . حيث تنتقل الرسالة الإعلامية من المصدر إلى الجماهير خلال المرسل ووسيلة الاتصال التى يهيمن عليها المسئول كرئيس التحرير مثلا ، لكى يتلقاها بعض الناس مباشرة ، أو يتلقاها بعض القادة وحاملو المعلومات ، لنقلها إلى أصدقائهم أو أتباعهم على النحو التالى :



فلابد للمرسل أن يضع رسالته فى شكل معين أو صيغة معينة من الرموز اللغوية ، ومن الطبيعى أن تحتاج هذه الكلمات إلى أجهزة نقل أو وسائل إعلام كالصحف والإذاعات والتليفزيون والسينما لكى تنتشر بسرعة ، ويتوقف ذلك بطبيعة الحال على مدى التناغم بين المرسل والمستقبل ، فإذا كان المرسل ضعيفاً فى استخدام الرموز اللغوية والتعبير بها ، أو ليست لديه المعلومات الكافية عن موضوعه ، فإن ذلك يؤثر على الاتصال . وإذا لم تحرر الرسالة بالطريقة الفعالة ، فإنها تقف فى سبيل نجاح الاتصال ، وعنصر « الرسالة » فى عملية الإعلام هو العنصر المحورى فى دراستنا للتحرير الإعلامى بوجه عام ، وفى دراستنا لعلاقة الإعلام باللغة بوجه خاص . وهو عنصر غير منفصل كما يبين مما تقدم عن بقية العناصر الأخرى ، ولكنه وثيق الصلة بالمرسل والمستقبل ومعرفة الهدف وفعالية وسيلة الإعلام ، وقدرة القارىء أو المستمع أو المشاهد على تلقى الرموز اللغوية . ومن أجل ذلك نجد أن نماذج عملية الإعلام تستهدف المعاونة فى تحليل « الرسالة » للوصول إلى « فهم عملية الاتصال ، معنية بالإفادة من الحواس الخمس ، فى فهم وإدراك مضمون الرسالة »[١] .

وإذا كنا ندرك ارتباط الإعلام بالحياة ، فإننا نجد أن التأكيد فيه مواز من ناحية علاقة مهارات الاتصال بالحياة . وقد وجد من الدراسات الحديثة أنه يمكن معاونة المحرر الإعلامى على محاولة التأكيد على نواحى الاتصال الأكثر حاجة ،

(1) Erwin p. Bettinghaus' (The S-M-C-R. Model Communication), Research, Principles, and Practices in Visual Communication (Departwent of Audio Visual Instruction, National Education Associution, Associution, 1960). p. 32.

فالمحرر الكفء لا يغفل دور اللغة فى نظرية الإعلام ، كما لا يهمل إثارة الاهتمام لأنه يدرك أن القابلية على جميع المعلومات والمواقف ونقلها أمر حيوى لجمهور الوسائل الإعلامية على اختلافها ، وهذا الجمهور يحتاج إلى القراءة الدقيقة المتمثلة ، ويحتاج إلى المشاركة فى الكلام المذاع . وليس فى مقدور رجل الإعلام أن يخترع المعجزات عند استخدام أسلوب الاتصال ، إلا أن عليه أن يفهم هذا الأسلوب فهماً صحيحاً ، وينبغى أن يكون كالمدرس من حيث مساعدته للجمهور على فهمه أيضا ، كما ينبغى أن يؤكد على التعاون فى الإتصال كما هى الحال فى المناقشة كذلك . فمن الواضح أننا نتصل ببعضنا البعض عن طريق الكلمات .

وإذا كانت « الوسيلة هى الرسالة » كما يقول « ماكلوهان » فإننا نقول بتحديد أكثر إن « اللغة هى الوسيلة » وهذا يعنى أن النتائج الفردية والاجتماعية لأية وسيلة من وسائل الإعلام تتوقف على تغير المقياس اللغوى الذى تحدثه كل تكنولوجيا جديدة ، ومن أجل ذلك يذهب « ماكلوهان » إلى أن « مضمون » أى وسيلة هو دائما وسيلة أخرى . فمضمون الكتابة هو الكلام ، وعلى نفس النحو فإن الكلمة المكتوبة هى مضمون المطبوع ، والمطبوع هو مضمون التلغراف . والواقع ، أنه من مميزات وسائل الإعلام أن مضمونها يخفى طبيعتها ، ولذلك فإن منهج دراسة الوسائل لا ينظر فقط إلى « المضمون » بل إلى الوسيلة فى ذاتها ، وإلى القالب الثقافى الذى تعمل فى داخله .

ومن أجل ذلك اشتد الإحساس بالحاجة إلى لغة فنية جديدة أو بلاغة جديدة بعد ظهور السينما الصامتة ، كما يقول الدكتور يونس : « إذ كان من المفروض أن يتحول المسموع إلى منظور ، وأن يستغنى المتذوق عن الكلام ، بما يشاهده من الإشارات والحركات من الصور ومن الرموز ... ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد أحس القوامون على الصورة المتحركة الصامتة ؛ بأن جماهير المشاهدين لا يقنعون بالمنظور على هذا النحو ، وكان من الضرورى أن تتوسل البلاغة الجديدة المنظورة بالكتابة ، فسجل الحوار لكى يستكمل المتذوق متعته من هذه البلاغة الجديدة » .

ويقول الدكتور يونس : « إن الإحساس بوطأة الصورة الصامتة واقترانها بالكلام المدون قد خف ، عندما تم التزاوج بين الصورة والصوت ، وظهرت السينما

الناطقة ، وتحول تسجيل الصورة من الأشكال والرموز والحركات والإمارات الدالة بذاتها على المشاعر والمواقف ، إلى اتجاه شبه واقعى ، لأن الفن الجديد يتوسل بالصوت والصورة معا . ولم يعد المتذوق فى حاجة إلى القراءة ببصره ، ولم يعد كذلك مطالباً بينه وبين نفسه بتفسير لتفاصيل الحركة ، واستحدثت الإذاعة اللاسلكية آثاراً « حاسمة أيضا فى عالم الفنون ، وغيرت من مناهج البلاغة والتقويم ، وأصبحت كالسينما تعتمد على أساليب خاصة فى الكتابة إليها ، مع فارق واضح بينها وبين الصورة المتحركة الناطقة ، من ناحية الجماهير التى تفيد من البلاغة الجديدة ، ذلك لأن السينما تشبه المسرح ، من حيث إن الجمهور يحتشد فى صعيد واحد ، لتلقى الفن والتفاعل معه ، أى أن العقلية الجماعية تتغلب إلى حد ما على العقلية الفردية ، ويقتضى ذلك توقيتا محكما للعروض ، كما يقتضى إطاراً معينا وسياقا زمنيا ، لا ينبغى تجاوزه إلا بالحد المعقول . أما الإذاعة فالمستمعون إليها فرادى ، ولو اجتمعوا ، ففى أماكن اختاروها ولم تفرض عليهم » ومعنى هذه الحقيقة ، كما يذهب إلى ذلك الدكتور يونس ؛ أن « الفرد تغلب عليه عقليته ، ولا يذوب تماماً فى العقلية الجماعية لجمهور المشاهدين ، ولذلك يتسم الحديث الإذاعى بأنه موجه إلى أفراد ... إنه يختلف عن الخطبة ، ويختلف عن الحوار فى المسرحية أو الفيلم ، مع الاعتراف بمقتضيات التحول من بلاغة لها قواعدها وأصولها إلى أخرى لها شخصيات أخرى » .

والتليفزيون يعتمد على ما يسمى بالشاشة الصغيرة ، وهو « يجمع المسموع إلى المنظور ، ويستغل الصورة والصوت ، وأنه يفضل الإذاعة من هذه الناحية ، ويشبه السينما من ناحية المنهج ، ولكنه يختلف عنها فى أن ما يعرض يقدم إلى الناس حيث هم ، فينتقل إليهم ، ولا يكلفهم مشقة الانتقال إليه » ، وهو يوجه إلى الأفراد فى إطارهم الاجتماعى والقومى ، ولكنه بحكم ارتكازه على المنظور فى المقام الأول ، يقتضى من المتلقين له موقفاً سلبياً ، فهو ليس كالراديو ينقل الثقافة حتى للعاملين فى المصانع والمزارع والدكاكين ... إنه يتطلب استغراقاً كاملا أو شبه كامل ، لتتم الإفادة من عروضه . والتليفزيون على خطره ومكانته – كما يذهب إلى ذلك الدكتور يونس أيضاً – قد حول الناس من الحركة إلى السكون ، إلا أن الإذاعة والتليفزيون ينتميان إلى عائلة وسائل الإعلام السمعية والبصرية ، بمعنى أنه فى استطاعة الاثنين أن يرسلا أصواتاً وصوراً تحمل رسائل متنوعة الأشكال هادفة إلى الكثير من الأغراض .

وقد كان لاختراع الراديو الترانزيستور وانتشاره الواسع وبسعر زهيد نسبياً أثره الهام فى جعل استقبال برامج الإذاعة من السهولة بمكان حتى فى المناطق الفقيرة التى لا يوجد بها تيار كهربائى . وكما جاء فى أحد تقارير اليونسكو كان للسعر الزهيد الذى تباع به أجهزة الراديو الترانزستور أثره الفعال فى انتشار الردايو . أما فيما يختص بالتليفزيون فإننا نجد أنه قد بدأ يأخذ مكانه فى بيوت العالم وأخذت أجهزة الإرسال التليفزيونى تنتشر فى كل ركن من هذا العالم . ونجد أن البلاد الصناعية بها أكثر من شبكة تليفزيونية واحدة ، كما نجد أن سكان المناطق الآهلة بالسكان فى هذه البلاد المتقدمة يستطيعون أن يديروا مفاتيح أجهزتهم ليحصلوا على برامج خمس قنوات أو حتى عشر .

وأخذت النواحى الفنية فى الإرسال التليفزيونى تتطور ، وفى إطار الموجات الكهربائية الأرضية وباستخدام الإرسال العالى الذبذبات أخذ التليفزيون يزداد انتشاراً ، وتجوب الأجواء الآن أقمار صناعية إذاعية منها « الطائر المبكر » « مولنيا » و « انتلسات » وهذه الأقمار تقوم بإرسال البرامج الإذاعية والتليفزيونية داخل القارات وعبرها إلى قارات أخرى .

وإذا كان اختراع الإذاعة قد جذب اهتمام المفكرين مثل برناردشو ، فإن التطور المذهل فى وسائل الإعلام يقتضينا أن نؤصل البلاغة الجديدة ، من خلال دراسة طبيعة الجماهير التى تتلقى الإعلام ، والوحدات والأنماط التى تتألف منها ، وأن ندرك أن الكتابة ليست إلا وسيلة لتحويل المسموع إلى مرئى ، ثم إعادته بالاصطلاح أو الرمز إلى مرئى أيضا ، ومن أجل ذلك نقول إن « اللغة هى وسيلة الإعلام » أو المنهج الذى تنقل به الرسالة من المرسل إلى المستقبل ، فاللغة اللسانية ، والإشارات ، والصور ، والسينما كلها وسائل لنقل الرسالة .

كذلك فإن الحواس الإنسانية – التى تعتبر وسائل الاتصال والإعلام امتداداً لها تفرض – كما يقول « ماكلوهان » – تبعية محددة على طاقتنا الذاتية ، وهى التى تتحكم فى إدراكنا وفى تجارب كل منا .

الفصل الثانى

الإعلام ولغة الحضارة

على الرغم من ارتباط عنصرى التفكير والتعبير معا بقوة فى عملية التحرير الإعلامى ، فإن هذا لا يعنى — على ما يقول « هوايتهد » — أن اللغة هى جوهر الفكر وماهيته . فكثيراً ما تقصر اللغة عن التعبير عن الأفكار من ناحية وعن العواطف والانفعالات من الناحية الأخرى . ومن هنا لم تكن اللغة اللسانية هى وحدها التى يعرفها الإنسان وإنما هناك لغات أخرى غير كلامية تستخدم أيضاً فى التحرير الإعلامى .

وها نحن أولاء نتحول على التعرف عن الطبيعة الأساسية للإعلام ، من حيث ارتباطه بالتعبير والاتصال ، ونواجه مفهوم الإعلام وماهيته ، قبل أن نتعرف على لغة الحضارة ، التى تحقق فى مجملها إنسانية الإنسان فى إطار مجتمع كبير ، يصبح فيه الإعلام حامل العملية الاجتماعية ، ويمكن الناس من أن يصبحوا كائنات اجتماعية .

والإعلام — كمصطلح — يعنى : تزويد الناس بالأخبار الصحيحة ، والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة ، التى تساعدهم على تكوين رأى صائب فى واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ، بحيث يعبر هذا الرأى تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتها وميولها . ومعنى ذلك — كما يقول أستاذنا الدكتور إمام — إن الغاية الوحيدة من الإعلام هى الإقناع عن طريق المعلومات والحقائق والأرقام والإحصاءات ونحو ذلك . ويقدم « أوتوجروت » تعريفاً للإعلام يقول فيه : « الإعلام هو التعبير الموضوعى لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت » فالإعلام تعبير موضوعى وليس ذاتيّاً من جانب الإعلامى سواء كان صحفيّاً أو إذاعيّاً أو مشتغلا بالسينما والتليفزيون .

كما أن الإعلام لا يعنى الاتصال بكل الناس ، وإنما كما يقول ريفرز وزميلاه —

ينطوى على اختيار الفئات – الجماعات أو الجماهير الخاصة التى يمكن أن تكون كبيرة تماماً من حيث العدد – داخل الجماهير ... وتتلاقى وسائل الإعلام مع الجماهير ، عن طريق عملية اختيار متبادل . وتميل وسائل الإعلام لاختيار جماهيرها ، أساساً ، عن طريق المضمون . وتميل الجماهير أيضاً إلى الاختيار من بين وسائل الإعلام على أساس المضمون أيضاً ، ويمكن أن يختلف الجمهور الذى تجتذبه وسيلة إعلام ما ، اختلافاً تاما عن الجمهور الذى يجتذبه وسيلة أخرى ، ومع ذلك ، فمن الواضح ، أنه قد يوجد الكثير من التداخل بينهما . ويضم التليفزيون من بين عشاقه ، كثيرين ممن لم يقلبوا صفحات كتاب أبداً ، ناهيك بامتلاكه . وللصحف قراء ، نادرا ما شاهدوا فيلماً سينمائياً . والمجلة العادية مثلا ، تستهدف مجموعة من القراء تتصف ببعض التجانس من بين السكان كافة ، وهم القراء الذين يشتركون فى المهنة أو الاهتمام أو الذوق .

وإذا كان لفظ « الإعلام » قد شاع فى حضارة العصر ، فإن ذلك لا يعنى أن الإعلام فن مستحدث ، وإنما هو كظاهرة اجتماعية يضرب بجذوره فى جميع مراحل تطور البشرية متطوراً معها ، مجدداً فى وسائله ، محققاً لأهدافه النابعة من احتياجات الجماعات البشرية ، فلا يزال الرجال والنساء – كما يقول « شرام » – يحيون أصدقاءهم فى الشارع ، ولكن أصبح من المألوف أيضاً أن يحيى المرء صديقاً بعيداً بالبريد أو التلغراف أو التليفون . وأن يوجه زعيم وطنى تحياته للسكان جميعاً عن طريق الإذاعة . ولا يزال الناس يعقدون الصفقات ولكن نشأ حول نظام المقايضة القديم إعلام ضخم معقد للشراء والبيع وللإعلان .

وإذا كانت الوظيفة هى التى تخلق العضو ... فإن الوظائف الإعلامية هى التى خلقت ما نسميه « بالأجناس الإعلامية » ، حيث لم تتغير هذه الوظائف على مر القرون فيما بين الثقافة القبلية وحضارة العصر ، وإنما – كما يقول « شرام » – : برزت مستحدثات وهياكل لتكبير هذه الوظائف ومد نطاقها ... نمت « الكتابة » حتى يحتفظ المجتمع برصيده من المعرفة فلا يضيع فى اعتماده على الاتصالات الشخصية أو على ذاكرة الشيوخ . ونما فن « الطباعة » حتى تضاعف الآلة ما يكتب الإنسان أرخص وأسرع مما يستطيع الإنسان نفسه أن يفعل .

والدور الذى قامت به « الكتابة » و « الطباعة » فى سبيل البحث عن

الحقيقة – كما يذهب إلى ذلك « فندريس » – وهما كما هى الحال فى اللغة ، خليط من اختراعات عديدة قد حوكيت وتنوقلت وطبعت بالطابع الاجتماعى – فالكتابة قد خلقت أشياء متكلمة ، والطباعة أكثرت من عددها إلى غير ما حد وخلدتها . وهكذا أمكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت ، ولكن كثيراً ما ينتهى التفكير المجرد إلى سراب وإلى الابتعاد عن الجادة . فالفكر فى هذه الحالة يجول فى « عالم غير مخلوق يرجع إلى عهد الإنسان البدائى » عالم الأفكار الذى هو أيضا عالم الألفاظ .

وطورت الآلات فيما بعد حتى لا يتقيد ما يمكن أن يراه الإنسان بالمكان أو الزمان ، وبتعبير « شرام » : اكتشف المجتمع فيما بين أيام القبيلة وعهد الحضارة العصرية ، كيف يشارك فى الإعلام وكيف يخزنه متخطياً بذلك المكان والزمان ليصون التاريخ من الضياع وليزيد كمّ المجتمع الفعال من العشرات إلى الملايين .

ليس فى الإمكان إذن – كما يقول « شرام » – أن نتخيل مجتمعاً متحضراً عصريّاً يستخدم نمط التبادل الإعلامى الذى كان يستخدمه المجتمع القبلى ، كما أنه ليس فى الإمكان أن نتخيل قبيلة بدائية تستخدم النوع الذى يستخدمه مجتمع عصرى . فلكل مرحلة من مراحل المجتمع مرحلة الاتصال المناسبة لها ، وهنا نتلمس العلاقة الوثقى بين الإعلام ولغة الحضارة من خلال استقراء التاريخ الإنسانى .

فالإعلام فن حضارى بالضرورة ، يتصل بأسباب الحضارة ، وينتشر أكثر ما ينتشر فى المناطق الحضرية ؛ فالبيئة القروية أو القبلية المحدودة – كما يقول الدكتور إمام – تكتسب فيها المعرفة بالتجربة المباشرة والشخصية ، ولا يحتاج الأمر لأى وسيلة من وسائل الإعلام الحديثة ، على النحو الذى تقتضيه طبيعة نمو المجتمع ، وتنوع تخصصاته ، وتعقد مشكلاته ، حيث يغدو فن الإعلام ضرورة حتمية ، تبعد كل البعد عن الخبرة الفردية المباشرة . ثم لا يلبث هذا المجتمع المتحضر أن تظهر فيه فنون وعلوم وتخصصات بالغة التجريد والتعقيد ، فيصبح الإعلام حلاً لصياغة المعرفة بطريقة عملية واقعية . وهنا يقول الكاتب الأمريكى المشهور « والترليبان » : « إن المجتمع الحديث لا يقع فى مجال الرؤية المباشرة لأحد ، كما أنه غير مفهوم على الدوام ، وإذا فهمه فريق من الناس فإن فريقاً آخر لا يفهمه » . وهكذا تغدو لغة الإعلام لغة

حضارية تسعى للشرح والتفسير والتكامل .

ذلك أن لغة الإعلام واحدة من أهم مذاهب صوغ العالم . فاللغة – كما يقول « كندراتوف » هي وسيلتنا الأساسية لنقل المعلومات فى المجتمع البشرى . وهى تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك إذ يمكنها أن تصوغ العالم ، ولذلك لا نبالغ حين نقول إن لغة الإعلام هى التى تصوغ الحضارة أو بمعنى آخر على سبيل المجاز ، وعلى حد تعبير « كندراتوف » أيضا أنها بمثابة منشور تحليل الطيف الذى ننظر إلى العالم وحضارته من خلاله .

على أن اللغات المتباينة تعكس العالم الذى حولنا على نحو مختلف ، ولذلك يذهب « ورف » إلى أن المرء يتعلم لغته منذ طفولته المبكرة ، حيث يبدأ فى إدراك العالم من خلال إطار لغة الأم . ومهما يكن العالم الذى حوله غنيّاً ومتنوعا فإنه لن يرى ويدرك إلا تلك الظواهر التى لها مسميات فى اللغة . إن لغة الأم تحلل لنا العالم وحضارته وفق طريقتها الخاصة وتفرض علينا جميعاً هذا الطراز من التحليل وإدراك العالم . ويقول الألمان « صوغ العالم فى كلمات » .

وتتلخص فكرة « ورف » فى أن الناس لا يعيشون فقط فى نطاق عالم الأشياء الذى يحيط بهم وفى نطاق الحضارة والحياة الاجتماعية ، بل يعيشون أيضاً فى نطاق عالم لغة الأم . إننا نبنى حضارة عصرنا وفق « عالم اللغة » . وكل لغة ، على حد تعبيره هو ، تتضمن بالإضافة إلى مفرداتها وجهات نظر وأحكاماً مسبقة ضد وجهات نظر أخرى . وليس هذا كل شيء . إذ تخضع اللغات لأطوار من التغير منها تغيرات تطرأ على العالم الذى يحيط بمتكلمى تلك اللغة . وكى نكون أكثر دقة وتحديداً ، فإن العالم يبقى كما هو من الناحية الفيزيائية ، ولكنه يصبح عالماً آخر مغايراً فى الوعى البشرى .

ولكن هل هذا الفرض الذى طرحه « ورف » فرض صحيح ؟ هل كان على صواب حينما قال إن كل لغة لها ميتافيزيقا خاصة بها ؟ هل تؤثر اللغة على التفكير ؟ .

واضح – كما يقول « كندراتوف » أنها تؤثر فعلا ، بيد أنها تؤثر على تكنيك التفكير « أسلوبه » دون جوهره ، فجوهر الفكر أنه انعكاس للواقع الموضوعى ....

للواقع الحضارى .... وهدف اللغة هو « التواصل » أى نقل المعلومات عن الواقع ، أى نقل الرسائل .

ويذهب علماء النفس إلى أن الطفل يبدأ فى إدراك العالم المحيط به حتى من قبل أن يكون هناك أى « تفكير لغوى » يدور فى ذهنه . وأخيراً وبعد أن يتعلم الطفل الكلام يبدأ فى استخدام لغته ليسمى خبرته الحسية المكتسبة بمسميات لغوية . فالأشياء تسبق الكلمات لا العكس . لقد كان « ورف » محقًّا حين قال إن اللغة تؤثر على تفكيرنا فى ظروف معينة ، ويضيف « كندراتوف » إلى ذلك أنها تؤثر على نمط التفكير لا جوهره ، وبالتالى فإنها تؤثر على سلوك الناس . ولكن « ورف » نسى حقيقة أخرى أكثر أهمية وهى أن الفكر يتأثر بالواقع أى يتأثر بالخبرة العملية للبشر أو بالحياة والحضارة . إن الواقع الموضوعى الحضارى والحياة هما فى نهاية الأمر اللذان يلعبان دوراً رئيسياً وليست اللغة .

والإعلام هو التعبير الموضوعى عن الحضارة والحياة ، فوسائله هى المضاعفات الكبرى ، وكما استطاعت الآلة فى الثورة الصناعية أن تضاعف القوة البشرية مع أنواع الطاقات الأخرى ، كذلك تستطيع أجهزة الإعلام الآلية فى ثورة الاتصال أن تضاعف الرسائل الإنسانية إلى درجة لم يسمع عنها من قبل . ويبين لنا « شرام » كيف أن وجود وسائل الاتصال الجماهيرية يحدث فارقاً له دلالته فى مستوى الإعلام حتى بين أولئك الذين لا يستطيعون قراءة الكلمة المكتوبة والذين لا تيسر لهم الوسائل الإلكترونية .

لقد ظل الإعلام طوال تاريخه كله فعالا فى محاربة التميز ، على حد تعبير شرام : « فدلالة تنمية الطباعة فى القرن الخامس عشر ليست فى أنها حولت الثقل الذى ظل قرونا طويلة على الاتصال المنطوق المباشر ، حولته إلى الاتصال البصرى المنسوخ على نطاق واسع – لم تفعل ذلك فحسب – بل مدت ، وهو الأهم ، نطاق المعرفة فلم تعد مقصورة على حفنة من المحظوظين . وأصبحت أداة الطباعة ما بين يوم وليلة أداة للتغيير السياسى والاجتماعى . الثورات التى اندلعت فى أوربا وشمال أمريكا ، لولا الطباعة لربما ظلت فى طى العدم . والمدارس العامة كان من غير المحتمل ، إن لم يكن مستحيلا ، أن تقوم لها قائمة ، لولا الطباعة . وظهرت فى القرن التاسع عشر تطورات جديدة فى الاتصال الجماهيرى لتقدم الإعلام والمعرفة لجماهير الناس فوق رءوس

المحظوظين والخاصة من المتعلمين . الديمقراطية السياسية والفرص الاقتصادية والتعليم العام المجانى والثورة الصناعية والاتصال الجماهيرى تشابكت جميعها فى نسيج واحد لتحدث تغييراً عظيماً فى حياة البشر ومجتمعاتهم فى قارات عدة . والآن يتحول الثقل مرة أخرى بفعل المستحدثات الإلكترونية فى الاتصال ، نحو الاتصال الذى يستطيع المرء أن يرى فيه ويسمع الموصل . لقد هيأت هذه المستحدثات للدول النامية قنوات ذات طاقات تستطيع بواسطتها أن تصل إلى جماهير أكبر من أن تحصى وأن تخاطب الجماهير غير المحظوظة برغم عائق الأمية وأن تعلمها مهارات صعبة بأن « تريها كيف تصنع » وأن تكلمها بفعالية لا تقل عن فعالية الاتصال المباشر » .

ولأن لوسائل الإعلام هذه القدرة الاتصالية الفائقة ، فإن العلاقة بينها وبين الحضارة تجسدها اللغة تجسيداً عمليًا ، لأنها تعكس بطبيعة الحال حضارة الإنسان . فالحضارة – كما يقول الدكتور أحمد أبو زيد – « لا تنعكس فى شىء مثلما تنعكس فى الكلام واللغة ، بحيث يذهب بعض الكتاب إلى القول بأن كل ما يظهر فى لغة مجتمع من المجتمعات من نقص أو قصور هو دليل قاطع على مدى تخلف ذلك المجتمع فى ركب الحضارة . فالخبرة الإنسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس فى اللغة وتجد تعبيراً لها فيها ، سواء اتخذ ذلك التعبير شكل الكلام العادى أو الكتابة المعروفة أو الرسوم والنقوش التصويرية التى تركها الإنسان المبكر على جدران الكهوف أو حتى فى الإنجازات الفنية المختلفة من معمارية أو موسيقية أو حركية كالرقص والتمثيل الصامت ، ما دامت كلها تترجم فى آخر الأمر إلى ألفاظ وتصورات ومفهومات وما دامت تعبر عن مشاعرنا وأفكارنا وتنقلها إلى الآخرين . فاللغة حتى فى معناها الضيق الدقيق الذى يقتصر على الكلام والكتابة ؛ عنصر أساسى فى حياة البشر ، إذ بدونها يصعب قيام الحياة الاجتماعية المتماسكة المتكاملة وبالتالى يستحيل قيام الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من نظم اجتماعية وأنماط ثقافية وقيم أخلاقية ومبادىء ومثل ، بل وحياة مادية ومخترعات ، لأنها هى أداة التفاهم والإعلام اللذين هما أساس التعاون بين أفراد الجماعة » .

فكثيرون ممن يعيشون فى مجتمع تقليدى يرون صفة سحرية فى وسائل الإعلام

الحديثة عند لقائهم بها لأول مرة . وهم على حق – فهى سحر – كما قال إفريقى حكيم « لشرام » ؛ لأنها « تستطيع أن تأخذ الإنسان إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى عند الأفق ثم تجعله ينظر فيما وراءه » . وحتى عند زوال هذه النفحة السحرية فإنها تستطيع أن تعاون فى تحطيم قيود المسافة والعزلة وتنقل الناس من المجتمع التقليدى إلى « المجتمع العظيم » حيث تتركز العيون كلها على المستقبل .

وهذا يعنى افتراض وجود علاقة قوية بين الإعلام واللغة والحضارة ، ولقد درج الكتاب على الكلام عن « لغة الحضارة » [1] ، وكيف أن حضارة معينة بالذات تجد لها تعبيراً واضحاً وصادقاً فى ألفاظ ومصطلحات اللغة السائدة فى المجتمع الذى توجد فيه . فمفردات اللغة والأساليب والتصورات وبناء الجملة والتراكيب اللغوية والتشبيهات والاستعارات وما إلى ذلك فى المجتمع الصناعى الحديث الذى يتميز بتعقد نظمه الاجتماعية والاقتصادية وبشعور أعضائه بفرديتهم الذاتية تختلف اختلافاً جذريًّا عن مفردات اللغة وبنائها وأساليبها فى المجتمع البدوى القبلى الذى يعيش على الرعى والترحال والذى يرتبط الفرد فيه ارتباطاً وثيقاً بالجماعة القبلية التى ينتمى إليها بحيث تكاد شخصيته تفنى وتذوب تماماً فى تلك الجماعة .

ويذهب الدكتور أبو زيد إلى دراسة فكرة تتصل بموضوعنا من قريب ، وهى فكرة « حضارة اللغة » ، التى يشير إلى أنها مستعارة من عبارة عارضة وردت فى محاضرة للفيلسوف الرياضى الشهير « ألفردنورث وايتهد » ونشرها فى كتاب بعنوان « أنماط الفكر » . ويذهب الدكتور أبو زيد إلى أن ثمة حضارة معينة هى حضارتنا الإنسانية يرتبط وجودها ارتباطاً قويًّا باللغة بحيث يمكن القول إنه لولا وجود هذه اللغة لما قامت هذه الحضارة ، أو لظهرت حضارة أخرى من نوع مختلف عن حضارتنا المعروفة ، فالجنس البشرى يمتاز على بقية الكائنات العضوية الحية – بما فيها القردة العليا التى تعتبر أقرب هذه الكائنات العضوية إلينا – بالفكر واللغة ، وعلى الرغم من أن القردة العليا بالذات تعيش فى تجمعات يتميز بعضها بكبر الحجم ، وعلى الرغم من قدرتها على تعلم بعض الحركات ومحاكاة بعضها ، فإنها تفتقر إلى اللغة وإلى الحضارة بالمعنى الذى نفهمه من هاتين الكلمتين .

---

(١) دكتور أحمد أبو زيد : « حضارة اللغة » مجلة عالم الفكر الكويت أبريل ١٩٧١ .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فإن اللغة فى النظرية الإعلامية عامل من عوامل الحضارة ، ذلك أنها من أهم خصائص الإنسان ، فاللغة ، على حد تعبير الدكتور أبو زيد ، « أداة هامة من أدوات الحضارة وعامل أساسى فى نشأتها واستمرارها وتطورها ، وهناك بعض العلماء الآن يحاولون إثبات أن الشعوب التى تتكلم لغات مختلفة تعيش فى « عوالم من الواقع » مختلفة ، وأن اللغات التى يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة فى مدركاتهم الحسية وفى أنماط تفكيرهم ، وأنها بذلك وحسب تعبير « سابير » تكون هى العامل الأساسى فى توجيه الحقيقة الاجتماعية أو الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه الناس الذين يتكلمون تلك اللغات ، فالناس لا يعيشون فى العالم الموضوعى الخارجى وحده كما أنهم لا يعيشون فى عالم النشاط الاجتماعى فقط كما يظن الكثيرون من العلماء وإنما هم خاضعون لرحمة اللغة التى يتخذونها أداة أو واسطة للتعبير . فعالم الواقع أو الحقيقة يرتكز إلى حد كبير بطريقة لا شعورية على العادات اللغوية للجماعة ولا توجد لغتان متشابهتان تشابهاً كافياً بحيث تعتبران ممثلتين لنفس الحقيقة أو الواقع الاجتماعى ، فالعوالم التى تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متمايزة إذن وليست عالماً واحداً ألصقت عليه أسماء وعناوين مختلفة » .

على أن الإعلام يقوم بدور كبير فى تكوين الصور اللغوية ، الحضارية ، فكلما تحرك المجتمع التقليدى نحو العصرية فهو أيضاً يبدأ فى الاعتماد على الوسائل الجماهيرية . ونتيجة ذلك – كما يقول « شرام » إن حصة كبيرة من الآراء فيما يتعلق بالأشخاص ذوى الأهمية أو ذوى الخطورة وكذلك بالأشياء ، المهم منها وغير المهم ، تجىء بالضرورة عن طريق وسائل الإعلام . فالصحيفة والراديو والمجلة ، وهى تقوم « بدور الديدبان على التل ، يتعين عليها أن تقرر ما تبلغ عنه ، عملية الاختيار هذه – أى اختيار من تكتب عنه أو من تسلط الكاميرا عليه أو من تقتطف من أقواله أو ما تسجل من حوادث – هذه العملية تتحكم بدرجة كبيرة فيما يعرفه الناس ويتحدثون عنه » .

هذا أمر له دلالته بالنسبة للغة الحضارة فهو يعنى أن انتباه الجمهور يمكن أن يظل مركزاً على التحضر ، إذ يمكن أن يوجه الاهتمام من حين لحين إلى لفظ جديد ، أو سلوك حضارى ، أو مصطلح علمى ، أو إلى أسلوب يؤدى إليه التحول

العصرى . فوسائل الإعلام - كما يقول « شرام » أيضاً - بتوجيهها الانتباه إلى دلالات أو موضوعات من هذا النوع تستطيع أيضاً أن تتحكم فى بعض الدلالات التى يتم بشأنها الاتصال المتبادل بين الأشخاص .

ذلك أن عملية الاتصال الإعلامى ليست موقفاً ساكناً أو جامداً ، وإنما هى عملية دينامية ، بحيث تحتل اللغة فى مركب عناصرها الحضارية ، مكاناً ذا دلالة خاصة ، وهى تؤدى وظيفة ذات دلالة خاصة أيضاً ، فهى فى حد ذاتها نظام إعلامى ، وهى « الأداة الرئيسية التى تنتقل بها سائر تلك النظم الأخرى والعادات المكتسبة ، كما تتغلغل الألفاظ فى الصور ومضموناتها فى آن واحد ، وتتميز بتركيب خاص بها له قابلية التجرد باعتار اللغة « صورة » من - الصور . وذلك هو المعنى الواسع للغة ، فاللغة بهذا المعنى ، هى الوسيلة التى تتقمصها الثقافة فتبقى ، وعن طريقها تنتقل » [1] .

فعملية الإعلام ليست إلا عملية ترامز ، فهناك دائما مصدر يرسل الرموز بوسيلة من الوسائل ليستقبلها آخر فيحل رموزها ويفسرها . وفى كثير من الأحيان تصبح الرسالة الإعلامية حروفاً ميتة على الورق ، أو أصواتاً لا معنى لها ، عندما ينعدم الفهم وتكون الرموز غير مفهومة للمستقبل . يحدث ذلك أحياناً عند استخدام لغة مشتركة دون التزام بإطار دلالى حضارى موحد . فلكل جماعة ، بل لكل فرد مجموعة من التصورات والاتجاهات تتحكم فى سلوكه وفى نظرته للأشياء . فالإنسان يعيش فى عالمين : عالم خارجى موضوعى ، وعالم باطنى ذاتى هو مجموعة تصوراته للعالم الخارجى ، أو مجموعة المفاهيم والدلالات . ولا يستطيع الإعلامى أن ينجح فى تحقيق غرضه - كما يذهب إلى ذلك الدكتور إمام - إلا إذا عرف هذه العوالم الباطنية أو التصورات الخاصة أو الدلالات الحقيقية للأشياء فى ذهن المستقبل . ذلك أنه لكل فرد عالمه الخاص ، وتصوراته الذاتية ، المشتقة من بيئته وثقافته ، بما فيها وسائل الاتصال المختلفة .

فعندما يشاهد البدائى طائرة لأول مرة ، لا يستطيع أن يدرك كنهها أو دلالتها

(١) مجلة اللسان العربى ع ٣ ص ٥٤ الرباط ١٣٨٥ هـ

الحقيقية ، ولكنه لابد وأن يكوِّن لنفسه مدلولا على ضوء خبرته السابقة وفى حدود إطاره الدلالى Frame of reference ليفسر هذا الشيء الجديد على ضوئه ، فهو يحسبها مثلا – طائراً غريباً . والإنسان يميل بطبعه إلى تنظيم المدركات ، وخلع المعانى عليها ، وفقا لإطاره الدلالى ، أو مجموعة خبراته ومدلولاته السابقة . ولا يمكن للإعلامى أن ينجح فى أداء مهمته ما لم يعرف حقيقة الأطر الدلالية للجماعات والأفراد [١] .

وإذا نظرنا للإعلام نظرة شاملة ، وجدنا أنه يتغلغل فى كيان الحضارة ، وتتم عملية الاتصال على مستويات مختلفة من حيث استخدام اللغة والرموز ، فالاتصال يتوسل بثلاثة مستويات للتعبير اللغوى : .

أولها : المستوى التذوق الجمالى الذى يستعمل فى الأدب .

وثانيها : المستوى العلمى النظرى ويستخدم فى العلوم .

وثالثها : المستوى الاجتماعى الوظيفى الهادف الذى يستخدمه الإعلام بأجناسه المختلفة .

وهذه المستويات الثلاثة موجودة فى كل مجتمع إنسانى . والفرق بين المجتمع المتكامل السليم ، والمجتمع المنحل المريض هو فى تقارب المستويات اللغوية فى الأول ، وتباعدها فى الآخر ، على نحو ما يذهب إلى ذلك الدكتور إمام : « فتقارب مستويات التعبير اللغوية دليل على تجانس المجتمع ، وتوازن طبقاته ، وحيوية ثقافته . ومن ثم إلى تكامله وسلامته العقلية . فمن الثابت أن العصور التى يسود فيها نوع من التآلف بين المستويات الثلاثة ، هى غالباً أزهى العصور وأرقاها . أما إذا كان كل مستوى لغوى بعيداً كل البعد عن الآخر ، فهو دليل على الانفصام العقلى فى المجتمع وهذا يؤدي إلى التدهور والانحطاط ، والشيخوخة والانحلال » .

ويذهب الدكتور إمام ، ونحن نذهب مذهبه ، إلى أن لغتنا العربية فى حاجة ماسة إلى الإثراء الفكرى والحضارى ، والتقارب فى المستويات الفكرية . ويقتضى ذلك أن نستخدم اللغة العربية فى ميادين الحضارة الحديثة بعلومها المختلفة . ولكى تساير

---

(١) دكتور إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٧٣ .

اللغة العربية الحضارة الحديثة لابد أن تعبر عن الفكر الحديث ، وهى قادرة على ذلك ، بدليل تلك الكتب العلمية العديدة التى أخرجها الاتحاد السوفيتى أخيراً ، وعبر فيها باللغة العربية عن علوم الذرة والفضاء والصواريخ فضلا عن الطب والهندسة والفنون .

وتبعة ذلك تقع على وسائل الإعلام بالدرجة الأولى ، لأن لغتها فى مستواها العملى الاجتماعى هى لغة الحضارة .

الفصـل الثالث

الإعلام والفصحى المشتركة

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق: المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ..

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات ... كان الحزن على جميع الوجوه ... حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول ... ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة ... منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ..

« ولكن هذا الإخاء فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس ، لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان .

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر .

هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا اليائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة « هو المستقبل » .

ولم يكن عجيباً أن يكتب قاسم أمين هذا الذى كتب ... ولم يكن عجيباً – كما يقول الدكتور هيكل – أن يحرك مصر من أقصاها إلى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب ، ولو أن « التليفزيون » كان قد اخترع واستخدم أيامها ، لأحدثت وفاة

(١) جريدة التجارة فى أغسطس ١٨٧٩

مصطفى كامل ، ثم سعد زغلول من بعده ، دويًا هائلا فى العالم بأسره ، كما فعل التليفزيون فى وفاة الرئيس الراحل جون كيندى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث تتمتع الإذاعة المسموعة والمرئية بنوع من المشاركة مع الجمهور ، والاقتراب الشخصى ، والإحساس بالواقعية التى تقترب كثيراً من الاتصال الشخصى بالمواجهة .

ولكن قبل سنة ١٩١٩ كان الخطيب يتحدث إلى ذلك العدد من الناس الذى يستطيع أن يتجمع فى حدود الاستماع إلى صوته فقط ، فكانت ساحة مدرسة الجمعية الخيرية تغص « بالوافدين عليها وكان يزيد عددهم على ٥٠٠ مستمع فى كل اجتماع » فى محفل الخطابة الذى كان يقيمه النديم ليلة الجمعة من كل أسبوع يخطب فيه منبهًا الرأى العام :

« بنادينا خطابات المعانى نقدمها لأعيان البرايا
تأمل فتحت اللفظ معنى لتعلم كم خبايا فى الزوايا »

وإذا كان المحفل الخطابى يضم ٥٠٠ مستمع فى أواخر القرن الماضى ، فإن الإذاعة اليوم تستطيع أن تصل فورا إلى الملايين من الناس المنتشرين فى أماكن متنائرة ، من الكبار والصغار ، والمثقفين وقليلى الحظ من الثقافة ، والمتعلمين والأميين . والإذاعة كما يقول « Doob دوب » تتميز بقوة إيحائية لأنها وسيلة سريعة للنشر ، فهى تتفوق فى ذلك على الصحافة ومعظم وسائل النشر الأخرى ، وبذلك تنفرد الإذاعة بالسبق وأولوية النشر . وقبل الحرب العالمية الأولى ، لم تكن هناك أجهزة راديو فى البيوت المصرية ، ولكن اليوم — وفقا لآخر إحصاء عن سنة ١٩٧٠ — يوجد ٤,٠٠٠,٠٠٠ جهاز استقبال ، بمتوسط ١٣٢ لكل ألف ، وهو دون المتوسط فى العالم كلة بمائة جهاز لكل ألف . وفى السنوات الأخيرة أتاح التليفزيون للملايين مشاهدة الأحداث التى كان لا يراها فى الماضى سوى بضعة أشخاص ، على حد تعبير « ريفرز وزميليه » فى كتاب « وسائل الإعلام والمجتمع الحديث » ... ووفقاً لإحصائية ١٩٧٠ ، فإن فى مصر ٤٧٥,٠٠٠ جهاز استقبال بمعدل ١٤ جهازاً لكل ألف ، وفى البحرين ١١١ لكل ألف ، وفى العراق ٣٧ لكل ألف ، وفى الكويت ١٤١ لكل ألف ، وفى لبنان ٩٣ للألف وفى سوريا ١٩ للألف ، وفى

اليمن الديمقراطية ١٧ للألف . وترسل مصر أسبوعيًّا ١١٣ ساعة من ساعات الإرسال التليفزيونى ، والجزائر ٤٠ ساعة غير إرسال خاص لأندية الشباب والمدارس يصل إلى ٢٠ ساعة وترسل تونس ٤٣ ساعة ويصل الإرسال الخاص إلى ٢٦ ساعة وترسل سوريا ٥٥ ساعة والعراق ٣٨ ساعة والأردن ٤٤ ساعة والكويت ٥٠ ساعة وقطر ٢٩ ساعة .

أما الوسائل المطبوعة ، فجماهيرها تحصى بالآلاف الكثيرة أو الملايين بدلا من المئات ، وفى وقت من الأوقات ، كان الكتاب ينسخ فى صبر ، ولم يتوافر سوى للقلة القادرة ، واليوم فإن الإحصاءات العالمية – فى سنة ١٩٧٠ – تقول إنه فى كل دقيقة يصدر كتاب فى مكان ما من هذا العالم . ومعنى هذا أن إنتاج العالم من الكتب – كما يقول الأستاذ عبد المنعم الصاوى – تجاوز نصف المليون كتاب فى ذلك العام . وحين تشير الإحصاءات إلى الكتاب فهى لا تعنى نسخ الكتاب ولكن تعنى عنوان الكتاب ، دون حساب لما يطبع منه من نسخ ، أما فى مصر فإننا نصدر كتاباً كل أربع ساعات كل يوم من أيام السنة ، وبهذا تكون النسبة بيننا وبين العالم هى نسبة الدقيقة ، وهى دقائق الأربع ساعات وهى نسبة تمثل ٠.٤٪ من إنتاج العالم . فإذا كنا نمثل ١٪ من سكان العالم تقريبا ، فمن باب الإنصاف أن نصدر قرابة ثلاثة أضعاف ما نصدره من الكتب . ذلك أن الإنتاج المصرى من الكتب يمكن توزيعه على المواطنين بمعدل ٦٠ كتابا لكل مليون وفى أوربا يتجاوز الـ ٥٠٠ كتاب لكل مليون وفى أمريكا يتجاوز الـ ٢٥٠ لكل مليون وفى الاتحاد السوفيتى يتجاوز الـ ٣٢٠ لكل مليون . ولو أخذنا المعدل العالمى فسنجده يتجاوز الـ ١٥٠ كتاباً لكل مليون فى حين لا نزال ننتج ٦٠ كتابا لكل مليون .

والصحف ، التى كانت لا تستهدف إلا القلة المثقفة ، تصل الآن إلى كل شخص تقريباً ، فيما عدا صغار السن . وفى مصر ١٥ صحيفة توزع ٧٧٢,٠٠٠ نسخة بمعدل ٢٣ للألف – الجزائر ٤ صحف توزع ١٨٥,٠٠٠ نسخة بمعدل ١٤ للألف والمغرب ١٤ صحيفة توزع ٢٤٣,٠٠٠ نسخة بمعدل ١٦ للألف – ولبنان ٥٢ صحيفة توزع ١٨٠,٠٠٠ نسخة بمعدل ٧٧ للألف – والكويت ٥ صحف توزع ٢٨,٠٠٠ نسخة بمعدل ٣٥ للألف – والسعودية ٥ صحف توزع ٥٦,٠٠٠ نسخة بمعدل ١٠ للألف – واليمن ٦ صحف توزع ٥٦,٠٠٠ نسخة بمعدل ١٠ للألف .

وتقول إحصائيات الدوريات التى تصدر من مرة إلى ثلاث مرات أسبوعيًا ، والتى تصدر فى فترات أقل ، ولكنها منتظمة الصدور إن فى مصر ٢٨ دورية توزع ٦٣٥٫٠٠٠ بمعدل ١٩ للألف ــ الجزائر ٦ دوريات توزع ١٢٨٫٠٠٠ بمعدل ١٠ للألف المغرب ٥٢ دورية توزع ٢٥١٫٠٠٠ بمعدل ١٨ للألف ــ الكويت ٩ دوريات توزع ٤٤٫٠٠٠ بمعدل ٦٢ للألف ــ لبنان ٤٦ دورية ــ السعودية ٥ دوريات توزع ٣٨٫٠٠٠ بمعدل ٥ للألف ــ اليمن الجنوبية ١٤ دورية توزع ٩٫٠٠٠ بمعدل ٨ للألف . وهناك دوريات أخرى متخصصة تقول الإحصاءات إن فى مصر منها ١٩٢ دورية متخصصة توزع ١٫١٩٢٫٠٠٠ ــ الجزائر ١٠٩ توزع ٢٣٨٫٠٠٠ ــ المغرب ٢٨ توزع ٦٣٫٠٠٠ ــ الكويت ١٥ ــ لبنان ٣٢٣ ــ السعودية ١٠ توزع ٤٣٫٠٠٠ ــ اليمن الجنوبية ٨ توزع ٨٠٠٠ .

وقد حرصت الإحصاءات على تصنيف الدوريات موضوعيا ، وفيها أن فى مصر ١٫٢٩٢٫٠٠٠ نسخة ١٩٢ دورية توزع ، وتصدر فى الموضوعات التالية :

عام	٢٢	وتوزع	٢٦٧٫٠٠٠
فلسفة وعلم نفس	٤٩	وتوزع	١١٠٫٠٠٠
فنون عسكرية	٤٧	وتوزع	٢٢٤٫٠٠٠
زراعة	٤١	وتوزع	٢٣٦٫٠٠٠
ألعاب رياضية	١٤	وتوزع	١٠١٫٠٠٠
أدب	١٣	وتوزع	٧٢٫٠٠٠
أطفال	٥	وتوزع	١٧٥٫٠٠٠

وقد تطورت السينما ، فى حدود ذاكرة الأشخاص الأحياء حتى الآن ــ كما يقول « ريفرز » من « طرفة غريبة » لا يشاهدها إلا عدد قليل ممن يستطيعون دخول قاعات العرض إلى وسيلة يشاهدها عدد كبير من الناس . فى الإحصاء عن سنة ١٩٦٩ أن فى مصر ١٦٥ داراً لعرض الأفلام مقاس ٣٥ مم ، ودارين لعرض الأفلام مقاس ١٦ مم ، فيها ١٥٠٫٠٠٠ مقعد . ومعنى هذا أن هناك ٤٫٦ مقعد لكل ألف مواطن ، وأن قرابة ستين مليوناً يدخلون السينما فى مصر كل عام ، وأن ذلك يعنى أن كل مواطن يدخل السينما أقل قليلاً من مرتين فى العام .

والأرقام التى تدل على أعداد جماهير وسائل الإعلام المختلفة مثيرة وضخمة ، ولكنها يمكن أن تكون مضللة أيضاً كما يقول « ريفرز » وزميلاه : فهى يمكن أن تعطى بسهولة انطباعاً بأن كل صحيفة ، وكل مجلة ، وكل كتاب ، وكل برنامج إذاعى ، يحاول أن يصل إلى جميع الناس . ولكن الصحف محددة بالموقع الجغرافى ، وجماهير كل محطة راديو أو تليفزيون محدودة أيضاً . وهى محصورة فى حدود أطوال موجاتها ، وجميع وسائل الإعلام مقيدة بأذواق الجمهور واهتماماته ودوافعه .

ومهما يكن من شىء ، فالتطور المذهل فى ميدان الإعلام يمثل امتدادا للانتصارات التى حققتها اللغة فى سبيل تحقيق اتصال جماهيرى على امتداد واسع . أصبحت اللغة فى ظل الإعلام ذات قوة وسلطان ، لما لها من تأثير هائل على تفكير الأفراد والجماعات وعلى شعورهم وسلوكهم وإرادتهم ، وإذا كانت الدول العربية تعد حاليًّا لإطلاق قمر صناعى عربى ، يقوم بالربط التليفزيونى والإذاعى لاستخدامه فى الأغراض الثقافية والإعلامية ، فإن ذلك لا يفرض ارتقاء بمستوى البرامج فحسب ، وإنما يفرض عليها بالدرجة الأولى الارتقاء بمستوى اللغة العربية ، والتى عاشت ككل لغة إنسانية مراحل التطور البشرى ، على النحو الذى يذهب إليه هـ . ج . ويلز ، حين جعل اللغة هى المحور الرئيسى لحركة التاريخ الإنسانى بأسره . وقسم هذا التاريخ أقساماً رئيسية : الأول عصر الكلام ، والثانى عصر الكتابة ، والثالث عصر الطباعة ، والرابع عصر الإذاعة . وأدخل فى اعتباره العوامل المساعدة لهذا المحور الرئيسى ، كاختراع البخار والكهرباء ، واقتران الطباعة بالإنتاج الآلى الكبير ..

وليس من شك فى أن ويلز كان من المبشرين ببلاغة جديدة وفن جديد ، على حد تعبيرالدكتور يونس ، فقد أدرك أن التقدم الإنسانى يسير بخطى لاهثة ، وبخاصة فى التحكم فى الطاقات الهائلة . ولقد عبر عن حاجة العصر إلى لغة إعلامية جديدة لا تمثل بعثاً لنظريات قديمة ، أو عرضاً لنتائج العلوم التطبيقية على المجال الإنسانى ، ولكنها استجابة شرطية لما أفادته اللغة من طاقات جديدة . ويذهب الدكتور يونس إلى أن برناردشو وهو قرين ويلز فى أدب الأجيال الماضية ، من الرواد الذين فطنوا أيضاً إلى وجوب البحث فى التراكيب اللغوية لكى يساير الهجاء مقتضيات الحياة ، ولكى يصور فى الوقت نفسه الواقع اللغوى ، الذى لا تحكيه الحروف الهجائية حكاية تامة ، فالاختلاف بين الجماعات والطبقات ، على المخارج والأصوات ، شائع

وبديهى ، لابد من الوصول إلى رموز ، فى حروف الطباعة والآلات الكاتبة ، تصور ذلك الواقع اللغوى ، ولابد فى الوقت نفسه من الاتكاء على الاختزال ، إفادة من الوقت الضائع سدى فى الإملاء والتدوين والطباعة . وفطن برناردشو إلى أن رجال الأعمال مالوا عن الأوامر المعروفة إلى الأوامر المكبرة صوتياً ، أو المسجلة بواقعها الصوتى ، وكاد يمس ما استشعرت الحياة أنها فى حاجة إليه ، وهو بلاغة جديدة .

وتأسيساً على هذا الفهم نطرح اختياراً للبحث فيما يتعلق بأثر هذه المرحلة الإعلامية على الوطن العربى من جهة ، وعلى اللغة العربية الفصحى من جهة أخرى .

فنجد أولاً : أن المرحلة الطباعية كان لها أثرها فى تفتيت العالم الإسلامى وتجزئته ، كما فعل العالم المسيحى الأوربى ... وبعد دخول الشرق الإسلامى والعربى مرحلة الطباعة ازدهرت الصحافة وحركة البعث ، ووجدنا مع ذلك أن الدعوات الإقليمية الضيقة تظهر فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، وفى تقديرنا أن الدعوات العامية لا ترتبط بالإقليمية فحسب ، وإنما ترتبط بهذه المرحلة الطباعية من جهة أخرى .

ذلك أن الطباعة — كما يذهب إلى ذلك شاعر العصر الإلكترونى « مارشال ماكلوهان » — هى التى أنشأت روح الفردية وروح القومية فى القرن السادس عشر فى أوربا . فاختراع « جوتنبرج » حروفه المتحركة وتنضيدها المعروف فى أسطر مكونة من كلمات كان له هذا التأثير . فالحضارة تشتق طابعها من وسيلة الإعلام . الأمر الذى جعل القوميات الأوربية فى مرحلة الطباعة تلك ترتبط بالقضاء على « اللاتينية » ، وازدهرت العامية وتحولت إلى لغات مستقلة ولذلك وجدنا المتأثرين بهذه الرؤية يدعون إلى الإقليمية من الوجهة السياسية كما وجدناها عند دعاة الإقليمية السورية أو الفرعونية وغيرهم ، ثم إن دعاة العامية ظهروا متأثرين فى ذلك بطبيعة المرحلة الطباعية أيضاً ، فدعوا إلى تعدد اللهجات واستخدامها لغات رسمية فى البلاد العربية لتنتهى باللغة العربية إلى ما انتهت إليه اللاتينية فى أوربا . وهيأت الطباعة لهؤلاء الدعاة مناخ دعوتهم إلى حين . ولذلك لا نستطيع أن نفصل بحال بين دعوات العامية والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية حين نطرح افتراض الأثر الطباعى على الكيان الاجتماعى العام .

ونذكر أن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن قد شهد نهضة طباعية وصحفية فى الأقطار العربية ، وهى المرحلة التى شهدت دعوة « سبيتا » ١٨٨٠ ، و « ويلكوكس » ١٨٩٣ بمجلة « الأزهر » ؛ ومن تبعهم من المصريين مثل الأستاذ سلامة موسى ، وتنبأوا بموت الفصحى كما ماتت اللاتينية فى أوربا .

ولم يدرك هؤلاء المستشرقون ومن ذهب مذهبهم من العرب ، أن حركة التطور اللغوى فى الوطن العربى تختلف عما كانت عليه أيام القوميات فى أوروبا – ولكن هؤلاء الدعاة اختلط عليهم الأمر ، حيث كان على العرب أن يدخلوا مرحلة جديدة من مراحل التطور الإعلامى الإنسانى ، ونعنى بها « المرحلة الإذاعية » التى استطاعت فيها البشرية أن تجعل اللحظة المحدودة لحظة عالمية .

فإذا كانت الطباعة قد أدت إلى تفجيرات فى المجتمعات . وأصبحت فردية مجزأة ، وارتبط بتلك التفجيرات ازدهار العاميات والدعوات إليها ، فإن العصر الكهربى ليس عامل تفجير وتجزىء ، كما يقول « ماكلوهان » ، ولذلك نجد أن الراديو والتليفزيون أديا إلى التجمع والالتئام ، فنحن نعيش فى عالم أقرب إلى التكتل والتكامل مثل الدائرة الكهربية تماماً ، وقد انتعش الإحساس الجمعى والشعور بالعالمية فى هذه المرحلة الإذاعية .

ومن أجل ذلك نذهب إلى أن الدعوات إلى العامية فى مصر والبلاد العربية حين بلغت ذروتها فى أواخر المرحلة الطباعية – إن جاز هذا الحسم التعسفى بين المراحل – كانت المرحلة الإذاعية تدق أبواب العالم ، وكان مغزى ذلك على الصعيد العربى الإيذان بميلاد « **قرية عربية** » من المحيط إلى الخليج ، إن جاز هذا التعبير .... وهذا هو ما سيحققه بالفعل استخدام أقمار الاتصالات فى الإعلام ، مما يؤدى إلى انتعاش الإحساس الجمعى العربى ومقاومة الدعوات الإقليمية وما ارتبط بها من دعوات إلى العامية .

ومن هنا نجد أن المرحلة الإذاعية – على الصعيد العربى بخاصة – ترتبط **باللغة العربية الفصحى المشتركة** ، وطبيعة الإعلام الحديث تؤيد إلى حد كبير هذا الافتراض الذى نطرحه للمسار اللغوى العربى ، فالناس فى عصر الإذاعة المسموعة والمرئية لا يقنعون إلا بالمشاركة الإيجابية والالتزام ، وهذا المطلب الاجتماعى يفرض على

وسائل الإعلام التى تميز حضارتنا المعاصرة ، أن تكون لغتها - وخاصة بعد استخدام القمر الصناعى للاتصال الإعلامى - هى اللغة العربية الفصحى المشتركة التى تعبر عن ذلك الدور الفعال .

فوسائل الإعلام تتوجه إلى الجماهير الديمقراطية منذ بدايتها ، وبذلك فإن أصلح المستويات اللغوية لها ، هو ما يعود على بدء إلى المدركات الشاملة والانطباعات الفنية ، والعربية الفصحى المشتركة هى السبيل إلى ذلك لأنها لغة الحضارة الإعلامية . وهى كذلك بالقياس إلينا ، لأنها تقوم على استعادة الخصائص العربية العامة والإسلامية الخالصة ، وكذلك فإن هذه اللغة المشتركة هى التى تتجاوز حدود الوطن المصرى إلى جميع الناطقين بالعربية .

ومن اللازم فى لغة الإعلام - أن نفرق بين اللغة الفصحى واللغة الصعبة التى لا يفهمها إلا الأقلون . إذ ليس كل فصيح صعباً . ولا كل عامى ركيكاً سهلاً على سامعيه ، كما يقول العقاد رحمه الله .

واستعمال الفصحى لغة للإعلام ليس مطلباً عسير المنال فلغة الإعلام هى الفصحى السهلة المبسطة فى مستواها العملى . وقد امتازت وسائل الإعلام بإظهار خصائص العربية التى تمتاز بها بالفعل ، مثل المرونة والعمق ، وهى الخصائص التى تجعلها تنبض بالحياة والترجمة الأمينة للمعانى والأفكار ، والاتساع للألفاظ والتعبيرات الجديدة ، التى يحكم بصلاحيتها الاستعمال والذوق والشيوع .

ونذكر من حديث نشر « بالأهرام » أجريناه مع أستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية ، أنه أكد أن الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام قد حققت ما يهدف إليه المجمعيون من محافظة على سلامة اللغة العربية ، وهى قادة على الوفاء بمطالب العلوم والفنون .

ويقتضى تعميم الفصحى المشتركة فى مرحلة الاتصال الإعلامى المعاصرة ، جهداً متواصلاً لتعميم هذه الفصحى المشتركة والإفادة من خصائصها الأصيلة . ذلك أن وسائل الإعلام هى التى تشكل مقياس نشاط الناس وعلاقاتهم ، وإذا كان مضمونها يخفى طبيعتها ، فإن « الوسيلة الإعلامية » ذاتها تتفاعل مع القالب الثقافى الذى تعمل فى إطاره .

ويذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن للغة المشتركة صفتين :

أولاهما : أنها خاضعة لقواعد معينة تباعد ما بينها وبين التطور إلا ببطء شديد وفى زمن طويل ، وهى لهذا أسمى من لهجات الحديث اليومى المعتاد المتداول فى المنازل والطرقات والأسواق ، ولذلك يصطنعها من يريدون إجادة القول وإتقان الأداء ، كما يصطنعها رجال الإعلام والاتصال بالجماهير على أوسع نطاق .

وثانيتهما : أنها ـــ كما عبر « هنرى سويت » ـــ اللغة التى لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة المحلية التى ينتمى إليها المتكلم .

وتتسم العربية المشتركة بسمات إعلامية ، فى مقدمتها أنها لغة مفهومة لدى العامة ، حيث لم تحل اللهجات الشعبية دون فهم ما يسمعون من نصوص الفصحى المبسطة ، كما أنها لغة ديموقراطية لا تخاطب الكبير بخطاب والصغير بخطاب آخر ، ولا تخلط بين ضمير الفرد وضمير الجمع ، فيقول سبحانه وتعالى : « أنا ربكم الأعلى » ويقول الرسول ﷺ : « إنما أنا بشر مثلكم » ويقول له الناس : « ما أنت إلا بشر مثلنا » .. وهى لغة عالمية ، اصطنعتها شعوب متعددة ، منذ استقرت الدولة العربية فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من الهجرة فأخذت بالطابع العربى ديناً ولغة وثقافة وحضارة . ويذهب الدكتور أنيس إلى أن خصائص العربية قد جعلتها أوسع اللغات انتشاراً فى العالم ، ويعدها المحدثون من اللغويين ثالثة لغات العالم الحديث من حيث انتشارها وسعة مناطقها .

وقد رحبت العربية فى أوج نهضتها بكثير من ألفاظ الحضارة ، واستغلتها فى المصطلحات العلمية ولغة الكلام ، وقد كان طبيعيًّا أن يسعى الإعلام للإفادة من مزايا هذه اللغة الحضارية ، ويحقق التحول العظيم بتضييق المسافة بين لغة الخطاب ولغة الكتابة ، ويفتح الطريق أمام لغة الحضارة لتتسرب فى كل مكان ، وليكون لها فى التعبير الجماهيرى سلطان .

وإن هذا التحول لفرصة أمام حراس اللغة والمحافظين على سلامتها ، لكى يبذلوا جهودهم للاستبدال بالعامى والدخيل من ألفاظ الحضارة بوجه خاص ، فإنهم إذا تضافرت جهودهم فى تلك السبيل ـــ كما يقول المرحوم محمود تيمور ـــ أمكنهم أن يحيلوا اللفظ الحضارى كلمة مكتوبة ، والكلمة المكتوبة تصافح العيون فى

الصحف والمجلات ، ثم هى تقرأ فتقرع الأسماع فى الإذاعة والتليفزيون والسينما ، ونتيجة ذلك أن يصبح اللفظ الحضارى طعاماً جماهرياً يسوغ فى الأفواه كما جرى على الأقلام » .

إن اللغة العربية الإعلامية إذن – هى اللغة المشتركة ، فلغتنا من أغنى اللغات الكبرى تراثاً ، وأطولها عمراً ، وأبقاها على الزمن اتصالاً ، وقد وسعت ما وصل إليها من معارف الأقدمين فى الماضى ، على حد تعبير المرحوم ساطع الحصرى ، وهى الآن تثبت قدرتها على الاتساع لثمار الفكر الإنسانى الحديث بل إنها تشارك بإنتاجها فى تنمية الثروة الأدبية والعقلية للعالم المعاصر .

وفى لغة الإعلام تحقق الفصحى المشتركة ذلك التقارب بين مستويات اللغة الثلاثة : العلمى والأدبى والعملى ، وهو الأمر الذى يواكب تذويب الفوارق بين الطبقات ، واشتراك طوائف المواطنين فى ممارسة الشئون العامة والنقاش فيها ، بمعاونة وسائل الإعلام .

ولا شك أن العربية الفصيحة قد كسبت من التطور العربى القومى والتطور الإعلامى مزيداً من النفوذ فى الاتصال الجماهيرى محليًّا وعالميًّا ، وأصبح لها مكانها فى بعض المنظمات الدولية كلغة عمل ، ويستلزم ذلك أن تجتاز اللغة الإعلامية المشتركة المعادلة الصعبة بين التراث والمعاصر ، وأن تسعى إلى التقريب بين مستويات التعبير اللغوى بحيث لا تكون مقطوعة الصلة بلغة التراث ولا تكون مقطوعة الصلة بلغة الحضارة .

ومادامت اللغة هى الرابطة الكبرى بين الإعلام والمجتمع ، فينبغى أن تنظر إليها نظراً علميًّا صحيحاً ، فاللغة ليست مجموعة القواعد التى نحصلها ونسميها بالنحو المتواضع عليه ، وهى لا يمكن أن تخضع لقواعد المنطق الصورى ، ذلك أن اللغة بمفهومها الاجتماعى سلوك فردى وجماعى ، كما يذهب إلى ذلك الدكتور يونس ، وتأسيساً على هذا الفهم فإننا ننظر لوسائل الإعلام على أن فى مقدورها أن تفيد من الفصحى المشتركة وفقاً للحاسة التى تتعامل معها ، سواء كانت هذه الوسائل مسموعة أو مقروءة أم مرئية ؛ فى إبراز الخصائص التعبيرية ، لأن اللغة الإعلامية فى حقيقة أمرها جزء من السلوك الاجتماعى ، كما أن اختيار لغة الإعلام فى « القرية

العربية » الكبيرة مجرد فعل اجتماعى .

وإذا كنا قد انتهينا إن « الوسيلة هى اللغة » فإن وسائل الإعلام هى امتداد للغة ، وعلى هذا النحو تكون أقمار الاتصالات امتداداً جديداً لوسائل الإعلام واللغة ، إذ تمد بغير حدود نطاق الإرسال الإعلامى ، الأمر الذى يؤدى إلى تدفق الإعلام ، والارتقاء بالذوق العام ، وتأصيل الثقافة القومية إلى جانب الاتصال بالثقافات العالمية ، وإثراء القيم الاجتماعية والإنسانية وتحقيق الفهم المتبادل بين الشعوب .

وهنا يؤكد التطور الإعلامى على البلاد العربية أن تسعى إلى توحيد اللغة فى وسائل الإعلام كضرورة اجتماعية ، « فالمدنية وحدها هى التى تستطيع أن تنشر اللغة بين كتل عظيمة من البشر » على حد تعبير « رينان » . ولا تتفكك اللغة المشتركة وتتفتت إلا إذا تراخت العرى الاجتماعية التى كانت تمسكها ، كما يذهب إلى ذلك « فندريس » .

ولغة الإعلام فى عصر أقمار الاتصالات هى – كما تقدم – الفصحى المشتركة ، التى تتميز بنوع من « التوازن دائم التغير بين الثبات والتطور » ، كما تتميز – إعلاميًّا – بأنها لغة وسطى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً ، الأمر الذى يبين بوضوح فى قيام قوميتنا العربية أساساً على وحدة اللغة .

ويذهب الدكتور إبراهيم أنيس ، تأسيساً على هذا الفهم ، إلى ضرورة استخدام الإمكانات الإذاعية ووسائل النشر والإعلام فى تحقيق اللغة العربية المشتركة ، التى تسود كل البلاد العربية ويحسنها قومها كتابة ونطقاً وأداء ، وتشد أبناءها بعضهم إلى بعض ، فتؤلف منهم مجتمعاً عربيًّا حريصاً على عزته وكرامته ، يشعر فى شعور واحد ، ويفكر فى عقل واحد ، فلا منازعات ولا خصومات ، بل سلام وحسن تفاهم ، وتآزر فى التصدى لأعدائهم الطامعين فى خيراتهم . فالقومية العربية لا تستلهم وجودها إلا عن طريق هذه اللغة ولا يتحقق دعمها إلا على أساس ذلك اللسان العربى المبين .

فاللغة هى الأساس فى شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض ، واشتراكهم فى نفس الذكريات سواء كانت تاريخية أو ثقافية ، بل اقتصادية أيضاً .

ولا غرابة بعد ذلك أن نرى مفكرى الألمان يؤمنون إيماناً قويًّا بأثر اللغة فى القومية . فهذا « هردر » يقول فى أواخر القرن الثامن عشر : « إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنتقل بوساطته أفكار الشعب . واللغة سواء قلنا إنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله أو ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجيًّا بعمل العقل ، لا يمكن أن نشك أنها الآن تخلق العقل ، أو على الأقل تؤثر فى التفكير تأثيراً عميقاً ، وتسدده وتوجهه توجيهاً خاصًّا . والأدب الذى يسود بين الطبقات العليا من الأمة يعكس تأثيرات خارجية أو أجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل فى كل روح الشعب نفسه . إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . إن قلب الشعب ينبض فى لغته . إن روح الشعب يكمن فى لغة الآباء والأجداد » .

والدعوة إلى اللغة المشتركة – فى نهاية الأمر – تتفق وطبيعة التطور الإعلامى ، فالضوء الكهربى والقوة الكهربية – كما يقول « ماكلوهان » – يلغيان عنصرى الزمان والمكان فى المجتمع الإنسانى ، تماماً كما يفعل الراديو والتليفزيون ، ويفرضان « مشاركة » فى العمق ، هذه المشاركة التى ينشدها الإعلام فى الوطن العربى لن تتحقق إلا باستخدام « الفصحى المشتركة » ، التى تعمل على تقارب المجتمعات .

كما أن اصطناع وسائل الإعلام للغة الفصحى لتكون عروة وثقى بين أقطار العربية كلها ، يجعل التطور أمراً محتوماً واضح الغاية . وعلى هذا الأساس سنجد تقارباً تحدثه وسائل الإعلام بالفعل ، كما يذهب إلى ذلك الدكتور « يونس » ، بين اللهجات التى نسميها بالعامية تجاوزاً وبين اللهجة الفصحى ، وتصبح بذلك اللهجة الفصحى أكثر مرونة مما كانت ، وتتخلص من كثير من الظواهر التى لصقت بها عن طري التدوين ، وعن طريق التقعيد .

ووسائل الإعلام تعمل عن وعى على التقريب بين البلاد العربية ، وذلك بتقويم الألسنة الفصيحة ، وجعلها مسايرة للحياة . وتمضى وسائل الإعلام بالفصحى المشتركة لتحقيق شخصية الفرد العربى ، ولتحقيق شخصية الجماعة العربية ، مع الإبقاء على الخطوط البارزة للنحو العربى . وهنا يذكر الدكتور « يونس » الأديب المصرى المرحوم « إبراهيم عبد القادر المازنى » فقد استطاع بسعة اطلاعه ودقة حسه

اللغوى ، أن يميز بعض الألفاظ والتراكيب ، التى تحاماها الكاتبون ، لأنهم ظنوها عامية حوشية ، لا تليق بالأدب الفصيح . ولكن المازنى عرف أولاً وقبل كل شىء ، أنها عربية الأصل ، وأنها على كثرة استعمالها فى الحياة اليومية تعد من المهجور فى التدوين ، وبهذا وفق المازنى إلى المزاوجة بين الفصاحة والجزالة فى العبارة ، وبين إبراز اللون المحلى المصرى ، والاقتراب من الواقعية اللغوية .

وهكذا يمكن القول إن الإعلام يتوسل بلغة الحضارة من أجل توثيق الوجدان الإنسانى ، وإظهاره ليس فقط فى مجال قومى عربى محلى بلغة فصحى مشتركة ، ولكنه يعين على التمكين لهذا الوجدان وتدعيمه أيضاً . فالإعلام حين يفيد من علاقات كثيرة فى المجال الاجتماعى ، يؤثر فى نفس الوقت فى الكيان الاجتماعى عن طريق اللغة .

الفصـــل الرابـــع

وسائل الإعـــلام

والتعادلية اللغوية

- ١ -

هناك ثلاثة مستويات للتعبير اللغوى : **أولها** المستوى التذوقى الفنى الجمالى ويستعمل فى الأب والفن ، **والثانى** هو المستوى العلمى النظرى التجريدى ، ويستعمل فى العلوم ، **والثالث** هو المستوى العملى الاجتماعى العادى وهو الذى يستخدم فى الصحافة والإعلام بوجه عام . وهذه المستويات الثلاثة « كائنة » فى كل مجتمع إنسانى ، والفرق بين المجتمع المتكامل السليم ، والمجتمع المنحل المريض هو فى تقارب المستويات اللغوية فى الأول ، وتباعدها فى الآخر ، فتقارب مستويات التعبير اللغوى دليل على تجانس المجتمع ، وتوازن طبقاته ، وحيوية ثقافته ، ومن ثم إلى تكامله وسلامته العقلية ، فمن الثابت أن العصور التى يسود فيها نوع من التآلف (أو التعادل) بين المستويات العلمية والأدبية والعملية ، هى غالبا أزهى العصور وأرقاها . أما إذا كان كل مستوى لغوى بعيدا كل البعد عن الآخر فهو دليل على الانفصام العقلى فى المجتمع ، وهذا يؤدى إلى التدهور والانحطاط والشيخوخة والانحلال [١] .

وهذا الأمر يثبت فى ضوء التعادلية كما نتعلمها من توفيق الحكيم ، ذلك أن الإنسان – كما يقول – كائن متعادل ماديا وروحيا ، والتعادل يعنى المحافظة على بقاء القوتين ، دون أن تتلاشي إحداهما فى الأخرى .

وللتعادل أداته الفعالة التى يستخدمها دائما فى كل محيط : سواء فى العلم أم فى الأخلاق أم فى الفن أم فى الفكر أم فى السياسة أم فى الاقتصاد أم فى اللغة أيضا .

. (1) Imam. I. The language of jaurnalism, (1969) .

هذه الأداة هى ما يسمى برد الفعل . كل فعل فى كل محيط له رد فعل . وما رد الفعل هذا سوى آلة التعادل للفعل إذا أسرف وجار واختل توازنه وجاوز حدوده ، رد الفعل أو بعبارة أخرى : رد التعادل إلى الفعل الذى انحرف إلى مداه ونهايته ... ذلك هو معناه الحقيقى .

فالتعادل – كما يقول الحكيم – يعمل بجهاز ذى محركين : رد الفعل والتعويض . ولعل مظاهر التعويض من أوضح ما يصادفنا فى الكائنات جميعا . فكل ضعف تعوضه قوة . وكل نقص تقابله زيادة . نجد ذلك بالقياس إلى اللغة كذلك ، فعندما كانت اللغة اللاتينية مستأثرة بالدراسات الأدبية فى أوربا العصور الوسطى ، وكانت اللغات الاجتماعية محتضرة منبوذة ، لا تستعملها إلا الطبقات العاملة الفقيرة ، أدى هذا الاختلال بأوربا إلى أن تعيش فى عصور مظلمة ، وأن تتردى فى الجهل والتعصب والتنافر والتنابذ . وهذا مثال على **الاختلال** بين « قوتين » لغويتين ، فى حين أن هناك مثالا آخر على **التعادلية** اللغوية التى تقاوم الضعف والعجز والنقص والقبح ، بإيمانها بوجود القوى المعوضة الموازنة أى المعادلة ، وبإعلانها طريقة واضحة للمقاومة ، هى نهوض الإنسان ، سواء أكان فردا أم شعبا ، للكشف عن القوى المعوضة المعادلة وإظهارها وتنميتها [1] ... على نحو ما نجد فى العصور الوسطى أيضا ؛ ولكن بالقياس إلى العالم الإسلامى الذى سادت فيه آداب رفيعة ، وكانت اللغة العربية (كقوة معادلة) شائعة بين الحكام والمحكومين ، مستعملة فى الآداب والعلوم ، وفى الحياة العملية . ولذلك أدت هذه القوة التعادلية إلى ازدهار اللغة العربية وآدابها وعلومها ، وإلى تحقيق نوع من التآلف بين المستويات العلمية والأدبية والعملية ؛ على النقيض مما حدث لأوربا فى ذلك الوقت ؛ حيث أدى الاختلال إلى فروق لغوية شاسعة مفزعة ؛ الأمر الذى يجعلنا نذهب إلى أن التعادلية اللغوية تؤدى إلى تحقيق التآلف الاجتماعى والانسجام بين طبقاته ، والحيوية والتكامل فى العقل والوجدان الجماعيين .

وعندما أهلَّ عصر النهضة فى أوربا ، وأخذت اللغات المحلية تتبوأ مكانتها اللائقة بها ، وتقاربت المستويات اللغوية فى الأدب والعلم والمجتمع ، أخذت العقلية

(١) توفيق الحكيم ، التعادلية - ص ١٢٧

الاجتماعية تسترد قوتها وسلامتها ، وزايلها الانفصام العقلى ، وتقاربت المستويات نسبيا ، حتى إذا بلغت اللغات المحلية مبلغ النضج والاستواء ، كان **دانتى وشكسبير وبيكون ولوثر ثم نيوتن وجاليلو** وغيرهم [١] .

وفى نفس هذه الظروف وبفضلها أيضا ، ظهرت لغة الصحافة أو لغة الإعلام الأم ؛ « فويل للمجتمع إذا كان أدبه لا يتفاعل مع أفراده ، إذن تتسع الهوة بين لغة الآداب ولغة الحياة اتساعا مفزعا ، فيمرض العقل ، ويذوى الفكر ، ويتدهور المجتمع ، وتتنافر طبقاته ... ولذلك وجدنا أن كل عصر يتخذ فيه الأدب لغة رسمية مصطنعة يختص بها فى أسلوب من الصور البيانية والحيل البديعية المتراكمة ، يصبح الأديب فيه كالكاهن إنسانا عامضا ، وشخصيته رهيبة مفزعة ، وتلك أعراض المجتمع المريض ، والحضارة المنحلة . وقد حدث ذلك كما تقدم — فى العصور الوسطى فى أوربا ، كما حدث فى إنجلترا فى مستهل الفتح النورماندى ، وحدث أيضا فى مصر بعد الفتح التركى حتى القرن التاسع عشر — ومازلنا نصطلى ببعض ناره » [٢] .

ولذلك ينظر إلى لغة الصحافة بخاصة ، والإعلام بوجه عام ، إلى أنها حققت التعادلية بين الخصائص اللغوية وشعبية الصحافة ووسائل الإعلام ؛ فهى تتوخى السهولة والتبسيط ، ولكنها لا تهبط إلى العامية فى اللفظ أو السوقية فى الفكر .

وهكذا فإن التعادلية اللغوية فى وسائل الإعلام تؤدى إلى تقارب المستويات اللغوية العلمية والجمالية والعملية ، لأننا — على حد تعبير الدكتور إمام [٣] — كلما نزلنا فى سلم التطور الحضارى للمجتمعات ، وجدنا فروقا شاسعة بين المستويين الأدبى والعملى للغة . ويؤكد عالم الاجتماع كارل بوخر Karl Bucher أن اللغة المستخدمة فى المجتمعات البدائية تنقسم إلى قسمين مختلفين تمام الاختلاف : لغة جمالية للأغانى والقصائد والأناشيد ، وأخرى عملية للتفاهم ، وهى تختلف عن الأولى اختلافا كبيرا ، حتى أن إيقاع لغة التفاهم لابد وأن يتغير تغيرا تاما لكى يتلاءم مع إيقاع الشعر . ويقول إن سكان جزائر أنداماan Andaman يغيرون من طول

---

(١) د . إبراهيم إمام · المرجع السابق ، ص ٤١

(٢ ، ٣) المرجع نفسه : ص ٤٤

الكلمات تغييرا جوهريا حتى يمكن القول بأن لهؤلاء الناس لغة شعر خاصة غير لغتهم المستعملة فى الحياة . ويضيف جسبرسن Jespersen على ذلك قوله : إن اللغة الجمالية لا يفهمها الناس ، حتى إنه كثيرا ما يضطر المؤلف إلى شرح قصيدته للمغنين والمستمعين قبل الأداء [١] .

– ٢ –

التعادلية بين الفصحى والعامية :

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمستويات اللغوية ؛ فإننا نستطيع أن نقول الشيء نفسه تقريبا بالنسبة لمشكلة العامية والفصحى فى لغتنا العربية ؛ ذلك أن اللغة فى تطورها وارتقائها تتأثر بعوامل كثيرة منها :

انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ... وتأثر اللغة بلغة أخرى ، والعوامل الاجتماعية والنفسية والطبيعية كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناص وجدانها ونزوعها ، وبيئتها الجغرافية ، كما تتأثر بالعوامل الأدبية والإعلامية على اختلافها .

وحينما ننظر فى هذه العوامل جميعا ، نجد أن الإعلام يقوم بوظيفة التعادلية فيما بينها ، نتيجة ليسر تبادل الإعلام ، وإدخال الآلة لترى وتصغى وتتكلم وتكتب للإنسان ، والسؤال الآن : ما الذى تستطيع الأجناس الإعلامية أن تؤديه للغة العربية ؟

يقول ولبورشرام : « إن الذين يعيشون فى مجتمعات تعودت وسائل الاتصال بالجماهير ينسون أحيانا مقدار ما يتعلمون من هذه الوسائل . ومع ذلك فقد ظل الكتاب المطبوع مدى ثلاثمائة سنة الذراع الأيمن القوى للتعليم العام . ثم إن الصحف حيث توجد تصبح أكبر مخبر عن البيئة فيما وراء ما تبلغه حواسنا . إن الحقيقة أن أجيالا بأسرها من الناس كونت آراءها بصفة عامة عن العالم غير المحلى مما تعلمته من الصحف (ومؤخرا من الراديو والأفلام والتليفزيون والمجلات) وكل من له خبرة بالأفلام السينمائية وبالقصص المطبوع يدرك من غير شك الأثر العجيب البعيد

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٤ .

المدى الذى تحدثه هذه الأدوات . فالمشاهد والشخصيات والحبكات والعبارات تظل حية نابضة واضحة كجزء لا يتجزأ من الرصيد الشخصي المتداول لسنوات طويلة بعد قراءتها أو رؤيتها لأول مرة . والآباء يلاحظون – ليس دائما فى رضا – كيف يلتقط الأولاد الإعلانات الغنائية والشعارات والكلمات والعادات من التليفزيون دون قصد منهم للتعلم وحتى دون إدراك بأنهم يتعلمون . وبمعنى آخر أن تجربتنا كلها مع الوسائل الجماهيرية توضح مقدار السهولة التى نتعلم بها سواء كان ذلك عن ارادة أو غير ارادة » .

– ٣ –

ولأن لوسائل الاتصال هذه القدرة الفائقة على التبليغ والإعلام ، فإننا نستطيع أن نقول إن فى مقدورها أن تؤدى خدمات جوهرية للغة العربية .

ومن ذلك أن وسائل الإعلام تستطيع أن تقرب بين الفصحى والعامية ، وقد لاحظ العقاد [١] أن « أسباب التشعب والتفريع كانت وفيرة فى العصور الماضية ولم تكن إلى جانبها أسباب للتوحيد والتقريب تضارعها فى قوتها وأثرها ، فتوافرت هذه الأسباب فى العصر الحاضر بعد شيوع الصحافة والإذاعة والصور المتحركة وقوالب الحاكى المشهورة باسم الاسطوانات ، ومما يرجى من آثار هذا التقريب أن ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين وأن يدخل فى الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة يمكن اجراؤها مجرى المفردات الفصحى بغير تعديل أو ببعض التعديل » .

ومن ذلك يتضح أن قضية الفصحى والعامية من أهم القضايا فى علم الإعلام اللغوى ، ذلك أن السير نحو الفصحى هو سير نحو قومية الثقافة ووحدتها ، على حين أن السير نحو العامية هو النقيض المعادى للوحدة القومية . وليس يخاف أن وحدة اللغة ، بفضل القرآن الكريم كانت الحافظة للوجود العربى والشخصية العربية .

ولذلك فإن وسائل الإعلام ينبغى أن تسعى إلى مؤالفة العامية للفصحى وتذويبها فيها ، ليس من خلال استخدام الفصحى فحسب ، وإنما عن طريق دعم الإحساس بالحذر تجاه العامية واستغلالها أداة للتفريق .

(١) العقاد : بحوث فى اللغة والأدب ص ٤٣ .

ولن يتأتى ذلك إلا باستعمال الفصحى فى وسائل الإعلام ، ذلك أن هذه الوسائل تستطيع أن توسع الآفاق ، وهى « قوة محررة لأنها تحطم قيود المسافة والعزلة وتنقل الناس من المجتمع التقليدى إلى « المجتمع العظيم » حيث تتركز العيون كلها على المستقبل » [١] والعامية — كما يقول العقاد [٢] — هى لغة الجهل وليست بلغة الثقافة أو بلغة اليسار : « وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التى لا جمال لها ولا طلاوة . وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى ، أو يعبرون بالعامية تعبيرا يزينه جمالها وتبدو عليه طلاوتها . فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونستنزيده ، ولا نخفف وطأة الفقر ذرة واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التى تصاغ بها آراء المتعلمين والمهذبين . إن علاج مشكلة الفقراء هى أن ترفع طبقتهم معيشة وتفكيرا وحديثا ومنزلة من التعلم والتهذيب ، وليس علاج تلك المشكلة أن تسجل عليهم حالة من العجز ، والجهالة هى التى يشكون منها ويسألون المعونة على علاجها » .

وقد قال العقاد ذلك فى الرد على رسالة جاءته يقول صاحبها : « إذا خاطبت إنسانا فقيرا باللغة الفصحى لتسدى إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن أنك تسخر به ، فيحز ذلك فى نفسه وينصرف عنك متألما ؟ » . ولذلك يفرق العقاد بين اللغة الفصحى واللغة الصعبة التى لا يفهمها إلا الأقلون ، إذ ليس كل فصيح صعبا ولا كل عامى ركيك سهلا على سامعيه : « ومتى فرقنا بين الفصاحة والصعوبة أدركنا أن السهولة تتوافر للكلام الفصيح وتنفذ إلى أسماع الجهلاء غير حائل بينها وبين النفاذ إلى تلك الأسماع حركة الإعراب ولا صحة التركيب ... هذا أولا ... أما ثانيا : فمن اللازم أن نذكر أن العظات إنما تتلقى بالخشوع والتوقير كلما اقترنت فى ذهن السامع بملابسات الخشوع والتوقير .

والعظات التى تقترن فى ذهن السامع بالمسجد وحلقات العلم أحرى أن تقترن بالنفوس الخاشعة والأسماع المصغية من عظات تحمل طابع السوق ومجالس اللهو

---

(١) شرام : نفس المرجع ص ١٧١ .
(٢) يسألونك ص ٥٠ .

والمزاح . وهذه المقارنة النفسية أشبه بمقارنة الهيبة التى تسرى إلى قلوب السامعين وهم يصغون إلى الواعظ فى وعظه ، ولا تسرى إليهم وهم يصغون إليه فى مباذل البيت أو ملابس السهرة وكسوة « الردنجوت » .

أما شعور الجاهل الفقير وأنت تخاطبه بالفصحى فقد تختلف فيه الأقوال حسب اختلاف الأحوال ، ولكنه لو أنصف لامتعض ممن لا يخاطبه إلا وهو متنزل إلى لغة أوضع الطبقات ، كأنه يترفع عن مخاطبته باللغة التى يخاطب بها أقرانه وزملاءه . وما أظن الجاهل الفقير يحب أن يترفع الأغنياء عن لقائه فى حجرة الاستقبال التى يلقون فيها أقرانهم وزملاءهم ليخرجوا إلى العراء حيث يجلس بغير مقعد وبغير مهاد ... فلماذا يحب الجاهل الفقير أن يتنزل مخاطبه من أسلوبه وأسلوب أقرانه وزملائه ليخاطبه بما هو دون ذلك الأسلوب ؟

إننا لم نسمع أن أحدا تواضع حبا للفقير فخلع حذاءه ليمشي حافيا أو يلبس أرخص النعال ، فما بال أناس يتواضعون فيخلعون لغة المعرفة والثقافة لأنها كما يزعمون لغة لا يفهمها الفقراء ؟

ما خلت الدنيا قط ولن تخلو من التعلم والتعليم ، وإن اليوم الذى ننبذ فيه كل ما نتعلمه ونتعب فى تعلمه لهو اليوم الذى ينحدر فيه الإنسان إلى الجهل .

وإذا كنا نحتج لبقاء اللغة العامية بأنها اللغة التى يعرفها الجاهل بغير تعلم فلماذا لا نحتج لكل جهل بمثل هذا الاحتجاج ؟ وأى شيء أحق من العقل الإنسانى ومن النفس الإنسانية بأن نفهمهما على الوجه الأمثل حين نفهم اللغة الصالحة لإيداع أشرف المعانى وأرفع الصور الذهنية وأحقها بالبقاء والتخليد .

واللغة العامية بطبيعتها لغة وقت محدود وجهة محدودة ، فهى لا تصلح لبقاء أثر من الآثار التى تستحق البقاء . ولن نكسب شيئا ولا الفقراء يكسبون بصيانة حديث العامة وإهمال الحديث الذى يخلد المتنبى والمعرى وابن الرومى وشكسبير وهوميروس وسوفكليس وفرجيل .

وما ارتقى العامة قط لأنهم فهموا نظام الصحة وقواعد الحكم وهم جهلاء أميون ، ولكنهم يرتقون حين يتعلمون ويقتدرون على فهم الكلام فى لغة المعرفة

والإرشاد . أما وهم أميون جهلاء فلن يفهموا ما يقال ، ولو قيل لهم بلغة الجهال .

وإنها لبدعة عجيبة تلك التى سرت فى الزمن الأخير وتعلق بها أناس منا مخلصين وأناس مخدوعين وأناس منا يسيئون النية وهم على علم بالغرض مما يدعون إليه .

فالدعوة إلى تغليب العامية إنما تنبع فى مصدرها الأول من جانبين متناقضين قد اتفقا فى غرض واحد :

فجانب الشيوعيين المنكرين للعقائد والأديان يحقدون على اللغة الفصحى لحقدهم على كل امتياز وارتفاع ، وغرامهم بكل ما يهبط إلى مرتبة الصعاليك ثم هم لا ينسون أن القضاء على العربية الفصحى فيه قضاء على دين المسلمين الذى يحاربونه كما يحاربون كل دين .

وجانب المبشرين لا يعنيهم من الأمر أن يحاربوا الدين بين الأمم العربية ، فلا يعنيهم فى بلادهم أن يغلبوا الكلام المبتذل على الكلام المهذب الفصيح .

ومما يكشف عن سوء نية هؤلاء وهؤلاء أنهم يفضلون الكتب التى تؤلف بكلام العامة فيما يختارونه للترجمة إلى اللغات الأوربية ، مع أن الترجمة لا تظهر فرقا بين أسلوب العوام وأسلوب الخواص ، ولا يدرى من يقرأها وهو لا يعرف الأصل أهى من الكلام الدارج منقولة أم هى منقولة من كلام تلتزم فيه الفصاحة وحركات الأعراب .

فهو إذن تشجيع للعامية فى وطنها وليس بتشجيع للعامية فى اللغات الأخرى . ومن هنا ينكشف سوء النية الذى أومأنا إليه [١] .

ويذهب العقاد [٢] فيما سئل عنه إلى أن تغليب لغة الجهل كارثة على الأمة العربية وعلى العقل الإنسانى لا تقل عن كارثة الفقر وسوء العيش . وأن علاج مسألة الفقر يتوقف فى وجه من وجوهه على ترك الكلام الفصيح وتقديم الجهالة الكلامية ،

(١) العقاد : نفس المرجع ص ٥٥
(٢) العقاد : نفس المرجع ص ٥٦ .

ولن يختلف الأمر هنا بين طب الأمراض البدنية وطب الأمراض الاجتماعية فلا الطبيب مضطر إلى إهمال لغة الطب وهو يعالج مريضه ، ولا المصلح الاجتماعى مضطر إلى إهمال لغة المعرفة وهو يعالج الفقر أو الجهالة ، وليس ما يفهمه الفقير الجاهل من عبارات العامة بأكثر مما يفهمه من لغة الخاصة إذا كانت الصعوبة فى الإدراك أو كانت الصعوبة فى الموضوع . فلو نقلت أرسطو إلى أوضع اللهجات لما سهلت فهمه أقل تسهيل ، بل لعلك تزيد الصعوبة بإقحام المعانى الرفيعة فى لغة لم تتهيأ لتمثلها منذ زمن بعيد .

ولنرحم الفقير الجاهل برفعه إلى طبقة اليسار والمعرفة ، والتسوية بينه وبين من يفصحون ويفقهون .

أما رحمته بإيقافه حيث هو فى عمله وكلامه ومداركه فتلك هى القسوة التى لا يسيغها الرحماء .

وإذا كانت الفصحى عند الجماهير العربية تحتل مكانة راسخة ، فإن تعميمها عن طريق وسائل الإعلام ، محوط بعوامل النجاح ، ذلك أن البحث العلمى فى الإعلام أثبت أنه لا يمثل بذاته سببا للآثار الجماهيرية ، وإنما هو يعمل من خلال مجموعة من العوامل ، والمؤثرات الوسيطة ، وهنا تميل وسائل الإعلام إلى دعم الاتجاهات أكثر مما تميل إلى التغيير .

والفصحى عند الجماهير العربية ترتبط بالمعجزة اللغوية الكبرى « القرآن » ، ذلك أن العرب عامة كانوا أشد الأمم شعورا « بالحدث اللغوى » وأكثرهم إحساسا لوقع الكلمة وموسيقاها حتى أن حياتهم اليومية ، فى السلم والحرب ، خاضعة إلى حد بعيد إلى سحر اللفظة وطاقتها الإيقاعية ودرجة تنغيمها [1] . ومن أجل ذلك فشلت كل الجهود التى بذلت لاشاعة العامية والقضاء على الفصحى ، ذلك أن الكثير من المعتقدات والقيم التى يتمسك بها الأفراد أمور مشتركة عند الجماعة لا يتهاونون فيها ويدافعون عنها مجتمعين . ولذلك واجه دعاة العامية مقاومة شديدة لأنهم وقفوا فى وجه معتقد جماعى قوى .

(١) البشير بن سلامة : اللغة العربية ومشاكل الكتابة ص ٤٢

وتستطيع وسائل الإعلام أن « تركز الانتباه » على استخدام الفصحى ، إذ يمكن أن توجه الاهتمام من حين لحين إلى عادة جديدة ، أو سلوك لغوى ، فوسائل الإعلام بتوجيهها الانتباه إلى العربية الفصحى تستطيع أيضا أن تتحكم فى بعض الموضوعات التى يتم بشأنها الاتصال المتبادل بين الأشخاص .

وحين تستخدم الفصحى فى وسائل الإعلام ، فإنها ستلقى استجابة من الجماهير ، التى تنظر إلى الفصحى على أنها من التقاليد الاجتماعية الراسخة ، وتبرهن الدراسات العلمية (١) على أن النفس الإنسانية تذهب إلى أى مدى لصد هجوم على العقائد والاتجاهات الراسخة . والناس يتخيرون الأنباء أو الإذاعات أو المقالات التى تؤيد عقائدهم القوية ويلفظون ما لا يفعل ذلك أو ينسونه . وإذا تصادف أن وقعوا عن طريق وسائل الإعلام على معلومات ليست فى صالح عقائدهم القوية فإنهم فى الغالب يقلبونها أو يحرفونها . وهم لا يحرفون عن عمد وإنما التكوين العقائدى يعمل للمحافظة على كيانه .

وتستطيع وسائل الإعلام أيضا أن تعاون على تربية « الذوق اللغوى » ، ذلك أن الناس يتعلمون ضمن حدود أن يحبوا ما يسمعون ويرون . وقوة وسائل الإعلام التى تختص بها هى أنها تعمل بعملية الذيوع وجعل اللفظ مألوفا ، وهكذا تؤثر فى تربية الذوق اللغوى .

ولهذا الأمر دلالته بالنسبة للفصحى ، فالثقافة جسر من أحسن الجسور بين الشعوب ، على حد تعبير شرام ، وغنى عن البيان أنه من المتعذر أن تظل لغة بمأمن « الاحتكاك بلغة أخرى » ولذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطوير المطرد عن هذا الطريق (٢) .

— ٥ —

اللسان القومى
ووسائل الإعلام

ولقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من

---

(١) شرام : نفس المرجع ص ١٧٦ .
(٢) د . وافى نفس المرجع ص ٢١ .

المجتمعات وتسهل بينها وسائل الاتصال تتكون لها مع الزمن « لغة مشتركة » تقرب بينهم وتعين أهلها على تفاهم أسرع وأيسر ، وتقضى لهم مصالحهم الدنيوية . ولدينا فى العصر الحديث أمثلة كثيرة للغات المشتركة كالإنجليزية المشتركة التى تسود فى مناطق إنجلترا وكالفرنسية المشتركة التى تسود فى مناطق فرنسا .. إلخ[1] .

وتتخذ اللغة المشتركة فى بدء نشاطها مركزا معينا يتاح له من الظروف والفرص مالا يتاح لغيره ، فتتطلع إليه المناطق الأخرى ، وتسلم له الزمام فى النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية وينزح إليه الناس من كل صوب ثم تتبلور عملية الاتصال إلى مزيج لغوى منسجم يقبله الجميع وهو ما يسمى باللغة المشتركة .. ومراكز اللغات المشتركة فى العالم هى عادة العواصم التى يتهيأ لها من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مالا يتاح لغيرها من المناطق[2] .

ولذلك نرى فريقا من العلماء يذهب إلى تفسير اللغة على أساس عقلى أو نفسى ، ويرى أن اللغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار ونقلها من شخص إلى آخر ومن مؤيدى هذه المدرسة « سابير » .

ونجد علماء الفلسفة والمنطق ينظرون إلى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الأفكار فيقول الأستاذ جفوتز فى كتابه « مبادىء دروس النطق » : أن للغة ثلاث وظائف :

أولا : كونها وسيلة للتوصيل .

ثانيا : كونها مساعدا آليا للتفكير .

ثالثا : كونها أداة للتسجيل والرجوع .

وإذا كانت اللغة هى معامل التغيير فى حياة الإنسان فإننا نذهب فى هذا الصدد إلى ما ذهب إليه هـ . ج ويلز من أن الإنسانية قد مرت بمراحل ، لم يحددها بما تعود المؤرخون أن يحددوها به : لم يحددها بالعصر القديم أو الوسيط أو الحديث .. ولا على أساس أية ظاهرة اجتماعية أخرى ، إلا ظاهرة واحدة ، وهى التى

---

(١) د. ابراهيم أنيس : اللغة بين القومية العالمية (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠) ص ١٠٣ .

(٢) مجلة « اللسان العربى » العدد ٦ — ١٣٨٨ — هـ — الرباط — ص ١٩ .

تنزع بالإنسان إلى أن يحطم الحواجز التى تفصل مجموعاته بعضها عن بعض كلما امتدت فى الزمان ، وكلما تشعبت فى المكان .

ويرجح ويلز أن هذه المراحل خمس :

الأولى : هى المرحلة التى انبثقت فيها الحياة الإنسانية عن الحياة الحيوانية ، لأن ويلز يرى أن حياة الإنسان إنما هى امتداد للتاريخ الطبيعى .. ووجد أن هذه المرحلة تتسم باللغة ، واللغة والفكر لا ينفصم أحدهما عن الآخر ، فهما شيء واحد وليسا شيئين منفصلين .

أما المرحلة الثانية : فى نظر ويلز فهى التى جعلت الإنسانية تسير إلى الأمام وإلى أعلى : **أنها مرحلة الرموز** التى اصطنعها الإنسان تثبيتاً لمشاعره وتجاربه وأفكاره ووقائعه عبر الزمان والمكان ــ وهى المعروفة بالكتابة . **فعصر الكتابة والتدوين** فى نظر ويلز هو المرحلة الثانية بعد **مرحلة الكلام** المنطوق أو الكلام المجهور .

وهنا ننظر إلى هاتين المرحلتين على أنهما أساس ما جاء بعد ذلك من تطور فى استخدامات اللغة ، فالوسائل التى تتوسل بها إلى الأذن هى التى تعتبر امتدادا لما يسميه البلاغى العربى بالبيان بالقول ، والوسائل التى تتوسل بها إلى العين ، وخاصة الصفحات المطبوعة ، هى ما نجده عند البلاغى العربى باسم « **البيان بالكتاب** » .

والبيان بالكتاب هو المقابل لمرحلة الكتابة « والتدوين » وهو أساس ما تلاها كالمرحلة الطباعية ، كما كان البيان بالقول أساسا للمرحلة الإذاعية ، يقول صاحب البرهان :

« لولا الكتاب الذى قيد علينا أخبار من مضي من الرسل ، ونقل إلينا ما أتوا به من الكتب ، لما قامت لله ــ سبحانه وتعالى ــ حجة علينا ، إذ كنا لم نشاهدهم ونسمع حججهم ، ولم نعاين آياتهم ، ولانقرضت العلوم والروايات بانقراض أهلها وموت من تحملها ، ولم يبق فى أيدى الناس من ذلك ومن أخبار الماضين وآثار المتقدمين إلا اليسير مما تلقاه الخلف عن السلف ، ولذلك قيل « الكتاب أحد اللسانين » لأنك إذا قرأت كتابا كأنك قد سمعت لفظ صاحبه ، وقالوا : « اللسان مقصور على الشاهد ، والقلم ينطق فى الشاهد والغائب . والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس فى كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى من

بعده » ونترك البلاغى العربى لنعود إلى تصور ويلز » .

فنجد **المرحلة الثالثة** من تطور البشرية ، هى التى حققت للبلاغى تصوره فى أن يقرأ الكتاب بكل مكان وزمان ، وهى المرحلة التى ظهرت فيها الطبقة الوسطى ــ كما يقول المؤرخون ــ مرحلة **اختراع الطباعة** ، التى جعلت من هذه الكتابة وسيلة أكثر مرونة على الحفظ والنقل ، وهكذا اتسعت وظيفة الكتابة بفضل الطباعة اتساعا كبيرا .

ــ ٦ ــ

العاميات والمرحلة الطباعية :

وفى هذه المرحلة الطباعية التى يشير إليها ويلز ، نجد شاعر العصر الإلكترونى مارشال ماكلوهان ، يذهب إلى أن الطباعة بالحروف المتحركة لم تضف نفسها إلى الكتابة مثلها فى ذلك مثل السيارة التى لم تضف نفسها إلى الحصان . إن الطباعة بالحروف المتحركة بتكثيفها المكتوب وتمديده ، كثفت هيكل الكتابة ونشرته . على أن وسيلة الاتصال الجديدة ليست ــ إطلاقا ــ إضافة إلى وسيلة اتصال قديمة ، كما أنها لا تدع الوسيلة القديمة تعيش فى سلام . فوسيلة الاتصال الجديدة لا تكف عن الضغط على وسائل الاتصال القديمة وتجد لها أشكالا جديدة واستخدامات حديثة . هذا وقد دعمت الثقافة المخطوطة (البيان بالكتاب) الأساليب الشفاهية (البيان بالقول) دعما كبيرا وهى الأساليب التى تعكس ما يطلق عليه البعض بالمذهب المدرسى . ولقد أدت الطباعة إلى ظهور ذاكرة قوية بالغة الاتساع تستطيع أن تستوعب كل مؤلفات الماضي .

وهناك جانب آخر أحدثته نمطية الصفحة المطبوعة ، وهو زيادة التأكيد على الهجاء « الصحيح » والإعراب ، والنطق ، وفضلا عن ذلك أدت الطباعة إلى نتائج أخرى ، فلقد أسهمت فى فصل الشعر عن الغناء ، وفى فصل النثر عن البلاغة ، وفى فصل العامية عن لغة المتعلمين .

وإلى جانب النتائج السيكولوجية والاجتماعية كان للطباعة نتيجة أخرى ، وهى مد طابعها الانشطارى والتماثلى إلى مناطق مختلفة ومجانستها تدريجيا ، مما يؤدى إلى زيادة قوتها وطاقتها وهى الصفات الأصيلة للقوميات الجديدة الناشئة .

ويعتبر ماكلوهان ظهور القومية واحدة من أهم وأشهر النتائج غير المنتظرة والعديدة التى أحدثتها الطباعة .. فالتواجد السياسي للأوربيين من خلال اللغات العامية والتجمعات اللغوية ـــ كان أمرا غير معقول قبل تحويل الطباعة إلى وسيلة اتصال جماهيرية ممتدة .. فالقبيلة بوصفها شكلا ممتدا للأسرة ولروابط الدم ـــ تفجرت بفعل عوامل الطباعة ، ثم ما لبثت أن حلت محلها روابط اجتماعية متجانسة مؤلفة من أناس أهلوا لأن يكونوا أفرادا .. ولقد ظهرت القومية ذاتها فى شكل صورة بصرية جديدة ومكثفة تعبر عن المصير وعن الكائن المشتركين ، وتعتمد على سرعة حركة الإعلام التى لم تكن معروفة قبل ظهور الطباعة . أما الآن فإن القومية ـــ بوصفها صورة ـــ تعتمد بصفة أساسية على الصحافة ولكنها تصطدم بكافة وسائل الاتصال الكهربائية .

وذلك أن الطباعة ـــ فى نظر ماكلوهان ـــ هى التى أنشأت روح الفردية وروح القومية فى القرن السادس عشر فى أوربا . فاختراع جوتنبرج حروفه المتحركة وتنضيدها المعروف فى أسطر مكونة من كلمات كان له هذا التأثير . فالحضارة تشتق طابعها من وسيلة الاتصال الجماهيرية . ويرجع إلى الطباعة ارتباطا بمرحلة القوميات الأوربية : القضاء على اللاتينية ، وازدهار العاميات وتحولها إلى لغات مستقلة .

كما أن الطباعة أدت إلى توحيد بعض اللهجات فى المقابل لارتباطها بالقومية كذلك ، على نحو ما نجد فى اللغة الألمانية بخاصة ، إذ كانت الشعوب الجرمانية مركبة من عدة قبائل : **السيدانيون والساكسونيون والسويسريون والبافاريون والبروسيون والوستفاليون** .. إلخ . ، وكان كل شعب يتحدث بلهجته الخاصة . وكانت هذه اللهجات مختلفة بعضها عن بعض إلى حد أن لغة البروسية القدمية ، اتسع نطاقها أكثر من اللهجات الأخرى الشقيقة . فضلا عن أن الاشتقاق الجبرى فرض على اللغات السامية عامة واللغة العربية خاصة صلابة حالت دون تغيرها وفسادها . وكما أن ٢ × ٢ فى العلوم الرياضية تساوى ٤ ، كذلك الأشكال الصلبة للغة العربية لا تحتمل أى تغيير جوهرى ، دون أن يتطرق إليها الفساد . وفى تقديرنا أن هذه الطبيعة الذاتية التى طبعت عليها اللغة العربية ، جعلتها فى مركز الانفراد والتباين ، وسط اللغات الأوربية ، فالكتب والصحف فى جميع أنحاء العالم العربى مازالت حتى يومنا هذا محافظة على قواعد النحو الصلبة ، التى أقرها القرآن الكريم منذ نحو ألف

وأربعمائة عام ، أما اللهجات الشعبية ، فقد بسطت قواعد النحو والتجويد ، وأضافت تعبيرات إقليمية عذبة طريفة إلى مفرداتها . وبين الفينة والفينة ، أخذت اللغة الفصحى تقتبس دون أن تشعر ، عناصر من اللغة العامية ، فازدادت مفرداتها ، لكن الفارق الأساسى ظل قائما بينهما .

بيد أن هذه الظاهرة ليست ناشئة عن مشكلة لغوية ذات طابع علمى أو نظرى ، بل هى كما يقول « جرمانوس » مشكلة متعلقة بمستقبل الثقافة العربية وربما كانت مشكلة ذات طابع سياسى ، فاللغة العربية الفصحى تربط بين أبناء العروبة ، من مراكش غربا إلى جاوه شرقا . وهى الرابطة بين جميع المسلمين المثقفين فى أنحاء العالم قاطبة . فإذا انفصمت هذه العروة ، فقد تنهار من جرائها الوحدة الثقافية ، بحكم استنادها إلى دعامة اللغة .

فالوستفالى لا يستطيع التفاهم مع الساكسونى أو السويسرى . ونظرا إلى أن اللغة الألمانية منحدرة من أسرة اللغات الآرية فإنها لم تربط بالرباط الوثيق الجامد الذى ربطت به اللغة العربية ، بحكم تكوينها . فهذا الاعتبار ــ مضافا إلى الاعتبارات السابقة ــ أحدث فى هذه اللهجات تشعبا واسع المدى . والتميز الذى فصل لغويا بين هذه القبائل لم يلبث أن فصل بينها سياسيا أيضا ، أما فكرة الوحدة الألمانية ، فهى وليدة القرن التاسع عشر ، ولم تتحقق إلا فى القرن العشرين وبخطوات بطيئة ، وعندما قام مارتن لوثر بترجمة التوراة إلى اللغة الألمانية الرسمية ، ساعد على استقرار هذه اللغة ، إذ أصبحت أداة لنشر الآداب والعلوم ، وما لبثت أن انتشرت فى كل مكان ، وفى القرن السادس عشر ، كانت الظروف مواتية لاتحاد اللهجات . فحركة الإصلاح الدينى التى أعلنت الحرب على البابوية ، أخذت تدعو للقضية الوطنية ، مناصرة للغات القومية على اللغة اللاتينية ، لغة العصور الوسطى ولسان حال الكنيسة الكاثولوكية . ثم جاءت النهضة العلمية فأسدت يد المعونة إلى هذه الحركة . لكن هنالك عاملا قويا كان له الفضل فى كسب المعركة الحاسمة : ألا وهو اختراع الطباعة وانتشارها ، ففى سنة ١٥١٦ ظهر ٥٥ كتابا مطبوعا ، ثم ارتفع هذا العدد إلى ٤٩٨ فى سنة ١٥٢٣ .

« وقد طبعت مؤلفات لوثر نفسه فى ذلك الوقت ، والمعروف عن الألمان أنهم مولعون بالكتب ، تواقون إلى بحث النظريات ، ميالون للدرس والتمحيص . لذلك

أخذت المدارس تنشأ ، حتى بلغت المئات عدّاً ، وعكف الشعب على الاطلاع ، متخذا الألمان نبراسا يهتدى به ، وترجمة التوراة مثالا يحتذى ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبحت اللغة الألمانية أداة لنشر الثقافة والأدب بين جميع الألمان ، الذين لقنوها فى المدارس وتعودوا تدريجيا على استعمالها فى المجتمعات وفى المحادثات اليومية .

وبديهى أن كل قبيلة من القبائل الجرمانية مازالت تعرف لهجتها الخاصة وتستعملها . ولكن كل ألمانى ملم بالقراءة والكتابة يفهم فهما تاما لغته الفصحى . وهنا يجب أن نقول أن جميع الألمان الذين نشأوا فى البلاد يجيدون القراءة والكتابة ، أما اختلاف اللهجات فمن السهل ملاحظته فى النطق إذ أنه ظل إقليميا . أما اللغة الألمانية المتحدث بها والمكتوبة ، فهى واحدة . ويرجع الفضل فى ذلك كما يقول جرمانوس إلى ترجمة التوراة وإلى المدارس ، فلولا المدارس ، والكتب الرخيصة الثمن ، والروح التواقة للعلم ، لما وجدت الأمة الألمانية المتحدة . ولذلك يقول جرمانوس أيضا :

« للمسلمين كتابهم الكريم باللغة العربية ، هو القرآن ، تلك المعجزة الرائعة التى لا يستطيع أى إنسان مباراتها ، وقد وضعت قواعد النحو وحددت تحديدا أزليا ، فإذا استطاع المسلمون بناء مدارس فى جميع المدن والقرى وإذا عمموا اللغة الفصحى ، لانبثقت عبقرية القرويين والعمال ، ولأنتجت بلا مراء روائع أدبية جديرة بالإعجاب ، لقد كانت الطباعة قوة فعالة فى نشر التعليم ، أما الآن فأمامنا أداة أعظم شأنا لتعليم الشعب لغة بلاده ، وهى المذياع ، فالمذياع عامل قوى من عوامل التقدم ومكافحة الأمية والفقر ، ونشر المعرفة ، والترفيه عن النفس ، وهو عامل لم يسبق له مثيل فى الأزمنة الماضية .

والروح الغريزية للشعوب الناطقة بالضاد ، ستحفزها على انتهاز الفرصة للظهور فى الميدان ، فمنذ خمسين عاما ، قلما كنا نعثر على قصة عربية حديثة ، وقلما كنا نجد جمهورا من القراء لمطالعتها . ولا غرو ، فقد كان مجتمع الناطقين بالضاد معجبا بأئمة الأدب القديم ، ضاربا على مثالهم ، حتى فى أسلوب الرسائل المتبادلة ، وإن مجرد إلقاء نظرة على الرسائل المنشورة فى الكتب المدرسية منذ نصف قرن ، يجعلنا نتحقق من الفارق الكبير بين أسلوب المعاصرين ، وأسلوب أجدادهم ، لقد سرّى المرحوم السيد مصطفى المنفلوطى عن نفوسنا ، بقصصه ، التى نسجها

على منوال القصص الفرنسية ، فأخذنا نندب حظ ماجدولين العاثر ، أما الآن فيوجد نثر أدبى عربى أصيل غير مقلد ، وهو يعبر عن أفكار المؤلفين تعبيرا ذاتيا ، فالموضوع الآن هو الذى يجب أن يجتذب اهتمام القارىء ، لا الأسلوب البديع والجمل الطويلة المسجوعة التى يحاول بها الكاتب إظهار براعته ، وقوة بيانه ، بل يجب أن يتجه المؤلف إلى كشف ما خفى من آلام الشعب ، محاولا تحسين حاله . وتحقيق آماله . » .

ومن أجل ذلك نطرح اختبارا للبحث فيما يتعلق بأثر هذه المرحلة على الوطن العربى من جهة ، وعلى اللغة العربية من جهة أخرى فنجد أولا أن المرحلة الطباعية كان لها أثرها فى تفتيت العالم الإسلامى وتجزئته كما فعلت مع العالم المسيحى والعالم الأوربى ، وفى هذه المرحلة أيضا ، حيث دخلت الطباعة فى الشرق الإسلامى والعربى ، وازدهرت الصحافة وحركة البعث ، ظهرت الدعوات الإقليمية الضيقة فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن .. ونلاحظ هنا أن الدعوة إلى العامية ترتبط بالإقليمية من جهة وبالمرحلة الطباعية من جهة أخرى ، وكان دعاة العامية فى كل بلد هم دعاة الإقليمية من الوجهة السياسية مثل دعاة الإقليمية السورية أو الفرعونية وغيرهم . فليس ثمة عامية واحدة بل لهجات متعددة ، فعامية مصر والشام والعراق والمغرب والجزيرة يختلف بعضها عن بعض اختلافا قليلا أو كثيرا . وقبول العامية من حيث المبدأ كما يذهب إلى ذلك الأستاذ محمد المبارك — قبول لتعدد اللغات فى الأقطار العربية ولتنتهى هذه اللغات باللغة العربية إلى الحال الذى انتهت إليه اللاتينية فى أوربا ..

ولقد هيأت الطباعة لهؤلاء الدعاة مناخ الدعوة ، إلى حين كان أثر هذه الوسيلة على الدعوة إلى العامية أو محاربة الفصحى مشتقا من طابع المرحلة الطباعية التى تعتمد على الحروف والكلمات المتتابعة ، ومن هنا فإننا لن نستطيع بحال أن نفصل بين هذا الافتراض وبين الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية . وهى دعوة على الرغم من إغفالها المقصود لخصائص العربية فى تكوين الكلمة وبنائها ونموها واختلافها عن اللاتينية فى رسم الكلمات وبنائها (١) إلا أنها تكشف بوضوح عن أثر الطباعة فى هذه الدعوة لما بين حروف الهجاء والإعراب والحروف الطباعية من صلة

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية (القاهرة : دار المعارف ١٩٦٠) ص ٢٤٠ .

وثقى . ونجد نفس الشيء بالقياس إلى المتأثرين بهذه المرحلة الطباعية حين يذهبون إلى أن نسقط الإعراب من هذه اللغة أصلا وأن نكتبها بالحروف اللاتينية لعجز الحرف العربى عن متطلبات اللغة الحديثة .. إلخ[١] .

ونذكر أن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن قد شهد نهضة طباعية وصحفية فى الأقطار العربية وهى المرحلة التى شهدت دعوة « سبيتا ١٨٨٠ » والتى تنبأ فيها بمصير موت الفصحى كما ماتت اللاتينية ، ولم يدرك هذا المستشرق الألمانى وكثيرون ممن ذهبوا مذهبه أن حركة التطور اللغوى فى الوطن العربى تختلف عما كانت عليه أيام القوميات فى أوربا .

ومضت دعوة « سبيتا » دون أن تجد لها صدى فى المناخ الشعبى البعيد عن الفكر الاجنبى[٢] .

وظل قادة اليقظة على موقفهم من تأييد استخدام العامية فى الصحافة الشعبية لتوعية الجماهير وتثقيفهم ، كأثر من آثار المرحلة الطباعية أيضا ، وظل « عبد الله النديم »[٣]يثير الوجدان الشعبى والضمير القومى بمقالاته الثورية فى « التنكيت والتبكيت » حتى إذا تمت التعبئة الثورية وجندت قيادة الثورة العرابية النديم ليكون الناطق الصحفى بلسانها ، واقتضى الموقف أن يعدل عن العامية إلى الفصحى ، وصدر قرار رسمى من أحمد عرابى بأن تحل جريدة « الطائف » الناطقة بلسان الأمة محل جريدة التنكيت والتبكيت ، اعتبارا من عددها التاسع عشر (٢٣ / ١٠ / ١٨٨١)[٤] .. وفى الشهر التالى مباشرة ، نوفمبر ١٨٨١ ظهرت مجلة « المقتطف » بدعوة إلى كتابة العلوم بالعامية لغة الحديث .

والتوقيت ــ كما تقول الدكتورة بنت الشاطىء ــ [٥] لافت ؛ ويربط الدعوة بهذا التحول فى لغة الصحيفة الرسمية للقيادة الثورية الشعبية ، أكثر مما يربطها ــ كما رأت الدكتورة نفوسة زكريا بدعوة سبيتا [٦] التى كان قد مضى عليها نحو عامين .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤١ .

(٢ ، ٣) دكتورة عائشة عبد الرحمن : لغتنا والحياة (القاهرة : دار المعرفة ، ١٩٦٨) ص ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

(٦) د. نفوسة زكريا : عبد الله النديم ، بين العامية والفصحى (القاهرة الدار القومية ، ١٩٦٦) ص ١٣٣ .

وفى عام ١٨٩٣ قام ويلكوكس يدعو إلى إحلال العامية محل الفصحى ، متخذا من « مجلة الأزهر » منبرا لدعوته ، وأعلن أنه يفسح صدر المجلة للعلماء ، على أن يكتبوا بحوثهم بالعامية الحية التى يعرفها الشعب ، لا الفصحى الميتة التى لا يعرفها إلا قلة من المتخصصين : ... وهو منطق لم يسغ العلماء المصريون شذوذه ، فوقفوا من مجلة الأزهر موقفا أرغمها على الصمت والاحتجاب بعد صدور عشرة أعداد منها فحسب . لقد أصدر نفر منهم مجلة علمية مضادة لها هى مجلة « المهندس » لنشر البحوث الرياضية العلمية والرياضية باللغة الفصحى التى زعم ويلكوكس أنها لا تصلح لغة للعلوم [١] .

وقد وجدنا النديم بعد أن وئدت الثورة عسكريا يتصدى فى « الأستاذ » التى أصدرها فى ١٨٩٢ للنضال عن لسان الأمة والرد على ويلكوكس [٢] .

ولعل الفصحى لم تجد من يخاصمها فى الربع الثانى من القرن العشرين مثل سلامة موسى الذى جند قلمه الطيع وأسلوبه البسيط ومنطقه السهل ، للدعوة إلى نبذ الفصحى .

وأيا كان الأمر فقد اختلط على هؤلاء الدعاة أمرهم ، كما اختلط على الداعين للحروف اللاتينية ، حيث كان على العرب أن يدخلوا مرحلة جديدة من مراحل التطور الإنسانى التى تصورها ويلز ، ونعنى المرحلة التى يسميها المرحلة الإذاعية أو « مرحلة الإذاعة » وفى هذه المرحلة استطاعت البشرية أن تجعل اللحظة المحدودة لحظة عالمية ، وأن ترتفع على الحواجز المادية والجغرافية ، ومعنى تسمية هذه المرحلة بالمرحلة الإذاعية ، أن ويلز جعل الإذاعة عاملا كبيرا من عوامل التقدم الإنسانى ، وجعلها أعظم وأخطر من الطباعة ، وأرقى من جميع وسائل النقل والاتصال التى كانت مقصورة على نقل الأشياء والأجسام ... ذلك لأننا بواسطة الإذاعة استطعنا أن نسجل الأفكار والمشاعر وننقلها ونكثرها ، ثم نتخطى بها جميع الحواجز والحدود . كما أن هذه الإذاعة تنساب كما ينساب الهواء ، وكما ينساب الماء من الصنابير فى كل بيت ، وفى كل إقليم ، وفى كل مكان [٣] .

(١) دكتورة عائشة عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١١ .
(٣) دكتور عبد الحميد يونس : فن الإذاعة (سرس الليان - مركز تنمية المجتمع ، ١٩٦٩) ص ١١ .

ومنذ فترة غير طويلة كان الراديو والتليفزيون هما الوسيلة العظمى ، إن لم تكن الوحيدة ، من بين وسائل الاتصال الإلكترونية . أما الآن فقد أخذ الوضع يتغير بسرعة عاما بعد عام . فإلى جانب إذاعة برامج الراديو والتليفزيون خلال الدوائر المفتوحة ، هناك العديد من التجديدات التى طرأت فى هذا الميدان ، ومن بينها استحداث وسائل التسجيل والتخزين وإعادة الإذاعة بعد ميعادها . ونجد اليوم الكثير من المشتغلين بالتعليم وبوسائل الاتصال يتحدثون عن السبل المتعددة الأطراف التى يمكن استخدامها فى التعليم ، وهم عندما يقولون ذلك لا يفكرون فى وسائل الاتصال وكيف أنها تستطيع أن تعمل جنبا إلى جنب مع طرق التعليم التقليدية فحسب بل الواقع أنهم يعنون استخدام الترابط العديد بين الوسائل السمعية والبصرية والمتعددة .

وفى بعض البلاد نجد هذه المستحدثات قد قامت بالفعل بلفت نظر المسئولين عن التعليم الذين يرون فيها إضافة هامة جدا للإذاعة على الدوائر المفتوحة . فمثلا نجد فى كندا فى إقليم أونتاريو أن فرع التليفزيون التابع لوزارة التعليم المحلية قد تغير وحل محله هيئة الاتصالات التعليمية . وهذا لا يعنى أن وسائل الاتصالات قد اتسعت وكبرت فحسب ، ولكن يعنى فى الواقع تفويضا وتشجيعا لكل من يهمه الأمر فى استخدام الوسائل الحديثة فى إعداد ونشر المادة التعليمية .

ورغم ذلك فليس ثمة خطر من أن يكون لازدياد أهمية الأجيال الجديدة فى وسائل الاتصال أثر فى أهمية الإذاعة على الدائرة المفتوحة من الناحية التعليمية . والملاحظ أن جميع هذه الوسائل وهى كلها وسائل اتصال ، تتشابه فى أساسها ، إلا أن القدرة على دعم حواس السمع والبصر فى الإنسان تشوبها فى بعض الأحيان نواحى نقص تجعلها تختلف بعضها عن البعض اختلافا بيِّناً من وجهة نظر المهمة التى تستطيع أن تقوم بها الوسائل .

والإذاعة بالراديو تعتبر أكثر سهولة ، إن لم تكن الأكثر سهولة من بين وسائل الاتصال . وقد أدت التنوعات العديدة فى أنواع أجهزة الراديو ، من ترانزستور يمكن نقله إلى أى مكان ، إلى راديو صغير الحجم يحمل فى الجيب أو اليد ، إلى أن الاستماع إلى البرامج يمكن أن يتم فى المنزل وفى الأماكن العامة ، خلال أوقات الفراغ ، وخلال أوقات العمل ، والسفر ، ويمكن أن يتم انفراديا أو جماعيا وغير ذلك من

الأمور ؛ مما يؤدى إلى تيسير الاستماع كثيرا . ونجد أن الراديو فى كثير من البلاد النامية هو المصدر الوحيد للمعلومات والإرشادات للسواد الأعظم من سكان هذه البلاد . وخاصة الذين لا يقرأون ولا يكتبون منهم ، وهم لا يزالون نسبة كبيرة من سكان هذه البلاد ، بل ومن سكان العالم بأسره . ونجد أن الراديو فى كثير من هذه الحالات هو المصدر الوحيد للتعليم الذى يصل إليهم ، وأنه الرابطة الوحيدة لهم بالعالم الخارجى ، وخاصة إذا كانوا يعيشون فى مناطق نائية تبعد لأسباب جغرافية أو مناخية عن أى مركز إدارى أو ثقافى أو تعليمى .

وقد كان لاختراع الراديو الترانزيستور وانتشاره الواسع وبسعر زهيد نسبيا أثره الهام فى جعل استقبال برامج الراديو من السهولة بمكان حتى فى المناطق الفقيرة التى لا يوجد بها تيار كهربائى . وكما أوردنا كان للسعر الزهيد الذى تباع به أجهزة الراديو الترانزيستور أثره الفعال فى انتشار الراديو .

أما فيما يختص بالتليفزيون فإننا نجد أنه قد بدأ يأخذ مكانه فى بيوت العالم وأخذت أجهزة الإرسال التليفزيونى تنتشر فى كل ركن من هذا العالم . ونجد أن البلاد الصناعية بها أكثر من شبكة واحدة ، كما نجد أن سكان المناطق الآهلة بالسكان ، فى هذه البلاد المتقدمة يستطيعون أن يديروا مفاتيح أجهزتهم ليحصلوا على برامج خمس قنوات أو عشر .

وأخذت النواحى الفنية فى الإرسال التليفزيونى تتطور ، فى الذبذبات ، وأخذ التليفزيون ينتشر أكثر فأكثر . وفى بعض البلاد نجد أنها تستخدم الموجات الكهربية فى إرسال البرامج التعليمية .

ونجد أن بعض البلاد يقف على عتبة هذا العصر الجديد والعجيب حقا ... ففى كثير من البلاد المكتظة بالسكان يستخدم نظام الهوائى التليفزيونى الجماعى ، وهذا النظام غالبا ما يكون استخدامه بواسطة التليفزيون التجارى . وفى هذا النظام يقام هوائى مخطط بحيث يلتقط أكبر عدد من محطات تليفزيون الدائرة المفتوحة ويغذى هذا الهوائى البرامج إلى سلك يجرى بجوار أسلاك الشبكة التليفزيونية وتربط أجهزة الاستقبال إلى شبكة السلك ، وفى كثير من الحالات نجد أن هذا النظام لا يوزع البرامج التى يلتقطها من محطات التليفزيون العادية بل أنه يقوى شبكة برامجه هو

الآخر .

وكان لاستحداث هذا النظام ، وهو الإرسال السلكى أو كما يطلق عليه إذاعة سلكية ، الفضل فى فتح باب جديد من أبواب وسائل الاتصال . وبفضله أصبحت البرامج تدخل البيوت والمدارس أكثر بكثير من عدد محطات الإذاعة المحلية . والنظام السلكى فى الوقت الحاضر يستطيع أن يحمل فى ذات الوقت برامج أكثر من ٢٥ قناة تليفزيونية ، وهو عدد يفوق العدد الذى يتحمله أى جهاز استقبال تليفزيونى يستخدم فى يومنا هذا . وبمضاعفة جهد هذا النظام يمكن مضاعفة عدد القنوات ، ولا شك فى أنه فى القريب العاجل سنجد أن أجهزة الاستقبال التليفزيونى تصبح صالحة لاستقبال برامج تذاع على العديد من القنوات .

ويمكن أن نتوقع أن يزداد عدد القنوات إلى خمسين أو مائة ، وخاصة إذا ما استخدمت الأنواع الحديثة من الأسلاك المصنوعة من البلاستيك أو إذا ما استخدم المرسل الجوى المليمترى .

وليس ثمة شك فى أن تطوير النظام السلكى فنيا سيؤثر تأثيرا واضحا فى تطوير نقل المعلومات ووسائله التى تعتمد حتى الآن على الأسلاك التلفزيونية العادية .

وفى نفس الوقت نجد أن ثمة تطورا آخر يحدث بجانب هذا الذى ذكرناه ، ألا وهو الإذاعة عن طريق الأقمار الصناعية .

وتجوب الأجواء الآن أقمار صناعية إذاعية وهذه الأقمار تقوم بإرسال البرامج الإذاعية والتلفزيونية داخل القارات وعبرها إلى قارات أخرى ، وإن كانت التطورات الفنية الحالية لاتزال تحد من إمكانيات هذه الأقمار . ونتيجة لذلك ينبغى إقامة محطات أرضية خاصة لها هوائيات ضخمة وشديدة الحساسية حتى تستطيع أن تلتقط الإشارات من القمر الصناعى وتضخمها حتى يتم الإرسال .

وكثير من البلاد اليوم ، وخاصة الواسعة المساحات منها ، تفكر فى استخدام الأقمار الصناعية لنقل إذاعاتها المحلية . وتقوم كندا حاليا ببناء أول قمر صناعى إذاعى على ارتفاع ٣٠٠ , ٢٢ ميل فوق خط الاستواء . وستتلقى العديد من المحطات الأرضية المزمع إقامتها البرامج الإذاعية والتلفزيونية وتنقلها إلى أبعد نقطة فى

هذه البلاد الشاسعة .

وثمة تطورات هامة أخرى تحدث فى أساليب التسجيل والتخزين فيما يختص بالمواد السمعية والبصرية على حد سواء .

فقد ظهرت فى الأسواق أنواع جديدة من أجهزة التسجيل معظمها يدار بالبطاريات وظهرت فى الأسواق آلات تسجيل الكاسيت السهلة النقل ، والكثير من البرامج الترفيهية والبرامج التعليمية المسجلة على شرائط أو على كاسيت ، تباع فى الأسواق اليوم أو تقوم بتسويقها الهيئات التعليمية وبثمن معتدل جدا .

أما فيما يختص بالتلفزيون فقد حدثت تجديدات وتطورات على أجهزة تسجيل (الفيديو) مما سهل تسجيل البرامج وتخزينها لاستخدامها فيما بعد (هذا فى الحالات التى أمكن فيها التغلب على مشاكل حقوق النشر والتوزيع) . وقد انتشرت أجهزة تسجيل الفيديو فى المنازل الخاصة وفى المدارس وغيرها من المعاهد وأخذت تزداد مما سيجعل الحصول عليها من السهولة بمكان وخاصة إذا ما أصبح سعرها فى متناول الناس .

ولعل أهم تطور قد يحدث فى هذا الميدان ويكون له أهمية خاصة فى عمليات التخزين والتوزيع هو استحداث أشرطة الفيديو الملون ، وكاسيت الفيديو ، التى بدأت فعلا تظهر فى بعض الأسواق .

كل هذه التجديدات التى طرأت على سبل التسجيل وعلى وسائل البث والنقل والإذاعة سيكون لها أكبر الأثر فى وسائل الإرسال والتوزيع . ويعتبر (الكاسيت) و (الخراطيش) من أهم الخطوات فى سبيل الحصول على إعادة إذاعة أتوماتيكية . وكل ما على المشاهد الذى يريد مشاهدة برنامج ما هو أن يبعث برقم معين وسرعان مايحصل على ما يريد مشاهدته عن طريق (الكابل) أوتوماتيكيا . وهذه الطريقة المستحدثة ستقضى تماما على مشكلة الانتظار حتى يحين موعد إعادة برنامج ما ، ومما لاشك فيه أن آلات (الكمبيوتر) ستستخدم فى التصنيف والحجز وفى إعداد البرامج التعليمية وتحليلها وتبيان طرق استخدامها .

ولكن لنعد مرة أخرى إلى الإذاعات التقليدية بالراديو والتليفزيون وهما كما سبق أن قلنا أعظم وسائل الاتصال المتاحة حاليا ، والحقيقة أن الظن بأن التطورات الفنية

المستحدثة ستجعل منهما شيئا باليا وعتيقا ظن لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد ، وذلك لأن أى جديد فى وسائل الاتصال لم يسبق له أن قضي تماما على ما سبقه من وسائل ، بل الواقع أن هذا الجديد يؤثر على القديم فى أن يعيد إليه الشباب ، ويثريه بالأفكار الجديدة والأساليب الفنية المستحدثة ، ولأن الوقت طويل أمام العالم قبل أن يتأكد الناس من فعالية هذه الأساليب الجديدة وقبل أن يدرسوها دراسة وافية وخاصة من الناحية الاقتصادية حتى يكون استخدامها على نطاق واسع لأهداف التعليم وخاصة فى البلاد النامية أمرا ذا قيمة حقا ، وأخيراً فانه مهما تكن طبيعة هذه التجديدات ، ومهما تكن طبيعة شكل الفيديوتيب مستقبلا ، فإن فوائد هذه التجديدات ونواحى القصور فيها لاتزال ، من حيث المبدأ ، كما هى . ولنقم الآن بتحليل هذه الأساليب ومزاياها ونواحى القصور فيها ، ومدى فعاليتها فى نواحى التطبيق العملى لاستخدامها فى نشر الفصحى المشتركة وتعميمها .

فإذا كانت الطباعة قد أدت إلى تفجيرات فى المجتمعات وأصبحت فردية مجزأة وارتبط بتلك التفجيرات ازدهار العاميات والدعوات إليها فالكهرباء ليست عامل تفجير وتجزىء تماما كما يفعل الراديو والتلفزيون حيث يفرضان مشاركة فى العمق .

وإذا كانت الطباعة قد أدت إلى الفردية والقومية الضيقة ، فإن الإذاعة على العكس من ذلك قد أدت إلى التجميع والقبلية مرة أخرى ، على حد قول ماكلوهان . فالكهرباء والراديو والتلفزيون ليست عوامل تفجير وتجزىء ولكنها عوامل تجميع والتئام . ونحن نعيش فى عالم أقرب إلى التكتل والتكامل ، مثله فى ذلك مثل الدائرة الكهربية سواء بسواء ، وقد انتعش الإحساس الجمعى والشعورى بالعالمية فى هذه المرحلة الإذاعية .

وبناء على هذا الفهم ، فإننا نذهب إلى أن الدعوات العامية فى مصر والبلاد العربية حين بلغت ذروتها فى أواخر المرحلة الطباعية ، إن جاز هذا الحسم التعسفى بين المراحل ، فإن المرحلة الإذاعية تدق أبواب العالم — وفى العشرينات . وأثناء ذلك دخلت الإذاعة مصر وتلتها بلاد العرب . وعلى الصعيد العربى ، كان مغزى ذلك الإيذان بميلاد قرية عربية من المحيط إلى الخليج إن جاز هذا التعبير ، وهو ما سيحققه بالفعل استخدام أقمار الاتصالات فى الإعلام ، بما يؤدى إلى انتعاش الإحساس

الجمعى العربى ومقارنة الدعوات الإقليمية ، وما ارتبط بها من دعوات إلى العامية . ومن هنا ارتبطت المرحلة الإذاعية باللغة الفصحى المشتركة . وطبيعة الإعلام الحديث تؤيد إلى حد كبير هذا الافتراض الذى نطرحه للمسار اللغوى العربى ، فالناس فى عصر الإذاعة المسموعة والمرئية لا يقنعون إلا بالمشاركة الإيجابية والالتزام . وهذا المطلب الاجتماعى يفرض على وسائل الإعلام ، التى تميز حضارتنا المعاصرة ، أن تكون لغتها ــ وخاصة بعد استخدام القمر الصناعى العربى للاتصال الإعلامى ــ اللغة العربية الفصحى المشتركة ، التى تعبر عن ذلك الدور الفعال .

ووسائل الإعلام تتوسل إلى الجماهير الديمقراطية منذ البداية والجماهير الشعبية والصفوة معا ، فاللغة الإعلامية المشتركة هى التى تعود على بدء إلى المدركات الكاملة والانطباعات الفنية التى نحسها ونراها ونلمسها ونسمعها ونعيشها ونشارك فيها .

وإذا كانت الرؤيا المستقبلية تذهب بنا إلى أن استخدام أقمار الاتصالات فى الإعلام تؤذن بميلاد « قرية عربية » من المحيط إلى الخليج ؛ فإن هذه الرؤيا المستقبلية تقوم على أساس من دراسة الواقع الإعلامى والتى جعلتنا نذهب إلى أن المرحلة الإذاعية ــ على الصعيد العربى بخاصة ــ **ترتبط باللغة العربية الفصحى المشتركة** . وطبيعة الإعلام الحديث تؤيد إلى حد كبير هذا الافتراض الذى طرحناه للمسار اللغوى العربى ؛ فقد أدرك القائمون على الإذاعات الأجنبية الموجهة إلى البلاد العربية أن اللغة العربية الفصحى هى وسيلتهم الوحيدة للاتصال بالجمهور العربى ؛ ولذلك وجدنا من خلال الإحصاءات العالمية أن اللغة العربية تحتل المكان الثابت بين اللغات المستخدمة فى الإذاعات الأجنبية ، حيث تستخدم ٦٧ محطة إذاعة أجنبية فى العالم اللغة العربية[١] . ويوضح الجدول التالى اللغات الأساسية المستخدمة فى الإذاعات الدولية التى تستخدم التردد العالى فى جميع أنحاء العالم :

---

(١) د. جيهان أحمد رشتى : الإعلام الدولى بالراديو والتليفزيون ، (القاهرة ، دار الفكر العربى : ١٩٧٩) ، ص ١٦ .

الترتيب	اللغة	عدد المحطات	الترتيب	اللغة	عدد المحطات
١	الإنجليزيـة	١٠٣	١٤،٥	الصرب	١٨
٢	الفرنسيـة	٧١	١٤،٥	البلغاريـة	١٨
٣	العربيـة	٦٧	١٧	السواحليـة	١٧
٤	الأسبانيـة	٥٩	٣٠	الفارسيـة	١٦
٥	الألمانيـة	٥١	٢٠	اليونانيـة	١٦
٦	الروسيـة	٤٠	٢٠	الهنديـة	١٦
٧	البرتغاليـة	٣٦	٢٠	البولنديـة	١٦
٨	الأندونيسية	٢٣	٢٠	التايلانديـة	١٦
٩	الصينيـة	٢٢	٢٣	الأوردو	١٥
١٠	التركيـة	٢١	٢٤،٥	الألبانيـة	١٤
١١	الرومانيـة	٢٠	٢٤،٥	التشيكيـة	١٤
١٢	الإيطاليـة	١٩	٢٦	السويديـة	١٣
١٤،٥	المجريـة	١٨	٣٧	الأوكرانيـة	١٢
١٤،٥	اليابانيـة	١٨			

ترتيب اللغات التى تستخدمها عشرات أو أكثر من المحطات الإذاعية الأجنبية التى تستخدم التردد العالى .

واللغة العربية ليست جديدة على الإذاعة ؛ فقد استخدمت على نطاق واسع فى الإذاعات الموجهة منذ فترة طويلة . وقد استخدمتها هيئة الإذاعة البريطانية بانتظام منذ سنة ١٩٣٦ . وربما كان سبب انتشار استخدام اللغة العربية — كما ترجع د .جيهان رشتى[١] — يرجع إلى توافر أجهزة الإرسال بالموجة القصيرة فى البلاد العربية ، وقلة التشويش على الإذاعات التى تستخدم التردد العالى . واللغة العربية مستخدمة على نطاق واسع فى إذاعات الشرق الأقصى (اليابان ، كوريا الشمالية ، وكوريا الجنوبية ، والصين الوطنية والصين الشعبية) وأمريكا اللاتينية (كوبا ، شيلى ، إكوادور ، وفنزويلا) . وعلى سبيل المثال فإن أسبانيا تستخدم ثلاث لغات فقط منها

---

(١) د جيهان أحمد رشتى . الإعلام الدولى بالراديو والتليفزيون ، القاهرة : (دار الفكر العربى : ١٩٧٩) ، ص ١٩

العربية كلغة أساسية (إلى جانب الأسبانية والإنجليزية) . ولقد كان الإيطاليون أول من وجه إذاعة بالعربية فى سنة ١٩٣٢ إلى الشرق الأوسط . فقد كانت إذاعات « راديو مارى » بالعربية مقدمة لحملة إيطاليا على الحبشة ، وكانت تهدف إلى تقديم الدوتشى كصديق للعرب والمسلمين . واستخدام راديو بارى مذيعين تونسيين لم يفهم العرب لهجتهم ، ولكن الإذاعات التالية التى وجهت إلى المنطقة بعد ذلك لجأت إلى استخدام العربية الفصحى التى يفهمها المستمع العربى .

وقد جذبت الإذاعات الإيطالية انتباه البريطانيين وبدأت إنجلترا بعدها فى توجيه إذاعات للمنطقة العربية لمناقشة السياسات البريطانية فى الأردن والعراق ومصر وبشكل خاص فى فلسطين .

وكانت الأهداف الرئيسية لإذاعات دول المحور (ألمانيا وإيطاليا) ؛ لأفريقيا ؛ الوصول إلى العرب والبربر فى شمال أفريقيا والأفريقيين فى اتحاد جنوب أفريقيا حثت تلك الإذاعات العرب والبربر على التخلص من الاستعمار ! ولكن بزيادة الاشتباكات العسكرية فى شمال أفريقيا ؛ جعلت الحث يتجه إلى التخريب[١] . وقد دفعت دعاية المحور بالراديو هيئة الإذاعة البريطانية إلى الإذاعة العربية فى سنة ١٩٣٨[٢] . كما بدأت فرنسا فى سنة ١٩٣٩ توجيه إذاعات باللغة العربية للدفاع عن نفسها ضد الهجمات الألمانية والإيطالية بالراديو . وأصبحت هناك أهمية جديدة للإذاعات البريطانية والإيطالية والفرنسية ؛ وقد بدأت الدول الآسيوية تذيع بالعربية فى الفترة التى تلت الثلاثينيات . فالدول الآسيوية تعتبر ثالث منطقة تذيع بالعربية بإجمالى ساعات إرسال تصل إلى ١٨٩ ساعة يوميا [٣] . ومن الدول التى أذاعت بالعربية أفغانستان وإيران وتركيا وباكستان والهند وجمهورية الصين الشعبية وكوريا الشمالية واليابان والملايو وكثير من تلك الدول إسلامية ، ولهذا كان لديها دوافع دينية للإذاعة بالعربية[٤] .

ولم تبدأ الدول الأفريقية فى تقديم إذاعات باللغة العربية إلا بعد أن وجهت

---

(١) د. جيهان أحمد رشتى نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٤) د. جيهان رشتى : المرجع السابق ، ص ٢١ .

مصر من راديو القاهرة إذاعات للدول الأفريقية باللغات الوطنية فى أواخر الخمسينيات . وكان الهدف من إذاعات القاهرة بشكل خاص تأييد حركات التحرير فى الدول الأفريقية ، التى اهتمت بدورها بتوجيه إذاعات بالعربية . وهناك ثلاث دول أفريقية فقط تقدم إذاعات دولية باللغة العربية وهى غانا ونيجيريا والصومال . وكانت غانا أول تلك الدول . فبعد استقلال غانا فى سنة ١٩٥٧ أرادت أن تعادن على ربط كل الدول الأفريقية . وقد بدأت إذاعتها باللغة العربية فى سنة ١٩٦١ لمدة عشر ساعات ونصف أسبوعيا . وبهذا كانت غانا من أنشط الدول الأفريقية فى الإذاعة باللغة العربية . وقد بدأت نيجيريا خدمتها الإذاعية الموجهة **باللغة العربية** فى سنة ١٩٦٤ . وتبث **نيجيريا** سبع ساعات أسبوعيا **باللغة العربية** . وتذيع **الصومال** ثلاث ساعات ونصف أسبوعيا للعالم العربى . أما **الحبشة وموريتانيا** فتذيع **بالعربية** للجمهور فى داخل تلك الدول . ويمكن عادة سماع تلك الخدمات بوضوح فى العالم العربى . **ولا** تذيع **روديسيا أو جنوب أفريقيا** برامج دولية بالعربية . وتقكم الهيئات المسيحية خدمات إذاعية هامة **باللغة العربية** للشرق الأوسط وشمال أفريقيا من أجهزة إرسال فى أمريكا وأوربا وأفريقيا لمدة ٤٥ ساعة أسبوعيا (١) .

٭ ٭ ٭

وجهاز راديو **مونت كارلو** فى **قبرص وترانس ورلد** راديو وذلك بلغات عديدة ، كان قد بدأه قسيس أمريكى قضى سنوات عديدة يعمل فى مجال **التبشير فى الدول العربية** . والدول الشيوعية جميعا توجه إذاعات للدول الأخرى . ففى سنة ١٩٧٠ كانت دول **أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى** تقدم ٢٢٤ ساعة أسبوعيا من البرامج **باللغة العربية** ، وبذلك تأتى تلك المنطقة بعد أوربا الغربية بالنسبة لساعات الإرسال الموجهة بالعربية . وقد بدأت خدمة **راديو موسكو بالعربية** فى سنة ١٩٤٣ وبذلك كانت الأولى بين دول أوربا الشرقية . أما بقية الدول الشيوعية مثل **ألبانيا وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وبولندا ورومانيا ويوغسلافيا فقد بدأت إرسالها باللغة العربية** بعد الحرب العالمية الثانية .

والدولة الوحيدة التى لا تذيع بالعربية هى **المجر**(٢) .

---

(١) د. جيهان رشتى : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٢) د. جيهان رشتى : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

ولقد بدأ راديو برلين الدولى التابع لألمانيا الشرقية فى الإذاعة بالعربية فى سنة ١٩٥٩ فى نفس الوقت الذى بدأت فيه ألمانيا الغربية ، وفى سنة ١٩٧٥ كان راديو برلين الدولى يبث ٤٩ ساعة أسبوعيا بالعربية : وبدأت **بولندا** إذاعتها الموجهة بالعربية فى سنة ١٩٦٨ وتبث حاليا ١٧ ساعة ونصف أسبوعيا . أما **تشيكوسلوفاكيا** التى بدأت إذاعتها العربية فى أواخر الخمسينات ، بعد حرب السويس ، فتبث ١٤ ساعة أسبوعيا بالعربية . وقد بدأت **بلغاريا** إذاعتها بالعربية فى سنة ١٩٥٦ وتبث حاليا ١٧ ساعة ونصف أسبوعيا . وقد قامت يوغسلافيا بتقديم إذاعات بالعربية فى الخمسينات ولكنها تقدم أقل ساعات إرسال بين دول أوربا الشرقية (ست ساعات أسبوعيا) .

وإن دل استخدام الإذاعات الأجنبية للفصحى على شىء ، فإنما يؤكد :

أولا : أن إتصال الناس بعضهم ببعض فى المجتمع البشرى لايتيسر حصوله بدون اللغة .

ثانيا ــ أن وجود لغة مشتركة بين أفراد قوم أو أمة شأنه أن يكون هو نفسه رمزاً ثابتا فريدا للتضامن بين الأفراد المتكلمين بها .

الفصل الخامس
وسائل الإعلام واللسان القومى

وعلى ذلك فإننا نذهب إلى أن وسائل الإعلام العربية تستطيع أن تقوم بدور فعال فى عملية نشر العربية الفصحى المشتركة ، ذلك أنها تملك صفات تعتبر القوة الدافعة فى التعامل مع الفصحى ، ولكن مجرد مضاعفة الوسائل والقنوات ليس كافيا ، ذلك أن وسائل الإعلام تستطيع أن تؤدى بعض المهام دون البعض الآخر ، كما تستطيع أن تؤدى البعض أحسن مما تؤدى البعض الآخر . وأن للطريقة التى تؤدى بها دخلاً فى فعاليتها ، على حد تعبير « شرام » وعلى ذلك سيتعين علينا أن نفحص كيفية استخدام وسائل الإعلام استخداما فعالا من أجل استعمال الفصحى المشتركة .

فعملية تعميم الفصحى لها عدة عناصر : اكتساب المهارات ، القدرة على التفكير المتزن ، والقدرة على حل المشاكل ، والقدرة على تكوين الاتجاهات والقيم ، والقدرة على اتخاذ القرار المناسب .. إلخ ، وكل هذه ليست بطبيعة الحال نتيجة لتحصيل المعلومات أو الألفاظ فحسب « فالرسالة أو المعلومة تحتل فى ذهن صاحبها مكانة تتفق وما فى هذا الذهن من تأهيل سابق وطبقا لما يوجد فى ذهنه من معلومات فإنه يستقبل ويغير ويبدل فى أية معلومة جديدة يتحصل عليها فى ذهنه . وهذه الرسالة ينبغى أن يعقبها فى ذهن المستقبل ما يشبه عملية وظائف الأحياء حتى يتم التعامل مع الفصحى وهو فى طبيعته أمر شخصى جداً .

عملية التغيير فى جوهرها عملية بسيطة ، على حد تعبير « شرام » ، فالجماهير ينبغى أن تدرك حاجة لا تشبعها العادات القائمة ولا السلوك الحالى . ثم إن عليها أن تخترع أو تقتبس السلوك الذى يقرب من مواجهة الحاجة . وهنا نجد أن عملية التغيير المطلوبة فى وسائل الإعلام العربية تتلخص فى إحلال الفصحى المشتركة محل العاميات .

وحين نذهب إلى ذلك ، فإن النظرة المستقبلية لوسائل الإعلام العربية تؤيد

ذلك الافتراض بعد استخدام أقمار الاتصالات ، وتوصيل البرامج بواسطتها إلى المستمعين أو المشاهدين فى أرجاء الوطن العربى بحيث يغدو هذا الوطن الكبير « قرية عربية » .

ولا يعنى استعمال الفصحى مجرد الارتفاع بالمستوى اللغوى ، ولكنه يستهدف التغيير فى سلوك الفرد والجماعة ، بحيث يتعامل العرب جميعا مع وسائل الإعلام بدون عوائق اتصالية ، تتمثل فى العاميات التى لا تفهم من جانب المستقبل العربى ، فى أماكن أخرى من القرية العربية .

وهناك أمثلة استخدمت فيها اللهجات العامية من بلاد عربية مختلفة تؤكد لماذا عدلت الإذاعات الموجهة عن العاميات واتخذت الفصحى وسيلة للاتصال ولماذا نقول بأن الإذاعات العربية لا سبيل أمامها فى الحاضر والمستقبل إلا أن تستخدم الفصحى وسيلة للاتصال . هذا المثال من العامية الجزائرية يقول :

« الودواد والسوامة : واحد النهار هما زوج متاع للناس ، خلطوا للسوق باش بشروا عودة ، صابوا رجل ودواد يبيع فى عودة ، ساوموها منه ، قالوا اشحال تسوى العودة ، قال لهم اعطوا خم خم خم . قال الواحد لصاحبوا أيا نمشوا ، ما يجى يوصل للسين غير إذا كنا شربنا عودة أخرى ، ومشاوا فى حالهم »[1] .

فإذا ترجمنا هذه القطعة العامية إلى اللغة العربية الفصحى ، وجدناها تعنى حكاية تدور بين تاجر لا يحسن النطق وبين الزبائن الذين يساومونه ، فذات يوم ذهب رجلان إلى السوق ليشريا فرسا ، فصادفا هذا التاجر يبيع فرسا ، فسألاه عن ثمن الفرس فقال لهم خم خم خم .. فقال أحدهما لصاحبه ، هيا نمشى ، لأننا سنكون قد اشترينا فرسا أخرى قبل أن يصل إلى حرف السين .

فهل يمكن لعربى فى خارج الجزائر أن يفهم هذا الكلام العامى بغير الاستعانة بمترجم وكأن الحكاية مكتوبة بلغة أجنبية غير العربية .

وهذه الصعوبة نفسها تنشأ عندما نقرأ فى إحدى القصص السودانية المعاصرة جزءا من حوار يتم بالعامية السودانية ، يقول :

(١) د. نفوسه زكرياسعيد : الفصحى واللهجات العامية « بحث فى حلقة الوحدة والتنوع » المنظمة العربية للتربية والثقافة . (القاهرة ٦ ـ ١١ / ٥ / ١٩٧٢) ص ١١٧ ـ ١٢١ .

« جال : شيخ السوق وين ؟ جال ليهو الوليد أحمد ياهو ، منصور جال ليهو : آى ياأسطى . جال : اصلوا خلاص براهو مرج من يدى من أيام ، الرزاج كله الله أنى ما داير أغشاك ، يلاك ياعثمان نشيف منسعم ، ما تجيف كدى فى خشم الباب وتكورك » (١) .

هذا الكلام أيضا لا يستطيع عربى فى خارج السودان أن يفهمه إلا بعد الترجمة إلى العربية الفصحى وهى :

قال : أين شيخ السوق ، قال له الوليد أحمد : هذا هو ، قال منصور له : نعم يامعلم . قال : إن السوق قد أفلتت من يدى منذ أيام ، الرزاق هو الله ، أنا لا أريد زيارتك هيا بنا ياعثمان نرى منعم ، لا تقف هكذا فى فتحة الباب وتكثر من الكلام .

وهكذا لو أوردنا أمثلة مختلفة من شتى الأقطار العربية مستقاة من لهجاتهم العامية ، فإننا سوف نصادف صعوبة بالغة فى فهمها ، مما يعرقل إلى حد بعيد التفاهم الذى ينبغى أن يكون موجودا بين أبناء الأمة العربية الواحدة ، وهذا التفاهم هو الأساس فى كيان القومية العربية .

فإذا كانت اللهجات العامية عامل انقطاع بيننا فى الوقت الحاضر بحيث لا يفهم قطر لهجة قطر آخر كما بينا ، فإنها سوف تكون عامل انقطاع أيضا بيننا وبين تراثنا العربى وهو تراث كان له دور كبير فى بناء الثقافة الإنسانية ، وفى تاريخ العلوم الحديثة ، باعتراف الغربيين أنفسهم . فقد استطاع العرب الأوائل بعد عصر الفتوحات أن يتمثلوا حضارات الأمم القديمة وأن يضيفوا إليها من إبداعهم وعبقريتهم فى كل المجالات ، مما جعل ثقافتهم وعلومهم ركيزة للتقدم الإنسانى فى العصور الوسطى .

كانت مؤلفاتهم العلمية فى الطب والرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والزراعة ... من المراجع الأساسية عند الغربيين ، وكانت تدرس فى جامعتهم حتى وقت قريب ، فكتابات ابن سينا فى الطب كما يقول لوبون — لم يكف أساتذة جامعة

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٩ .

مونيلية بفرنسا عن شرحها إلا منذ خمسين عاما فقط[١] .

وكانت مؤلفاتهم الأدبية أيضا من شعر ونثر ، لها أثر واضح فى الآداب الغربية فى القرون الوسطى اعترف به مؤرخو تلك الآداب ، وفى ذلك يقول جب : « ولعل خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا ، أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربى فى شعر ونثر العصور الوسطى[٢] .

وتأسيسا على ما تقدم ، فإننا يمكن أن ننظر إلى تعميم الفصحى المشتركة فى وسائل الإعلام العربية ، فى إطار عملية الانتشار التى تنطوى على التفاعل الإنسانى . وحين نتبنى هذا الاتجاه فإننا ندرك ما تستطيع وسائل الإعلام أن تؤديه .

« إن الذين يعيشون فى مجتمعات تعودت وسائل الاتصال الجماهيرية ينسون ـــ أحيانا مقدار ما يتعلمون من هذه الوسائل . ومع ذلك فقد ظل الكتاب المطبوع مدى ثلاثمائة سنة الذراع الأيمن القوى للتعليم العام ، ثم إن الصحف حيث توجد تصبح أكبر مخبر عن البيئة فيما وراء ما تبلغه حواسنا . الحقيقة أن أجيالاً بأسرها من الناس كونت آراءها بصفة عامة عن العالم غير المحلى مما تعلمته من الصحف (ومؤخرا من الراديو والأفلام والتليفزيون والمجلات) وكل من له خبرة بالأفلام السينمائية وبالقصص المطبوع يدرك من غير شك الأثر العجيب البعيد المدى الذى تحدثه هذه الأدوات . فالمشاهد والشخصيات ـــ والحبكات والعبارات تظل حية نابضة واضحة كجزء لا يتجزأ من الرصيد الشخصى المتداول ـــ لسنوات طويلة بعد قراءتها أو رؤيتها لأول مرة . فالآباء يلاحظون ـــ ليس فى رضا ـــ كيف يلتقط الأولاد الإعلانات الغنائية والشعارات والكلمات والعادات من التليفزيون دون قصد منهم للتعليم وحتى دون إدراك بأنهم يتعلمون . بمعنى آخر إن تجربتنا كلها مع الوسائل الجماهيرية توضح مقدار السهولة التى نتعلم بها سواء كان ذلك عن إرادة أو غير إرادة .

ولأن لوسائل الاتصال هذه القدرة الفائقة على التبليغ والإعلام ، فإننا نستطيع أن نقول عن يقين إن فى مقدورها أن تؤدى خدمات جوهرية معينة للفصحى المشتركة .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ .

والإذاعة مثلا تستطيع أن تقدم الفصحى المشتركة بكل أساليب الكلمة المنطوقة : الرواية ، الحوار ، المحاضرة ، المناقشة ، التعليق ، التمثيلية ، أو أى شكل آخر من أشكال الفن الأدبى . والإذاعة تسهل للمشاهد أن يتقابل مع كبار المتخصصين والعلماء والشخصيات الثقافية والفنية والاجتماعية والسياسية فى العالم كله . وتستطيع أن تزود العملية الإعلامية بصور العالم المعاصر وأصواته وبكل أحداثه التى تقع فى أركان الدنيا . كما تستطيع أن تعرض صور وأحداث التاريخ وذلك بواسطة التسجيلية أو عن طريق إعادة تمثيل المواقف التاريخية وبإمكان الإذاعة بشقيها الراديو والتليفزيون أن تعرض عالم الطبيعة باستخدامها الآلات — الحديثة كما لم يعرض هذا العالم من قبل .

وفى كثير من الأحيان نجد أن الإذاعات الحية التى تنقل الأحداث لحظة وقوعها تمثل مكان هاما جدا فى تطوير الفصحى المشتركة ، لأن هذه الإذاعات الحية تشعر الشخص أنه يشارك فيها وتتواجد فى مكان حدوثها .

والراديو والتليفزيون يستطيعان أن يجعلا من الفصحى أمرا كثير المرونة بما يسهمان من أقلمة سريعة للعالم الكثير التغير . والإذاعة تستطيع أن تستجيب بسرعة فائقة إلى أى تغيير فى الألفاظ وإلى أية تطورات حديثة فى العلوم والتكنولوجيا ، بل وفى ردود فعل الناس أنفسهم . والإذاعة بإمكانها تقديم الكثير من التطورات التى لم يتيسر طبعها وذلك بإمكانها استخدام أسرع الوسائل التى تنتشر على أوسع نطاق .

ومن ذلك يتضح أن وسائل الإعلام هى « مضاعف التحرك » على حد تعبير « لبرنر » ولذلك فإن عليها أن تستخدم لغة غير تلك الأداة الموروثة التى كانت تؤدى أغراض عصور الانحطاط ، وأن تضطلع اللغة الجديدة بعبء التعبير عن معانى هذه الحياة الجديدة فى تحولها إلى العصرية . فذهب المحافظون إلى التشدد والتزمت دفاعا عن اللغة الموروثة بمجموعها دون تمييز بين الأصل الثابت من عناصرها والعارض المتبدل ، بينما ذهب المجددون إلى الملائمة بين اللغة والحياة ، وأشعرت الناس بالمشكلة اللغوية وحاجة الحقيقة إلى التجديد .

على أن هذا الصراع اللغوى انتهى إلى الخروج عن التزمت وضيق النظر وإلى خفوت صوت العجمة والشعوبية ودعواتها ، وإلى دبيب الحياة فى اللغة العربية

وشيوعها بين الجماهير .

هذه هي القوة الدافعة للتنمية اللغوية : نواة من الشخصيات غير الجامدة المتقبلة للتغير ، ثم نظام لأجهزة الاتصال الجماهيرية لنشر وتعميم الخصائص الأصيلة والصفات الذاتية للغة العربية ، ثم تفاعل التحضر وتعلم القراءة والكتابة ومشاركة الأجهزة ، تفاعلها فيما بينها لخلق المجتمع العصرى حيث يتم التقارب بين الفصحى والعامية بارتفاع العامية واقترابها من الفصحى ونزول الفصحى إلى ميادين الحياة واتصالها بها عن طريق الاتصال الجماهيرى الذى يؤدى دور « المضاعف الأعظم » للتنمية على حد تعبير ليرنر ، والوسيلة التى تستطيع نشر ما يتطلبه الأمر من معرفة ، ومواقف على نطاق لا يمكن حصره ، وبسرعة لم تعرف من قبل ، وفى ذلك مايمنح اللغة قدرة على التجديد والتوليد والبناء فى ظروف الحياة الجديدة المتبدلة .

ومن ذلك يبين أثر المجتمع بنظمه وحضارته واتجاهاته فى تطور اللغة وانتقالها من السلف إلى الخلف وصراعها بعضها مع بعض وقد بالغ جماعة من العلماء فى تقدير هذه الآثار حتى كادوا ينكرون أن لغير الظواهر الاجتماعية أثرا فى شئون اللغة ، كما ذهب فرديناند دوسوسور .

على أن اللغة ظاهرة اجتماعية تقتضيها حاجة الإنسان إلى التفاهم مع أبناء جنسه . فلولا الحياة الاجتماعية ما كانت اللغات .

وقد وجد ليرنر ، أن هناك علاقة متبادلة بين مقاييس النمو الاقتصادى ومقاييس النمو الإعلامى . بمعنى القراءة والكتابة ومعه توزيع الصحف ، وكذلك التسهيلات الإذاعية وعدد أجهزة الإذاعة وكل المقاييس الأخرى لوسائل المشاركة .

ويذهب جرمانوس إلى أن كل إنتاج أدبى مطبوع بطابع عصره ، فمنذ أجيال عديدة ، ظل الأدب العربى وقفا على الطبقة الممتازة ، متخذة أياه مسلاة للترفية عن النفس ، حيث كانت تقضى أوقات الفراغ فى دراسة المقامات ودواوين الشعراء القدامى على ما فيها من تعقيد ، إلى غير ذلك من الشعراء الاتباعيين . لقد دالت دولة السادة والأشراف ، كما دالت دولة القطار القديم ، وبعد أن كان قافلة من الجمال ، أصبح عربات تجرها قاطرة ، فالشعب الآن هو الكل فى الكل ، لقد أهمل

أمره طويلا ، لكنه ظل فى الماضى يكافح مكافحة الأبطال للحصول على نصيبه من الثقافة والحضارة ، لقد أنتج الشعب العربى الروائع من الأدب الشعبى فى قصص ألف ليلة وليلة ، التى تعد آية فى ثروة المادة وخصب الخيال ، مما جعلها جديرة بتبوّء المكانة الأولى بين مصنفات الأدب الشعبى . وهذا مثال لما يستطيع الأدب الشعبى العربى أن يدركه من التقدم فى المستقبل .

جاء المذياع فكان القنطرة التى تصل بين الفصحى والعامية ، بعد انقطاعهما الطويل ، فجميع المحطات تذيع مناهجها باللغة الفصحى ، وبأسلوب يستطيع فهمه كل عربى على شىء من الذكاء ، لقد امتنع المذياع عن نشر النطق الخاطىء أو الغلطات النحوية الشائعة لدى عامة الشعب . كما أنه تجنب استعمال الجمل الطويلة ، والتعبيرات الطنانة الرنانة ، والغريب من الكلام ، الذى لا يفهمه إلا المتحذلقون والمعلمون .

ويقول جرمانوس : « اذا سألنى سائل محب للاطلاع : أية من اللغتين يجب المحافظة عليها ونشرها ؟ لأجبته بلا تردد : إنها الفصحى ، بشكلها المعتدل المهذب ، الملائم للتعبير عن الحياة العصرية . وفى مفترق الطريقين ، يجب أن تختار ذلك الذى يرفع الشعب من مدارك الجهل إلى مدارك العلم ، لا ذلك الذى يهبط بالمتعلمين إلى مستوى الجهلة ، فالسبيل الذى اتخذه الشعب الألمانى منذ أربعة قرون ، خليق بأن يسلكه اليوم الناطقون بالضاد . إننى أقدر الصعاب التى يواجهها التلميذ عندما يبدأ فى تعلم الكتابة . فكأنه يلقن لغة أجنبية ، لا لغته القومية . وأعرف أيضا أن كثيرين يريدون التخفيف عن التلاميذ ، بجعل لغة الكتابة مطابقة للغة الحديث المنزلى الدارج ، ولكن ماذا يكون عندئذ مصير التراث الثقافى العربى العريق ، الذى يعد بحق مفخرة من مفاخر الإنسانية ، سيصبح وقفا على المستشرقين ، يتمتعون بدراسته ، بل سيصبح كتابا مغلقا يعجز عن قراءته المتكلمون باللغة العربية .

وكما أن الطباعة ساعدت اللغات الأوروبية على الاستقرار ، كذلك وأكثر من ذلك فعل المذياع الآن . فالتعليم العام ، المدعم بوسائل الترفيه عن الشعب ، سيؤدى خدمات جليلة ، فى سبيل تقدم الإنسانية ، وسينقذها من طريق الانحطاط .

« لقد وجد دعاة انتصار العامية حلفاء لهم فى أشخاص بعض المصلحين ، الذين يفكرون فى إبدال الحروف العربية الأصيلة بالحروف اللاتينية . ويبدو أن هذه الحركة قد اكتسبت قوة إلى مدى أن مجمع اللغة العربية قد تناول المشكلة ، ونشر نتيجة لها فى كتاب عنوانه : تيسير الكتابة العربية » .

« لقد قبل الأتراك الحروف اللاتينية فى سنة ١٩٢٨ وأكره مصطفى كمال أتاتورك الصغار والكبار من أفراد الشعب ، على ترك الحروف العربية والاستعاضة عنها باللاتينية ، مدعيا أن اللغة التركية تتلاءم مع هذا التغيير . وقد سبق للمستشرقين الأوربيين أن استخدموا الحروف اللاتينية » .

وقد دعا عبد العزيز فهمى إلى استخدام الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية ، لكن اقتراحه فى رأينا وفى رأى جرمانوس كان عقيما فرغم كل محاولاته لم يوفق إلى إيجاد أصوات لاتينية ملائمة لأكثر من ٤٠ ٪ من الأصوات العربية ، لذلك اضطر إلى إدماج الأشكال العربية الأصيلة مقلوبة : مثلا حروف جـ ، حـ ، خـ ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ء — وعلامات الإعراب .

« إن العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف وبكثرة الحروف الساكنة ، وبأصالة الحروف المتحركة ، وتطبيق قواعد النحو على الكتابة العربية ، يرجع عهده الى القرن الثامن الميلادى ، وقد حددت تلك القواعد بدقة وعناية ، مع مراعاة طبيعة اللغة العربية ، فأصبح من المتعذر تعديلها أو تبديلها . ففى خلال أربعة عشر قرنا أخذ الكتاب والقراء المنتشرون فى الأقطار الكائنة بين ضفاف الهندوس شرقا إلى شواطىء المحيط الأطلسى غربا ، يتطلعون بأبصارهم إلى ذلك الأدب الخاضع لتلك القواعد النحوية والإملائية الدقيقة . نعم إن هذه القواعد يجب أن تدرس وتراعى . ولكن هل هنالك لغة فى العالم بلا قواعد نحوية وإملائية جديرة بالدرس الجدِّى ؟

« إن ثقافة المسلمين المتكلمين باللغة العربية ورفاهيتهم ، متوقفتان على العلم . قال نبينا صلوات الله عليه : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » وبهذه الروح علينا أن نعمد فى سبيل نشر التربية وما يترتب عليها إلى التحرر من المساوىء التى نشكو منها الآن » .

ولعلنا نستطيع أن نقول مع « رانكة » المؤرخ الألمانى :

« إن ثقافة الإنسانية مستندة إلى لغتين اتباعيتين (كلاسيكيتين) : اللاتينية والعربية . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد تفشت اللغة العربية فى الشرق روحا فتية ، ولا يمكن فهم المصنفات الأدبية الفارسية أو التركية ، بدون الرجوع إلى الكلمات العربية ، وخاصة أن وحى القرآن الكريم الذى لا يجارى ، يعد بلا مراء أساس العقيدة الإنسانية والثقافة البشرية » .

ومن الاتجاه الإيجابى نحو كل ما أنتجه العقل العربى والفكر الإسلامى ننظر مع المستشرق المجرى المسلم « جرمانوس » على حد تعبيره هو إلى لغة القرآن على أنها « صرخ شامخ من جانب خاص ، لم تتح رؤيته لأى إنسان ، أى أنه ينظر نظرة الأجنبى الصديق العطوف . فنحن معشر المقيمين خارج العالم العربى ، قد نخطىء التقدير لما يحدث داخله ، بيد أن هذا التقدير – وإن كان مخطئا – ربما ساعد فى إلقاء بعض الضوء على أمور لم يتجه لها اهتمام من يعيشون فى بيئتهم المعتادة » .

وبناء على هذا الفهم ينظر مع جرمانوس إلى عبقرية اللغة العربية ، فيذهب إلى أن أهم المميزات فيها هى ازدواجها ، فالمعروف – كما يقول – إن اللغات الثقافية تمتاز بالتباين بين التعبيرات الأدبية وتعبيرات المحادثة . بل هناك طبقات مختلفة فى لغة الأدب نفسها ، من حيث التعبيرات . ويضرب على ذلك مثلها فحواه أن عامة الشعب من المتكلمين بلغتهم الأصلية ، لا يفهمون جليا لغة المؤلفات العلمية أو الطبية أو النفسية ، وإن كان جرمانوس فى هذا المثال قد جانبه الصواب – فى رأى كاتب هذه السطور على الأقل – ذلك أن هذا المثال ينطبق على كل لغة وليس على العربية وحدها ، ومرجع المشكلة فيه ليس إلى صعوبة اللغة أو سهولتها ، وإنما إلى عدم وجود إطار دلالى موحد ؛ فلكل جماعة ، بل ولكل فرد مجموعة من التطورات والاتجاهات تتحكم فى سلوكه وفى نظرته للأشياء ... وأشد ما يقلق المشتغلين بالإعلام والاتصال بالجماهير أن فهم الرسائل ليس بالسهل الهين ، بل إن العكس هو الصحيح ، ذلك أن المواقف الاتصالية هى مواقف سلوكية تقدم فرصا مطردة ومتزايدة للمشاركة فى الخبرة ، وتحقيق الأهداف وكسب المعرفة والفهم وافتراض الفروض بشكل عام ، للسيطرة على البيئة من خلال استخدام الرموز . وحينما نعود إلى مثال جرمانوس ، نجد أنه لا يكفى للتناغم بين المرسل والمستقبل أو بين مؤلفى الكتب العلمية أو الطبية أو الفلسفية و « عامة الشعب من المتكلمين » أن تكون

الرسالة – أو هذه المؤلفات – فى لغة يفهمها الطرفان ، وهما يفهمانها بالفعل لأن عامة الشعب تفهم لغة القرآن ، بل ينبغى أن تكون الخبرات مشتركة أيضا . فالمستمع إلى محاضرة باللغة الإنجليزية عن نظرية النسبية لإنشتين ، لن تسعفه معرفته للغة الإنجليزية فى فهم المضمون ، مالم يكن قد درس شيئا من علم الطبيعة والرياضيات ، وكذلك الحال بالنسبة لمثال جرمانوس عن المؤلفات العلمية أو الطبية أو الفلسفية باللغة العربية . وهذا ما يعبر عنه فى نظرية الاعلام بالاطار الدلالى ، فكلما كان المرسل والمستقبل يتفاهمان فى اطار دلالى واحد ، كان ذلك أقرب ما يكون إلى الفهم .

هذه ملاحظة اعتراضية ، نعود بعدها إلى دراسة جرمانوس لخصائص العربية والتى تكشف عن وعى وحب عميقين ، فهو يضرب مثالا آخر موفقا للتباين بين التعبيرات الأدبية وتعبيرات المحادثة ، فحواه أن « الأدب المنظوم يستخدم كلمات تعبر عن مشاعر دقيقة ، قلما نعثر عليها فى الأدب المنثور ، والأدب المنظوم يستمد مفرداته من أعماق نفس الشاعر ، ومن خياله الخصيب . ولما كانت القصيدة هى طريقة التعبير عن الحقائق الأزلية والمشاعر الخالدة ، فقد ابتكرت لنفسها أسلوبا خاصا ، تحررت فيه من القيود التى لا يستطيع الأدب المنثور أن يحيد عنها قيد أنملة » .

وإلى جانب هذه المميزات العامة ، يرينا جرمانوس ظواهر ناشئة عن التطور الخاص فى بعض اللغات . فقد كان « للإسلام قوة تحويل جارفة ، أثرت فى الشعوب التى اعتنقته حديثا . وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق فى خيال هذه الشعوب فاقتسبت منه مئات بل آلافا من الكلمات العربية ، ازدانت بها لغتها الأصلية فازدادت روعة وبهاء . والمؤلفات الأدبية ، باللغة الفارسية التى كتبت غداة اعتناق الفرس للإسلام ، كملحمة الشاهنامة وقصائد الرودغى لا تحوى إلا النزر اليسير من الكلمات العربية وجعلها يتعلق بالمعارف الدينية ، ولكن ، مع مضى الزمن أخذت الأصول العربية تنتقل إلى اللغة الفارسية الأدبية ، وبنسبة أقل إلى اللغة الدارجة . وفى أثناء العصور الماضية ، أصبح عدد الكلمات العربية فى المؤلفات الأدبية الفارسية يربو على تلك المشتقة من أصول فارسية . بل أصبح يجوز استعمال أية كلمة عربية فى الأدب الفارسى . لكن عامة الشعب من الأميين لم يكونوا يفقهون كلمة واحدة

من هذه اللغة .

وما قيل عن اللغة الفارسية يطبقه جرمانوس على اللغة التركية ، مع فارق واحد يذهب إليه هو أن اللغة التركية لم تقتصر على الاقتباس من العربية فحسب ، بل ومن الفارسية أيضا . فالأدب التركى المنظوم استمدت تعبيراته من الفارسية أكثر من العربية ، بينما لجأ الأدب المنثور إلى الكلمات المشتقة من أصول عربية أكثر من الفارسية ، ذلك لأن الشعراء الأتراك تتلمذوا غالبا على أساتذة من الفرس ، لا على العرب مباشرة . وكانت لغة الكلام تختلف اختلافا تاما بين الطبقة المثقفة وعامة الشعوب من الأميين . بيد أن هنالك أمرا جديرا بالملاحظة ، وهو أن الاختلاف بين اللهجتين كان مقتصرا على الألفاظ المستعملة ولم يمس القواعد النحوية ، فقد ظلت قواعد اللغة الفارسية الحديثة بلا تغيير أو تبديل خلال أجيال عديدة ، شأنها فى ذلك شأن اللغة التركية .

فالفرس والأتراك المثقفون الذين كانوا يتكلمون ويكتبون اللغة الفصحى لم يحيدوا قيد أنملة عن أدق قواعد لغتهم الأصلية فقواعد اللغة الفارسية الحديثة سهلة ، ولا تشمل عددا كبيرا من صيغ الأفعال . أما قواعد اللغة التركية ، فهى تشمل زمنين للحال ، وأربعة للماضى الغير التام ، وزمنين للماضى البعيد (أى السابق لزمن ماض آخر) ، وزمنين للمستقبل ، أى اثنى عشر زمنا مستقلا يحول كل منهما إلى صيغ النفى والاستحالة والاحتمال ، أى حوالى خمسين شكلا فى الصيغة الإخبارية وحدها ، هذا إلى جانب الصيغ الأخرى ، مما يصل بعدد الأشكال إلى الثمانين أو أكثر . وجميع الأميين من الأتراك يستعملون هذه الأشكال فى لغة الكلام ، دون أن يدرسوا قواعدها ، لكنهم يدركون بغريزتهم الفوارق المميزة بين الأشكال المختلفة . ومجمل القول أن التركى المثقف والتركى العام ــ الذى يتكلم باللغة التى كانت تسمى فيما مضى ، « قاباتركجة » ــ كانا يحترمان جميع قواعد اللغة احتراما عظيما .

ويحدثنا جرمانوس عن اللغات الآرية فيقول إنها منحدرة أصلا من اللغة الهندية السانسكريتية ، ولذلك تسمى أحيانا اللغة الهندية الآرية . ولهذه العائلة ميزة خاصة جديرة بالملاحظة ، ألا وهى فقرها بالأفعال ، وقد يبدو هذا الرأى لأول وهلة غير منطقى ، فيتساءل البعض : كيف تستطيع تلك اللغات الآرية أن تعبر عن جميع أساليب الأفعال ؟ إنهم يستطيعون ذلك ، ولكن باستعمال حروف مستقلة ، لكل

منها صوت وتكوين مختلف ، تربط بعضها ببعض بواسطة مقاطع شتى ، تكتب أمام أصل الفعل .

وقد امتازت اللغتان اليونانية واللاتينية القديمتان بمعين لا ينضب من الكلمات ، اشتقت منها جميع المصطلحات العلمية فى الحياة الحديثة بل إن اللغة العربية نفسها لجأت إليهما ، وهو أمر لا أظنه ضروريا . فكلمات : دبلوماسية وديموقراطية وأرستقراطية وسينما إلخ .. ، يمكن التعبير عنها بكلمات عربية : كسياسى وشعبى وعظامى وصور متحركة إلخ ...

ويلاحظ جرمانوس نفس هذا الفقر فى اللغة الألمانية ، حيث يضطر إلى إضافة مقاطع مساعدة لإيجاد معان جديدة ، والخلاف بين اللغات المتحدة من أصل واحد يرجع إلى تغير البيئة . فهو إذا عامل مضاف إلى عوامل طبيعية (فيزيولوجية) إذ كثيرا ما ينطق الأحفاد لما فعل أجدادهم . وقد يتغير النطق إلى مدى أبعد ، إذا وجد عامل حيوى (بيولوجى) مؤثر فى العامل الطبيعى ، كاختلاط العناصر والشعوب بعضها ببعض .

من تحليله لأسباب اختلاف اللغات نصل إلى نتائج طريفة فاللغات الهندية الآرية ، ذات الفروع المتشعبة ، تختلف بعضها عن بعض ، إلى حد يجعلها تبدو لأول وهلة غريبة بعضها عن بعض . فاللغة اليونانية على كراهيتها للحروف الساكنة المركبة واللغات الصقلبية ذات الحروف الساكنة المزدوجة والمثلثة ، منحدرة من نفس الأصول الآرية . واللغة الإيطالية ذات النغمات الموسيقية واللغة الألبانية المحشوة ، ابنتا عمومية .

فما هو والسبب الذى جعل تلك اللغات تسير فى هذه الطريق المتباينة ؟ يقول جرمانوس : إن العلم الحديث يحاول دائما كشف الأسباب المادية أيضا ، فإذا عرفنا الظروف المادية التى كانت تعيش فيها الشعوب القديمة ، لاستطعنا تفسير هذه الظاهرة . فالاكتشافات الفنية ساعدت الإنسانية ، فأنقذتها من المضار الناشئة عن الطبيعة . لقد كانت الجماعات البدائية أكثر تعرضا لقوى الطبيعة ، مما نحن عليه الآن حيث نتمتع بالتدفئة المكيفة وبالمذياع . واللغات التى انفصلت عن أصلها المشترك فى العصور القديمة ، ما لبثت أن منيت بتغيرات أساسية ، نشأت عنها لهجات متباينة . لقد أصدر دانيال ويستر فى معجمه العظيم منذ مائة سنة ، حكمه

على اللغة الإنجليزية فى أمريكا بأنها ستنفصل عن أمها ــ أى اللغة الإنجليزية ــ إلى حد أن الإنجليز والأمريكيين سيكتبون ويتكلمون لغتين مختلفتين ، فلا يستطيعون التفاهم . بيد أن هذا التنبؤ كان مخطئا . ففى خلال ذلك اخترع البخار والكهرباء والراديو ، وتقدمت الصحافة فربطت بميثاق من حديد ضفتى المحيط الأطلسى ، وما زال الشعبان متفاهمين كسابق عهدهما . نعم إن بينهما بعض الفوارق فى النطق والأسلوب ، لكنها النتيجة الطبيعية للتطور التاريخى . ولولا النتائج الباهرة التى أدت إليها المخترعات الفنية ، لانفصلت أمريكا عن إنجلترا بمعدل ألف سنة على الأقل ، ولتحولت نبوءة وبستر إلى حقيقة واقعة . عندئذ كان اللغويون وحدهم سيستطيعون إقامة الدليل على أن اللهجتين كانتا متحدثين يوما ما .

عندما اضطرت الشعوب إلى الهجرة بسبب التغيرات الجغرافية التى حدثت على وجه البسيطة ، تفرق شملها ، وتطورت لغاتها فى اتجاهات مختلفة ، وهذه التغيرات هى التى أنقذ منها النبى نوح عليه السلام الإنسانية ، كما أنقذ منها الحيوانات ، سواء أكانت نافعة أم ضارة . وهناك مثلا قطع سد مأرب . وإلى جانب هذه الكوارث ، وقعت حوادث أخرى كان لها آثار مادية اتجهت بالإنسانية اتجاها مخالفا للأول .

فالشعوب القديمة التى كانت تتكلم اللغات السامية كالبابليين ، هاجرت من موطنها الأصلى فى الجزيرة العربية ، واستقرت فى سهول بين النهرين الخصيبة ، أى فى العراق . فهذه المنطقة الخصبة ، الكائنة بين نهرين ، قد تجردت من الصخور والغابات ، لذلك ، ابتكر مستوطنوها مواد بناء تحل محل الأحجار والأخشاب ، وهى الآجر المحروق بواسطة حرارة الشمس . فقطعة الصلصال المربعة الزوايا هذه ، هى التى أدت إلى ازدهار حضارة ، حذت حذوها الشعوب المجاورة ومازالت آثارها باقية حتى الآن ، واخترع البابليون الساعة المائية ، وكان نظامهم الرياضى مؤسسا على رقم « ٦ » وقد جاء فى « العهد القديم » أن الله خلق العالم فى ستة أيام ، إذ أن العبريين تعلموا الرياضيات من البابليين . وقسم اليوم إلى أربعة أمثال رقم « ٦ » و « الدستة » ضعف الستة ، والساعة مقسمة إلى ستين دقيقة ، والدوائر ذات ٣٦٠ ، هى ستة أمثال رقم « ٦٠ » .

ليس عسيرا بناء منزل من جذوع الأشجار ، أو تركيب كوخ من الأحجار

الفخمة غير المهذبة . لكن تشييد منزل من آلاف قوالب الآجر الصغيرة الحجم يتطلب خطة مرسومة . ورسم هذه الخطة يفترض الإلمام بعلم الهندسة وبقوانين الالتحام والجاذبية . فطبيعة مواد البناء أدت بالبابليين إلى استنباط هذه القوانين وفيضانات الأنهر الموسمية ، المطابقة من حيث الزمان لبعض الأبراج السماوية ، حملت البابليين على دراسة الفلك ، والعلوم المتصلة به ، فتوسعت ثقافتهم فى الرياضيات .

وقد أدت طبيعة مواد البناء أيضا ، إلى نتائج اجتماعية بعيدة المدى ، فالشعوب التى تشيد منازلها البدائية بقطع الخشب الضخمة ، أو التى تلجأ إلى الكهوف الصخرية ، يسهل عليها هجر موضعها إذا هاجمها الأعداء ؛ فحياتها فى الغابات تجعل مواد البناء ، فى متناول يدها ، فما عليها إلا أن تنسحب صوب مناطق أخرى ، حيث تستأنف بناء أكواخها . وأمثال هذه الشعوب لا تتعلق بمنازلها تعلقا وثيقا ، وهى ترحل بسهولة وتتشتت فى مناطق شاسعة .

ليست هذه حال البابليين ، بناة المنازل بالآجر . فهم يعنون عناية فائقة بتشييد مساكنهم ، متكبدين المشاق والمتاعب فى سبيل ذلك ، فإذا هاجمهم الأعداء ، دافعوا عن دورهم ، بكل ما أوتوا من شجاعة واستماتة ، والدفاع يتطلب نظاما اجتماعيا ، حيث يتولى البعض الأمر ويخضع البعض لذوى السلطات . هكذا تركزت سلطة الدولة . أما الشعوب الرحل التى تغير موطنها بسهولة ، فإنها لم تكون دولة ذات حكومة مركزية ، ونذكر منها على سبيل المثال هنود أمريكا الحمر ، ومن الوجهة التاريخية ، كان البابليون والآشوريون ، ومازالوا ، نموذجا لنظام الحكم المطلق « الدكتاتورى » .

لقد هاجر الآريون مناطق واسعة ، فانتشروا من آسيا الوسطى عبر الهند ، ثم امتدوا إلى شواطىء المحيط الأطلسى ، وانحدرت من أصول اللغة الآرية ، عدة لهجات شقيقة لا يستطيع التمييز بينها إلا اللغويون . أما اللغات السامية كالبابلية والآشورية والآرامية والكلدانية والعربية ، فقد ظلت أكثر تجانسا وأكثر تشابها بعضها ببعض ، نظرا لضيق توسعها الجغرافى ، لقد احتفظت اللغات السامية إلى يومنا هذا بتركيبها الثلاثى . كما احتفظت بصيغ اشتقاقها الجبرية ، فأصبحت أكثر اللغات محافظة بالنسبة إلى سائر عائلات اللغات . فالألمانى المعاصر مثلا لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التى كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة . أما اللغة العربية

فقد هزمت العواصف التى لاقتها خلال ألف وخمسمائة سنة ، وظلت قائمة أمامنا كالصرح الشامخ ، غنية بآدابها الرفيعة وفى مقدمتها لغة القرآن الكريم .

كان العرب فى الجاهلية متفرقين فى قبائل تفخر كل منها بعراقتها ، وتتحدث كل منها بلهجتها الخاصة ، لكن لغة القرآن الكريم والنظام السياسى الدينى الإسلامى قد أدمجا العرب فى أمة واحدة ، تتكلم بلغة واحدة ، وكان التماسك الدينى واللغوى الذى أحدثه الإسلام قويا فعالا . ولقد حكم اليونان والفرس والرومان مصر ، ودون أن تتغير ثقافيا . ولكن ما كاد العرب يظهرون فى وادى النيل ، حتى تحول المصريون بقدرة قادر وبفعل الإسلام إلى شعب يتكلم باللغة العربية ، وحتى أصبحت مصر مركز الأدب العربى ، ومازالت إلى يومنا هذا أعظم البلاد فى هذا المضمار .

وهكذا يكشف جرمانوس عن عبقرية اللغة العربية التى تبوأت مركز الصدارة من عمان شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، بل إن الأمم الأجنبية ذات الماضى العريق قد اتخذت العربية لغة ، وأنتجت روائع أدبية رفيعة .

وقد بذّ علماء فقه العرب زملاءهم الغربيين ذكاء وبراعة ، فالمسلم به أن مفكرى الإسلام كانوا أساتذة الأوربيين فى القرون الوسطى ، فى مبادىء العلوم والطب والفلسفة ، لكن اتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه إليه كثيرا ، رغم أنهم اكتشفوا منذ ألف سنة قواعد كان يجهلها الغربيون .

ويذهب جرمانوس إلى أن الاختلاف بين لغة التحدث ولغة الكتابة لم يكن مقصورا على المفردات . فالمعروف أن مفردات اللغة تزيد طبيعيا ، نتيجة لاتساع الثقافة وتقدم الحضارة . وقد أفاض فى هذا الموضوع أكثر العلماء قديما وحديثا ، فأشاروا إلى العناصر الفارسية وغيرها من العناصر الأجنبية ، الدخيلة على اللغة العربية ، كما أشاروا إلى تقدم الأسلوب طبيعيا جنبا إلى جنب مع تطور المجتمع الإنسانى . وكان لفلسفة أرسطو أثرها الحتمى فى الأسلوب العربى . وفى تجدد تكوين المجتمع ، نظرا لتغير البيئة ، وظهور المكتشفات الحديثة ، مما أدى إلى ابتكار طريق جديدة ، فأصبح لزاما استنباط تعبيرات لغوية ملائمة .

وكان فضل العلماء العرب الأقدمين أعمق أثرا من هذه الملاحظات السطحية « على حد تعبير جرمانوس » ، والجاحظ (المتوفى فى سنة ٨٦٨) كشف فى كتابه

« البيان والتبيين » الأسباب الطبيعية (الفيزيولوجية) للتغيرات السماعية فى الأصوات ، إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة وضبطهما . ونتيجة ذلك أن الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة ، بحسب اختلاف الشعوب . كما لاحظ أن هناك عيوبا طبيعية فى حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر فى النطق ، وأن اختلاف الأحوال الجوية يؤدى إلى اختلاف فى الكلمات .

وقد أورد على سبيل المثال قصة فكاهية طريفة عن وصال بن عطاء مؤسس حركة المعتزلة . كان هذا العلامة الكبير ، لا يستطيع نطق حرف الراء ، فكان يلفظها غينا . لذلك عمد إلى تجنب الكلمات ذات الراء ، وإبدالها بمترادفات خالية منها . كان يقول : « ملحدا » بدلا من « كافر » ، « وقمحا » أو « حنطة » بدلا من « بر » ونسب تفخيم الحروف كالقاف والصاد واللام والواو إلى تشوه فى الفم أو إلى إفناء اللثة . والأجانب ينطقون الأصوات بلكنة يتوارثها أحفادهم ، عدا ما يضيفونه إلى اللغة العربية من الكلمات الدخيلة فهذه الاستناجات تدل على قوة ملاحظة جديدة بالإعجاب . ولسنا بحاجة إلى الإشادة بمؤلفات الأصمعى وسيبوية ، والسجستانى ، والكسائى وغيرهم ، للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا علماء الغرب فى هذا المضمار . بيد أن اللغة الدارجة كان لها حياة مستقلة عن حياة اللغة الفصحى ، رغم أنهما عاشتا معا ، متوازيتين ، وعلى حد معرفتنا ، نعتقد أن العربية والصينية هما المثالان الوحيدان لحياة لغتين مميزتين جنبا إلى جنب : إحداهما على شفاة الشعب ، والأخرى على صفحات الكتب . والتمييز بينهما ليس مجرد اختلاف فى المفردات ، كما هو الأمر فى اللغتين الفارسية والتركية ، بل هنالك هوة سحيقة تفصل بينهما ، هوة ناشئة عن الاختلاف فى التكوين النحوى ، واختلاف فى جوهرهما ولبهما . فاللغة الدارجة لهجة من لهجات اللغة الفصحى بل إن هنالك لهجات تسير فى محاذاة اللغة الفصحى . والتمييز بين هذه اللهجات ضئيل لا يكاد يذكر ، ويعتبر اللغويون هذه اللهجات ضربا من ضروب فساد اللغة الفصحى وانحطاطها ؛ وذلك بحكم أن اللغة الفصحى هى لغة القرآن وهى وحدها التى كان يلقى بها شعراء الجاهلية قصائدهم فى سوق عكاظ وغيرها ، وهى التى انتقلت إلى بلاد الفرس والأندلس عن طريق القرآن الكريم الذى لا يجارى فى القوة والإعجاز ، ومما لا ريب فيه أن فساد اللغة قد حدث على مرور الزمن ، من جراء العوامل السابق

بيانها « أى التغييرات التاريخية والتأثيرات الجغرافية والطبيعية (الفيزيولوجية) فضلا عن الأمية » .

لكن هذه الأسباب وحدها لا تكفى لتبرير انحراف اللغة الدارجة عن اللغة الفصحى ، وفى رأى جرمانوس أن هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطا ذاتيا بالطبيعتين الثلاثية والجبرية لأسرة اللغات السامية ، بل أن هاتين الطبيعتين هما اللتان أدتا إلى هذا الانحراف ، وكان لهما أثر حاسم فى ذلك . فالاشتقاق الجبرى فى اللغة السامية عامة وفى اللغة العربية خاصة قد أدى إلى المحافظة على الثروة اللغوية وعلى مميزاتها .

الفصل السادس

النحو فى نظرية الإعلام

يسرى الإعلام فى كيان المجتمع على مستويات مختلفة من حيث استخدام اللغة والرموز ، فى عملية الاتصال بالجماهير . ذلك أن الإعلام يمثل حاجة أساسية ومطلبا أوليا من مطالب الإنسان ، وهو فى حضارتنا المعاصرة لا يغدو كذلك فحسب ، ولكنه يعد أحد العوامل الضرورية من أجل بقاء حضارة الإنسان .

ولذلك نظر إلى « الاتصال » على أنه : **فن إرسال المعلومات والأفكار والاتجاهات وانتقالها من شخص إلى آخر** . ولعل فى هذا الفهم ما يفسر لماذا يتسابق المحدثون من أبناء هذا الزمان فى ابتكار أدوات تكنولوجية على درجة من التعقيد كبيرة ، بهدف تحقيق مفهوم الاتصال الإعلامى من حيث إرسال وتوصيل الرسائل على أيسر نحو وأسرعه .

وهذه الاكتشافات والإنجازات العلمية التى تطوع الآلات لتحقيق الاتصال تفوق كل خيال حقيقة ، لما تحققه من انتصار للإنسان على المعوقات الطبيعية فى عالمه ، وما يحققه الإنجاز العلمى للاتصال اليوم ، لم يكن ليحلم به أجدادنا ، حيث تحقق العقول والاختراعات الإلكترونية الوصول إلى أبعاد كان التحليق فيها من ضروب المستحيل .

ولقد أصبح فى مقدور الإنسان اليوم أن يبعث ويستقبل عبر الفضاء بالراديو والتليفزيون الملون ، بالتقارير التى يضمنها تجاربه . كما تمكنت آلات التصوير الملحقة بأقمار الفضاء من إعطائنا صورا مقربة لسطح القمر فوتوغرافيا وتليفزيونيا ، وكذلك أعطتنا صورا لكوكب المريخ وللرجال وهم يمشون على سطح القمر نفسه . وأصبحت البرامج التلفزيونية ترسل من مكان إلى آخر فى أقصى المعمورة عن طريق استخدام أقمار الاتصالات التى تستقبل هذه البرامج من مكان وتبثها من جديد . ويحمل كل يوم فى طياته إضافات عجيبة وابتكارات مذهلة فى مهنة توصيل الرسائل الإعلامية . وأصبح فى مقدورنا أن نتحكم فى الزمن وأن نخضع المكان لإرادتنا ، بفضل الحاسبات

الإلكترونية ونظم الاتصالات اللحظية السريعة .

وعلى الرغم من هذا التقدم المذهل ، فإن هذه البنية الفريدة فى الاتصالات ما لم تكن ذات فوائد ودلالات معبرة ووظائف هادفة ، فإنها يمكن أن تغدو لعبة بلا معنى . وذلك يقتضى أن نعرف ماذا نقول من خلال هذه الوسائل ، وماذا نريد منها . ومن أجل ذلك فإن دراسة الإعلام تعنى دائما ــ أمرين متداخلين : الفهم الكبير للوسائل الآلية من جهة ، ثم من جهة أكثر أهمية : أن نتعرف على كيفية استخدام الناس لهذه الأدوات والوسائل فى حياتهم اليومية التحقيق : الإعلام ، والتأثير ، والتنوير ، والإقناع ، والترهيب ، والترفية ، والإمتاع .

ذلك أننا فى حياتنا العادية يتصل بعضنا بالبعض ، ويمكنك أن تلخص ذلك عندما تتصل بشخص آخر من حولك فتبعث إليه برسالة مباشرة تستخدم فيها حاسة أو أكثر من حواسك المعروفة : صوتا وبصرا ولمسا وتذوقا وشما . وذلك أنك عندما تنفرج أساريرك عن ابتسامة ما فإنك تعرب عن رغبتك فى مصادقة إنسان ما ؛ كما أن النغمة التى تتميز بها عبارة « صباح الخير » وأنت تنطلق بها . يمكن أن تبين مشاعرك وتكشف عن طبيعتها على الرغم من أنك لم تشرحها أو تتحدث عنها . والألفاظ التى تنتقيها حينما تتكلم أو تكتب تتضمن فى أعطافها رسالة ما تريد لها أن « تعبر » الجسور وأن تنتقل إلى شخص آخر وحينما تختار ألفاظها وتحاول نظمها لكى تحدث التأثير المنشود ، فإنك بالفعل تكون قد حققت اتصالا أفضل . على أن المجتمع الحديث قد أصبح يتسم إلى حد كبير بسمة التعقيد فى وظيفة الاتصال المباشر بين الأفراد بعضهم بالبعض الآخر . فالرسائل التى تعنينا نحن ، ونريد لها أن تكون أكثر تأثيرا ، يجب أن تصل إلى أناس عديدين فى وقت واحد « فربة البيت التى يزعجها » إرتفاع أسعار اللحوم قد تتحدث إلى عدد محدود من جاراتها حول تنظيم الميزانية ، وإذا تصورنا أن محرر الصحيفة المحلية كان يخصص فى صحيفته بابا لرسائل القراء ، فإن هذه السيدة سوف تكتب فى تلك الصحيفة عن رأيها ، وحينئذ تكون قد وصلت فكرتها إلى آلاف النساء فى وقت أقل بكثير من الوقت الذى كانت تضيعه فى الزيارات الشخصية . والأمر كذلك بالقياس إلى الساسة حينما يريد أحدهم ترشيح نفسه فى البرلمان ، إنه ينفق وقتا طويلا فى حملته لزيارة المصانع وعقد الاجتماعات ومصافحة المواطنين على أمل أن يكسب أصواتهم .. ولكنه مع ذلك يعلم

تماما أن الأصوات التى يكسبها بهذه الطريقة لا تمثل إلا نسبة ضئيلة ، وهو لذلك يشترى وقتا إذاعيا من الراديو والتليفزيون ، ليوصل رسالته إلى الكم الجماهيرى الكبير وفى الحال . وهذا هو المقصود بالاتصال الجماهيرى – توصيل المعلومات ، والأفكار ، والاتجاهات إلى جمهور كبير متنوع المشارب ، من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية المتطورة ، وهنا يصبح فن الاتصال بالجماهير – فنا – أكثر صعوبة من الاتصال الشخصى بين شخص وآخر ذلك أن اللغة فى الاتصال الجماهيرى لا يكفى فيها مجرد أن يكون الإنسان قادرا على استعمالها فى التعبير عن ذاته ، لتحقيق الاتصال بالآخرين ، وتحقيق أهدافه الاتصالية ، لأن هناك عوامل أخرى لابد من مراعاتها فى الموقف الاتصالى العام .

وفى عملية الاتصال ننظر إلى اللغة على أنها أهم نسق بين العلامات يساعد على التفكير والتعبير عن الذات . ولذلك يركز الدارسون فى الإعلام على قدرة اللغة على إفهام الجمهور وتوصيل المعلومات والأفكار من خلال وسائل الإعلام المختلفة . وعلى ذلك يغدو التعبير اللغوى جزءا هاما فى عملية الإعلام يتممه جزء مقابل يركز كيفية الاستيعاب والتفسير وتطوير المعلومات .

وبناء على أن الرسالة الإعلامية من أهم عناصر العملية الاتصالية فى الإعلام ، بأبعادها النفسية والاجتماعية والثقافية ، فقد أنفق العلماء جهودا مضنية ، ووقتا طويلا ، فى بحوث الرسالة نفسها من حيث كتابتها وتحريرها ، وفنون صياغتها ، حتى أنه يخيل للمرء أن زاوية الرسالة هى الزاوية الوحيدة التى شغلت الباحثين دون الزوايا الأخرى . غير أن المواقف الاتصالية أشمل من ذلك وأعم ، فهى مواقف سلوكية تقدم فرصا مطردة ومتزايدة للمشاركة فى الخبرة ، وتحقيق الأهداف ، وكسب المعرفة والفهم وافتراض الفروض بشكل عام ، للسيطرة على البيئة من خلال استخدام الرموز (١) .

وقد فطن القدماء من أمثال أفلاطون وأرسطو إلى هذه الحقيقة ، فنجد أن أفلاطون قد حدد المدينة الفاضلة على أساس اتصالى ملهم ، فقال إن عدد سكانها ينبغى أن يحدد بطريقة تسمح لمناد واحد أن يحيطهم علما بما يجرى من أحداث

---

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ص ١٣٥ .

وغنى عن البيان أن هذا الشرط يكشف عن وجهة نظر عميقة فى فهم الأبعاد الاجتماعية للاتصال ، والدور الذى تلعبه المعلومات فى توعية الناس بأحوال مجتمعهم ، وتبصيرهم بشئونهم ، مما يؤدى إلى التكامل السياسى والاجتماعى ولا شك أن انعزال أفراد المجتمع ، وسلبيتهم وجهلهم بمجريات الأمور ، لابد وأن ينجم عنه فقدان التكامل ، وتخلف الحضارة .

وأما أرسطو ، فقد أدرك أن أركان الاتصال تشمل المتحدث والحديث أو الخطبة والمستمعين أو الجمهور ، كما أدرك أن المتحدث لابد وأن يصل إلى إقناع الناس بوجهة نظره فهو يقول : « طالما أن الخطابة قد وجدت لتؤثر فى الناس ، فعلى الخطيب أن يتجاوز توضيح حديثه بالبرهان المنطقى ، ويقدم مضمونا قابلا للتصديق بشكل يحمل المستمعين على الاعتقاد بأنه شخصية صادقة ومنصفة ، ولا يتأتى ذلك إلا بوضع هؤلاء المستمعين فى الإطار العقلى والمنطقى السليم »

ولا شك فى أن منطق أرسطو — والخطابة من أجزائه وهى الوسيلة الأساسية للاتصال السياسى فى المدينة الإغريقية — كان أكثر نفوذا إلى البلاغة العربية ، ارتبط بها منذ نشأتها ، وسايرها حتى وصلت القمة . وفى ثناياها بحوث منطقية متنوعة فى الألفاظ والقضايا والأقيسة ، لأنها كانت تعتبر ضرورية للبحث البيانى ضرورة الأبحاث اللغوية ، ومتممة لعلم المعانى الذى يقوم على الحد والاستدلال .(١)

وتشاء الصدف أن يكون منطق أرسطو من أولى كتبه ترجمة إلى العربية ، بحيث استطاع أن يلتقى مع نشأة البلاغة . ويظهر أن « كتاب الخطابة » بالذات ترجم غير مرة ، وكانت ترجمته الأولى مبكرة فى النصف الأخير من القرن الثانى للهجرة . ولقد لخصه فلاسفة الإسلام أو علقوا عليه وشرحوه ، وابن سينا — على حد تعبير الدكتور مدكور — أوضحهم شرحا وأكثرهم تحليلا(٢) . ذلك أن ابن سينا يقدم لنا فى كتابه « الخطابة » أوضح صورة عربية لما كتبه المعلم الأول باليونانية(٣) .

(١) السكاكى ، مفتاح العلوم ، القاهرة سنة ١٣١٨ هـ ، ص ٧٠ فى : تصدير الدكتور إبراهيم يومى مدكور — لكتاب ابن سينا : الشفاء — المنطق ٨ — الخطابة ، القاهرة سنة ١٣٧٣ — ١٩٥٤ م ، ص ٧ .

(٢) د. إبراهيم يومى مدكور : المرجع السابق ، ص ٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦ ، د. طه حسين ، نقد النثر ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٢٤ — ٢٧ .

وقد يختلف عنه فى بعض التفاصيل والجزئيات كتبويب الكتاب ، وتعريف بعض المصطلحات . « والخطابة » بهذا المعنى أقرب الأشياء « للاتصال الجماهيرى » الذى عرفه أرسطو . وأغلب نماذج الاتصال التى ظهرت بعد ذلك تتبع بشكل عام الخط الذى سار عليه أرسطو :[١] .

١ ــ الشخص الذى يتحدث

٢ ــ الحديث

٣ ــ المستمع لهذا الحديث

يقول ابن سينا :

« ولما كان المخاطب إنسانا ، وكل إنسان إما خاصي ، وإما عامى ، والخاصي لا ينتفع من حيث يحتاج أن يصدق تصديق الخواص إلا بالبرهان ، والعامى لا ينتفع من حيث يحتاج أن يصدق تصديق العوام إلا بالخطابة ، فالصناعتان النافعتان فى أن يكتسب الناس تصديقا نافعا : البرهان والخطابة »[٢] .

وقد وجه ابن سينا أيضا اهتماما كبيرا للجوانب الاتصالية التى عنى بها أرسطو ، يقول « فههنا : قائل ، وقول ، وسامعون » فالحيلة الإعدادية : إما أن تكون بحيث تجعل القائل مقبول القول ، أو بحيث تجعل القول أنجح ، أو بحيث تجعل السامعين أقبل . فأما القائل ، فإن يتكلف الاستشهاد بحال نفسه تكلفا ، إذا لم يكن ذلك واقعا بنفسه ، وذلك أن يتكلف الدلالة على فضيلة نفسه ، أو يتهيأ بهيئة وسحنة تجعل مثله مقبول القول . وأما القول فإنه يحتاج تارة إلى أن يرفع به الصوت ، وتارة إلى أن يخفض به الصوت ، وتارة إلى أن ينقل الصوت ، وتارة إلى أن يجد ، وتارة إلى أن تخلط فيه هذه الأمور . ولكل عرض أيضا ترتيب خاص[٣] .

وأما السامع فيحتاج أن يستعطف ويستمال حتى يجنح ويميل إلى تصديق القائل ، أو يرد إلى هيئة مصدق ، وإن لم يصدق . وكذلك الحاكم . وأما الناظر

---

(١) د. جيهان أحمد رشتى : الأسس العلمية لنظريات الإعلام ، ص ١٢ .

(٢) ابن سينا : الشفاء ــ المنطق ــ المرجع السابق ، ص ٣

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠ .

فيكفى منه أن يهيأ بهذه الحيلة بهيئة مذعن مصدق ، وإن لم يقع له التصديق »[١] .

ومن هنا يبين مكان مشكلة الصلة بين الإعلام واللغة ، أو بتعبير أدق — فى مجالنا هنا — الإعلام والنحو ، لكى ينتقل من أن يعبر عنه ، فإن اللغة « تعبير عن الفكر » ، وكل فكر لابد له لكى ينتقل من أن يعبر عنه ، فاللغة ظاهرة اجتماعية من الطراز الأول . وإذا كان المنطق يبحث فى الفكر ، فهو مضطر أيضا إلى البحث فى التعبير عنه ، أى فى اللغة . بل إن أهمية دراسة اللغة بالنسبة إلى المنطق لتظهر فى اسمه نفسه — على حد تعبير بعض الباحثين[٢] ، فهو مأخوذ من النطق أو الكلام ، كما تظهر الصلة القوية حتى الاتحاد بين الفكر واللغة فى أن الكلام يدل أحيانا على الفكر والعقل والبرهان ، كما هو ظاهر فى اللغة اليونانية مثلا ، ونقصد باللغة هنا اللغة ذات الألفاظ . ولو نظرنا بإمعان فى الصلة بين الفكر واللغة ، وجدنا أن اللغة ليست مجرد ثوب يرتديه المعنى الفكرى دون أن يؤثر فيه تأثيرا جوهريا ، وإنما هناك تأثير متبادل بين اللغة والفكر . فإنه بفضل اللغة ذات الألفاظ — كما يقول اشبنجلر — يفترق الإحساس الخالص عن العقل المجرد . وبالتالى تستحيل معانى الألفاظ ، وهى فى نشأتها حسية ، إلى معان عقلية خالية من كل قيمة بصرية ، أى تستحيل إلى معان مجردة وتصورات فالتجريد معناه تجرد اللفظ من معناه أو مدلوله الحسي البصرى واستحالته إلى معنى عقلى صرف ، وذلك بفضل اللغة ذات الألفاظ[٣] فكأن للغة أخطر الأثر فى تطور الفكر ، لأنها تحيله من فكر عيانى إلى فكر مجرد ، وهو المرتبة العليا للتفكير الإنسانى ، وليست إذن مجرد مرآة تعكس الفكر فحسب »[٤] .

وفى ثورة الاتصال بالجماهير وإزاء انتشار وسائل الإعلام واستخدام الكلمة مجهورة ومدونة ، تتلخص مشكلة الصلة بين الإعلام واللغة فى هذا السؤال : هل اللغة وسيلة واضحة يمكن الاعتماد عليها فى اتصال الناس ببعضهم البعض ؟ كيف نتأكد من أن ملايين الناس قد وعوا قصد المرسل ومعناه وما رغب فى توصيله إليهم ؟

---

(١) نفس المرجع ، ص ١١ .

(٢) د. عبد الرحمن بدوى المنطق الصورى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .

(٣ ، ٤) نفس المرجع ، ص ٣٢ ، الدكتور بدوى أيضا : اشبنجلر ص ٢٤٩ — ص ٢٥٠ القاهرة سنة ١٩٤١ .

تركيب الرسالة الإعلامية :

وتحت هذا العنوان تندرج الأجزاء أو العناصر التى تؤلف بتجمعها الرسالة الإعلامية . وقد يكون من المفيد ، هنا ، أن نعرض بإيجاز قائمة « بالعناصر » التى تدخل فى تركيب الرسالة الإعلامية .

١ – **المادة** : وتدل « المادة » على « قوالب البناء » الحسية التى تتركب منها الرسالة الإعلامية من أصوات وألوان وألفاظ ، إلخ . وفى الرسالة الإعلامية ترتب هذه القوالب وتنظم على نحو معين هو الشكل . غير أن الرسالة أكثر من مجرد ترتيب لعناصر مادية . فعندما ندركها إعلاميا ، نجدها تنطوى على توقع ، وانتباه ، وانفعال وإعلام ، وفكرة وفعل .

ذلك أن الاتصال بالجماهير على نطاق واسع يقرب الجماهير . سواء كان هذا الجمهور متفرجا أم قارئاً أم مستمعاً . وقد يكون فى المنزل أو فى السيارة أو فى المسرح ، أو فى أى مكان آخر . ولكل إنسان فى لحظة معينة بغض النظر عن محتويات لا شعوره – مجموعة من المشاعر والتوقعات التى توجد على السطح أو قريبا منه ، وتستطيع أن تلعب دوراً مباشرا فى استقبال موضوع الاتصال – وهذا الدور واضح فى تجربة المرء للاتصال المواجهى . حيث يعرف صاحب الاتصال شيئا ما عن الحالة العقلية التى لابد أن يواجهها . بل إنه يستطيع التأثير عليها . ولوسائل الاتصال بالجماهير بعض أنواع العلاج ، ومن ذلك المقدمات التى تسبق المذيع ، والقوائم والإعلانات التى تنشر فى الصحف ، وهذه الوسائل جميعا تساعد على تشكيل التوقعات . غير أن التوقعات الخاطئة يمكن أن تأتى نتيجة عكسية [١] .

وفى الاتصال عن طريق الكلمة المطبوعة تتحدد التوقعات عن طريق العناوين ، والصور ، وفن الطباعة ، والإخراج ، وبما يعلمه القارىء عن الناشر والكاتب والمصور . وهنا أيضا إذا أسىء التحديد فقد يأتى بنتائج عكسية ...

وقد أصبحت الرغبة فى الاستحواذ على انتباه الجماهير – كما نعلم من تاريخ وسائل الإعلام – عرضة للتنافس المتزايد .

(١) أريك بارنود ترجمة صلاح عز الدين وآخرين : الاتصال بالجماهير ، ص ١٣٨ .

وقد نتج هذا عن الوفرة التى خلقناها ، وهو الأمر الذى أدى إلى شيئين : [١] .

الأول : ازدياد عوامل الإثارة فى الأعمال الفنية والعناوين ، والمؤثرات الصوتية ، والمؤثرات الموسيقية ، وأغلفة الكتب ، وغير ذلك من الوسائل لضمان الاستيلاء على انتباه الجماهير من البداية .

الثانى : تناقص الأثر الذى تحدثه تلك الوسائل نفسها . ومن الأهمية بمكان ، لكى تستولى على الانتباه ، ولكى تكسبه ، أن تدرك أن جوهر الانتباه الكامل لا يقوم على المفاجأة ، التى هى مؤقتة ، بل على شىء آخر هو المشاركة . فنحن لا نستولى على الجمهور استيلاء تاما إلا حين يكون « فاعلا » ، حين يقوم بدور إيجابى .

وقد يقتضى هذا الدور الإيجابى تكملة صورة ما . فإن صورة كاريكاتورية لسياسي ما قد تنعش خيال القارىء إذا رسمنا له خطوط صدعه فحسب ، ولا شىء غير ذلك . وعلى الجمهور أن يقوم بتقديم الباقى .

وقد يتطلب هذا الدور حل الألغاز . فإن عنوانا أو جملة افتتاحية قد تثير سؤالا استفزازيا : ما الذى سبب تحول الكرملين ؟ من هو رجل واشنطن الخفى ؟[٢] .

ولابد أن يكون قد ظهر الآن بوضوح أن دراسة التركيب الفنى للرسالة تنطوى على تحليل للفن . فلابد لنا من تفكيك العمل الفنى ككل لكى نميز عناصره . وعند هذه النقطة بعينها قد يرتفع صوت بالاحتجاج ، قائلا إن هذه الطريقة باطلة تماما فى حالة الفن . فالعمل الفنى وحده ، وهو لا يمكن أن يفهم نظريا أو يتذوق إلا على هذا الأساس . ونحن حين نستمتع بعمل ما ، لا نكون واعين « بالصورة » و « المادة » والتعبير بوصفها كيانات مستقلة . ففى تفتيت العمل إلى هذه الأجزاء قضاء على معناه وقيمته[٣] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٥ .

(٣) جيروم ستولينتز (ترجمة د. فؤاد زكريا) النقد الفنى ، ص ٣٢٢ .

فكيف يمكن الرد على هذا الاتهام ؟ إننا بالفعل نقوم « بتحليل » للعمل حين نحكم على قيمته ، كما يقول ستولينتز ، فنحن نتحدث عن إيقاعه أو لونه . بل إن من الواجب أن نفعل ذلك . فالعمل الفنى شديد التعقيد (وهذا ما يثبته تحليل بناء الرسالة الإعلامية) . فإذا ما شئنا أن نتحدث عنه على أى نحو ، فلابد لنا من أن نحلل تعقده إلى أجزائه المكونة له . وليس فى استطاعتنا أن نتحدث إلا عن شىء واحد فى المرة الواحدة . فالتحليل إذن محتوم ، وإلا كان علينا ألا نعرف أى شىء عن العمل أو نزيد من مقدار تذوقنا [١] أو استقبالنا له .

غير أن التحليل يمكن أن يكون مضللا إلى حد خطير ، كما يقول أحد النقاد ، إذا ما أسأنا استخدامه . ونحن نسىء استخدامه عندما نرتكب « مغالطة التجريد الباطل » ويعنى بها « ستولنيتز » تجريد عنصر واحد من موضوع كلى عينى ، ثم الاعتقاد بأن هذا العنصر سيكون له عندما يعزل على هذا النحو ، نفس الخصائص التى كانت له عندما كان جزءا من الموضوع . فلِمَ يعد هذا الاعتقاد باطلا ؟ لأنه حين يكون العنصر جزءا من الموضوع ، تكون له علاقات بالعناصر الأخرى للموضوع ، وهذه العلاقات تؤثر فيه وتحدث اختلافا فى طبيعته . فلو بحثت الحاجات الاقتصادية وحدها لإنسان ما ـــ أى قمت بالتجريد المشهور الذى يعرف باسم « الإنسان الاقتصادى » ـــ فسوف تقرر كيف ينفق هذا الشخص نقوده على موضوعات معينة . ولكن عندما تبحث فى الإنسان الفعلى ، الذى تربطه ببقية الناس والجماعات علاقات شخصية وسياسية وعاطفية ، فسوف تدرك مدى ابتعاد استنتاجاتك عن الصواب ، إذ أن سلوكه الاقتصادى يتأثر بكل هذه العوامل (وهذا بعينه هو السبب فى اختلال ميزانيات كثير من الأفراد والأسر) .[٢]

بل إنه من « التجريد الباطل » أن يفهم من معالجتنا للرسالة الإعلامية أنها أهم شىء فى العملية الاتصالية ، كما يذهب إلى ذلك التقليديون ، ذلك أن الرمز نفسه جزء من الموقف الاتصالى العام بأبعاده النفسية والاجتماعية والثقافية . ولقد أنفق العلماء جهودا مضنية ، ووقتا طويلا ، فى بحوث الرسالة نفسها من حيث كتابتها

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٢٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٢٣ .

وتحريرها ، وفنون صياغتها ، حتى إنه ليخيل للمرء أن زاوية الرسالة هى الزاوية الوحيدة التى شغلت الباحثين دون الزوايا الأخرى . غير أن المواقف الاتصالية أشمل من ذلك وأعم ، فهى مواقف سلوكية تقدم فرصا مضطردة ومتزايدة للمشاركة فى الخبرة ، وتحقيق الأهداف ، وكسب المعرفة والفهم ، وافتراض الفروض بشكل عام ، للسيطرة على البيئة من خلال استخدام الرموز (١) .

حلقات متماسكة ، ويؤدى ضعف أى حلقة فيها إلى ضعف السلسلة كلها . ذلك أن عملية الإعلام تتضمن عددا من العناصر والمواقف المحيطة بها . وقد تبين مما تقدم أن هناك خمسة عناصر أساسية فى عملية الإعلام وهى (٢) :

١ – المصدر المباشر ، أو المرسل .

٢ – صياغة الفكرة فى رموز معينة .

٣ – فك هذه الرموز وفهمها .

٤ – استجابة المستقبل .

٥ – الردود أو الأصداء الراجعة من المستقبل إلى المرسل ، والذى يستطيع عن طريقها أن يكيف عملية الاتصال ويعدلها ، كما يفعل الترموستات لضبط درجات الحرارة وجعلها متمشية دائمة مع الدرجة المطلوبة .

فالمرسل والمستقبل والرسالة ووسيلة الاتصال حلقات متصلة متكاملة ، ومن واجب المرسل أن يعرف أقصي ما يمكن أن يعرفه عن جماهير المستقبلين ، وذلك عن طريق قياس اتجاهاتهم النفسية ، وإجراء اختبارات تجريبية مسبقة على رسائله التى ينوى إذاعتها على الناس .

فلا يمكن مثلا لصحيفة جديدة أن تغامر بالاندفاع إلى إنفاق بضعة ملايين من الجنيهات دون دراسة علمية لاتجاهات الجماهير وميول القراء ورغباتهم .

فليس هناك ما يجبر القارىء على شراء جريدة معينة أو المستمع على الاستماع

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٦ .

إلى إذاعة دون غيرها ، أو المشاهد على مشاهدة برنامج تليفزيونى معين . فالمستقبل حر فى اختيار ما يشاء من الوسائل المتاحة له[١] . وإن كان « فرانك لوثر موت »[٢] قد توصل إلى قاعدة تقول إن الاختيار متوقف على العلاقة بين الفائدة التى ينتظرها المستقبل من جهة ، والجهد الذى يبذله من جهة أخرى ، ويعبر عن ذلك على النحو التالى :

$$\text{الاختيار} = \frac{\text{الفائدة المرجوة من الرسالة}}{\text{الجهد المبذول فى الحصول عليها}}$$

فالقارىء يفضل الاطلاع على الصحيفة المتيسرة له عن الذهاب إلى مكان بعيد لشراء صحيفة أخرى ؛ ولكنه يفضل أيضا الصحيفة التى تحافظ على سلامة اللغة على غيرها ، وكذلك المستمع إلى الإذاعة والتليفزيون ، ذلك أن المستقبل هنا على استعداد لبذل جهود مضاعفة لكى يستمع إلى برنامج معين أو أخبار ذات دلالة خطيرة .

و « التجريد الباطل » فى الفن والاتصال بالجماهير هو محاولة فهم عنصر معين فى العمل الفنى أو الرسالة الإعلامية ، كالشكل أو التعبير ، وكأن له وجودا بمعزل عن العمل أو الرسالة . ويترتب على ذلك الاعتقاد خطأ بأن طبيعة العنصر وقيمته يمكن أن تعرف معرفة كاملة بمعزل عن بقية العمل ، ثم ينبنى على ذلك خطأ آخر هو أن نعتقد ، بعد حساب قيمة كل من العناصر ، بأن قيمة العمل أو الرسالة لا تعدوا أن تكون كل هذه القيم الجزئية ، والأمر فى ذلك أشبه بحالة أنصار علم النفس التجريبى الذين ظنوا أنهم لو استطاعوا تحديد القيمة الجمالية لكل لون فى لوحة ، لكان من السهل بعد ذلك تحديد قيمة اللوحة بأكملها[٣] .

وفى كثير من الأحيان تصبح الرسالة الإعلامية حروفا ميتة على الورق ، أو أصواتا لا معنى لها ، عندما ينعدم الفهم ، وتكون الرموز والخبرات المختلفة ، والمستويات المتباينة فحسب ، بل إن ذلك يحدث أحياناً عند استخدام لغة مشتركة دون التزام بإطار دلالى موحد .

(١ ، ٢) المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) جيروم ستولنيتز : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

ومن هنا كان على « الإعلام » أن يفيد من « المنطق » من حيث عنايته باللغة من ناحية أنها تعبير عن الفكر ، وأن هذا التعبير يجب أن يكون دقيقا محكما حتى لا يؤدى ذلك إلى لبس وخطأ فى التفكير مصدره عدم الدقة أو الخلط فى التعبير .. فعليه إذن أن يحلل معانى الألفاظ اللغوية والتراكيب ، وأن ينتهى من هذا التحليل إلى وضع القواعد الواجبة الاتباع فى التعبير ، حتى يكون الفكر صحيحا فى شكله . وفى موضوعه . وهنا وجد المنطق أمامه علما من علوم اللغة يعنى بهذه الناحية ، ألا وهو النحو ، فكان لا مناص إذن من تحديد الصلة بين كليهما ، خصوصا وأن الأمر قد يشتبه فيصبح موضوعه غير مفهومه للمستقبل . ولا ينطبق ذلك على اللغات الأجنبية ، العِلْمان واحد من حيث أن النحو يبحث فى اللغة المعبرة عن الفكر ، والمنطق يبحث فى الفكر المعبر عن الفكر ، والمنطق يبحث عن الفكر المعبر عنه باللغة ، حتى قيل إن النحو منطق لغوى ، وإن المنطق نحو عقلى (التوحيدى : « المقابسات » ، ص ١٦٩) . فأثارت مسألة تحديد تلك الصلة مشكلة خطيرة سواء فى ميدان المنطق وفى ميدان النحو »[١]وفى ميدان الإعلام حديثاً .

والاتصال يجب أن يفهم بمعنى انطولوجى واسع . فالاتصال الإدارى مثلا ما هو إلا حالة جزئية من الاتصال بالمعنى العام المستخدم فى معناه الوجودى العام . وبهذا المعنى فإن الاتصال مهمته أن يؤلف الإفصاح الخاص بالوجود — مع — من حيث أنه فهم أو يتمم المشاركة فى الشعور المشترك بالموقف ، والمشاركة فى فهم الوجود — مع — الغير[٢] .

فالاتصال — إذن — ليست « مهمته أن ينقل انطباعات أو آراء ، أو أمانى من باطن شخص إلى باطن شخص آخر . بل الوجود معا هو فى جوهره ، ومنذ البداية دائما ظاهر ومتجل فى الشعور المشترك للموقف وفى الفهم المشترك . والوجود — مع — الغير مشارك فيه — فى القول — بصراحة ، لكنه ثم ، بينما هو لم يدرك ، ولم يرفع إلى الاقتناء ، لأنه لم يقدم بعد إلى المشاركة »[٣] .

وفى الفصل الرابع والثلاثين من كتابه « الوجود والزمان » بعنوان « الآنية ،

(١ ، ٢) د. عبد الرحمن بدوى : اللغة والمنطق فى الدراسات الحالية فى « عالم الفكر » ع أ — ١٩٧١ ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ، هيدجر : الوجود والزمان » الفصل ٣٤ . ص ١٦١ .

والقول ، واللغة » يبين هيدجر العلاقة بين الوجود وبين اللغة ، على أساس أن وجود الآنية فى المقام الأول فهم للموقف الذى يوجد فيه الإنسان . وهذا الفهم قد اتخذ اللغة أداة له :

« فالقول هو الإفصاح عما هو ممكن الفهم . ولهذا فإنه يقوم فى أساس الإيضاح والإفصاح . والمعنى هو ما يفصح عنه فى الإيضاح ، وهذا المعنى يفصح على نحو أكثر أصالة فى القول . وما هو مركب بواسطة إفصاح القول ، نحن نسميه مجموع المعنى ، الذى يمكن أن يصاغ فى كثرة من المعانى .. والوجود — فى العالم ، بوصفه مفهوما على نحو الشعور بالموقف ، يعبر عن نفسه بالقول . ومجموع المعانى لما هو مفهوم يفضي إلى القول ، فالمعانى تتحول إلى كلمات »[1] .

وانفتاح الآنية (= الوجود الإنسانى) يتم بعضه بالقول ، ولهذا فإن القول من مقومات وجود الآنية . والسمع والسكوت هما من ممكنات القول . وهذه الظواهر تمكن وحدها من توفير إيضاح كامل للدور الوظيفى الذى يقوم به القول من أجل وجودية الوجود .. والقول إيضاح ذو معنى للتركيب الكامل للفهم ، الخاص بالوجود — فى العالم ، هذا الوجود — فى — العالم الذى لا ينفصل عنه الوجود — مع — الغير ، وهو يتحقق عينيا دائما فى الوجود — مع والاهتمام المشترك . وهذا الوجود — مع هو قول ، من حيث أنه يوافق ، أو يرفض ، يدعو ، أو ينبه ، أو يناقش ، أو يتدخل ، ومن حيث أنه يشهد[2] .

إن الآنية تعبر عن نفسها بالقول ، وما تعبر عنه هو وجودها خارج نفسها أو بالأحرى حالة عينية لشعورها بالموقف . « فى : اللغة : الآنية والشعور بالموقف يفصحان عن ذاتهما بواسطة لهجة القول ، وتنغمه ، ونظمه ، وبواسطة طريقة الكلام . وتبليغ الإمكانيات الموجودية للشعور بالموقف ، يعنى انكشاف الوجود يمكن أن يكون الغاية الخاصة بالقول »[3] .

واللحظات المؤلفة له هى : ما يتكلم عنه القول ، والمقول من حيث هو

---

(١) هيدجر : المرجع السابق ص ١٦١ ، بدوى : المرجع السابق ص ٧٧ .

(٢) بدوى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ، هيدجر : المرجع السابق ص ١٦٢ .

مقول ، والتبليغ والتجلي . وهذه اللحظات ليست مجرد خصائص يكشف عنها تجريبيا فى اللغة ، بل هى خصائص وجودية مغروسة فى التركيب الانطولوجى للآنية وابتداء منها وحدها تصبح اللغة ممكنة من حيث الانطولوجيا .

والمحاولات التى بذلت من أجل إدراك « حقيقة اللغة » اتجهت إلى هذه اللحظة أو تلك من هذه اللحظات . وهكذا فهمت اللغة على ضوء فكرة : « التعبير » ، أو « الشكل الرمزى » ، أو « التبليغ المفصح » ، أو « تجلى الحياة التى عيشت » ، أو « بنية الحياة » [1] .

وعلى ذلك ، يمكن القول إن علم الإعلام اللغوى هو العلم الذى يدرس اللغة فى ضوء فكرة « الاتصال » وإن كان لا يغفل الأفكار الأخرى ، فهو يفيد منها فى دراسة ظاهرة الاتصال الإعلامى ، ومكان اللغة فيها ، وسماتها المؤثرة فى تحقيق الاتصال الفعال بالجماهير .

ويقول ابن خلدون : إن أركان علوم اللسان العربى أربعة : وهى اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، إذ ما أخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغتهم . فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة . ونضيف إلى ابن خلدون أن معرفة علوم الإنسان العربى ضرورية لكل مشتغل بالإعلام والاتصال بالجماهير وتتفاوت فى التأكيد بتفاوت مراتبها فى التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين فى الكلام عليها فنا فنا . يقول ابن خلدون : « والذى يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو ، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الإفادة . وكان من حق علم اللغة التقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر . فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، إذ فى جهلة الإخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق » .

ويقول عن علم النحو : اعلم من أن اللغة فى التعارف هى عبارة المتكلم عن

(١) بدوى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني (ناشئة عن القصد لإفادة الكلام) . فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان . وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم . وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد الدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف ، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ . أخرى . وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب . وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة [١] وذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب . وهذا هو معنى قوله ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً [٢] » . فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات أي الأوضاع اعتبارا من الدلالة على المقصود ، غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها ، إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول[٣] كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا .

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين (من العجم) . والسمع أبو الملكات اللسانية . ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع . وخشى أهل الحلوم[٤] منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد فيتعلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ، ويقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع . ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ (آية ٧٥ من سورة الحجر ، والمعنى للمتفكرين المتفرسين الذين يعرفون حقيقة الشيء بسمته) (د. وافي) .

(٢) انظر توضيح ذلك وتحريره وتصحيحه كتاب : علم اللغة ص ١٩٧ ــ ٢٠٧ ، كتاب فقه اللغة ٢٠٤ ــ ٢١٩ للدكتور علي عبد الواحد وافي (الطبعة السادسة) .

(٣) يرى الدكتور وافي أن هذا لا يصح أن يكون دليلا على ما قرره بصدد اللغة العربية ، لأن الحديث خاص بكلام الرسول عليه السلام وما أوتيه من بلاغة في القول وقدرة على الإيجاز والتعبير عن المعاني الكثيرة بالقليل من الألفاظ .

(٤) يعني أهل الأحلام والعقول . ومنه قوله تعالى : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ؟ ﴾ .

إعرابا ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلى من بنى كنانة ، ويقال باشره على رضي الله عنه ، لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة [١] المستقرأة .

ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها لذهاب تلك الملكة من العرب . فهذب الصناعة وكمل أبوابها . وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها ، واستكثر من أدلتها وشواهدها ، ووضع فيها « كتابه »[٢] المشهور الذى صار إماما لكل من كتب فيها من بعده . ثم وضع أبو على الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام فى كتابه .

ثم طال الكلام فى هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها فى الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب ، وكثرت الأدلة والحجاج بينهم ، وتباينت الطرق فى التعليم ، وكثر الاختلاف فى إعراب كثير من آى القرآن باختلافهم فى تلك القواعد ، وطال ذلك على المتعلمين . وجاء المتأخرون بمذاهبهم فى الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل ، كما فعله ابن مالك فى كتاب التسهيل وأمثاله ، أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين كما فعله الزمخشرى فى المفصل وابن الحاجب فى المقدمة له . وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك فى الأرجوزتين الكبرى والصغرى[٣] ، وابن معطى فى الأرجوزة الألفية [٤] وبالجملة فالتآليف فى هذا الفن

---

(١) الحاصرة بالصاد أى التى تحصر وتحدد .

(٢) يسمي مؤلف سيبويه « الكتاب » ولذلك وضعنا كلمة « كتابه » بين علامتى تنصيص للإشارة الى أننا بصدد علم على مؤلف خاص (د. وافى) .

(٣) تسمى أرجوزته الكبرى « الكافية الشافية » ، وأما أرجوزته الصغرى فهى « الألفية » المشهورة ، وهى ملخص « الكافية » (د. وافى) .

(٤) وكان الأفضل أن يقدم ابن معطى ، لأن ألفيته سابقة على ألفية ابن مالك . وإلى هذا يشير ابن مالك نفسه فى فاتحة ألفيته إذ يقول :

وتقتضى رضا بغير سخط ... فائقة (ألفية) ابن معطى
وهو بسبق حائز تفضيلا ... مستوجب ثنائى الجميلا

أكثر من أن تحصي أو يحاط بها ، وطرق التعليم فيها مختلفة : فطريقة المتقدمين مغايرة طريقة المتأخرين ، والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك .

وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص فى سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران . ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر[١] منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى أحكام الإعراب مجملة . ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها ، وسماه « بالمغنى » فى الإعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها ، فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ، وكأنه ينحو فى طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا مصطلح تعليمه . فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه . والله ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ [٢] .

(علم اللغة) : هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية . وذلك أنه لما فسدت ملكت اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب استنبطت القوانين لحفظها كما قلنا ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ . فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأصّلوا فيه الدواوين » .

وعلى ذلك ، فإن النحو فى نظرية الإعلام يرتبط بعنصر « الرسالة » ارتباطا مباشرا من حيث قيامه بوظيفة تعبيرية عن الفكر ، وهو من هذا الموضع يكون قاسما مشتركا بين عناصر الإعلام الأخرى كالمرسل والمستقبل ، حيث يعاون النحو فى

---

(١) يعنى كتابه : مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » وقد عرض ابن هشام فيه لموضوعات تمت كثير منها بصلة إلى « بحوث فقه اللغة » . (د. وافى) .

(٢) من الآية الأولى من سورة فاطر .

(٣) د. عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

التعبير عن الفكر ، ولذلك يغلب على الظن أن نشأة المنطق ـــ الذى ولد الاتصال فى أحضانه ممثلا فى الخطابة كما تقدم » مرتبطة بالنحو . فقد بدأت البذور الأولى للمنطق عند اليونان فى أبحاث السوفسطائية الخاصة باللغة والخطابة والنحو بوجه أخص[١] ، ولم يكن إيمانهم بقوة الكلام إلا إيمانهم بقوة الفكر : ففن الإقناع هو بعينه فن التفكير ، أى أن السوفسطائية قد بحثت فى اللغة فأداها هذا البحث إلى المنطق[٢] .

وأرسطو قد وصل إلى كثير من التصنيفات المنطقية بواسطة دراسته للغة ونحوها . فهو يرى أن الكلام يعبر بدقة عن أطوال النفس أو الفكر . وفى وسع المرء أن يستعين بالصور اللغوية لكى يكشف عن أحوال الفكر . فاللغة تنظر إلى الألفاظ من ناحيتين : من ناحية وجودها مفردة فتقسمها إلى **أسماء وأفعال وحروف** إلخ ، كذلك الحال فى الفكرة نقسمه إلى الأفكار المفردة وهى التصورات ، والأفكار المرتبطة وهى القضايا أو التصديقات . ثم تزداد الصلة توثقا فيما بين المنطق والنحو لدى الرواقيين . فبعد أن كان النطق مرتبطا عند أرسطو أشد الارتباط بما بعد الطبيعة ، انفصل عنها كى تتوثق صلته بالنحو . وقسموا المنطق إلى الخطابة وهى لا تكاد ترتبط بالفلسفة عندهم ، وإلى الديلكتيك فيعرفونه بأنه فن الكلام الجيد . ولما كان الفكر والتعبير وثيقى الارتباط انقسم الديالكتيك إلى قسمين : قسم يدرس التعبير ، وقسم يدرس ما يعبر عنه ، أى إلى اللفظ والفكر[١] .

واستمرت الصلة تقوى عند الشراح الأرسطاليين فى العصور التالية حتى أتت العصور الوسطى فى الشرق وفى الغرب . أما فى الشرق ، أى فى الإسلام بوجه أخص ، فقد أخذت المشكلة شكلا عنيفا على صورة خصومة بين النحويين الخلص وبين المناطقة . ويذهب الدكتور **بدوى** [٢] إلى أن العناية بالبحث فى الصلة بين المنطق وبين النحو العربى قد ظهرت واضحة كل الوضوح فى القرن الثالث ، واتخذت صورة خصومة عنيفة فى القرن الرابع ، حين نفذت العلوم الفلسفية إلى كل الأوساط[٣] .

---

(١) عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٣ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٤ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٥ .

وقد كان العربى يعرب لغته بالسليقة والفطرة العربية الصادقة ، فلما انتشرت الفتوحات الإسلامية ، وامتزج العرب بغيرهم من الأمم والشعوب أخذت السليقة العربية تفسد فى الألسنة ، واحتيج مع ذلك إلى وضع قواعد تعصم الألسنة من الخطأ ، وتقيهم شر اللحن ، منعا لعادية اللحن فى القرآن الكريم ، وعودا بالألسنة إلى طبيعتها السليمة .

ويستبد بشرف وضع مسائل النحو الأولى الإمام على بن أبى طالب (٣١ هـ) ، وأبو الأسود الدؤلى (٦٩ هـ) فى روايات كثيرة معروفة لا داعى لذكرها فى هذا المقام [١] وأرجح الآراء أن أبا الأسود هو واضع علم النحو العربى بقواعده الأساسية المعروفة [٢] يقول ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء : أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود .... ويقول ابن قتيبة فى « المعارف » : أول من وضع العربية أبو الأسود . ويقول ابن حجر فى الإصابة ذلك أيضا . واشتغلت بالنحو العربى مدرستان كبيرتان ، هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة .

فمدرسة البصرة كان من أعلامها :

١ - نصر بن عاصم (٥٩ هـ) ويحيى بن يعمر (١٢٩ هـ) .

٢ - ثم عبد الله بن أبى إسحاق (١١٧ هـ) وعيسى بن عمر الثقفى (١٤٩ هـ) وأبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ويونس (١٨٢ هـ) [٣] .

٣ - الخليل بن أحمد (١٧٠ هـ) .

٤ - سيبويه صاحب الكتاب المتوفى عام ١٨٨ هـ ، وقد نشرت شواهد الكتاب فى شرحى على كتاب « فصيح ثعلبْ والشروح التى عليه » .

---

(١) راجع عن أبى الأسود كتب تراجم النحويين التى ذكرناها من قبل ، وطبقات الشعراء لابن سلام ، وطبقات ابن سعد ٧ قسم ١ : ٧٠ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغانى ١١ : ١٠٥ - ١٢٤ طبعة بولاق ، ٤ : ٢٨٠ - ٢٨٢ معجم الأدباء لياقوت ، ٧ : ١٠٤ ، ١١٧ ، تارخ دمشق لابن عساكر ، وخزانة الأدب ١ : ١٣٦ - ١٣٨ ، وبغية الوعاة ، وقد طبع ديوانه .

(٢) نشأة النحو - محمد الطنطاوى - الطبعة الثانية ، وراجع عن أبى الأسود دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول العدد الخامس ، وضحى الإسلام : ٢ : ٢٨٦ .

(٣) صدر عنه كتاب فى سلسلة أعلام العرب المصرية بقلم حسين نصار .

٥ ــ المازنى البصرى (٢٤٧ هـ) .

٦ ــ المبرد (٢٨٥ هـ) صاحب كتاب « المقتصب »[١] .

ومدرسة الكوفة كان من أعلامها :

١ ــ معاذ الهراء (١٨٧ هـ) ، والرؤواسى الكوفى (١٩٠ هـ) .
٢ ــ الكسائى (١٨٩ هـ) .
٣ ــ الفراء (٢٠٧ هـ) .
٤ ــ ثلعب (٢٩١)[٢] .

وقد كان للمذهب البصرى والمذهب الكوفى فى النحو آثار كبيرة امتدت إلى أصوله وفروعه[٣]ونشأ عنهما المذهب البغدادى فى النحو ، وكان من أعلامه :

١ ــ الزجاج (٣١٠ هـ) .
٢ ــ ابن السراج (٣١٦ هـ) .
٣ ــ الزجاجى (٣٣٧ هـ) .
٤ ــ ابن درستويه (٣٤٧ هـ) .
٥ ــ ابن الأنبارى (٣٢٧ هـ) .
٦ ــ ابن كيسان (٢٩٩ هـ) .
٧ ــ الأخفش الصغير (٣١٥ هـ)[٤] .
٨ ــ نفطويه (٣٢٣ هـ) .

وقد ظهرت مدرسة عراقية خالصة فى النحو بعد ذلك من أشهر أعلامها :

١ ــ السيرافى (٣٦٩ هـ) ، وله شرح على الكتاب لسيبويه .
٢ ــ ابن خالويه (٣٧٠ هـ) وكتابه « ليس فى كلام العرب » مشهور .

---

(١) نشر فى القاهرة بتحقيق د. عبد الخالق عضيمة فى أربعة أجزاء .

(٢) حقق الخفاجى كتابيه : قواعد الشعر لثعلب ، وفصيح ثعلب ، وهما مطبوعان .

(٣) راجع كتاب أصول النحو العربى لسعيد الأفغانى ، وراجع كتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » للأنبارى (٥٧٧ هـ) ، وهو صاحب كتاب « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » ، أى النحويين .

(٤) فى مكتبة كلية اللغة العربية بالأزهر رسالة مخطوطة عنه بقلم الدكتور طه محمد الزينى .

٣ ـــ أبو على الفارسي (٣٧٧ هـ) .

٤ ـــ الرمانى (٣٩٢ هـ) .

٥ ـــ ابن جنى (٣٩٢ هـ) وكتابه « الخصائص » مشهور .

٦ ـــ التبريزى (٥٠٢ هـ) .

٧ ـــ الزمخشرى (٥٣٧ هـ) صاحب كتاب « المفصل » .

٨ ـــ ابن الشجرى (٥٤٢ هـ) .

٩ ـــ ابن الخشاب (٥٦٧ هـ) .

١٠ ـــ الأنبارى (٥٧٧ هـ) .

١١ ـــ المطرزى (٦١٠ هـ) .

وظهرت مدرسة مصرية فى النحو من أشهر أعلامها :

١ ـــ أبو جعفر النحاس (٣٣٧ هـ) ، وله شرح مخطوط على المعلقات .

٢ ـــ ابن بابشاذ (٤٦٩ هـ) .

٣ ـــ ابن برى (٥٨٢ هـ) .

٤ ـــ ابن معطى (٦٢٨ هـ) .

٥ ـــ ابن يعيش (٦٤٣ هـ) .

٦ ـــ ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) ، وله كتاب « الإيضاح » وهو شرح للمفصل للإمام الزمخشرى ، وكتاب « الكافية » .

ثم ظهرت مدرسة أندلسية ومغربية فى النحو ، ومن أعلامها :

١ ـــ الزبيدى (٣٧٩ هـ) صاحب كتاب « طبقات النحويين واللغويين » .

٢ ـــ الأعلم الشنتمرى (٤٧٦ هـ) وللخفاجى شرح على كتابه « أشعار الشعراء الستة الجاهليين » فى جزئين .

٣ ـــ ابن السيد البطليوسي (٥٢١ هـ) .

٤ ـــ السهيلى صاحب كتاب « نتاج الفكر » وهو مخطوط والروض الأنف ، وسواهما .

٥ ـــ ابن مضاء الأندلسي القرطبى (٥٩٢ هـ) .

٦ ـــ الجزولى (٦٠٥ هـ) .

٧ ــ ابن خروف (٦١٠ هـ) .

٨ ــ ابن مالك صاحب الألفية (٦٠٠ ــ ٦٧٢ هـ) . وله ابن يسمى ابن الناظم توفى عام ٦٧٦ هـ .

٩ ــ الشلوبينى (٦٤٥ هـ) .

١٠ ــ ابن هشام الاندلسي (٦٤٦) .

١١ ــ ابن الحاج (٦٤٧ هـ) .

١٢ ــ ابن أجروم (٧٢٣ هـ) .

وفى المشرق ظهر نحويون ، من أشهرهم :

١ ــ الرضي (٦٨٨ هـ) وله شرح على الكافية لابن الحاجب .

٢ ــ الجامى (٨٩٨ هـ) .

كما ظهرت مدرسة نحوية مصرية متأخرة ، من أشهر علمائها .

١ ــ ابن هشام (٧٦١ هـ) ، وكتاباه التوضيح والمغنى مشهوران .

٢ ــ ابو حيان (٧٤٥ هـ) .

٣ ــ الشاطبى (٧٩٠ هـ) .

٤ ــ المرادى (٧٤٩ هـ) .

٥ ــ ابن عقيل المصرى (٦٩٨ ــ ٧٦٩ هـ) صاحب شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٦٠٠ ــ ٦٧٢ هـ) .

٦ ــ الدمامينى (٨٢٧ هـ) .

٧ ــ الشمنى (٨٧٢ هـ) .

٨ ــ خالد الأزهرى (٩٠٥ هـ) .

٩ ــ السيوطى (٩١١ هـ) .

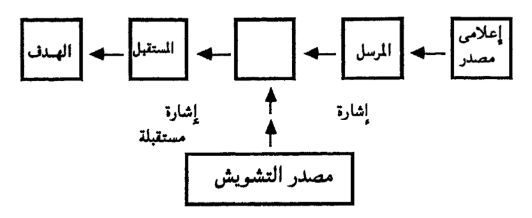
١٠ ــ الأشمونى (٩٢٩ هـ) .

١١ ــ الصبان (١٢٠٦ هـ) .

هذا والنحو فى نظرية الإعلام يرتبط بتحرير الرسالة ارتباطا وثيقا ، من حيث المعاونة التى يقدمها المحرر لجمهوره المتلقى مباشرة فى القراءة والاستماع من خلال عملية نقل المعلومات والآراء والحقائق والوقائع فى بنائها ، بناء على أن هذه النظرية

نبعت فى الأصل من دراسة مشكلات الاتصال الإلكترونى والتلغرافى ، وهى لذلك نظرية رياضية ترتكز أساسا على دراسة **قنوات الاتصال** (وسائل الإعلام) ، من حيث الإرسال والاستقبال . ولكنها مع ذلك تفيدنا كثيرا عندما ندرس مشكلة الصلة بين الإعلام واللغة بوجه عام والنحو بوجه خاص .

فعندما نرسل رسالة ما بموجات صوتية أو إشاعات كهرمغناطيسية فإن هذه الرسالة تمر بمراحل معقدة من المصدر والمرسل والوسيلة إلى المستقبل والهدف . على نحو ما نجد فى النظرية الرياضية للاتصال التى قدمها شانون وويفر كما يتضح فى النموذج التالى :



ويرتكز هذا الرسم التوضيحى على كل ما يقال حول الاتصال ، حيث يتحدث شخص ما إلى آخر فى نفس الحجرة أو من خلال الإذاعة المرئية (التليفزيون) عبر الأثير أو الفضاء بطريق الأقمار الصناعية . إنه يستعمل اللغة العادية ، أو اللغات الصناعية مثل الرياضيات ، وكذلك تقنيات الاتصال اللاسلكى .

والوظيفة الرئيسية لمهندس الاتصال اللاسلكى هى فى تحقيق الارسال المحكم الصحيح حتى يتم استقبال الرموز فى الاتصال ، ولذلك ينظر إلى « التشويش » على أنه مشكلة رئيسية فى نظرية الإعلام بالجماهير يتم التركيز عليها حتى لا تتعرض المعلومات للضياع خلال قناة التشويش .

وتتطور النظرية الرياضية للاتصال من هذه الأساسيات إلى نموذج يمكن أن يطبق فى العمليات الفعلية لتنظيم الاتصال اللاسلكى .

ولا نذهب بعيدا حين نقول : أن الاتصال اللغوى يرتكز كما سنجد على هذه الأسس التى تساعد على ذلك أيضا بإعطائنا أسسا محددة لعمل المفردات اللغوية معا ، حتى يتسنى لنا دراسة المشكلات اللغوية فى عملية الاتصال .

ذلك أن الرسالة يمكن أن تتأثر بأشياء أكثر من التشويش الآلى للموجات الهوائية ، وحركة المرور إلخ . فهناك أنواع من التداخل توجد فى عملية إرسال الرمز واستقباله . فى مقدمتها المشكلات الدلالية المتغيرة والنحوية واللغوية المتصلة بطريقة إرسال الرموز الاتصال التى تعوق وصول المعنى المقصود .

ومن المتوقع فى المستقبل تطورات فى هذا المسار وتتحكم فى الاتصال (المعلومات) المستعملة فى أمور من محور التفكير ، إذ اللغة وسيلة منفصلة فى الاتصال ومنعزلة عن الوسائل الأخرى التى نستعلمها طبقا لحاجاتنا وأغراضنا . فاللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظم الإنسانية للاتصال لسبب بسيط هو أن كل أو معظم الأشكال البدائية للاتصال تعتمد على عملية التفكير ، وعندما نفكر فى استعمال ألفاظنا قد نتصل بالحركات أو الصور أو الإيمان لكن غرضنا من الاتصال عادة يتشكل بالفكر .

أما السبب الثانى الذى يجعلنا لا نستطيع أن نقول أن اللغة كائن منفصل عن النظم الأخرى للاتصال فهو أننا عندما نتحدث إلى أى أناس فإن الإعلام الذى تتضمنه الالفاظ نفسها يكون فقط جزءا من الرسالة الكلية التى يتم استقبالها . وتأتى الرسائل أيضا من نغمة الصوت ، ومن تعبير الوجه ، ومن اختيار كلمة واحدة دون الأخرى ومن التنسيق الفعلى للمادة .

وهناك يكون « النحو » الذى يصنع المبادىء أو الأسس التى تحدد الفروق بين الخطأ والصواب فى التركيب اللغوى ، أوثق ارتباطا ببناء « الرسالة الإعلامية » أولا كمعبر عن الفكر الإعلامى ، وثانيا لما يقوم به من دور فى مواجهة « التشويش » فى عملية الإعلام ، ومن هنا فإن النحو يرتبط بمهارات الاتصال عند المرسل أو المحرر .

فالمحرر الناجح لا يغفل دور اللغة فى نظرية التحرير ، كما لا يهمل إثارة الاهتمام لأنه يدرك أن القابلية على جمع المعلومات والمواقف ونقلها أمر حيوى لجمهور الرسائل الإعلامية على اختلافها ، وهذا الجمهور يحتاج إلى القراءة الدقيقة المتمثلة ، ويحتاج إلى المشاركة فى الكلام المسموع المذاع .

وليس فى مقدور المحرر أن يخترع المعجزات عند استخدام أسلوب الاتصال ، إلا أن عليه أن يفهم الأسلوب فهما صحيحا ، وينبغى أن يكون كالمدرس من حيث مساعدته للجمهور على فهمه أيضا ، كما ينبغى أن يؤكد على التعاون فى الاتصال كما هى الحال فى المناقشة كذلك . فمن الواضح أننا نتصل بعضنا بالبعض عن طريق الكلمات ، وقد ذكر **جون لوك** أن الكلمات تثير الشك والغموض ، ومعنى أغلبها غير مؤكد ، بحيث أننا لو شغلنا أفكارنا بالكلمات وبقينا نحوم حول أسماء الأشياء فلن يكون غريبا أن تضل الكلمات السبيل . فالجمهور يعرف القليل عن أهمية معانى الكلمات وعن أهمية الارتباك الناشىء عن تفسير كلمات الآخر . فيكون أذن على الإعلامى أن يساعد جمهوره على المقدرة القرائية والاستقبالية فى وسائل الإعلام المختلفة .

وعلى هذا الفهم ، فإن التحرير الإعلامى يمثل صلب العملية الإعلامية الاتصالية ، واللغة هى جوهر التحرير الإعلامى ، الذى يمكن أن نميز فيه جانبين : العناصر التى تتكون منها الرسالة ، ثم يأتى بعد ذلك البناء أو التركيب الخاص بوضع هذه العناصر سويا لتنتج لنا رسالة معينة مطلوب توصيلها إلى جمهور وسائل الإعلام .

ولكل رسالة محتوى خاص ، ويختلف أسلوب تحرير المحتوى من وسيلة إعلامية إلى وسيلة أخرى ، كما يختلف داخل كل وسيلة بين جنس قولى وجنس آخر . وهذا ما نشاهده فى معالجة الصحافة والإذاعة مثلا لموضوع معين بطريقة تستمد من خصائص كل وسيلة ، كما تستخدم كل رسالة أسلوبا رمزيا معينا ومحددا يناسب القراء أو المستمعين أو المشاهدين . والمهم أن تكون الرسالة ـــ مناسبة للجمهور المستقبل لها من ناحية القدرات العقلية والمستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، حتى تترك هذه الرسالة الأثر المطلوب .

وعلى المحرر الإعلامى وهو يتفحص أسلوب التحرير أن يدرك بأن واجبه الأول هو مساعدة جمهوره على فهم الكلمات كوسائل لنقل الرسائل ، التى تتضمن المعلومات والمواقف ، بمعنى أنه يستخدم اللغة فى مستواها العلمى المرتبط بالجمهور ، كما عليه أن يدرك أن الآراء التى لا يعبر عنها لا تنظم التفكير ، إذ أن المحرر الذى لا يستطيع التعبير عن الأفكار والحقائق لا ينجح فى الاتصال الإعلامى ، ولذلك

على المحرر أن يدرك العلاقة الوثيقة بين المعرفة والكلام .

وفى التحرير الإعلامى تحتاج جودة التأليف وحسن النظم إلى قدر كبير من الدربة والمران والممارسة والمعاناة الفعلية ، بالإضافة إلى الإلمام بقوانين التأليف الجيد وقواعد النظم السليم . وعند القدامى — ولازال ماعندهم صالحا للتطبيق اليوم — أن تأليف الكلام يحتاج إلى مراعاة ثلاثة أشياء متصلة غير منفصلة :[١]

أولها : يتعلق باختيار الألفاظ المفردة . **وثانيها** : يختص بنظم الكلام . أما **الثالث** : **فهو** مراعاة الغرض المقصود من الكلام ، أو ما يشار اليه أحيانا بوجوب مطابقة الكلام لمقتضى الحال[٢] .

ولقد عرضنا لهذا العنصر الأخير فى كتابنا « نحو بلاغة جديدة » كما عرضنا للأول فى كتاب « اللغة الإعلامية : علم الإعلام اللغوى » . ويأتى هذا الكتاب الذى بين يديك ليتمم الحلقات الثلاث ، وليدرس النحو فى ضوء التحرير الإعلامى .

والتحرير الإعلامى يعنى بدراسة **تأليف الكلام** فى الرسالة الإعلامية ، **أو النظم ، أو ما يسميه بعضهم بالضم** .

« وهو أن تختار الألفاظ المناسبة ، ثم تعمد إليها فترتبها فى التركيب ترتيبا مخصوصا وتؤلف فيما بينها تأليفا ترتضيه قواعد اللغة ، بحيث يخرج التركيب كلا متكاملا منسق الأجزاء مرتبط الوحدات الداخلية ، خاليا من النشاز والشذوذ . وليس يأتى هذا التناسق ولا يكون هذا الارتباط إلا بمراعاة قواعد النحو وأحكامه فيما يتعلق بالموقعية وترتيب الكلمات فى التركيب » [٣] .

وفى مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعلق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة : تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما . ويشرح وجوه التعلق شرحا وافيا .

ويؤكد أن نظم الكلام يقتفى فيه آثار المعانى وترتبها حسب ترتب المعانى فى النفس . وليس النظم فى مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه

(١ ، ٢) د. كمال بشر : « الأداء اللغوى » فى « الفن الإذاعى » ع ٤٠ م ١٢ .

(٣) د. كمال بشر : تأليف الكلام — فى الفن الإذاعى ع ٤١ م ١٢ .

علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها . فمداره على معانى النحو ، وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، وليس هو الا توخى معانى النحو فى معانى الكلم ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، أو فيما بين معانى الكلم بتعبير آخر ، والفكر لا يتعلق بمعانى الكلم المفردة مجردة عن معانى النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها .

ويشير عبد القاهر إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن تضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى الفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأنما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ .

ويأخذ فى تفصيل أمر المزية ، وبيان الجهات التى منها تعرض ، فيتحدث عن وجوه النظم فى التقديم والتأخير والذكر والحذف والتعريف والتنكير ، والوصل والفصل ، والقصر . ويفيض فى ذكر ضروب تأكيد الخبر ، ويعرض التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والاستعارة ، مقررا أن المزية فيها ، وليست المزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها ، وزيادات تحدث فى أصول المعانى ، كالذى أريتك فيما بين « زيد كالأسد » وكأن زيدا الأسد ، ولانصيب للألفاظ من حيث هى ألفاظ فيها بوجه من الوجوه ، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية ، إذ المزية ليست بمجرد اللفظ ، وإنما تقع فى اللفظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس .. ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة ، وهى الإعجاز القرآنى ، فى النظم وحده ، لا فى شيء آخر .

وبذلك ينتهى عبد القاهر من عرض نظريته فى النظم ، هذا العرض الجديد ، لتلك النظرية الجديدة أيضا .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر هو :

١ ــ أنه لا فصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين

الشكل والمضمون ، فى النص الأدبى .

٢ ـــ أن البلاغة فى النظم . لا فى الكلمات مفردة ، ولا فى مجرد المعانى ، والباحث عن الإعجاز عليه أن يتبعه فى النظم وحده .

٣ ـــ أن النظم هو فى مراعاة معانى النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما بين معانى الكلم .

٤ ـــ ولذلك أخذ عبد القاهر فى كتابه الخالد « دلائل الإعجاز » يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطا الفروق بينها ، عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

وإذا عرض للاستعارة فى بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا　　　أنصاره بوجوه كالدنانير

أكد أن الاستعارة هنا ، على لطفها وغرابتها ، انما لها الحسن بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها وقد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم فى بلاغة الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ ، وقوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ ، ويتحدث عن التشبيه فى مثل : زيد كالأسد ، وكأن زيدا كالأسد ، وأن فى المثال الثانى زيادة فى معنى التشبيه ليست فى الأول ، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام ، وركبت مع « أن » .. كما يتحدث عن ضروب المجاز العقلى أو المجاز فى الإسناد ، وعن المجاز بالحذف ، وعن ضروب الكناية فى النسبة ، ومدخل النظم فى بلاغتها .

بل إنه ليقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شىء منها فى الكلم وهى أفراد ، فإذا قلنا فى لفظ « اشتعل » من قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ أنها فى أعلى المرتبة من الفصاحة لم توجد تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف واللام ، ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا ، فليست الفصاحة صفة اللفظ « اشتعل » وحده .

ويقرر عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » أن المزية للكلام إنما هى فى نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظ التى تليها .

وهذه النظرية ، وهى نظرية ، النظم ، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح واسعة ، جديدة كل الجدة عند عبد القاهر ، إذ لم يعرضها أحد قبله هذا العرض المتميز . ولذلك جهد عبد القاهر فى إيضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترضه فيها ، من أول « دلائل الإعجاز » إلى آخره .

ففلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم وإذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن مخترعا لها ، وإنما كان هو الذى بسط القول فيها ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها الواسطى صاحب كتاب « إعجاز القرآن فى نظمه » ، وظهرت كذلك هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية . فإن كتاب الواسطى المفقود لا ينهض حجة على ذلك ، وتعصب المثقفين بالثقافة المترجمة لمعانى ولمنطق أرسطو وعدم اهتمامهم بالألفاظ ، ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربى ، وتنقصهم لمعانى أرسطو ومنطقه ، كل ذلك لا شبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر .

وعلى أى حال فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر فحسب ، ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم هذا الشرح الجديد حقا ، وتطبيقه عليها هذه التطبيقات النقدية البيانية الواسعة ، وفرق على أية حال بين أية نظرية فى استنباتها وبينها فى قمة ازدهارها . وإذا كان عبد القاهر لايخرج بالنظم عن معانى النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتحدة والمختلفة ، فان الجديد عند عبد القاهر أيضا هو أنه استخدم معانى النحو وأحكامه استخداما جديدا بيانيا نقديا محضا ، وإلا لكان فى النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر الجرجانى والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية ، وذلك مايرده عبد القاهر ويؤكد نفيه له فى كتابه . كما يقرر فى كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا « النظر فى الكتاب الذى وضعناه ، واستقصاء التأمل لما أودعناه ، وأنه « الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان ، وأن لا معنى لبقاء المعجزة

بالقرآن إلا الوصف الذى كان له معجزا ، والطريق إلى العلم به موجود أى ممكن ، ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أمورا صعبة على الفهم ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها . وذهن القارىء والسامع فى تقبلها ، لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ولقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص اعتمادا كليا فى كل ما قرره من أحكام ، مؤكدا أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يختلف الحال عند من تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها تارة أخرى ، وحتى اذا عجبته تعجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه .

وقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربى إثراء جليلا ، بما كتب فى فقه الأساليب وتحليلها ، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة ، على الأساليب وضروب النثر والشعر .

إنه ليس لنظرية عبد القاهر فى النظم من القيمة ما لتطبيقاته ، فهناك يظهر ذوقه العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لا يمكن أن يغنى فى الأدب عنه شيء ، ونظرية عبد القاهر فى رمزية اللغة وفى التحليل اللغوى[1] ورد المعانى إلى النظم ، ومنهجه فى النقد الذى يدرك الدقائق موضعيا ، ما هى إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ويحس بالفروق ، ووجوه الكلام وأسراره . وإحساس عبد القاهر الأدبى السليم سابق دائما لعقله ، والحكم على النظم عنده هو النظر فى المعنى منظوما والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق . وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبى الصادق ، فالذوق عنده يتحكم فى نظم المعانى التى نعبر عنها . وتسوق فكرة النظم عند عبد القاهر إلى تخطى الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة ، التى عنى بها فى دلائل الإعجاز وفى أسرار البلاغة كذلك — فى مبحث التشبيه — عناية فائقة ، ونقدها نقدا بيانيا أدبيا .

إن الأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ

---

(١) راجع كتاب منطق اللغة (نظرية عامة فى التحليل اللغوى) طبع بغداد — تأليف ياسين خليل .

هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر ، الذى يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى فن الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب ، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية .

فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضوعى الذوقى كما رآه الجرجانى .

لقد اهتدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق ، التى إذا كان لها فى تفكير اليونان القدماء ما يماشيها ، وفى علم اللسان الحديث ما يؤيدها ، فإن الفضل الأكبر فى الوقوع عليها يرجع إلى مواهب عبد القاهر الفطرية المبتكرة الخصبة .

وبعد ؛ فهذه هى نظرية النظم ، التى يرجع إلى عبد القاهر الجرجانى فضل ابتكارها والكشف عنها ، والتى تعد طليعة كاملة لعلم البلاغة العربية ، كما جمع أشتاته السكاكى (٦٢٦ هـ) من كلام عبد القاهر فى كتابيه الخالدين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .

ومن ذلك يبين مكان النحو فى نظرية الإعلام من حيث أداء الكلمات لوظائف نحوية فى مواقع مختلفة فى التركيب أو تأليف الكلام . وقد جاء فى « الخصائص » : « حال الوصل أعلى رتبة من حال الوقف ، وذلك أن الكلام إنما وضع للفائدة ، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول »[١] .

ويقول ابن يعيش « الاسم إذا كان وحده من غير ضميمة إليه لم يستحق الإعراب لأن الإعراب إنما به يؤتى للفرق بين المعانى ، فإذا كان وحده كان كصوت تصوت به ، فإن ركبته مع غيره تركيبا تحصل به الفائدة نحو قولك : زيد منطلق ، وقام به بكر ، فحينئذ يستحق الإعراب لإخبارك عنه »[٢] .

ويقول أيضا « وكل واحد من الرفع والنصب والجر علم على معنى من معانى

---

(١) الخصائص جـ٧ ص ٣٣١ .

(٢) شرح المفصل جـ ١ ص ٤٩ ، ٥٢ ـــ ٥٧ .

الاسم التى هى الفاعلية والمفعولية والإضافية [١] »

« ولذا قيل : إن الصرف أم العلوم ، والنحو أبوها ، قال الرضي[٢] : « اعلم أن التصريف جزء من أجزاء النحو بلا خلاف من أهل الصنعة ، والتصريف على ما حكى سيبويه عنهم هو أن تبنى من الكلمة بناء لم تبنه العرب على وزن ما بنته ثم تعمل فى البناء الذى بنيته على ما يقتضيه قياس كلامهم ، كما يتبين فى مسائل التمرين ، والمتأخرون على أن التصريف علم بأبنية الكلمة وبما يكون لحروفها ، من أصلية وزيادة وحذف وصحة وإعلال ، وإدغام ، وإمالة ، وبما يعرض لآخرها مما ليس بإعراب ، ولا بناء من الوقف غير ذلك » .. فالصرف والتصريف عند المتأخرين مترادفان : والتصريف على ما حكى سيبويه عنهم جزء من الصرف الذى هو جزء من أجزاء النحو لأنه من مبادىء النحو والمبادىء من الأجزاء كما عرفت .

« ويسمى (النحو) علم الإعراب أيضا ، على ما فى شرح اللباب ، وهو علم يعرف به كيفية التركيب العربى صحة وسقاما ، وكيفية مايتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه ، من حيث هو هو ، أولا وقوعها فيه ، كذا فى « الإرشاد » فقوله : علم جنس ، وقوله : كيفية التركيب العربى فصل يخرج علم أصول الفقه ، والفقه ، وغيرهما ، فإنه لا يعرف بها كيفية التركيب العربى . وهو أى التركيب العربى لا يستلزم كون جميع أجزائه عربيا ، فيشتمل أحوال المركبات ، وأحوال الأسماء الأعجمية ، ولو قيل كيفية الكلم بالعربية ، كما قال البعض ، لخرج العجمية ، إلا أن يقال إنها ملحقة بالعربية بعد النقل إلى العربية ، وقوله : صحة وسقاما تمييز لقوله كيفية التركيب ، أى تعرف به صحة التركيب العربى وسقمه ، إذ يعرف منه أن نحو ضرب غلامه زيد صحيح ، وضرب غلامه زيدا فاسد ، وخرج به علم المعانى ، والبيان ، والبديع ، والعروض ، فإنها تعرف بها كيفية التركيب من حيث الفصاحة والبلاغة ، ونحوها ، لا من حيث الصحة والسقم ، ويتناول أحكام ضرورة الشعر ، لأنها أيضا تبحث من حيث الصحة والسقام ، « وما » فى قوله « مايتعلق » عبارة عن الأحوال ، أى تعرف به أحوال الألفاظ ، لكن لا مطلقا ، بل من حيث وقوعها فى التركيب العربى ، من حيث هو هو ، أولا وقوعها فيه ، كتقديم المبتدأ وتأخيره ،

---

(١) شرح المفصل جـ ١ ص ٧٣ ، ٧٥ .

(٢) شرح الرضى على الشافية ٤ .

وتذكير الفعل وتأنيثه ، لامثل الأحوال التى هى الحركات والسكنات ونحوها ، فخرج علم الصرف .

فالحاصل أن تلك الأحوال من حيث هى هى تتعلق بالألفاظ فقط ، ومن حيث أنها باستعمالها يصح التركيب مثل « ابن زيد » وبتركها يفسد التركيب ، مثل « زيد ابن » تتعلق بالتركيب ، هذا خلاصة ما فى حواشي الإرشاد .

فعدهم الصرف من أجزاء النحو بناء على كونه من مبادىء النحو ، لأنه يتوقف على مسائل النحو أى التصديق بها ، وهذا كما صرح به فى « مختصر الأصول » ، علم الكلام والعلوم العربية من مبادىء أصول الفقه لتوقف مسائله عليهما ، تصورا أو تصديقا ، وإن شئت توضيح هذا فارجع إلى شرح مختصر الأصول وحواشيه .

وموضوع النحو اللفظ الموضوع ، مفردا كان ، أو مركبا ، وهو الصواب كذا قيل ، يعنى موضوع النحو اللفظ الموضوع باعتبار هيئته التركيبية ، وتأديتها لمعانيها الأصلية ، لا مطلقا ، فإنه موضوع للعلوم العربية على ما مر قبل هذا ، وقيل : الكلمة والكلام ، وفيه أنه لا يشتمل المركبات الغير الإسنادية ، مع أنها أيضا موضوع النحو ، وقيل : هو المركب بإسناد أصلى ، وفيه : أنه لا يشمل الكلمة والمركبات الغير الإسنادية .

ومبادئه حدود ما تبتنى عليه مسائله ، كحد المبتدأ والخبر ، ومقدمات حججها ، أى أجزاء علل المسائل ، كقولهم فى حجة رفع الفاعل ، أنه أقوى الأركان ، والرفع أقوى الحركات .

ومسائله الأحكام المتعلقة بالموضوع ، كقولهم اللفظ إما معرب أو مبنى ، أو جزئه كقولهم : آخر الكلمة محل الإعراب ، أو جزئيه كقولهم الاسم بالسببين يمتنع عن الصرف ، أو عرضه كقولهم : الخبر إما مفرد أو جملة ، أوخاصته كقولهم : الإضافة تعاقب التنوين ، ولو بواسطة ، أو وسائط ، أى ولو كان تعلق الأحكام بأحد هذه الأمور ثابتا بواسطة أو وسائط كقولهم : الأمر جزئى من الإنشاء ، والإنشاء جزئى من الكلام .

والغرض منه الاحتراز عن الخطأ فى التأليف ، والاقتدار على فهمه والإفهام

به ، هكذا فى الإرشاد وحواشيه وغيرها »[1] .

* * *

ونحن حين نقدم اليوم هذا الكتاب لرجال الإعلام ، فإننا لا نزعم أننا نقدم جديدا ، ولكننا نزعم فقط أننا نواصل الرسالة التى بدأها علماء العربية ، حينما أكدوا أن ثقافة الكاتب أو المحرر ، ينبغى أن تشمل فى أعطافها : خصائص اللغة العربية وهى لغة القرآن من حيث أنها لغة تامة الحروف ، تامة الألفاظ ، لا تكاد تجاريها لغة من اللغات القديمة فى هاتين الميزتين .

ونكتفى هنا بما كتبه القلقشندى فى موسوعة صبح الأعشى لنبين مكان النحو من ثقافة الكاتب أو رجل الإعلام ، ذلك أن علماء الإعلام يذهبون إلى أن القلقشندى رائد من رواد علم « التحرير » فقد تعرض فى موسوعته لفنون شتى من التحرير الرسمى أو الديوانى : كفن تحرير (الولايات) ، وتحرير (العهود والمبايعات) وتحرير (الأيمان) جمع يمين ، وتحرير (كتب الأمان) ، وتحرير (عقود الصلح) وتحرير (كتب الهدنة) ، وتحرير (الوصايا الدينية) التى تلقى باسم الخليفة من أعلى المنابر العامة ، وتحرير (المسامحات) وتحرير (الاطلاقات) وتحرير (الاقطاعات) ... وهكذا إلى ما يقرب من عشرين فنا !!

وفى التحرير الصحفى والإعلامى الحديث نجد كتبا فى فن تحرير (المقال) بأنواعه المختلفة ، وتحرير (العمود الصحفى) بصوره المتعددة ، وتحرير (القصة الإخبارية) داخلية كانت أم خارجية ، وتحرير (التعليق) ، وتحرير (الطوائف) ، وتحرير (الحديث الصحفى) ، وتحرير (التحقيق الصحفى) ، وتحرير (الماجريات الصحفية) ، ثم تحرير (الصورة) وتحرير (الإعلان) وتحرير (الراديو) وتحرير (التليفزيون) ، وتحرير (السينما) فهاتان إذن صورتان متقابلتان للنثر العربى قديما وحديثا [3] للنحو مكانه الرئيسي فيهما كأداة يوظفها الكاتب أو المحرر فى تحرير الرسالة الإعلامية التى يوجهها إلى جمهوره عبر الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون

---

(١) التخليص ص ١٨ .

(٢) كشاط إصلاحات الفنون للتهتانوى .

(٣) د. عبد اللطيف حمزة : القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، ص ٩ .

وغيرها من وسائل الإعلام .

يقول القلقشندى فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء :

النوع الأول

المعرفة باللغة العربية وفيه أربعة مقاصد

المقصد الأول

فى فضلها وما اختصت به على سائر اللغات

أما فضلها فقد أخرج ابن أبى شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم قال يزيد بن هارون اللحن هو اللغة .. ولا خفاء أنها أمتن اللغات وأوضحها بيانا وأذلقها لسانا وأمدها رواقا وأعذبها مذاقا ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله وخاتم أنبيائه وخيرته من خلقه وصفوته من بريته وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته وأنزل بها كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . قال فى صناعة الكتاب : وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب فأقبلت الأمم إليها يتعلمونها . وأما ما اختصت به على غيرها من اللغات فقد حكى فى « صناعة الكتاب » أنها اللغة التامة الحروف الكاملة الألفاظ لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانه ولم أزد فيها شيء فيعيبها زيادته وإن كان لها فروع أخرى من الحروف فهى راجعة إلى الحروف الأصلية وسائر اللغات فيها حروف مولدة وينقص عنها حروف أصلية كاللغة الفارسية تجد فيها زيادة ونقصانا وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد فى الفارسية وغيرها كالحق والباطل والصواب والخطأ والحلال والحرام فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربيا . قال الفراء وجدنا للغة العرب فضلا على لغة جميع الأمم اختصاصا من الله تعالى وكرامة أكرمهم بها ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد فى غيرها من اللغات ، قال : ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسعوا فيها فقالوا للضرب فى الوجه لطم وفى القفا صفع وفى الرأس إذا أدمى شج فكان قولهم لطم أوجز من ضرب على وجهه قال فى « المثل السائر » حضرت مع رجل يهودى عارف باللغات فجرى ذكر اسم الجمل فقال لا شك أن العربية أوجز اللغات فإن اسم الجمل بالعبرانية كومل فسقط منه الواو وحولت الكاف إلى الجيم ، قال أبو عبيد :

وللعرب فى كلامها علامات لا يشركهم فيها أحد من الأمم كعلامة إدخالهم الألف واللام فى أول الاسم وإلزامهم إياه الإعراب فى كل وجه مع نقلهم كل ما احتاجوا إليه من كلام العجم إلى كلامهم فقد نقل ما قالت حكماء العجم والفلاسفة إلى العربية ولم يقدر أحد من الأمم نقل القرآن إلى لغة غير العربية على أن الكثير من الناس حاولوا ذلك فعسر عليهم نقله وتعذرت عليهم ترجمته بل لم يصلوا إلى ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد .

المقصد الثانى

فى وجه احتياج الكاتب إلى اللغة

لامرية فى أن اللغة هى رأس مال الكاتب وأسس كلامه وكنز إنفاقه من حيث أن الألفاظ قوالب للمعانى التى يقع التصرف فيها بالكتابة وحينئذ فيحتاج إلى طول الباع فيها وسعة الخطو ومعرفة بسائطها من الأسماء والأفعال والحروف والتصرف فى وجوه دلالتها الظاهرة والخفية ليقتدر بذلك على استعمالها فى محالها ووضعها فى مواضعها اللائقة بها ويجد السبيل إلى التوسع فى العبارة عن الصور القائمة فى نفسه فيتسع عليه نطاق النطق وينفسح له المجال فى العبارة وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه وتدعو الضرورة إلى نعته فيستظهر على ما ينشيه ويحيط علما بما يذره ويأتيه ، إذ المعانى وإن كانت كامنة فى نفس المعبر عنها فإنما يقوى على إبرازها وإبانتها من توفر حظه من الألفاظ واقتداره على التصرف فيها ليأمن تداخلها وتكريرها المهجنين للمعانى وناهيك أن ابن قتيبة لم يضمن كتابه « أدب الكاتب » غير اللغة إلا النزر اليسير من الهجاء وأبا جعفر ضمن كتابه « صناعة الكتاب » جزءًا وافرا من اللغة وأبا الفتح كشاجم لم يزد فى كتابه « كنز الكتاب » على ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقصد الثالث

فى بيان ما يحتاج إليه الكاتب من اللغة ويرجع المقصود منه إلى خمسة أصناف :

الصنف الأول ـــ الغريب وهو ما ليس بمألوف الاستعمال ولا دائر على الألسنة وذلك أن مدار الكتابة على استخراج المعانى من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر وألفاظها لا تخلو عن الغريب بل ربما غلب الغريب منها فى الشعر على

المألوف لا سيما الشعر الجاهلى وقد قال الأصمعى : توسلت بالملح ونلت بالغريب .
قال صاحب الريحان والريعان : والغريب وإن لم ينفق منه الكاتب فإنه يجب أن يعلم ويتطلع إليه ويستشرف فرب لفظة فى خلال شعر أو خطبة أو مثل نادر أو حكاية فإن بقيت مقفلة دون أن تفتح لك بقى فى الصدر منها حزازة تحوج إلى السؤال وإن صنت وجهك عن السؤال رضيت بمنزلة الجهال ، وقد عاب ابن قتيبة رجلا كتب فى وصف برذون : وقد بعثت به أبيض الظهر والشفتين ، فقيل له : هلا قلت فى بياض الشفتين أرثم الملظ فقال لهم : فبياض الظهر ، قالوا : لا ندرى فقال إنما : جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر ، وذم قوما من وجوه الكتاب بأنه اجتمع معهم فى مجلس فتذاكروا عيوب الرقيق فلم يكن فيهم من يفرق بين الوكع والكوع ولا بين الحنف والقذع ولا بين اللمى واللطع ثم قال : وأى مقام أحرى لصاحبه من رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء وارتضاه لسره فقرأ عليه يوما كتابا فيه : مطرنا مطرا كثر عنه الكلأ فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلأ ؟ فتردد فى الجواب وتعثر لسانه ثم قال لا أدرى فقال سل عنه قال أبو القاسم الزجاجى فى شرح مقدمة « أدب الكاتب » وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عمار وكان يتقلد العرض عليه وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربية فلما قرأ عليه أحمد بن عمار الكتاب وسأله عن الكلأ فلم يعرفه قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، خليفة أمى وكاتب عامى ثم قال من يقرب منا من كتاب الدار فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات وكان يقف على قهرمة الدار مأمر بأشخاصه فلما مثل بين يديه قال له : ما الكلأ ؟ قال النبات كله رطبه ويابسه فإذا كان رطبا قيل له خلا وإذا كان يابسا قيل له حشيش وأخذ فى ذكر النبات من ابتدائه إلى اكتهاله إلى هيجه فقال المعتصم : ليتقلد هذا العرض علينا ثم خص به حتى استوزره . فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التى هى من أهم شأنه .. وجل كتب اللغة المصنفة فى شأنها راجعة إليه كصحاح الجوهرى ومحكم ابن سيده ومجمل ابن فارس وغيرها من المصنفات لا تكاد تحصي كثرة .. والصحاح أقربها مأخذا والمحكم مثلها طريقة وأكثرها جمعا وأكملها تحقيقا وقد صرف قوم من المصنفين العناية من ذلك إلى الاقتصار على ذكر الأسماء والأوصاف كأوصاف الرجال والنساء المحمودة والمذمومة وما يختص من ذلك بالرجال والنساء وأوصاف الخيل وأعضائها وألوانها وشياتها وأسنانها وسيرها وعدوها وما يخص الذكور والإناث منها وأوصاف الوحوش من السباع

والظباء والوعول والبقر والحمر الوحشيين وأسماء الطيور من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة وبغاث الطير كالرخم وصغاره كالنحل والجراد وأوصاف الهوام كالحشرات من الحيات والوزغ ونحو ذلك وأوصاف العلويات من السماء والسحاب والرياح والأمطار والأزمنة كأوقات الليل والنهار وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك وأسماء النبات من الشجر البرى كالطلح والأراك والبستانى كالنخل والعنب والنبات البرى كالشيح والقيصوم وأنواع المرعى وأسماء الأماكن من البرارى والقفار والرمال والجبال والأحجار والمياه والبحار والأنهار والعيون والسيول والرياض والمحال والأبنية وأسماء جواهر الأرض من اليواقيت ونحوها وسائر مستخرجات المعادن كالنحاس والرصاص وما يجرى مجراها ومستخرجات البحر من اللؤلؤ والعنبر والمرجان وغيرها وأسماء المأكولات من الحبوب والفواكه والأطعمة المصنوعة والأطبخة وأسماء الأشربة كالماء واللبن والعسل والخمر وأسماء السلاح من السيوف والرماح والقسي والسهام والدروع وغيرها وأسماء اللباس من الثياب على اختلافها وأسماء الأمتعة والآنية وسائر الآلات وأسماء الطيب من المسك والند الغالية والزعفران وما أشبهها وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى .. وكفاية المتحفظ لابن الأجدابى والمذهبة والمعقبة لابن أصبغ حافلتان بالكثير من ذلك ، وفى أدب الكاتب لابن قتيبة وفقه اللغة للثعالبى الجزء الوافر من ذلك ، وصرف آخرون عنايتهم إلى التأليف فى الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره . وفى فصيح ثعلب جزء وافر من ذلك .. ولعصرينا الشيخ مقبل الصرغتمشي النحوى كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثانى ـــ الفروع المتشعبة فى المعانى المختلفة وهى فروع كثيرة متسعة الأرجاء متباينة المقاصد لا يكاد يجمعها مصنف وإن كان الكاتب لا يستغنى عن شيء منها ولا يحسن به تركه . منها المتباين والمترادف فأما المتباين فهو مادل لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى كالسواد والبياض والطول والعرض ويحتاج إليه فى التعبير عن المعانى المختلفة لاتساع نطاق الكلام وأما المترادف فهو المتوارد الألفاظ على مسمى واحد كالأسد والسبع والحيوان المفترس والثنية والقلوص للناقة ونحو ذلك يحتاج إلى معرفة ذلك للمخلص عند ضيق الكلام عليه فى موضع لطول لفظه أو قصرها أو اختلاف وزنها فى شعر أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى نثر أو غير ذلك مما يضطر فيه إلى إيراد بعض الألفاظ بدل بعض كما فى قوله .

وثنيـــة جاوزتها بثنيـــة حرف يعارضها جنيب أدهم

فإنه أراد بالثنية الأولى العقبة وبالثنية الثانية الناقة والجنيب الأدهم استعارة لظلها فالثنية من حيث وقوعها على الناقة والعقبة أوفق للتجنيس من الناقة إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التى هى الطريق لفاته التجنيس ومحل الكلام عليهما كتب الفقه ونحوها . ومنها الحقيقة والمجاز والحقيقة هى اللفظ الدال على موضوعه الأصلى كالأسد للرجل الشجاع بعلاقة الشجاعة فى كل منهما والحمار للبليد بعلاقة البلادة فى كل منهما ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلى الاستعارة والتمثيل والكناية لما بينهما من العلاقة والمناسبة كاليد فإنها فى أصل اللغة للجارحة أُطلقت على القوة والنعمة مجازاً من حيث أن القوة تظهر فى اليد والنعمة تولى بها ، ومحل ذكرهما أُصول الفقه وما فى معناها ، ومنها الألفاظ المتضادة وهى التى تقع كل لفظة منها على ضد ما تقع عليه الأخرى كالأمانة والخيانة والنصحية والغش والفتق والرتق والنقض والإبرام ونحو ذلك فإن الكلام كثيرا ما ينبنى على الأضداد وربما غلط الكاتب فجعل مقابل الشىء غير ضده فيلزمه النقص فى صناعته وفوات ما يقصده من المقابلة والطباق اللذين هما من أحسن أنواع البديع وفى صناعة الكتاب لأبى جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك وفى كنز الكتاب لأبى الفتح كشاجم جملة جيدة منه أيضا . ومنها تسمية المتضادين باسم واحد كالجون للأسود والأبيض والقرء للطهر والحيض والصريم لليل والنهار ووراء بمعنى خلف وقدام ونحو ذلك ويحتاج إليه للتمييز بين الحقائق التى يقع اللبس فيها ، وفى أدب الكاتب جملة من ذلك . ومنها المقصور والممدود كالندى للجود وندى الأرض والحفا لكلال القدم والحافر والممدود كالسماء للفلك وكل ما علاك والبقاء لضد الفناء ونحو ذلك وما يجوز فيه المد والقصر جميعا كالزناء والسراء وما أشبههما ويحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبار المد والقصر كلفظ الهوى فإنه إن قصر كان بمعنى هوى النفس وإن مد كان بمعنى ما بين السماء والأرض ، الثانى أنه إذا أضيف الممدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض وإذا أُضيف المقصور لم يحتج إلى زيادة واو ولا ياء ولو كان مما يجوز فيه المد والقصر جاز فيه بعض حركاته وربما يمد كالبلاء والقلاء فإنه إذا كسر أولهما قصرا وكتبا بالياء وإذا فتح مدا وكتبا بالألف كالباقلا فإنه إذا خفف مد وإذا شدد قصر فمتى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته . وفى أدب

الكاتب من ذلك جملة . ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلف أحواله باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور ، وذلك أن المؤنث على ضربين : أحدهما ما فيه علامة من علامات التأنيث الثلاث وهى الهاء نحو حمزة وطلحة والألف الممدودة نحو حمراء والألف المقصورة نحو حبلى ، وضرب لا علامة فيه وإنما يؤخذ من السماع كالسماء والأرض والقوس والحرب وما أشبهها وربما كان منه ما يجوز فيه التذكير والتأنيث كالطريق والسبيل والموسى واللسان والسلطان وما أشبهها فإن من العرب من يذكر ذلك ومنهم من يؤنثه ، وربما وقع لفظ التأنيث على الذكر والأنثى جميعا كالحية والحمامة والنعامة والبطة ونحوها ، وأيضا فإن من وصف المؤنث ما يحذف منه الهاء باعتبار تأويل آخر كصيغة فعيل فإنه إن كان بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول وخضيب بمعنى مخضوب حذفت الهاء من مؤنثه فيقال امرأة قتيل وكف خضيب وما أشبه ذلك وإن كان بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم ورحيم تثبت الهاء فى مؤنثه فتقول فيه عليمة ورحيمة وعلى العكس من ذلك فعول فإنه إن كان بمعنى فاعل كان بغير هاء نحو امرأة صبور وشكور بمعنى صابرة وشاكرة وإن كان بمعنى مفعول كان مؤنثه بالهاء كالحلوبة بمعنى المحلوبة والركوبة بمعنى المركوبة . وصيغة مفعل مما لا يوصف به الذكور تكون بغير هاء كامرأة مرضع فإن أرادوا الفعل قالوا مرضعة . وصيغة فاعل مما لا يكون وصفا للذكور تكون بغير هاء أيضا نحو امرأة طالق وحامل وربما حذفت الهاء مما يكون للمذكر والمؤنث جميعا فتقول امرأة عاقر ورجل عاقر ، وفى أدب الكاتب وفصيح ثعلب جملة من ذلك . وفى كتب النحو المبسوطة قواعد موصلة إلى مقاصده ، ومنها المهموز وغير المهموز فإن المعنى قد يختلف فى اللفظ الواحد باعتبار الهمز وعدمه كما تقول عبأت المتاع بالهمز وعبيت الجيش بغير همز وبارأت الكرى بالهمز من الإبراء وباريت فلانا من المفاخرة بغير همز وتقول زنا من الزنا بغير همزة وزنأ فى الجبل إذا رقى فيه ونحو ذلك وربما جاء الهمز وعدمه فى الكلمة الواحدة كما تقول شئت بالهمز وشيت بإسكان الياء من غير همز ونحو ذلك فمتى لم يكن الكاتب عارفا بالهمز ومواضعه ضل فى طريق الكتابة ، وفى أدب الكاتب باب مفرد لذلك . ومنها ما ورد من كلام العرب مزدوجا كقولهم الطم والرم يريدون بالطم البحر وبالرم الثرى وكقولهم الحجر والمدر فالحجر معروف والمدر التراب الندى ونحو ذلك فإذا عرف الكاتب ذلك تمكن من وضعه فى مواضعه لتحسين الكلام وتنميقه فى الطباق

والمقابلة ، وفى أدب الكاتب نبذة من ذلك . ومنها ما ورد من كلامهم مثنى إما على سبيل التغليب كقولهم القمران يريدون الشمس والقمر والعمران يريدون أبا بكر وعمر ، وإما على الحقيقة كقولهم ذهب منه الايبان يريدون الأكل والنكاح واختلف عليه الملوان أو الجديدان يريدون الليل والنهار ونحو ذلك ، وفى أدب الكاتب أيضا طرف منه . ومنها ما ورد من كلام العرب مرتبا كقولهم أول النوم النعاس وهو الاحتياج إلى النوم ثم الوسن وهو ثقل النعاس ثم الكرى والغمص وهو أن يكون بين النائم واليقظان ثم التغفيق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم ثم الإغفاء وهو النوم الخفيف ثم التهجاع وهو النوم القليل ثم الرقاد وهو النوم الطويل ثم الهجوع وهو النوم الغرق ثم التسبيح وهو أشد النوم وما أشبه ذلك وفى فقه اللغة للثعالبى قدر صالح من ذلك . ومنها ما ورد من كلامهم مورد الدعاء أما على بابه فى الدعاء كقولهم استأصل الله شأفته يريدون أذهب الله أثره كما يذهب أثر الشأفة وهى قرحة تخرج فى القدم فتكوى فتذهب ، وقولهم أباد الله خضراءهم أى سوادهم ومعظمهم أو لم يقصد به حقيقة الدعاء كقولهم تربت يداك أى ألصقت بالتراب من الفاقة وقولهم أرغم الله أنفه أى ألصقه بالرغم وهم لا يقصدون به الدعاء ، وفى أدب الكاتب جملة من ذلك . ومنها ما تختلف أسماؤه مع المشابهة فى المعنى كالظفر للإنسان والحافر للفرس والبغل والحمار والظلف للبقر والمنسم للبعير والبرثن للسباع وما يجرى هذا المجرى وفى فقه اللغة جزء وافر منه . ومنها ما تختلف أسماؤه وأصنافه باختلاف أحواله كالكأس لا يقال فيه كأس إلا إذا كان فيه شراب وإلا فهو قدح ولا مائدة إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهى خوان ولا قلم إلا إذا كان مبريا وإلا فهو أنبوبة ولا خاتم إلا وفيه فص وإلا فهو فتخة ونحو ذلك وفى فقه اللغة جملة منه . ومنها معرفة الأصول التى تشتق منها الأسماء كتسمية القمر قمراً لبياضه إذ الأقمر هو الأبيض وكتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلة البدر لمبادرة الشمس القمر بالطلوع أو لتمامه وامتلائه حينئذ من حيث أن كل تام يقال له بدر وكتسمية النجم نجما أخذا من قولهم نجم إذا طلع ونحو ذلك وفى أدب الكاتب جملة من ذلك .. ومنها ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب لعدم وجوده فى لغتهم كالكف والساق والدلال والوازن والصراف والجمال والقصاب والبيطار وما أشبه ذلك وفى فقه اللغة جزء من ذلك كاف . ومنها ما اشتركت فيه العربية والفارسية كالتنور والخمير والدينار والدرهم والصابون وما أشبه ذلك وفى فقه اللغة أيضا نبذة منه . ومنها ما اضطرت العرب إلى تعريبه واستعماله فى لغتهم من اللغة

العجمية كالكوز والإبريق والطشت والخوان والطبق وغيرها من الآنية والسكباج والزيرباج والطباهج والجرداب ونحوها من الأطعمة والجلاب والكنجبين ونحوهما من الأشربة والخولنجان والكافور والصندل وغيرها من الأفاوية والطيب ونحو ذلك وفى فقه اللغة من ذلك جملة جيدة ... إلى غير ذلك من الأمور التى لا يسع استيفاؤها مما فى أدب الكاتب وفقه اللغة الكثير منه . ومنها ما تعددت لغاته ولتعلم أن لغة العرب متعددة اللغات متسعة أرجاء الألسن بحيث لا تساويها فى ذلك لغة فمن ذلك ما فيه لغتان كقولهم رطل ورطل بكسر الراء وفتحها وسم وسم بفتح السين وضمها وما فيه ثلاث لغات مثل برقع بضم القاف وبرقع بفتحها وبرقوع بضم الباء وزيادة الواو وخاتم بكسر التاء وخاتم بفتحها وخيتام . وما فيه أربع لغات مثل نطع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونطع بفتح النون والطاء جميعا وكسر النون وصداق بفتح الصاد وصداق بكسرها وصداق بضمها وصدقة بضم الصاد وسكون الدال . وما فيه خمس لغات كقولهم ريح الشمال بفتح الشين من غير همز والشمال بالهمز والشامل بغير همز والشمل بفتح الميم والشمل بسكونها . وما فيه ست لغات كفسطاط بضم الفاء وفسطاط بكسرها وفستاط بضم الفاء وإبدال الطاء تاء ، والفستاط بكسر الفاء وفساط بضم الفاء وتشديد السين وفساط بكسر الفاء وما فيه تسع لغات . كالأنملة بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الميم وضمها وكسرها . وما فيه عشر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الباء وضمها وكسرها والعاشرة أصبوع وفى أدب الكاتب جملة من هذا النمط .

الصنف الثالث – الفصيح من اللغة ، واعلم أن اللغة العربية قد تنوعت واختلفت بحسب تنوع العرب واختلاف ألسنتهم والذى اعتمده حذاق اللغة وجهابذة العربية من ذلك ما نطق به فصحاء العرب وهم الذين حلوا أوساط بلاد العرب ولم يخالطهم من سواهم من الأمم كثير مخالطة ، ولم يصاقبوا بلاد العجم فبقيت ألفاظهم سالمة من التغيير والاختلاط بلغة غيرهم كقريش وهذيل وكنانة وبعض تميم وقيس عيلان ونحوهم من عرب الحجاز وأوساط نجد بخلاف الذين حلوا فى أطراف بلاد العرب وجاوروا الأعاجم فتغيرت ألفاظهم بمخالطتهم كحمير وهمدان وخولان والأزد لمجاورتهم بلاد الحبشة وطيىء وغسان لمجاورتهم بلاد الروم بالشام وبعض تميم وعبد القيس لمجاورتهم أهل الجزيرة وفارس . واعلم أن التغيير يدخل فى لغة العرب من عدة

وجوه : منها أن تبدل كلمة بغيرها كما يستعمل أهل اللغة الحميرية ثب بمعنى اجلس وهى فى عامة لغة العرب للأمر بالطفرة قال القاضى الرشيد فى شرح أمنية الألمعى وربما غلبت العجمة على أحدهم ؛ حتى لا يفهم عنه شيء . ومنها أن تبدل حرفا من الكلمة بحرف آخر كما تبدل حمير كاف الخطاب شيئا معجمة فيقولون فى قلت لك قلت لش وربما أبدلوا التاء أيضا كافا فيقولون فى قلت قلك وكما تبدل ربيعة الباء الموحدة ميما فيقولون بكر مكر ونحو ذلك وكما تبدلت بعض العرب الصاد المهملة بالسين المهملة فيقولون فى صابر سابر وكما تبدل بعضهم الطاء المهملة بتاء مثناة فوق فيقولون فى طال تال وتسمع من عرب أهل الشرق كثيرا وكما يبدل قوم التاء المثناة فوق بضاد معجمة فيقولون فى أتر أضر . ومنها أن يعاقب بين حرفين فى الكلمة كما يقول بعضهم فى بلخ فلخ وفى أصبهان أصفهان . ومنها أن يأتى بحرف بين حرفين فيأتون بكاف كجيم فيقولون فى كمل جمل قال ابن دريد وهى لغة فى اليمن كثيرة فى أهل بغداد ويأتون بجيم ككاف على العكس من الأول فيقولون فى رجل ركل يقربونها من الكاف ويأتون بشين معجمة كجيم فيقولون فى اجتمعوا اشتمعوا ويأتون بصاد مهملة كزاى فيقولون فى صراط زراط ويأتون بجيم كزاى فيقولون فى جابر زابر ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة . قاله ابن سعيد عن سماعه من العرب ولا يكاد يوجد منهم من ينطق بها على أصلها الموصوف فى كتب النحويين .. وقد ذكر الشيخ أثير الدين أبو حيان ذلك جميعه فى شرحه على تسهيل ابن مالك .

الصنف الرابع ــ ما تلحن فيه وتغيره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأول والعامة تكسره كقولهم فى جفن العين بفتح الجيم جفن بكسرها أو مفتوح الأول والعامة تضمه كقولهم فى القبول الذى هو خلاف الرد قبول بضمها أو مكسور الأول والعامة تفتحه كقولهم فى درهم بكسر الدال درهم بفتحها أو مكسور الأول والعامة تضمه كقولهم فى التمساح بكسر التاء تمساح بضمها أو مضموم الأول والعامة تفتحه كقولهم فى العصفور بضم العين عصفور بفتحها أو مضموم الأول والعامة تكسره كقولهم فى الظفرة بضم الظاء ظفر بكسرها أو مفتوح الوسط كقولهم فى القالب بفتح اللام قالب بكسرها أو مكسور الوسط والعامة تفتحه كقولهم فى الرجل الموسوس والبر المسوس والجبن المدود بكسر الواو فى الثلاثة موسوس ومسوس ومدود بفتحها أو مضموم الوسط والعامة تفتحه كقولهم فى الجدد جمع جديد جدد بفتحها أو محرك الوسط والعامة تسهلة كقولهم فى المرآة بإثبات الهمزة مراة بحذفها ، أو

ساكن الوسط والعامة نفتحه كقولهم فى الحلقة بإسكان اللام حلقة بفتحها أو مشددا والعامة تخففه كقولهم فى العارية بتشديد الياء عارية بتخفيفها أو مخففا العامة تشدده كقولهم فى الكراهية بتخفيف الياء كراهية بتشديدها أو مهموزا والعامة تحذف الهمز من أوله كقولهم فى الإهليلج بإثبات همزة فى أوله هليلج بحذفها أو غير مهموز الأول والعامة تثبت الهمز فى أوله كقولهم فى الكرة أكرة أو كان بالظاء المعجمة فجعلته بالضاد المعجمة كالوظيفة ونحوها أو بالضاد فجعلته بالظاء كقول بعضهم فى البيضة بيظة أو بالذال المعجمة فجعلته بالدال المهملة كالذراع أو كان بالجيم فجعلته بالقاف كقولهم فى مجاديف السفينة مقاديف أو بالدال المهلة فجعلته بالتاء المثناة فوق كقولهم فى دخاريص القميص تخاريص ونحو ذلك مما شاع وذاع ، وفى أدب الكاتب لابن قتيبة نبذة من لحن أهل المشرق وكتاب تثقيف اللسان لابن مكى التونسي موضوع فى لحن أهل المغرب وفصيح ثعلب مشتمل على كثير من هذا المقصد .

الصنف الخامس — الألفاظ الكتابية وهى ألفاظ انتخبها الكتاب وانتقوها من اللغة استحسانا لها وتمييزا لها فى الطلاوة والرشاقة على غيرها . قال الجاحظ : ما رأيت أمثل طريقة من هؤلاء الكتاب فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا حوشيا ولا ساقطا سوقيا وقد ذكر ابن الأثير فى المثل السائر أن الكتاب غربلوا اللغة وانتقوا منها ألفاظا رائقة استعملوها ثم هذه الألفاظ أسماء وأفعال كقولك فى المدح : فلان غرة القبيلة وسنامها وذؤابتها وذروتها وهو نبغة أرومته وأبلق كتيبته ومدره عشيرته ونحو ذلك والأفعال كقولك فى إصلاح الفاسد : أصلح الفاسد ولم الشعث ورأب الشعب وضم النشر ورم الرث وجمع الشتات وجبر الكسر وأسى الكلم ورقع الخرق ورتق الفتق وشعب الصدع ، وفى كتاب الألفاظ لعبد الرحمن بن عيسى الكاتب كفاية من ذلك وله مختصر أربى عليه وفى كنز الكتاب لكشاجم ما فيه مقنع .

المقصد الرابع

فى كيفية تصرف الكاتب فى الألفاظ اللغوية وتصريفها فى وجوه الكتابة .

لاخفاء أنه إذا أكثر من حفظ الألفاظ اللغوية وعرف الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد والمتقاربة المعانى تمكن من التعبير عن المعانى التى يضطر إلى الكتابة فيها بالعبارات المختلفة والألفاظ المتباينة وسهل عليه التعبير عن المقصود وهان عليه إنشاء

الكلام وترتيبه وفى الأمثلة التى أوردها كشاجم فى كنز الكتاب حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق فى ذلك ويهدى إلى سلوك الجادة الموصلة إلى القصد منه . وهذه نسخة مكاتبة منه فى التهنئة بمولود يستضاء بها فى ذلك وهى :

قد جعلك الله من نبعة طابت مغارسها ، أرومة رسخت عروقها ، شجرة زكت غصونها ، فرع شرفت منابته ، معدن زكت علائقه ، جوهر شاعت مكارمه ، عنصر بسقت فروعه ، محتد ذاعت محامده ، أصل فضلت معالمه ، عنصر نصرت محاسنه ، منتمى كثرت مناقبه . فالزيادة فيها زيادة فى جوهر الكرم مظاهر فى محو ثرى الأفضال ذخيرة نفيسة لذوى الآمال نعمة كاملة السعادة غبطة شاملة البشاشة سرور يواجه الأولياء حبور تحتوى الأعداء غبطة تصل إلى الأحرار ابتهاج لذوى الأخطار ، فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الوافية بالولاية الكافية والكافية المتظاهرة الدفاع الكالى الحفاظ الداعى الصنع الجميل الدفاع الحسن العافية المتكاتفة ، وبلغنى الخبر بهبة الله المستجدة الولد المبارك الفرع الطيب السلسل الرضي الولد الصالح الابن السار الثمرة المثمرة السلالة الزكية النحل الميمون الذى عمر أفنية السيادة زاد فى مواثيق العهد والرئاسة أرسى قواعد السيادة ثبت أساس الرفعة عرا المجد مكن أركان الفضل وطد أساس المكارم أكد علائق الشرف أبد أو أخى الكرم أبرم حبال الجود أمر أسباب الطول شيد بنيان الكمال أخصف أيدى السماحة أحكم قوى الرجاحة أوثق عقد العلا رفع دعائم الطهارة أنار أعلام الغارة أظهر علامات الخير فتباشرت به ابتهجت اجتذلت اغتبطت فرحت ، سررت استبشرت ، جعله الله برا تقيا سيدا حميدا ميمونا مباركا طيبا عزيزا سعيدا ظهيرا عونا ناصرا راجحا زكيا وزرا ملجأ يقبل سلفه ويقتفى أثرهم يسلك منهاجهم يسن سنتهم يتبع قصدهم يسير سيرتهم يسعى ساعيهم ينحو مثالهم يحذو حذوهم يتخلق بأخلاقهم يتبصر بصيرتهم بنوط أفعالهم يترسم رسومهم وأيمن به عددك كثر به ذريتك أراك فيه غاية أملك ، شفعه الله بإخوة بررة وفقه الله لأداء حقك جعله خير خلف كما هو لخير سلف زين به العشيرة وهب له النماء بلغ به أكلأ العمر مكن له فى رفيع المراتب حقق فيه فراستك وهب له تمام الفضيلة وأوزعك الشكر عليه أجارك فيه من الثكل سرك بفائدته أسعدك برؤيته أطاب عيشك به متعك بعطيته ألهمك شكر ما خولك واصل لك المزيد برحمته ، فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عدة

كتب بتهنئة بولد فعل كما إذا قال قد جعلك الله من نبعة طابت مغارسها فالزيادة زيادة فى جوهر الكرم فتولى الله نعمه عندك بالحراسة وبلغنى الخبر بهبة الله الجديدة المستجدة الولد المبارك الذى عمر أفنية السيادة فتباشرت به جعله الله تعالى برا تقيا يتقيل سلفه وأيمن به عددك وأوزعك الشكر عليه وواصل لك المزيد برحمته كان ذلك كتابا كافياً فى هذا النوع فتأمل ذلك وقس عليه .

النوع الثانى

المعرفة باللغة العجمية وهى كل ما عدا العربية من التركية والفارسية والرومية والفرنجية والبربرية والسودان وغيرهم وفيه مقصدان .

المقصد الأول

فى بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللغات العجمية

لا يخفى على أحد أن الكاتب يحتاج فى كماله إلى معرفة لغة الكتب التى ترد عليه لملكه أو أميره ليفهمها ويجب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها فإنه أصون لسر ملكه وأبلغ فى بلوغ مقاصده . وقد روى محمد بن عمر المدائنى فى كتاب القلم والدواة بسنده إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ أنه يرد على أشياء من كلام السريانية لا أحسنها فتعلم كلام السريانية فتعلمتها فى ستة عشر يوما ، وفى رواية قال قال لى رسول الله ﷺ أتحسن السريانية فإنه يأتينى كتب بها قلت لا قال فتعلمها فى سبعة عشر يوما فكنت أجيب عن رسول الله ﷺ وأقرأ كتب يهود إذا وردت عليه ، وفى رواية قال قال لى رسول الله ﷺ يا زيد تعلم كتاب يهود فإنى والله لا آمن يهود على كتابى قال فتعلمت كتابتهم فما مر لى ست عشرة ليلة حتى حذقته فكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه وأجيب إذا كتب وفى رواية العبرانية بدل السريانية قال محمد بن عمر المدائنى بل قيل أن النبى ﷺ كان يفهم اللغات كلها وإن كان عربيا لأن الله تعالى بعثه إلى الناس كافة ولم يكن الله بالذى يبعث نبيا إلى قوم لا يفهم عنهم ولذلك كلم سلمان بالفارسية بسنده إلى عكرمة أنه قال سئل ابن عباس هل تكلم رسول الله ﷺ بالفارسية قال نعم دخل عليه سلمان فقال له درسته وسادته قال محمد بن أميل أظنه مرحبا وأهلا وحينئذ فيكون النبى ﷺ إنما أمر زيدا بتعلم كتابة السريانية أو العبرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه

أمره بتعلم لغتهم .

المقصد الثانى

فى بيان ما يتصرف فيه الكاتب من اللغة العجمية

الذى ينبغى له تعلمه من اللغات العجمية هو ما تتعلق به حاجته فى المخاطبة والمكاتبة . أما المخاطبة فبأن يكون لسان ملكه بعض الألسن العجمية أو كان الغالب عليه لسان عجمى مع معرفته بالعربية كما غلبت اللغة التركية على ملوك الديار المصرية وكما غلبت اللغة الفارسية على ملوك بلاد العراق وفارس وكما غلب لسان البربر على ملوك بلاد المغرب مع تبعية عسكر كل ملك فى اللسان الغالب عليه له فى ذلك فيحتاج الكاتب إلى معرفة لسان السلطان الذى يتكلم به هو وعسكره ليكون أقرب إلى حصول قصده من فهم الخطاب وتفهيمه وسرعة إدراك ما يلقى إليه من ذلك وتأدية ما يقصد تأديته منه مع ما يحصل له من الحظوة والتقريب بالموافقة فى اللسان فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه كما تميل نفوس ملوك الديار المصرية وأمرائها وجندها لمن يتكلم بالتركية من العلماء والكتاب ومن فى معناهم على ما هو معلوم مشاهد . وأما المكاتبة فبأن يكون يعرف لسان الكتب الواردة على ملكه ليترجمها له ويجيب عنها بلغتها التى وردت بها فإن فى ذلك وقعا فى النفوس وصونا للسر عن اطلاع ترجمان عليه وأمر النبى ﷺ لزيد بن ثابت بتعلم السريانية أو العبرانية على ما تقدم ظاهر فى طلب ذلك من الكاتب وحثه عليه . ثم اللغات العجمية على ضربين : أحدهما ما له قلم يكتب به فى تلك اللغة كاللغة الفارسية واللغة الرومية واللغة الفرنجية ونحوها فإن لكل منها قلما يخصه يكتب به فى تلك اللغة ، والثانى ما ليس له قلم يكتب به وهى لغات القوم الذين تغلب عليهم البداوة كالترك والسودان ولأجل ذلك ترد الكتب من القانات ملوك الترك ببلاد الشمال المعروف فى القديم بيت بركه والآن بمملكة أزبك تخصها ، فالأولون كتبهم ترد بخطهم ولغتهم كالكتب الواردة من ملوك الروم والفرنج ونحوهما ممن للغته قلم يخصه على اختلاف الألسنة واللغات .

النوع الثالث

المعرفة بالنحو وفيه مقصدان

المقصد الأول

فى بيان وجه احتياج الكاتب إليه

لا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية وميزان تقويمها وقد تقدم فى النوع الأول أن اللغة العربية هى رأس مال الكاتب وأس مقاله وكنز إنفاقه وحينئذ فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطرق الإعراب والأخذ فى تعاطى ذلك حتى يجعله دأبه ويصيره ديدنه ليرتسم الإعراب فى فكره ويدور على لسانه وينطلق به مقال قلمه وكلمه ويزول به الوهم عن سجيته ويكون على بصيرة من عبارته فإنه إذا أتى من البلاغة رتبة ولحن فى كلامه ذهبت محاسن ما أتى به وانهدمت طبقة كلامه وألغى جميع ما حسنه ووقف به عندما جهله قال فى المثل السائر وهو أول ما ينبغى إثبات معرفته على أنه ليس مختصا بهذا العلم خاصة بل بكل علم لا بل ينبغى معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن معرة اللحن قال صاحب الريحان والريعان ولم تزل الخلفاء الراشدون بعد النبى ﷺ يحثون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها إذ هى من الدين بالمكان المعلوم والمحل المخصص ، قال عثمان المهرى أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ونحن بأزربيجان يأمرنا بأشياء ويذكر فيها تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة وكان لخالد بن يزيد بن معاوية أخ فجاءه يوما فقال الوليد بن عبد الملك يعبث بى ويحتقرنى فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال يا أمير المؤمنين إن الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره وعبد الملك مطرق فرفع رأسه وقال : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها الآية فقال خالد ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ الآية فقال عبد الملك أفى عبد الله تكلمنى وقد دخل على فما أقام لسانه لحنا فقال خالد أفعلى الوليد تعول ؟ فقال عبد الملك إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان فقال خالد وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد فى كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره . وقال الرشيد يوما لبنيه ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته ، ومن كلام مالك بن أنس : الإعراب حلى اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها والله در أبى سعيد البصرى حيث يقول :

النحو يبسط من لسان الألكن   والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها   فأجلها عندى مقيم الألسن

قال صاحب الريحان والريعان : واللحن قبيح فى كبراء الناس وسراتهم كما أن الإعراب جمال لهم يرفع الساقط من السفلة ويرتقى به إلى مرتبة تلحقه بمن كان فوق نمطه وصنفه قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنى فإن اللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراب به إلى ضده حتى يفهم السامع خلاف المقصود منه . وقد روى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿ إن الله برىء من المشركين ورسوله ﴾ بجر رسوله فتوهم عطفه على المشركين فقال أو برىء الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية على أن الحسن قد قرأها بالجر على القسم وقد ذهب على الأعرابى فهم ذلك لخفائه وقرأ آخر ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ برفع الأول ونصب الثانى فوقع فى الكفر بنقل فتحة إلى ضمة وضمة إلى فتحة فقيل له يا هذا : إن الله تعالى لا يخشى أحداً فتنبه لذلك وتفطن له وسمع أعرابى رجلا يقول أشهد أن محمداً رسول الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال : يفعل ماذا ؟ وقال رجل لآخر ما شأنك بالنصب ؟ فظن أنه يسأله عن شين به فقال عظم فى وجهى وقال رجل لأعرابى كيف أهلك بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهله فتوهم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صلبا ودخل رجل على زياد ابن أبيه فقال إن أبونا مات و إن أخينا وثب على مال أبانا فأكله فقال زياد : للذى أضعته من كلامك أضر عليك مما أضعته من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال من عند أهلونا فحسده آخر حين سمعه وظن ذلك فصاحة فقال أنا والله أعلم من أين أخذها من قوله شغلتنا أموالنا وأهلونا فأضحك كل منهما من نفسه . قال صاحب الريحان والريعان : وكان من يؤثر عقله من الخلفاء يعاقب على اللحن وينفر من خطأ القول ولا يجيز أن يخاطب به فى الرسائل البلدانية ولا أن يوقف به على رؤوسهم فى الخطب المقامية قال وهو الوجه فأنديتهم مطلب الكمال ومظان الصواب فى أحكام الأفعال والأقوال . قال ابن قادم النحوى : وجه إلى إسحاق ابن إبراهيم وهو أمير فاحضرنى فلم أدر ما السبب فلما قربت من مجلسه تلقانى كاتبه على الرسائل ميمون بن إبراهيم وهو على غاية الهلع والجزع فقال لى بصوت خفى : إنه إسحاق ومر غير متلبث حتى رجع إلى إسحاق فراعنى ما سمعت فلما مثلت بين يديه قال كيف يقال وهذا المال مال أو هذا المال مالاً فعلمت ما أراد ميمون الكاتب فقلت له الوجه وهذا المال مال

ويجوز وهذا المال مالا فأقبل إسحاق على ميمون كاتبه بغلظة وفظاظة ثم قال الزم الوجه فى كتبك ودع ما يجوز ورمى بكتاب كان فى يديه فسألت عن الخبر فاذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حمله إليه فقال وهذا المال مالا فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقع بخطه فى حاشيته تكاتبنى باللحن ويقال أنه لم يتجاوز موضع اللحن فى قراءة الكتاب فقامت عند إسحاق فكان ميمون الكاتب بعد ذلك يقول لا أدرى كيف أشكر ابن قادم بقى على روحى ونعمتى . ووقف بعض الخلفاء على كتاب لبعض عماله فيه لحن فى لفظة فكتب إلى عامله قنع كاتبك هذا سوطا معاقبة على لحنه . قال أحمد بن يحيى كان هذا مقدار أهل العلم وبحسبه كانت الرغبة فى طلبه والحذر من الزلل ، قال صاحب الريحان والريعان فكيف لو أبصر بعض كتاب زماننا هذا . قلت قد قال ذلك فى زمانه هو وفى الناس بعض الرمق والعلم ظاهر وأهله مكرمون وإلا فلو عمر إلى زماننا نحن لقال تلك أمة قد خلت . ثم المرجع فى معرفة النحو الى التلقى من أفواه العلماء الماهرين فيه والنظر فى الكتب المعتمدة فى ذلك من كتب المتقدمين والمتأخرين .. واعلم أن كتب النحو من المبسطات والمختصرات والمتوسطات أكثر من أن يأخذها الحصر ومن الكتب المعتمدة فى زماننا عند أبناء المشرق المفصل للزمخشرى والكافية لابن الحاجب وعند المصريين كتب ابن مالك كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ابن مالك وغيرهما ، قال أبو جعفر النحاس وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمى العربية جهلا وتعديا حتى أنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم بن مخيمرة قال النحو أوله شغل وآخره بغى قال وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل وأول الحساب شغل وكذا أوائل العلوم افترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ، قال وأما قوله وآخره بغى إن كان يريد به أن صاحب النحو اذا حذقة صار فيه زهو واستحقر من يلحن فهذا موجود فى غيره من العلوم من الفقه وغيره فى بعض الناس وإن كان مكروها وإن كان يريد بالبغى التجاوز فيما لا يحل فهذا كلام محال فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرآن وهى لغة النبى ﷺ وكلام أهل الجنة وكلام أهل السماء ، ثم قال بعد كلام طويل وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس فى علم النحو وأكثرهم تعظيما للعلماء حتى دخل فيهم من لا يستحق هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب وبعدت عليهم معرفة الهمزة التى ينضم وينفتح ما قبلها أو تختلف حركتها وحركة ماقبلها فيكتبون يقرؤه

بزيادة ألف لا معنى لها فى كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . أما التعمق فى الاعراب والمبالغة فيه أن حكمه فى الاستكراه حكم التقعر فى الغريب وقد كانوا يذمون من يتعاناه ويسخرون بمن يتعاطاه ، قال الأصمعى خاصم عيسى بن عمر النحوى رجلا إلى بلال بن أبى بردة فجعل عيسى يشبع الإعراب ويتعمق فى الألفاظ وجعل الرجل ينظر اليه فقال له القاضى لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليه من تركه الاعراب فلا تتشاغل به وأقصد بحجتك . وخاصم نحوى نحويا آخر عند بعض القضاة فى دين عليه فقال أصلح الله القاضى لى على هذا درهمان فقال خصمه والله أصلحك الله أن هى إلا ثلاثة دراهم ولكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما فهذا وشبهه قد صار مذموما والمتشبث ملوما ولذلك كان بعض الكتاب لشدة اقتداره على الإعراب يعرب كلامه ولا يخيل إلى السامع أنه يعرب فإن عرض مع الإعراب لحن كان ذلك أبلغ فى الشناعة وأجد بتوجه اللوم على صاحبه والسخرية من المتكلم به . وقد قال الجاحظ أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم ، قال وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طريق السائلة وبقرب مجامع الأسواق وعلى الجملة فالنحو لا يستغنى عنه ولا يوجد بد منه إذ هو حلى الكلام وهو له كما قيل كالملح فى الطعام ، قال فى المثل السائر والجهل بالنحو لا يقدح فى فصاحة ولا بلاغة ولكنه يقدح فى الجهل به نفسه لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن فى اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة قال ولذلك لم يكن اللحن قادحا فى نفس الكلام لأنه إذا قيل جاء زيد راكب بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال قيل جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشعر أقامة إعراب كلماته وإنما الغرض أمر وراء ذلك وهكذا يجرى الحكم فى الخطب والرسائل من المنثور مع ماحكى أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدمين فى شعرهم كقول أبى نواس فى محمد الأمين :

يا خير من كان ومن يكون إلا النبى الطاهر المأمون

فرفع المستثنى من الموجب . وكقول المتنبى

أرأيت همة ناقتى فى ناقة نقلت يدا سرحا وخفا مجمرا

تركت دخان الرمث في أوطانها　　طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك　　تقعان فيه وليس مسكا أذفرا

فجمع فى حالة التثنية لأن الناقة لها ركبتان وقد قال ركباتها واعلم أن اللحن قد فشا فى الناس والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيبا والنطق بالكلام الفصيح عيا . قلت والذى يقتضيه حال الزمان والجرى على منهاج الناس أن يحافظ على الإعراب فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وفى الشعر والكلام المسجوع وما يدون من الكلام ويكتب من المراسلات ونحوها ويغتفر اللحن فى الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به فى مخاطباتهم وعلى ذلك جرت سنة الناس فى الكلام منذ فسدت الألسنة وتغيرت اللغة حتى حكى أن الفراء مع جلالة قدره وعلو رتبته فى النحو دخل يوما على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن فقال الرشيد للفراء أتلحن يايحى فقال يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطبع لحنت فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين : ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن لحنت فى إعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وإن سمعت نادرة من نوادر العوام وملحة من ملحهم فإياك أن تستعمل لها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها التى وضعت لها ويذهب استطابتهم إياها . قال : واللحن من الجوارى الظروف ومن الكواعب النواهد ومن الشواب الملاح ومن ذوات الخدور أيسر وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد كما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن فإذا أسنت واكتهلت سئم ذلك الاستملاح قال وممن استملح اللحن فى النساء مالك بن أسماء فقال فى بعض نسائه :

أمغطى منى على بصرى للسحب　　أم أنت أكمل الناس حسنا
وحديث ألذه هو مما　　تشتهيه الأسماع يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا　　نا وخير الحديث ما كان لحنا

والناس فى ذلك كله بحسب البلاد وأهلها ألا ترى أن العرب وإن تغيرت

ألسنتهم بمخالطة من عداهم فإنهم لا يخلو كلامهم من موافقة الأعراب فى بعض الكلام والجرى على القواعد العربية خصوصا عرب الحجاز وأهل البادية منهم ، وقد قال الجاحظ فى أثناء كلامه : ولأهل المدينة ألسنة ذلقة وألفاظ حسنة وعبارة جيدة واللحن فى عوامهم فاش وعلى من لم ينظر منهم فى النحو غالب .

المقصد الثانى

فى كيفية تصرف الكاتب فى علم العربية

واعلم أن انتفاع الكاتب بالنحو من وجهين . أحدهما الإعراب وما يلحق به ومن أهم ما يعتنى به من ذلك النسب لكثرة استعماله فى الألقاب ونحوها وكذلك العدد فإنه مما يقع فيه اللبس على المبتدى ومحل ذلك كله كتب النحو . الثانى فيما يقع الكاتب فيه بطريق العرض فيحتاج من ذلك إلى معرفة النحاة ومشاهير أهل العربية كأبى الأسود الدؤلى وسيبويه والفراء وأبى على وأبى عثمان المازنى وغيرهم من المتقدمين وابن عصفور وابن مالك وابن معطى وغيرهم من المتأخرين وكذلك أسماء كتبهم المشهورة فى هذا الفن من المبسوطات والمختصرات من كتب المتقدمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التى اصطلحوا عليها من ذكر الاسم والفعل والمعرفة والنكرة والمبتدأ والخبر والحال والتمييز وألقاب الإعراب من الرفع والنصب والجر والجزم وغير ذلك مما تجرى به عباراتهم ويدور على ألسنتهم فى استعمالاتهم من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك ليدرج ما عنَّ له من ذلك فى خلال كلامه حيث احتاج إليه فى التواقيع والمكاتبات وغيرها قال فى التعريف فى وصية نحوى وهو زيد الزمان الذى يضرب به المثل وعمرو الأوان وقد كثر من سيبويه الملل ومازنى الوقت ولكنه لم يستبح الإبل وكسائى الدهر الذى لو تقدم لما اختار غيره الرشيد للمأمون وذو السودد لأبى الأسود على أنه ذو السابقة والأجر الممنون وهو ذو البر المأثور والقدر المرفوع ولواؤه المنصوب وذيل فخاره المجرور والمعروف بما لا ينكر لمثله من الجزم والذاهب عمله الصالح بكل العوامل التى لم يبق منها لحسوده إلا الجزم وهو ذو الأبنية التى لا يفصح عن مثلها الإعراب ولا يعرف أفصح منها فيما أخذ عن الإعراب والذى أصبحت أهدابه فوق عمائم الغمائم ولم يزل طول الدهر يشكر منه أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات ثلاث فليتصد للإفادة وليعلمهم مثل ما ذكر فيه من علم النحو هذا وزيادة وليكن للطلبة نجما به يهتدى وليرفع بتعلمه قدر كل حبر يكون خبرا له وهو المبتدأ

وليقدم منهم كل من صلح للتبريز واستحق أن ينصب إماما بالتمييز وليورد من موارده أعذب النطاف وليجر إليه كل مضاف إليه ومضاف وليوقفهم على حقائق الأسماء ويعرفهم دقائق البحوث حتى اشتقاق الاسم هل هو من السمو أو من السماء وليبين لهم الأسماء العجمية المنقولة والعربية الخالصة ويدلهم على أحسن الأفعال لا ما يتشبه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصة وليحفظهم المثل وكلمات الشعراء ولينصب نفسه لحد أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء وليعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف ومع هذا كله فليرفق بهم فما بلغ أحد علما بقوة ولا غاية بعسف وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباته رحمه الله من جملة توقيع مدرس ولأنه فى البيان ذو الانتقاد والانتقاء والعربى الذى إن كان لرقاب الفضلاء ابن مالك فإن قريبه أبو البقاء . وكما كتب القاضى محي الدين ابن عبد الظاهر فى رسالة اقترحت عليه فى هذا الباب وهى : حرس الله نعمة مولاى ولازال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ومنادى جوده لا يرخم وأحمد عيشه لا ينصرف ولا عدم مستوصل الرزق من براعته ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصود وممدود ولا خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد ولا عدوه إلا بلام الجحـــود هذه المفاوضة إليه أعزه الله تفهمه أنا بلغنا أن فلانا قد أضمر سيدنا له فعلا غدا به منتصبا للمكائد ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير ونعوت صحبته تكررت فجاز قطعها بسبب ذلك التكرير وسيدنا يعلم بالعلمية المذكون من الأناقة وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضا على الإضافة وكان الظن أن الأشغال التى جمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة وآية لا تكلف تعليما على رسول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرف ليست له علامة وحاش لله أن يصبح معرب إحسانه مبنيا وأن نزيل كرمه يكون للنكرات بأى محكيا أو أن يأتى سيدنا بالماضي من الأفعال فى معنى الاستقبال أو أن يجعل بدل غلطه الإبدال للاشتمال أو يدغم مودته مظهرا أو أنه لا يجعل لمبتدأ محبته مخبرا أو لا يكون له من أبنية سيدنا مصدرا ولا برح سيدنا نسيج وحده فى أموره ولا زال حلمه يتناسى الهفوات لا يشتغل مفعوله عن فعله بضميره .

النوع الرابع

المعرفة بالتصريف

يجب على الكتاب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليها ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ضل حينئذ عن السبيل ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن . قال ضياء الدين بن الأثير فى المثل السائر : وتظهر لك فائدة ذلك ظهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوى الجاهل بعلم التصريف كيف تصغر لفظة اضطراب فإنه يقول ضطيريب ولا يلام فى ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته منها نحو قولهم فى منطلق مطيلق وفى جحمرش جحيمرش ولفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى فلذلك لم تحذف وحذفت النون . وأما لفظة جحمرش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا فإذا بنى النحوى على هذا الأصل فإما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلى فيصغر لفظة اضطراب حينئذ على ضطيريب ولم يعلم النحوى أن الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه فيقال ضتيريب فإن هذا مما لا يعلمه إلا التصريفى والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك اتكالا منهم على تحقيقه من علم التصريف إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه فتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف إلى معرفة ذلك كتكليفه ما ليس من علمه ، قال فثبت بما ذكر أن علم التصريف مما يحتاج إليه لئلا يغلط فى مثل ذلك ، قال ومن العجب أن يقال أنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قد قال فى معايش معائش بالهمز وهذه اللفظة مما لا يجوز همزه بإجماع من علماء العربية لأن الياء فيها ليست مبدلة من همزة وإنما الياء التى تبدل من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا يكون عينا نحو سفائن ولم يعلم نافع الأصل فى ذلك فأخذ عليه وعيب عليه من أجله وذلك أنه

اعتقد أن معيشة على وزن فعيلة تجمع على فعائل ولم ينظر إلى أن الأصل فى معيشة معيشة على وزن مفعلة لأن أصل هذه الكلمة من عاش لكن أصلها عيش على وزن فعل ويلزم مضارع فعل المعتل العين يفعل لتصح الياء نحو يعيش ثم تنتقل حركة العين إلى الفاء فتصير يعيش ثم يبنى من يعيش مفعول فيقال معيوش كما يقال مسيور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال معيش به كما يقال مسير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير معيشة ، ومن جملة من عابه أبو عثمان المازنى فقال فى كتابه فى التصريف أن نافعا لم يدر ما العربية . وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر فى كتب بعض الكتاب فإذا فيه حرف مصلح هو وقد لهوت عن جباية الخراج فاغتاظ وقال لا يحكه غيرى فحكه فأصلحه وقد لهيت بالياء بدل الواو قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدمه فى الكتابة أنه قال وكانت رسومهم مساناة ثم صارت مشاهرة ثم صارت مياومة ثم صارت مساعاة فأخطأ وكان يجب أن يقول مساوعة ، قال فى المثل السائر وكثيرا ما يقع أهل العلم فى مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها وإذا علم حقيقة الأمر فى ذلك لم يقع الغلط فيما يوجب قدحا ولا طعنا قال وقد وقع الغلط لأبى نواس فيما هو أظهر من ذلك وهو قوله فى صفة الخمر :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فعلى التى لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة وهاهنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصغرى والكبرى أو كأن صغراها وكبراها فانظر كيف وقع أبو نواس فى مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته وغلط أبو تمام أيضا فى قوله :

بالقائم الثامن المستخلف اطأدت   قواعد الملك ممتدا لها الطول

فقال اطأدت والصواب اتطدت لأن التاء تبدل من الواو فى موضعين : أحدهما مقيس عليه كهذا الموضح لأنك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتعد وكذلك اتطدت فى البيت فإنه من وطد يطد كما يقال وعد يعد فإذا بنى من افتعل قيل اتطدت ولا يقال اطاد .

ونخلص مما تقدم جميعا ، إلى أن التداول الفعل للإعلام والاستخدام الفعال لوسائل الاتصال ، يمكن أن يسهم إسهاما فعالا فى تنمية اللغة العربية .

فوظيفة اللغة فى الاتصال الإعلامى هى تمثيل الرأى العام على مرآة تعكسه واللغة المشتركة هى لغة الإعلام ؛ وهى كذلك تعبير لما يسميه السياسيون بالقومية .

ولذلك فإن علم الإعلام اللغوى يسعى إلى البحث فى ماهية اللغة باعتبارها أداة للاتصال الإعلامى ، ويعنى كذلك بدراسته نظمها ونحوها وصرفها .

وهو يسعى إلى ذلك بناء على أن وسائل الإعلام من أفضل الوسائل لانتشار العربية الفصحى ، والربط بين رجال الفكر والجماهير فى العالم العربى . كما أن الإعلام باستخدامه الفصحى فى لغته يقدم للشعب ثروة لغوية ترفع من مستواه الثقافى والأدبى ، كما تعمل على توحيد الأمة العربية .

ولذلك نوصي بدراسة علم الإعلام اللغوى فى كليات الإعلام وأقسامه بالجامعات العربية ، تحقيقا لهذه الأهداف العربية .

الفصـــل السابع

اللغة العربية ... والنمذجة الإعلامية

حينما ندرس لغة الإعلام نجد أن النمذجة الإعلامية ؛ والتبسيط من أهم سمات لغة الإعلام التى تعرض الأحداث والأفكار منتزعة من سياقها كما لو كانت وحدات مستقلة . وهى نمذجة مقصودة لأسباب خارجية أهمها التبسيط للجماهير التى تحتاج إلى ألفاظ تعبر عن المفاهيم الخلقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأفكار العامة التى نشأت فى الحياة الإنسانية ونمت وتطورت .

وقد قامت اللغة العربية بسد هذه الحاجة إلى الألفاظ العامة ، والأنماط لإغناء الحاجة إليها للتعبير عن هذه المعانى العامة فى الميدان المادى والمعنوى منذ عهد بعيد .

فاللغة العربية غنية بالألفاظ الدالة على المعانى العامة كما أنها غنية بالألفاظ الخاصة الدقيقة . ولغة الإعلام تحتاج إلى النوعين كليهما فى حياتها وتطورها ولكل منهما موضع يليق به .

ويعود هذا الاستعداد لتخصيص الألفاظ بمعانيها إلى سعة الاشتقاق فى اللغة العربية على قواعده التى تؤدى كل قاعدة معناها المستفاد من وزنها ، فإن الاشتقاق على حسب هذه القواعد يستمد من الفعل على الاسم وعمل الصفة وموضع استخدام كل منهما ، فيأتى الاسم معبرا عن وقاع فعله وعن المقصود بوصفه وتصلح المادة الوحدة أساسا لأسرة كاملة من المعانى المتفرعة عليها (١) ويأتى عمل المضاعف والمزيد فيوسع دلالة المادة اللفظية أو يسرى منها إلى معان تناسبها وقد تخالفها فى بعض عوارضها (٢) .

فالاشتقاق العربى يعطى المتكلم من الأوزان بمقدار ما يحتاج إليه من المعانى المحتملة على جميع الوجوه ، والمتكلم هو صاحب الشأن فى اختيار الكلمة وليست الكلمة هى العبارة المفروضة عليه لأنها وضعت من أصلها ارتجالا ومحاكاة لصوت أو

(١ ، ٢) العقاد : اشتات مجتمعات ص ١٠٠ ، ١٠١ .

تلفيقا للأجزاء من مختلف المواد .

ولا يحتمل العقل المعبر صيغة للاشتقاق بعد استيفاء صيغ المصدر للمرة أو للهيئة أو للدلالة على الجمع أو الجنس المجموع ، ولا احتمال لصيغة مطلوبة بعد صيغ المبالغة والتضعيف واسم الفاعل واسم المفعول والصفة الملازمة ، والصفة المرتهنة بالحدث والزمان .[١]

فالمتكلم المعبر هنا هو صاحب الشأن فى تصريف المشتقات على حسب أغراضه واحتمالات تفكيره ، واللغة قد وصلت على ألسنة المتكلمين بها إلى خلق القواعد التى يتبعها تكوين المفردات ، قبل أن تعرض لهم الحاجة إلى استخدام تلك المفردات أو إنشاء الكلمات المرتجلة مع كل مشاهدة تأتى للمتكلم بشىء جديد يحتاج إلى لفظ جديد .

ولذلك لم تضع الرابطة الاشتقاقية بين الألفاظ العربية على اختلاف عصورها وتاريخ ميلادها وعلى اختلاف بيئاتها ومساكنها فكلمة « طائرة » و « سيارة » و« هاتف » و « واشتراكية » ولدت فى هذا العصر ومع ذلك فإن الرابطة الاشتقاقية لم تضع بينها وبين « طائر »و « مسير » و « شرك » مع أن بين ميلاد تلك الألفاظ وقريباتها هذه مدة تزيد على خمسة عشر قرنا . ولا نزاع فى أن منهج اللغة العربية فى الاشتقاق قد زودها بذخيرة من المعانى والنماذج لا يسهل أداؤها فى اللغات الأخرى ، فى نطاق التركيز الإعلامى الذى هو شيمة الأسلوب العربى الأصيل . فالألفاظ المنتسبة إلى أصل واحد تشترك فى قدر من المعنى وهو معنى المادة الأصلية العام كالطيران فى طائر وطائرة والسير فى سيارة وتسير والاشتراك فى الشرك والاشتراكية . ويقابل هذا المعنى المتداول أن العنصر الثابت المتوارث من اللغة ، والمكون من جزء مادى هو الحروف الثابتة فى مادة الكلمة وجزء معنوى هو معناها العام ، وهو أداة النمذجة ووسيلة الاتصال بين جماهير الأمة العربية .

وإذا كانت النمذجة فى لغة الإعلام لا تقتصر على الشخصيات بل تتجاوزها إلى الأفكار والمذاهب والعقائد . بحيث أصبحت هناك أفكار ثابتة عن الشيوعية أو الرأسمالية وتتلقى الجماهير ثقافتها ومعلوماتها من خلال هذه النماذج . فقد كانت

---

(١) نفس المرجع ص ١٠٢ .

العربية من أوائل اللغات استخداما للنمذجة عن طريق استخدام العام مثلا فى بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعى ما ، يزيل تقادم العهد عموم معناه ، وتقصير مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . ولدينا فى اللغة العربية آلاف من أمثلة هذا النوع .

فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود .. الخ . فالصلاة مثلا معناها فى الأصل الدعاء — كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى . والحج معناه فى الأصل قصد الشىء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقى مقصورا على هذه الشعيرة .. إلخ » .

وتقوم النماذج فى اللغة العربية كذلك على أساس كثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى لسبب اجتماعى ما يؤدى غالبا إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة .. إلخ . فالمجد معناه فى الأصل مثلا امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثرة استخدامه مجازا فى الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأفن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ، وانتقل معنى الوغى من اختلال الأصوات فى الحرب إلى الحرب نفسها .. إلخ .

إن هذه الخاصة فى اللغة العربية من نمذجة للمعانى بهدف التبسيط فى شكلها المتسع المتنوع الموجود فى العربية مما يؤكد خصائصها الإعلامية . كمعنى الفاعلية والمفعولية والمكانية ، وهى ليست أنماطا ثابتة لا تتغير ، ولكنها ترتبط بالتطور الفكرى والاجتماعى وحاجته إلى نماذج أو أنماط جديدة ، وقد حدث شىء من هذا فى تاريخ العربية فقد استعمل فى العصر العباسى ما سموه بالمصدر الصناعى كالإنسانية والحيوانية . وقد استعملنا نحن اليوم هذه الصفة لحاجتنا إليها للتعبير عن المذاهب كالمادية والوجودية والاشتراكية وغيرها .

إن أوزان العربية وأبنيتها هى إحدى مقوماتها وخصائصها المميزة ، وهى كما تقدم تقوم بوظيفة إعلامية معرفية وبوظيفة فنية ، فالكلمات التى تستعمل للغرضين كثيرة فى اللغة العربية وليست بهذه الكثرة فى اللغات الأوربية .

العربية : لغة الإعلام :

وظاهر من جملة هذه الملاحظات أن اللغة العربية تتضمن فى أبنيتها وتراكيبها وألفاظها خصائص إعلامية : فهى لغة معرفية ، تقوم على الوظيفية الهادفة وتتضمن اتصالا ناجحا أساسه الوضوح والسهولة والسلاسة والتبسيط ، فهى لغة عملية تعبر عن الحياة والحركة والعمل والإنجاز ، لأنها لغة قوم يتلازم عندهم القول والتفكير والعمل فى حياتهم : فقول العربى تفكيره ، وتفكيره بدء لعمله . ولذلك اعتبره زهير الشاعر الجاهلى أحد شطرى الإنسان إذ قال : « لسان الفتى نصف ونصف فؤاده » .

تلك بعض السمات فى اللغة العربية ، هى اللغة الإعلامية المؤثرة حقا . ومن الطريف أن هذه اللغة الحية هى نفس اللغة التى اقتربت من الأدب عند الجاحظ ، بأسلوبها السهل الممتنع ، القوى المعبر ، المتدفق فى حيوية وإيقاع .

ومن ذلك يبين أن اللغة العربية — وهى وعاء العقل العربى — تتميز بخصائص — إعلامية نشأت فيها من روح الأمة العربية وتجاربها المتراكمة المستمرة ، تدل على مرونة اللغة العربية ، واستجابتها لمتطلبات الحياة ، ومقتضيات الحضارة ، وتدل كذلك على الذهن العربى المتمتع بالنقاء والصفاء ، والتفتح والانطلاق ، وكل ذلك من معطيات الطبيعة الصحراوية ، وانعكس كل ذلك على اللغة العربية ، وظهرت فى مفرداتها وتعابيرها الخصائص الإعلامية النابعة من هذه المعطيات نفسها ، فنجد فى أقوال العرب ، اللفظ المعبر ، المسئول عن وظيفته فى الجملة ، والجملة الصحيحة المسئولة عن دورها ووظيفتها فى تأدية الفكرة وإيضاح المعلومات .

ولا يصعب الجمع بين التعبير الواقع والتعبير المجازى الشعرى فى مئات من الكلمات التى تجرى على الألسنة كل يوم وتؤدى إلى السامعين معانيها النظرية الفكرية ومعانيها الحسية فى وقت واحد بغير لبس بين المقصود فى كل مقام . فاللغة العربية إذن تستطيع أن يكون لها تعبيرها الذى يناشد حاسة الجمال لدى القراء ، وتتضمن أيضا

اتصالا ناجحا أساسه الوضوح والسهولة ، والوظيفة الهادفة ، وسليقة اللغة العربية الإعلامية تكاد تجعل منها فنا تطبيقيا قائما بذاته ، لتصبح تعبيرا اجتماعيا شاملا فى الاتصال الجماهيرى ، لأنها لغة مركبة خاضعة لكل مظاهر النشاط الثقافى من علم وفن وموسيقى .. إلخ ، هذا إلى جانب السياسة والتجارة والاقتصاد والموضوعات العامة . فاللغة العربية تمتاز بدقة تعبيرها والقدرة على تمييز الأنواع المتباينة والأفراد المتفاوتة والأحوال المختلفة سواء فى ذلك الأمور الحسية والمعنوية .

فالدقة العربية دليل على بلوغ أصحابها درجة عالية فى دقة التفكير ولكنها خاصة إعلامية حين نقول أنهم يتصفون بمزية الوضوح وتحديد المقصود تحديدا يقتضيه المنطق العلمى . ولا يمكن أن تكون اللغة البعيدة عن الدقة المتصفة بالعموم أو الإبهام أو الغموض أداة للتعبير الإعلامى الدقيق ، ولابد من التقابل فى الخصائص والصفات بين التعبير والتفكير والتخصيص اللغوى والدقة فى التعبير أداة لابد منها لرجل الإعلام ، صحفيا كان أم إذاعيا لتصوير دقائق المعلومات وإبرازها فى جوانبها الخاصة المتميزة ، وصفاتها القائمة على الوظيفة الهادفة .

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى بعث اللفظ الدقيق من لغتنا وإحياء الفروق بين الألفاظ لتكون لدينا لغة تصلح أن تكون أداة للإعلام العربى فى مواجهة التقدم الفنى الهائل وانطلاق وسائل الاتصال بالجماهير .

ذلك أن العربية قد أصيبت فى عصور الانحطاط بمرض العموم والغموض والإبهام ، كنتيجة لافتقاد وظيفتها الهادفة فى هذه العصور ، فضاعت الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة فغدت مترادفة ، وكثر استعمال الألفاظ فى المعانى المجازية وصرفت عن معانيها الأصلية فضاع الفكر بين الحقيقة والخيال ومازالت الخصائص المميزة والفروق الفاصلة وأصبح لكل موضوع مهما تكرر قوالب من اللغة ثابتة وأداة اللفظ لا تتغير وتعابير مصوغة لكل مناسبة أو موضوع تنقل وتلصق كلما تكررت تلك المناسبة أو عرض ذلك الموضوع . فإذا كان الموضوع وصف حديقة أو تعزية صديق أو التعبير عن فرح أو طرب لم يتغير الكلام أيا كانت تلك الحديقة وفى أى بلد وأيا كانت مناسبة التعزية أو الفرح[١] وفى ذلك قتل لخصائص اللغة العربية

---

(١) محمد المبارك : خصائص العربية ص ٦٢ .

ومزاياها الإعلامية من إبراز المقومات والمزايا الخاصة والدقائق الخفية .

على أن اللغويين أيام ازدهار اللغة ، كانوا يدركون هذه المزية من مزايا العربية فعنوا بإبراز الفروق بين الألفاظ فى مؤلفات خاصة لكتاب « الفروق » لأبى هلال العسكرى وأبواب الفروق من كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة والقسم الأول من « فقه اللغة وأسرار العربية » للثعالبى .

كما كان كتاب العربية ، يحرصون على هذه المزية الإعلامية فى لغتهم ، فيضعون الألفاظ فى مواضعها ويحرصون على دقة التعبير ، فكان الجاحظ يستعمل الألفاظ التى تتخصص مدلولاتها بها ولا تتناول سواها بقدر ما تسمح له اللغة بذلك فإذا ذكر آلة أو أداة أو طعاما أو لباساً أو شيئاً من هذه الأشياء المادية ذكرها بأسمائها الخاصة وفرق بهذا التخصيص بين أنواعها المختلفة فمن ذلك الشبولة والجوافة والشلقة لضروب من السمك ، والجعفرية لضرب من السفن ، والمسرجة والمصباح والقنديل لما يستصبح به والصمام لما تسد به القوارير ، والكساح للعامل الذى ينظف المثاعب والمجارى ، والشارع للسكة الكبيرة . والرائغ للطريق الضيقة بين المنازل .. الخ .(١)

ونجد مثل هذه الدقة فى الوصف عند كثير من كتاب العربية فى مختلف العصور ولاسيما فى القرون الأربعة الأولى بعد الإسلام . ومن هؤلاء : عبد اللطيف البغدادى ــ (٥٥٧ هـ ــ ٦٢٩ هـ) فقد كان دقيقا فى ملاحظته وتعبيره فى رحلته إلى مصر التى سماها « الإفادة والاعتبار » فقد وصف فيها نباتات مصر وحيواناتها وآثارها وصفا يبعث فى الإنسان الدهشة والتعجب فمن ذلك قوله فى وصف البامية : وهى ثمر بقدر إبهام اليد ، كأنه جراء(٢) القثاء ، شديد الخضرة ، إلا أن عليه زيبراً مشوكا ، وهو مخمس الشكل ، يحيط به خمسة أضلاع ، فإذا شق انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز ، وفى تلك الأبيات حب مصطفى مستدير أبيض أصغر من اللوبيا ، حسن ، يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة(٣) بهذا الأسلوب البسيط الدقيق فى كلماته وصف البغدادى فى رحلته هذه سائر ما شاهده

(١) محمد المبارك : فن القصص فى كتاب البخلاء للجاحظ ــ ص ٣٨ .
(٢) جراء جمع جرو الصغار من كل شىء .
(٣) عبد اللطيف البغدادى فى مصر . مطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة ص ٢٠ .

فى مصر من النبات والحيوان ومعالم العمران والآثار القديمة وإنما كانت دقة الوصف من استعمال الألفاظ المطابقة لمعانيها الدقيقة فى دلالتها .

وهذه الخاصة الوظيفية للغة التى استخدمها كتاب العربية خير استخدام جعلت علماء الصحافة والإعلام يذهبون إلى أن الجاحظ ـــ وهو من كتاب القرن الثالث الهجرى ـــ جدير بأن يكون أول صحفى ممتاز لو أنه عاش فى القرن الذى نعيش فيه . يقول الدكتور إبراهيم إمام :(١)

« يمكن النظر إلى أدب الجاحظ فى مجموعه على أنه أدب تتوفر فيه الكثير من خصائص الفن الصحفى . ولقد كان الجاحظ رجلا شديد الانغماس فى المجتمع . وهو فى الوقت نفسه غزير الإنتاج إلى درجة تلفت النظر ، وإنتاجه وثيق الصلة بالأفكار الشائعة فى عصره ، بل هو صورة دقيقة لما يحيط به فى تلك البيئة العباسية من دين وسياسة وثقافة وعادات وتقاليد اجتماعية . لقد كان الجاحظ موسوعى المعرفة ، دقيق الملاحظة ،سلس الأسلوب ، قوى العارضة ، ساخرا متهكما ، ولكن دون مرارة . وأهم من ذلك كان مصورا بالقلم تصويرا فنيا يجسم أفكاره تجسيما مشوقا أخاذا . ويكفى أن نشير إلى رسالة التربيع والتدوير التى وصف فيها أحمد بن عبد الوهاب لكى نبين عبقرية الجاحظ فى فن الكاريكاتور القلمى . وفضلا عن ذلك فإنك تلمح فى كتابات الجاحظ حبا للحياة ، وولعا بالناس ، وتقديرا للإنسان » .

ولقد استطاع الإنسان عن طريق اختراع الإذاعة وتعميم أجهزة الاستقبال على نحو ما نجد فى الترانزستور أن يحرر عملية الاتصال من قيود الزمان والمكان ، وعند الحديث عن الفصحى المشتركة ، سنتعرف على أثر الإذاعة فى تعميمها ومقاومة التيارات الداعية إلى العامية والقوميات الإقليمية الضيقة ، ذلك أن نظام الاتصالات الحديث جعل الامتداد الجغرافى يفتقد الكثير من أهميته وأصبحنا نجد أن المجتمع العلمى الذى لا يوجد له مكان على الخريطة يشترك فى القيم على حد تعبير « ريفرز » وينطبق ذلك على العالم الإسلامى والعربى .

التبسيط والنماذج الإذاعية :

والإذاعة بطبيعة الحال وسيلة جماهيرية ولابد أن تكون كذلك ، لأنها ما لم

---

(١) دراسات فى الفن الصحفى ص ٣٣ .

تستطع اجتذاب اهتمام أغلب الناس معظم الوقت والمحافظة عليه ، فإنها لن تؤدى وظائفها التى يكتب لها البقاء من أجلها ، ولابد أن تكون لغتها قائمة على التبسيط الذى يجتذب الملايين من المستمعين فى كل مكان . وقبل ظهور التليفزيون ، كان الراديو يعتبر مع الصحيفة أهم وسائل الإعلام . وكانت أهم الخصائص المميزة لجمهوره أنه بلا خصائص مميزة له فالإذاعة تتعامل مع كافة الجماهير رغم الاختلاف فى الأذواق وفى مدى الاستماع . وللإذاعة جاذبيتها العريضة التى تجعلها تصل إلى فئات الأمة كافة رغم أن ذلك يتم بطبيعة الحال فى مختلف البرامج . ومن ذلك أن الراديو يسمع بما يسمى بالأذن الثالثة ، وهناك ما يدل على أن الناس يستخدمون الراديو حاليا كرفيق شخصى وهم يقودون سياراتهم إلى العمل وعند أداء العمل المنزلى أو مع القراءة ... إلخ .[1]

ومن أجل ذلك فإن التبسيط سمة هامة من سمات الفن الإذاعى ، حيث تغدو الإذاعة كنظام للاتصال البشرى دلالة جديدة فى عالم تحل فيه الاتصالات الثانوية كالصفحة المطبوعة والراديو والتليفزيون محل الخبرة الأولية على حد تعبير « ويتما » وتقوم الإذاعة بذلك من خلال اللغة والصور والأنماط الجاهزة والرغبات ولذلك فإنها غالبا ما تحيط الفرد فى محاولاته للربط بين حياته الخاصة وحقائق عالمه الخارجى الأكبر فالإذاعى فنان بحكم طبيعة الوسيلة وحدودها الزمنية ، ذلك أن الإذاعة ، تمثل جزءا من خدمة يومية ، تقتضى تحديد الوقت الذى يستغرق البرنامج ، ومدى قابليته للإخراج فى نطاق زمنى محدد ، كما أن الإذاعى ، مقيد بالاهتمام الإنسانى للجمهور الكبير الذى يتلقى الرسائل الإذاعية . وهكذا نجد أن ظروف المرسل والمستقبل جميعا تجعل التبسيط أهم سمات الفن الإذاعى ، نظرا لقيود الحيز والزمن ، وطبيعة الوسيلة بالنسبة للمرسل وحدود الفهم والتلقى بالنسبة للمستقبل ، أو المستمع ، وعلى هذا الأساس نجد أن الوسائل الفنية الإذاعية تعرض مواد مبسطة ، يسهل على الجماهير استيعابها وفهمها . كما أنها تتمشى مع قيم المجتمع وعاداته وتقاليده . وينتج عن ذلك أن ما يقدم للناس ليس هو الحقيقة الكاملة ، وإنما هو الحقيقة الواقعية المبسطة . ولابد أن تكون المادة المعروضة متفقة مع الثقافة الشائعة والمعتقدات الدينية والمعايير الأخلاقية لأن الفنان الإذاعى مرتبط بهذه المعايير .

---

(١) ريفرز وآخرون : وسائل الاعلام والمجتمع الحديث .

ولئن كانت الصحافة قد دفعت باللغة المشتركة خطوات واسعة إلى الأمام على النحو المتقدم فإن الإذاعة وهى صحافة مسموعة ستكون عظيمة الأثر فى زيادة الثروة اللغوية بين عامة الشعب وفى توحيد نطاق المفردات وفى التقريب بين اللهجات . وليس من المستبعد أن تنجح فى إحلال الفصحى المبسطة محل العامية السائدة ، ومن ثم فإن لغة الإذاعة تتميز عن لغة الصحافة ، فى أن ألفاظ الأولى تصبح رموزا صوتية بالنسبة إلى كاتب أنباء الإذاعة بدلا من أن تتخذ شكل رموز بصرية وعلى ذلك فإن لغة الإذاعة أقل التزاما بالشكليات من الكتابة للصحف ، ذلك أن لغة الإذاعة هى لغة الاتحاد الحقيقى بين لغة الكتابة ولغة الحديث .

على أن الإذاعة لا تقوم على اللهجات المحلية ، وإنما تقوم فى أغلب الأحيان ــ على اللغات الغالبة الواسعة الانتشار وهى بعينها اللغة المشتركة أو اللغة العربية الفصحى .

ومن البديهى أن المذياع ينتشر بسرعة عظيمة جدا ، فهذه أجهزة الإذاعة تتغلغل فى الريف كما تغلغلت فى المدن وسيكون لهذا نتيجته المنطقية المعقولة ، وهى محو هذا الفرق بالتدريج ــ القائم بين الفصحى واللهجات العامية .. وليس من شك فى أن ألسنة العامة ستقومها هذه الإذاعة لأنهم سيعملون على محاكاتها فى نطق الألفاظ .

وتأسيسا على ذلك ، فإن هذه الفنون التحريرية المذاعة والرئيسية ، تقوم جميعا على الرمز المشترك ، سواء كان صورة أو كلمة أو إشارة أو نغمة أو حركة أو غير ذلك . فالرموز فى الإذاعة المرئية والمسموعة ــ شأنها فى ذلك شأن وسائل الإعلام الأخرى ــ هى عمودها الفقرى وبدونها لا يمكن أن تعمل .

والسؤال الذى تواجهه وسائل الإعلام المختلفة ومن بينها الإذاعة والتليفزيون هو : كيف ترسل الرسائل إلى الناس بحيث تنتقل المعانى كاملة دقيقة ؟ أو بمعنى آخر كيف تؤدى الرموز اللغوية وغيرها معانيها المختلفة . بحيث ينتج عنها الاستجابات المطلوبة ؟ إذا كنا فى دراستنا للغة الصحفية ، نذهب إلى الاستعانة بعلم الدلالة (السيمياء) sèmantiqıe لفهم العلاقة بين الرموز والمعانى ، والقيم الدلالية للرموز ، وقدرتها على الإبانة أو التمويه والغموض . فإن هذا العلم نفسه من

أهم العلوم التى تساعد اللغة المذاعة على تحديد خصائص تيسر لها استجابة لدى جمهور المستقبلين . على أن اللغة المذاعة تقتضى أن تدرس كذلك فى ضوء علم الصوتيات phonètique أو النطقيات ، بالبحث فى الأصوات ذات — الوظيفة الدلالية كالسين والصاد فى مثل سبر وصبر .

الفصل الثامن

وسائل الإعلام .. والبيان بالإذاعة

البيان بالإذاعة ، من « ذاع » الشيء ، والخبر « يذيع ذيوعا وذيعا وذيوعة » كشيخوخة ، و « ذَيعَانا » محركة : فشا وانتشر و « المِذياع » بالكسر « من لا يكتم السر أو من لا يستطيع كتم خبره والجمع المذاييع ومنه قول على رضى الله عنه فى صفة الأولياء : الأولياء ليسوا بالمذاييع البذر ، وقيل : أراد لا يشيعون الفواحش ، وهو بناء مبالغة ، ويقال : « فلان للأسرار مذياع وللأسباب مضياع » و « أذاع سره وبه أفشاه وأظهره أو نادى به فى الناس » وبه فسر الزجاج قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ أى أظهروه ونادوا به فى الناس ، وأنشد :

أذاع به فى الناس حتى كأنه ... بعلياء نار أوقدت بثقوب

هذا ما نجده فى « تاج العروس » وغيره من المعاجم اللغوية ، على النحو الذى يشير إلى « الذيوع » و « الانتشار » و « الإفشاء » والمناداة بالخبر فى الناس .

ولعل فى هذه الدلالة على فن حديث الوجود اقترابا من الدلالة الحديثة للإذاعة ، حيث يقصد بها إرسال برامج الإذاعة والتلفزيون بقصد استقبالهما بواسطة جمهور عام متميز بذلك عن الرسائل اللاسلكية المعينة الموجهة لمحطات خاصة تستقبلها . وفى دائرة المعارف البريطانية (ط ١٩٦٥ م ٤ — ص ٢٤٥) نجد وصفا للإذاعة بأنها النشر المنظم أو الإذاعة للإمتاع Entertainment والإعلام information والتثقيف وغيرها لاستقبالها فى آن واحد بواسطة جمهور متناثر يتكون من أفراد أو جماعات ، بأجهزة استقبال مناسبة .

وإذا كان الشاعر القديم طرفة قد قال منذ قرون :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّد

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتا ، ولم تضرب له وقت موعد

فإن ذلك يثبت ما قاله « ماكلوهان » حول قدرة الفنون على استباق تطور اجتماعى وتكنولوجى قادم يحدث أحيانا بعد أكثر من جيل . فكأن « طرفة » ينطبق عليه قول « عزرا باوند » عن الفنانين أنهم قرون استشعار « الجنس البشرى » والفن هو رادار ، على حد تعبير « ماكلوهان » أنه نوع من النظام الذى ينذر عن بعد ، يمكننا من أن نكشف ظواهر اجتماعية ونفسية قبل حدوثها فنستطيع بذلك أن نستعد لها . وهذه النظرية ، التى تعتبر الفن نبوءة ، تتعارض مع الفكرة الشعبية السائدة التى تعتبر الفنون مجرد تعبير عن الذات . وإذا كان الفن « نظاما للإنذار المبكر » — كما كانوا يسمون الرادار حين كان لا يزال جديدا فى أثناء الحرب العالمية الثانية . فإن الفن يصبح ذا صلة وثيقة ، ليس فقط بدراسة وسائل الاتصال ، بل ويخلق وسائل للسيطرة عليها » .

وعندما أذاعت محطة ك . د . ك . أ فى مدينة بتسبرج على الأثير نتائج انتخابات الرئاسة فى ذلك العام ١٩٢٠ ، كان ميلاد الإذاعة ، تحقيقا لنبوءة الشاعر الجاهلى ، التى تجعلنا ننظر إلى الفن بوجه عام وإلى الشعر بوجه خاص ، كبيئة رادارية يشكل الإدراك أساسا أكثر منه غذاء ممتازا للقلة المختارة . فكأنما صوت الشاعر الجاهلى هو الحدس نفسه ، بما يخفيه مستقبل الإنسان من ممكنات ، وكأنما أراد هذا الشاب أن يكشف فكرة المصير التى تطرق وجدان الشعوب — كما يقول « اشبنبلر »[1] — فى بداية السلم الحضارى . والإذاعة من ولائدهذا القرن العشرين ، ولكن « البيان باللسان » قديم قدم الإنسان ، وأقدم من طرفة ومن حدسه ، لأنه يتصل بحاجات البشرية وحياة المجتمعات .

فبداية السلم الحضارى — تلك التى يعنيها اشبنبلر — هى التى ترتبط بما نعنيه دائما عند الحديث عن الحضارة السمعية ، وفيها يزكو « البيان باللسان » كما يزكو الإعلام الشفوى ، ويخطو إلى أمام .

على أن الإذاعة — وليدة هذا القرن — جعلت « البيان باللسان » يبعث — الحضارة السمعية من جديد ، حيث تعود الكلمات الإذاعية إلى أصلها كرموز صوتية تنقل حول العالم . والإذاعة « بالراديو » — تعتبر أكثر سهولة — إن لم تكن

---

(١) د. مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ١٧١ .

اكثر سهولة من بين وسائل الاتصال . وقد أدت التنوعات العديدة فى أنواع أجهزة الراديو ، من ترانزيستور يمكن نقله إلى أى مكان ، إلى راديو صغير الحجم يحمل فى الجيب أو اليد ، إلى أن الاستماع إلى البرامج يمكن أن يتم فى المنزل وفى الأماكن العامة ، خلال أوقات الفراغ ، وخلال أوقات العمل ، والسفر ، ويمكن أن يتم انفراديا أو جماعيا وغير ذلك من الأمور التى سهلت الاستماع كثيرا . ونجد أن « الراديو » فى كثير من البلاد النامية هو المصدر الوحيد للمعلومات والإرشادات للسواد الأعظم من سكان هذه البلاد وخاصة الذين لا يقرأون أو يكتبون منهم ، وهم لايزالون نسبة كبيرة من سكان هذه البلاد بل ومن سكان العالم بأسره . ونجد أن « الراديو » فى كثير من هذه الحالات هو المصدر الوحيد للإعلام والتعليم ، وأنه الرابطة الوحيدة لهم بالعالم الخارجى ، وخاصة إذا كانوا يعيشون فى مناطق نائية تبعد لأسباب جغرافية أو مناخية عن أى مركز إدارى أو ثقافى أو تعليمى[١] .

ويؤثر الراديو فى معظم الناس تأثيرا حميما ، أشبه بما يحدث بين شخصين ، تفتح العلاقة بينهما عالما كاملا من الاتصال الضمنى بين المؤلف المذيع والمستمع .. وذلك هو الجانب المباشر للراديو ، كما يقول ماكلوهان : أنه بمثابة تجربة شخصية خاصة . فمن الأعماق نصف الواعية للراديو يبرز صدى الأبواق القبلية وقرع الطبول القديمة . إنه يبعث الحضارة السمعية . و « البيان باللسان » هو السمة الكامنة فى طبيعة الراديو كوسيلة من وسائل الإعلام ، يقول ابن وهب[٢] : « ولشرف البيان ، وفضيلة اللسان ، قال أمير المؤمنين عليه السلام — « المرء فخبوء تحت لسانه ، فاذا تكلم ظهر » . وهذا من أشرف الكلام وأحسنه وأكثره معنى وأخصره ، لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا إذا خاطبته وسمعت منطقه ، ولذلك قال بعضهم وقد سئل : « فى كم تعرف الرجل ؟ » قال : « إن سكت ففى يوم ، وإن نطق ففى ساعة » . وقال بعض الحكماء : إن الله سبحانه أعلى درجة اللسان على سائر الجوارح فأنطقه بتوحيده » وقد تقدم قول الشاعر (من المتقارب) :

وهذا اللسان بريد الفؤا　　　د يدل الرجال على عقله

(١) أجناس فانيفتش : الإذاعة لتعليم الكبار — اتحاد الإذاعات الدول العربية ص ٤٤ .

(٢) البرهان فى وجوه البيان . ص ٦٢ ، ١١١ .

وقال آخر (من الطويل) :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادتـــه أو نقصه فى التكلـــم

فاللسان ترجمان اللب ، وبريد القلب ، والمبين عن الاعتقاد بالصحة والفساد كما قال الشاعر (من الكامل) :

إن الكـلام لفـى الفـؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليـلا

وفيه الجمال كما قال الله عز وجل : ـ ﴿ ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ (محمد / ٣٠) وكما قال النبى ﷺ . وقد سأله العباس فقال : « فيم الجمال يارسول الله ؟ » فقال : « فى اللسان » .

وفى تقديرنا أن القوة الكامنة فى الراديو إنما تتمثل فى بعث البيان باللسان أو بالقول وهو البيان الذى قطع فى حضارتنا العربية شوطاً كبيرا ، فاذا كان الراديو ـ كما يقول ماكلوهان . يحيط نفسه بحجاب يمنع رؤيته ، شأنه شأن أى وسيلة اتصال أخرى ، فان البيان باللسان[1] « منه ظاهر ومنه باطن . وإن الظاهر منه غير محتاج الى تفسيره وإن ـ الباطن هو المحتاج إلى التفسير ، وهو الذى يتوصل إليه بالقياس والنظر ، والاستدلال والخبر » . ويشرح ابن وهب[2] ذلك فيقول :

« إن الذى يوصل إلى معرفته من باطن القول بالتمييز والقياس مثل قول الله ـ عز وجل : ـ ﴿ اعملوا ماشئتم ، انه بما تعملون بصير ﴾ (فصلت / ٤٠) . وهو لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا ، ولم يخلهم من الأمر والنهى . ومثله قول الله عز وجل : ﴿ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف / ٢٩) . فلم يطلق لهم الكفر ، ولم يبحهم إياه فهذا وإن كان ظاهره التفويض إليهم فان باطنه التهديد والوعيد لهم . ويدل على ذلك قوله بعقب هذا : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرتفقا ﴾ (الكهف / ٢٩) .

« وللغة العربية التى نزل بها القرآن ، وجاء بها عن رسول الله ـ ﷺ ـ البيان وجوه وأقسام ومعان وأحكام ، متى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها ،

(١ ، ٢) البرهان فى وجوه البيان ، مرجع سبق ص ٦٢ ، ١١١

واستنباط مايدل عليه لفظها لم يبلغ مراده ، ولم يصل إلى بغيته . ومنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم ، ومنها ماهو خاص له دون غيره ويجمع ذلك فى الأصل : الخبر والطلب » .

وبهذا البيان يعتبر الراديو امتداداً لجهازنا العصبى المركزى ، وكما يقول ماكلوهان ، إن تزاوج هذه الوسيلة الجماهيرية ـــ الراديو ـــ والبيان باللسان ، قد أدى إلى توليد أشكال جديدة من الخبرات الإنسانية : « فنحن إذا جلسنا نتحدث فى غرفة مظلمة ، فإن الكلمات سوف تكتسب فجأة معانى ومدلولات جديدة .. إذ تصبح الكلمات أكثر ثراء ، بل أكثر ثراء من العمارة ، التى قال عنها « لوكوربيزية » بحق أن أفضل سبيل للإحساس بها هو رؤيتها ليلا .. إذ تعود مع الظلام والراديو كل الخصائص الإيحائية التى سلبتها الصفحة المطبوعة من اللغة المنطوقة » والتى تميز بها البيان العربى باللسان ، حين يستعمل الاشتقاق ، والتشبيه ، واللحن ، والرمز ، والوحى ، والاستعارة ، والأمثال ، واللغز ، والحذف ، والمبالغة ، والقطع ، والعطف ، والتقديم والتأخير والاختراع ، وهى من الاستعمالات التى تحدث عنها ابن وهب تحت البيان باللسان وتتميز فى مجموعها بما يتميز به البيان الإذاعى ، من استغلال لمخيلة جمهوره ، فالبيان ـــ الإذاعى ، كالبيان الصحفى ، لايحتاج إلى إقامة مناظر . بينما تعوق السينما عدم قدرتها على التخلص من فكرة المنظر ..

و « للرواية » فى « الراديو » ، كما فى الكلمة المطبوعة ، حرية التحدث من داخل زمان ومكان معينين أو من غير زمان أو مكان . وفى « الراديو » والصحيفة ، نجد الراوية شخصيته مقبولة لا اعتراض عليها ، فالمذيعون يروون : نتائج المعركة الانتخابية ، إصابات المباراة نتائجها ، أخبار الساعة ، اسم المعزوفة الموسيقية[1] . ويتميز البيان بالإذاعةعن البيان بالصحافة بعنصر الصوت والموسيقى . فهذا عنصر مس النزعات الخفية فى النفس وإطلاق عملية التعرف وأخذ الناس إلى أماكن سحرية نائية ، على حد تعبير « بارنر »[2] .

فالبيان بالإذاعة كالبيان باللسان هو الوسيلة الوحيدة التى لا تأسر العين ، ولذلك فهو وسيلة الاتصال الجماهيرى الوحيدة التى يمكن أن تخدم جمهورا نشيطا :

(١ ، ٢) اريك بارنو الاتصال بالجماهير مرجع سبق ص ٢٤٠

أثناء نهوضه من النوم ، واستحمامه ، وتناوله الطعام ، وقيامه بالعمل المنزلى وتعامله مع آخرين ونزهاته الخلوية .. إلخ ..[١] .

أصبح « الراديو » — كما يقول — بارنو — بعد ظهور التلفزيون — رمزا لإصرار وسيلة اتصال على التنافس من أجل الاحتفاظ بأى قطاع متبق من اهتمام الجماهير . أصبح دور — الراديو هو دور الرفيق الدائم . ودعم من هذا الدور ظهور الأجهزة الجديدة خفيفة الوزن . ولكنها تطلبت وضع برامج مختلفة . فالتمثيليات التى تستغرق ساعة لاتصلح لمستمع فى طريقه الى المطار بسيارته . والمؤثرات الإخراجية المعقدة لامجال لها مع مكنة الحلاقة الكهربائية ، أصبحت البساطة هى القانون السائد . وكذلك الاقتصاد . مازالت الملايين من الناس تستمع إلى الراديو . ولكن عدد من يستمعون إلى الراديو معا فى وقت واحد أصبح أقل من ذى قبل .[٢]

وهكذا يقوم « الراديو » على البيان باللسان من خلال : مقدمى الأغانى ، والمعلقين ، وقارئ الأخبار ، ومذيعى الرياضة ، ومديرى المحادثات مع الشخصيات الهامة ، والمحاضرين والمحدثين . كما اتجهت التمثيليات إلى الإفادة من خصائص هذا البيان من حيث القِصَر والبساطة ، ولكن البيان باللسان لم يعد يعمل وحده فى الإذاعة حيث أصبح يتضافر مع المؤثرات الصوتية والموسيقى . ذلك أن البيان الإذاعى فى الراديو يصل إلى الجمهور بطريقة مختلفة — غالبا — عن الطريق التى تصله بها الوسائل الأخرى ، فالراديو يقدم للمستمع درجة من المشاركة فى الأحداث الفعلية المذاعة وذلك بحكم كونه أكثر اقترابا من الاتصال الشخصى أو البيان باللسان ، ويتميز « الراديو » بقدرات عالية فى الإقناع والتأثير لأنه عادة مايكون الوسيلة الأولى فى تقديم المواد للجمهور إلا أنه ليس هناك من البحوث مايدعم هذا الحديث عن الراديو أو يرفضه[٣] .

كما يستطيع « الراديو » أن يصل إلى جماعات خاصة مثل الأفراد الكبار فى السن والأطفال والأقل تعليما والمتعلمين ، وغيرهم من الجماعات المختلفة التى قد

---

(١) أريك بارنو : الاتصال بالجماهير : مرجع سبق ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٢ .

(3) D.M. White (Mass communications, Research : A View in perspective) in Dexter and white, pp. 521-546.

يصعب علينا الوصول إليهم بوسائل الإعلام الأخرى . ولايحتاج الراديو إلى مجهود من المستمعين فالكثيرون من الناس ــ مشغولون وليس لديهم وقت للقراءة أو المشاهدة ، « والراديو » هو الوسيلة الوحيدة السهلة التى تبقيهم على علم بما حدث . والرسالة المذاعة قد تكون أكثر فعالية من الرسالة الشفوية لأنه يمكن تقويتها بواسطة الموسيقى والتأثيرات الخاصة التى تجعل الانطباع الذى تتركه قويا وقد أظهرت التجارب أن المواد البسيطة السهلة التى تقدم بواسطة الراديو يسهل تذكرها من نفس المواد إذا قدمت مطبوعة ، خاصة بين الأقل تعليما والأقل ثقافة . كذلك يؤمن بعض الكتاب بأن الراديو من الوسائل القادرة على جعل الجماهير تحس بالمشاركة والتعرض الشخصى والواقعية التى تقترب من اتصال الوجه للوجه . وربما كان الراديو من أسهل الوسائل الإعلامية استخداما . ولكنه من الوسائل التى يعرض الإنسان نفسه عليها بلا اهتمام أو بلا تركيز وتعمل أساس كمصدر يوفر له خلفية ترفيهية أكثر مما يعمل كهدف للاهتمام المركز(١) .

ولعل هذا الفهم « للراديو » ، هو الذى حدا ببعض المفكرين إلى اعتبار الراديو والوسائل ــ الآلية من معوقات الثقافة ، فيذهب طه حسين(٢) فى عام ١٩٦١ (أى بعد صدور مستقبل الثقافة فى مصر بثلاثة وعشرين عاما) إلى أنه كان « يظن أن اختراع « الراديو » سيكون أداة صالحة لنشر الثقافة والمعرفة فى أعماق الشعوب . وإذا هو يؤدى إلى عكس ماكان يظن به ويرجى منه . ذلك لأن الإذاعة تريد أن تبلغ طبقات الشعب على اختلاف حظوظها من المعرفة وهى من أجل ذلك مضطرة إلى أن تصطنع اليسر والسهولة لتبلغ هذه الطبقات المختلفة التى تتفاوت حظوظها من المعرفة . وإذا اعتمدت الإذاعة على السهولة واليسر اضطرت إلى تجنب المعرفة الرفيعة والثقافة العميقة والواسعة ..

« ثم لم يكف هذا ولكن الإذاعة أصبحت فتنة للناس يألفونها ويكلفون بها ويقبلون عليها تمعن هى فى إيثار اليسر والسهولة . ولايقف الأمر عند هذا الحد ولكن إقبال الناس على الإذاعة يصرفهم عن القراءة ويستغرق أوقات فراغهم وليس من شك

---

(1) p. Lazarsfeld, Radio and the printed page (N. Y. :Dull sloan and pearce, 1940), Lazarsfed; The peoples choice, Mc phee, New strategies for research in Mass Media .

(٢) الدكتور طه حسين : « أزمة الثقافة ، جريدة الجمهورية فى ١٦ ديسمبر ١٩٦١ . »

فى أن القراءة أصعب وأشد عناء من الاستماع فى غير مشقة إلى مايلقى إليك من الأحاديث السهلة ومن الموسيقى والغناء . وكان يظن أن ابتكار الراديو سيكون عظيم الأثر فى نشر العلم والمعرفة والثقافة وسيكون إذن أداة لتحقيق الديمقراطية الصحيحة وإذا النتيجة عكس ماكان يظن وماكان يرجى . وقد شعر كثير من أعلام الثقافة فى البلاد الأجنبية بهذا الخطر العظيم على الثقافة . وكتبوا فى ذلك غير كتاب وشكوا من ذلك فى غير مقال من مقالاتهم فى الصحف ولكن كتبهم ومقالاتهم لم تجد شيئا ، فقد أصبحت الإذاعة ضرورة من ضرورات الحياة الحديثة لايستطيع شعب أن يستغنى عنها . ومعنى ذلك أن انتشار الإذاعة معناه قلة القراءة وقلة القراءة معناها ضيق الثقافة وقل مثل ذلك بالقياس إلى التليفزيون ، وقل مثله بالقياس إلى السينما . كل هذه أدوات كان يظن أنها ستسرع إلى الرق فاذا هى تسرع بالثقافة إلى الضيق وتجعل القراءة شيئا مبغضا إلى كثير من الناس »[١] .

ومن ذلك يتضح أن طه حسين ينظر إلى الأجهزة الآلية ، وإلى الصحافة كذلك من حيث إسهامها فيما يسميه « أزمة الثقافة ، التى رآها » عنيفة مستحكمة وليس بد للقائمين على تعليم الشعب وتثقيفه وإعداده لتحمل أعباء الحياة الوطنية أولا وأعباء الحياة الإنسانية بعد ذلك . ليس لهم بد من أن يفكروا فى هذه الأزمة ويلتمسوا وسائل الخروج منها ليستطيعوا تهيئة الأجيال الناشئة لما ينبغى أن ينهضوا به من أثقال الحياة . فليست الحياة لهوا ولا عبثا ولا إيثارا للسهولة واليسر وإنما هى جهاد ومشقة ونهوض بالأعباء الثقال »[٢] .

ويقرر طه حسين أنه لايقول « بإلغاء الإذاعة ولا بإلغاء التلفزيون ولا بإلغاء الصحف الجادة والهازلة » ولكنه يقول « بأن من الواجب إصلاح هذه الأدوات الديمقراطية بحيث تصبح وسائل للنفع والتلقى والقوة العقلية والخلقية لا للضعف والانهيار »[٣] .

ومن ذلك يتضح أن مشكلة الثقافة ، التى تثيرها أجهزة الاتصال بالجماهير والراديو بخاصة ، يمكن أن تتحدد فى السؤال التالى :

ـــ هل نستطيع أن نؤسس ثقافة قوية خصبة على الصور والأدوات الشفوية ؟

(١ ، ٢ ، ٣) المرجع السابق .

هذا سؤال ألقاه عدة مرات « جورج ديهاميل » على مثقفى العالم كله ، ولقد أسهمت البحوث والدراسات فى محاولة الإجابة على هذا السؤال ، بل إن الكثيرين من الباحثين والدارسين دفعهم القلق فى مواجهة هذه الوسائل الجماهيرية وقدرتها ، كما لو كانوا يواجهون التقدم الذرى ، على حد تعبير بعض الدارسين[١] . ويذهب شرام[٢] إلى أن وسائل الاتصال بالجماهير تمثل المضاعفات الكبرى ، فكما استطاعت الآلة فى الثورة الصناعية أن تضاعف القوة البشرية مع أنواع الطاقات الأخرى ، كذلك تستطيع أجهزة الاتصال الآلية فى ثورة الاتصال أن تضاعف الرسائل الإنسانية إلى درجة لم يسمع عنها من قبل . ويدلل شرام على أن وجود وسائل الاتصال الجماهيرية يحدث فارقا له دلالته فى مستوى الإعلام حتى بين أولئك الذين لايستطيعون قراءة الكلمة المكتوبة والذين لايتيسر لهم الوسائل الإلكترونية . ويذهب شرام فيما يتعلق بالتنمية الوطنية إلى أن الاتصال الجماهيرى ينبغى أن يكون ميسرا وأن يكون على درجة عالية النمو وأن يحسن القائمون عليه فهمه واستخدامه ما أمكن ، وذلك فى وقت يحاول فيه كثير من البلدان الجديدة إيصال الكثير وبسرعة كبيرة إلى أعداد كبيرة من الناس[٣] .

ويفترض لازارسفيلد[٤] أن قدرة « الراديو » لايمكن أن تقارن إلا بقدرة القنبلة الذرية .. ذلك أنه ينظر إلى هذه الوسيلة الجماهيرية من حيث ماتنطوى عليه من سلاح ذى حدين الخير والشر ، فيذهب إلى أنه فى غياب الرقابة الكاملة ، يحتمل أن يبرز الحد الشرير لهذا السلاح أكثر مما يحتمل استخدام حده الخيّر .

إن هذه القدرة لوسائل الاتصال الجماهيرى ، والتى تقارن بقوة الذرة ، تقودنا إلى الاعتقاد فى قدرتها السحرية وإمكانياتها الهائلة . على أن هناك أساسا آخر أكثر واقعية من هذا الاعتقاد بدون شك ، فيما يتعلق بالقلق المتزايد حول الدور الاجتماعى لوسائل الاتصال بالجماهير . وهذا الأساس ليس غريبا بالقياس إلى تغيير أساليب

---

(1) Jeam Tardieu, Grandeurs et faidlesses dela radio, Paris, 1964

(٢) ولبور شرام (ترجمة محمد فتحى) : أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية ص ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(4) Paul F. Lazarsfeld and Robert K. Merton, Mass Communication popular taste andorganized Socialaction) : Lumen Bryson (ed.) The Communication of ideas, New york and Londers , Harper, 1948.

مراقبة القوة التى تسيطر عليها الجماعات القوية ذات المصالح فى المجتمع . والتى تقوم بأعمال منظمة من خلال مكانتها المتفرقة ، ذلك أن هذه الجماعات تتبنى فنون الدعاية فى التأثير فى الجماهير وتحريكها فى الاتجاه الذى تريد ، أكثر من استخدام الفنون الإعلامية المباشرة . ولعل هذه الصورة فى المجتمعات المتقدمة أكثر بروزا ، وهى التى تثير قلق الباحثين والمثقفين الغربيين ، على النحو الذى يجعلهم يربطون بين القدرة الاقتصادية للجماعات المسيطرة و « الاستغلال النفسى » الذى تسعى إليه الدعاية من خلال تجنيد وسائل الاتصال بالجماهير[١] .

ويلاحظ « مالينوفسكى » أن فى جزر تروبر ياند لم يكن يتخذ أى إجراء اجتماعى منظم فيما يتعلق بالانحراف السلوكى عن وضع اجتماعى إلا إذا سبق ذلك إعلان عام عن الانحراف . يجرى شيء من هذا القبيل فى الحضارات المتقدمة أيضا . فكثير من الأوضاع الاجتماعية عبء على الأفراد أو كفايتهم لذلك يسمح بقدر من الحلم عند تطبيق القواعد . ولدى الكثيرين علم خاص عن الانحرافات . وطالما بقى هذا العلم خاصا لايتخذ إجراء لمعاقبة الانحراف . ولكن متى ما كشف عنه بصفة علنية فلا بد للناس من أن يتخذوا موقفا عاما مع الأوضاع أو عليها ، وتتصرف الجماعة عادة للتخلص من المخالفة .

وكما يقول « لازارسفيلد » « ومرتون » « الإعلان يضيق الفجوة بين الاتجاهات الخاصة والخلق العام » .

ويذهب شرام[٢] إلى أن وظيفة الإعلانات العامة فى المجتمع العصرى تتكفل بها فى الأغلب أجهزة الإعلام . مهمتها أن تشهر بالانحرافات الخطيرة وإذا لم تكن القواعد معروفة للجميع — وهذا أمر بعيد الاحتمال فى المجتمع النامى — فجزء من مهمة الأجهزة أن تعلن عن القواعد .

وهكذا يكون من الممكن عن طريق الأجهزة أن تنشىء فى أذهان الناس قواعد لسلوك التنمية وأن تقف للانحرافات بالمرصاد . ويمكن أن يقال أن هذا الوجه الآخر لعملة منح المكانة . فكما تنعم بعض الدول النامية بالمكانة على أحسن فلاحيها

---

(1) Jeam Tardicu, op. cit p 175.

(٢) شرام : مرجع سبق ص ١٨٢ .

وعمالها ، كذلك لا تنسى عن التشهير بالتكاسل وعدم الكفاية والفساد ، ومتى أعلن عن هذه الانحرافات يمكن إذ ذاك عقابها اجتماعيا كما يحذر الأفراد من مغبة هذا السلوك[١] .

وإذا كان بعض الباحثين[٢] يحذر من تأثير هذه الوسائل الجماهيرية ، وفى مقدمتها الراديو ، على تربية الذوق ، فإن البعض الآخر[٣] يذهب إلى أن هذه الوسائل تستطيع أن تعاون على تربية الذوق . فالناس يتعلمون ضمن حدود أن يحبوا مايسمعون ويرون . يصدق هذا بصفة خاصة فى مجال الموسيقى والفن . وفى بعض الدول العالية التقدم يتوقف نجاح الأغانى والرقص الشعبى لدرجة كبيرة على تقديم وسائل الاتصال الجماهيرية لها وجعلها مألوفة لدى الناس . والتاريخ ملىء بالأمثلة المتكررة على مؤلفات موسيقية جديدة ولوحات فنية جديدة لم تلق نجاحا لأنها لم تذع الذيوع الكافى ولم تؤلف برغم أنها أصبحت فيما بعد من الكلاسيكيات العظمى . وقوة وسائل الاتصال التى تختص بها هى أنها تعجل بعملية الذيوع وجعل الشىء مألوفا ، وهكذا تؤثر فى تربية الذوق .

واستند المبالغون إلى اتجاهات ظهرت فى واقع الحياة اليومية ، منها أن تسجيل الصوت أخذ يحل على الأيام ، محل الكتابة . وبرزت الأوامر الصوتية والرسائل الصوتية والرموز الصوتية أيضا . وقيل إن هذه التسجيلات الصوتية كانت فى بعض المحاكم الأجنبية مستندات ، لها نفس القيمة التى للمستندات الخطية . ولقد رأينا دور هذه المستندات الصوتية فى قضية « ووترجيت » . وأعان على تقوية هذه البلاغة الجديدة ، حتى فى الحياة اليومية ، التقدم الباهر فى أجهزة التسجيل الصوتى ، وتطويعها لحاجات الناس ، على اختلاف البيئات والظروف . وأصبح من المألوف أن يحصل المرء على مختارات من الشعر ، بصوت الشعراء ، الذين أبدعوها تماما كما يحصل على مثل تلك المنتخبات مطبوعة فى كتاب . والمهم فى هذه الظاهرة :

أولا : — أن الصوت البشرى له من التأثير ماليس للرموز المسجلة له ، أيا كانت قوة الرمز وأيا كانت قدرة القارىء على تمثيل الصوت .

---

(١) شرام : نفس المرجع ص ١٨٢ .

(2) Jeam Tardieu: op. cit. p 176 .

(٣) شرام : نفس المرجع ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ثانيا : ــ أن صوت الشاعر نفسه يحكى الخلجات النفسية ، وظلال المعانى ، التى لا تبديها القراءة ، ومن هنا ظهرت شخصية الشاعر ، ببصماتها الواضحة ، وبتأثيرها المباشر على المتذوقين لشعره[١] .

وأسلمت تلك الجهود إلى خطوة فسيحة فى تسجيل الثقافة بصفة عامة ، والفن الأدبى بصفة خاصة ، وهذه الخطوة هى صدور الكتاب الناطق . ولقد كان هذا الكتاب فى أول أمره ، مجموعة من الأقراص ، سجلت عليها المعارف أو النصوص الأدبية بحيث يستطيع المرء أن يستمع إليها على جهاز خاص . واعترفت المكتبات العامة والخاصة بخطر هذا الكتاب الناطق ، وتفننت فى اختيار مادته ، وفى تزيينه بزخارف صوتيه ، تمهد لموضوعه ، كما استغلت المؤثرات الصوتية فى خلق الجو المناسب للموضوع . وكما أن الكتب تستخدم أحيانا الصور التوضيحية ، لأنها تفيد من المنظور ، إلى جانب تمثل اللغة المدونة تمثلا صوتيا ، فإن المنهج نفسه يستخدم فى الكتاب الناطق ، وذلك بوضع صور صوتيه توضيحية وهى صورة قد تحكى ما يقرن بها من منظور ، كحفيف الشجر فى دلالته على الأجمة ، وهدير الموج فى تصويره للبحر ، وكأصوات بعض الطيور فى حكاية البيئة التى التصقت بها فى مخيلة الإنسان . ونحن نجد بعض المكتبات العامة تعمد إلى توسيع رقعة الإفادة من الكتاب الناطق ، وذلك بالتصريح بإعارته ، بل وبإعارة الأجهزة التى تساعد على إرسال الصوت[٢] .

(١ ــ ٢) د. عبد الحميد يونس « اللغة الفنية » مجلة عالم الفكر ــ الكويت ع١ .

الفصل التاسع
الإعلام الإذاعى والبلاغة الجديدة

كان للإعلام الإذاعى أثره الحاسم فى عالم الفنون ، وفى تغيير مناهج البلاغة والتقويم ، وأصبح كالإعلام السينمائى يعتمد على أساليب خاصة فى التحرير الإعلامى ، مع فارق واضح بين الإذاعة المسموعة والصورة المتحركة الناطقة ، من ناحية الجماهير التى تفيد من البلاغة الجديدة ، ذلك لأن السينما تشبه المسرح ، من حيث أن الجمهور يحتشد فى صعيد واحد لتلقى الفن والتفاعل معه ، أى أن العقلية الجماعية تتغلب إلى حد ما على العقلية الفردية ويقتضى ذلك توقيتا محكما للعروض كما يقتضى إطارا معينا وسياقا زمنيا ، لا ينبغى تجاوزه إلا بالحد المعقول . أما الإذاعة فالمستمعون إليها فرادى ، ولو اجتمعوا ، ففى أماكن اختاروها ولم تفرض عليهم ، ومعنى هذه الحقيقة أن الفرد تغلب عليه عقليته ، ولا يذوب تماما فى العقلية الجماعية لجمهور المشاهدين ، ولذلك يتسم الحديث الإذاعى بأنه موجه إلى أفراد .. أنه يختلف عن الخطبة ، ويختلف عن الحوار فى المسرحية أو الفيلم ، مع الاعتراف بمقتضيات التحول من بلاغة ، لها قواعدها وأصولها ، إلى أخرى لها شخصيات أخرى ، ففى هذه المراحل نجد أن الإذاعة تنقل مناهج المسرح والسينما فى الأحاديث المباشرة والحوار ولا تتخلص من منصة الخطيب والمعلم ، بيد أنها تفيد من تجاربها ، مثلها فى ذلك مثل أوعية الثقافة الأخرى ، وتتخلص من أسلوب الأوعية التى سبقتها ، ولا تزال تعاصرها ، وتنشىء بلاغة خاصة بها ، تلتزم أصولا وقواعد ، أثمرتها طاقة هذا الوعاء ، وطبيعة اللغة الإنسانية إلى جانب الرموز والمؤثرات والزخارف الصوتية الأخرى[١] .

ومن البديهى أن تزدهر الفنون الزمنية كلها ، بفضل هذا الوسيط الجديد ، فتعود الأغنية والموسيقى إلى مجدهما القديم ، وتستغل فنون العرض والتمثيل والإذاعة استغلالا كاملا . ولقد وجد أنها من أصلح الأوعية لنشر المسرحيات ، على نطاق أوسع من حدود دور التمثيل ، وكل ما احتاجت إليه بلاغتها الجديدة هو الاستعانة

(١) د. عبد الحميد يونس : اللغة الفنية ص ٦٢ .

براوية فى المواقف الغامضة والتنبيه إلى الحركة والنقلة . ولم يكتف القوامون على الإذاعة من تجاربهم ، ولكنهم طلبوا الاتقان بمراجعة مايقدمون للمستمعين ، وتم لهم ذلك بفضل استغلال أجهزة التسجيل الصوتى ، التى أتاحت لهم المراجعة والتنقيح مثل العرض ، ولكن الإذاعة تعرضت لما تعرضت له الأوعية الثقافية ذوات الإنتاج الكبير لتعدد المحطات ، وطول الساعات ، والتنوع الواجب فى البرامج ، والتجديد المستمر فى المادة المذاعة ، كل أولئك جعل البرامج تميل فى معظم أنحاء العالم إلى الكم أكثر مما تميل إلى الكيف ، وتترخص فى الارتجال فى بعض الأحيان[١] .

ولعل فى هذا التقدم الذى حققته الإذاعة اللاسلكية ، والوعى المصاحب لهذا التقدم ما يجعل منها وعاء ثقافيا لايغنى عن الكتاب المطبوع كوعاء ثقافى ، وإنما يعضده ويؤازره فى تقديم الثقافة إلى الجماهير ، فإذا كانت القراءة تعنى الاختيار كما ذهب إلى ذلك « ديهاميل » ، فإن التقدم والتنوع فى محطات الإذاعة ، ونشر برامجها مقدما لا يهدر هذه الملكة ولا يحتقرها ، بحيث يمكن القول أن نظام الثقافة المعاصر لا يستحيل فيه التفكير والاختيار كما ذهب إلى ذلك « ديهاميل » وغيره ، من الذين رأوا فى الراديو تعويضا لما كان يسمى « ثقافة »[٢] .

بل إن أندريه روسو André Rousseaux يحدث ديهاميل[٣] بأن قراءة المؤلفين الممتازين فى الراديو ـــ وهم الآن يقرأون بعضا منهم ـــ قد تدفع الجمهور إلى معاشرة الكتب ، إلى أن هذا الوعاء من أقوى أوعية الثقافة والفن ، لأنه يوزع الصوت على الناس فى بيئة متسعة ، ويطوى المكان ، وكما أن الراديو قد استغل التسجيل فى خلق الجو الصالح للمراجعة والتنقيح ، فإن المثقفين الذين عاشوا بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ يحق لهم أن يخففوا من درجة تشاؤمهم بالنسبة لهذا الوعاء الثقافى ، وأن تكن نظرتهم المدققة المستمرة هى التى وجهت الراديو إلى توظيف إمكاناته فى أداء الوظيفة الثقافية ، وبخاصة فى عصور القلق فمهدت كتاباتهم لوضوح الطريق ولعجلة القيادة و « الفرامل » على حد تعبير ديهاميل[٤] الذى عنى كثيرا بالتأكيد على إحكام قيادة الراديو « وأكبر خدمة يمكننا أن نقدمها له ولعشاقه هى أن نقوم بنقد أعماله وتصرفاته فى يقظة » .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٣ .

(٢ ، ٣ ، ٤) جورج ديهاميل : الدفاع عن الأدب ، ص ٦١ .

وسجل المفكرون لهذا الوسيط الجديد ، أنه يعين على ديمقراطية التثقيف ، لأنه يتيح للأفراد والجماعات فى كل مكان أن تفيد من المعرفة وأن تتذوق الفن ، وأنه أقوى من الطباعة فى تأصيل هذه الديمقراطية الثقافية . ومن هؤلاء المفكرين أفراد حاولوا التبشير ببلاغة جديدة وكان على رأس هؤلاء « برناردشو » ، وبخاصة عندما عين مقرراً لمجلس الإذاعة البريطانية . وضم هذا المجلس علماء فى الصوتيات والنفس والتربية إلى جانب الفنون والمتخصصين فى الإذاعة . ويذكر الجيل الماضى المناظرات والدراسات والتعليقات الكثيرة على هذا الوسيط الثقافى . وبرزت تساؤلات لها قيمتها : منها البحث عن طبيعة الجماهير ، التى تتلقى الإذاعة ، وعن الوحدات والأنماط التى تتألف منها ، وحرص بعض المعنيين بالفكر والفن على الإشارة إلى البرامج الثقافية[١] ، وبرامج الأطفال والمرأة وكيف السبيل إلى أن يسهم الأطفال أنفسهم فى البرامج الخاصة بهم . واستخدمت الإذاعة منهج العمل الميدانى وقياس الرأى العام فى تفهم حاجات الجماهير ، وحاولت — ولا تزال تحاول — أن تصل مابين الإنتاج من ناحية وبين التلقى من ناحية أخرى . وهذا ما سارت عليه أوعية الثقافة على اختلافها ، فقد تفننت فى وضع الأسئلة ، التى تكشف عن رغبة المستفيدين من هذه الوسائل على تباعد ديارهم ، وتباين مهنتهم ، بل واختلاف لغتهم ، وتقوم بعد ذلك بتحديد الإجابات لكى تفيد من النتائج ، فى وضع البرامج ، وتنمية لغتها ، وتلبية ما يطلبه أولئك وهؤلاء ، من مضمون إعلامى وثقافى .

ونتيجة لذلك تميزت لغة الإذاعة بالوضوح والاقتصاد والسلاسة ، حتى يمكن أن تصل إلى الجمهور الغفير من المستمعين فى وضوح يساعد على الفهم والمشاركة فى تتبع المضمون ومن جهة أخرى كان على هذه اللغة المذاعة أن تراعى أن من أصول الإلقاء الإذاعى ، تقدير القيمة الصوتية للألفاظ والتدقيق فى استخدامها ، وفى معرفة وقعها الحقيقى على الأذن . وفى ذلك كله ، ما يتجه بهذه اللغة المذاعة إلى الاقتصاد فى عدد الألفاظ ، والاقتصار على القدر المطلوب لتحقيق الفهم والمشاركة .

فالإذاعة إذن بعث للبيان باللسان الذى يقوم على مشاركة الجمهور ، وإحساسه بالاقتراب الشخصى ، وبالواقعية التى تدنو كثيرا من الاتصال الشخصى

---

(١) الدكتور عبد الحميد يونس : مرجع سبق ص ٦٢ .

المواجهى ، فضلا عن أن الإذاعة تصل إلى جماهير عريضة للغاية من الكبار والصغار ، والمثقفين وقليلى الحظ من الثقافة والمتعلمين والأميين ، ويعلل « دوب » Doop سر القوة الإيحائية للإذاعة بأنها وسيلة سريعة للنشر ، فهى تتفوق بذلك على الصحافة ومعظم وسائل النشر الأخرى . وبذلك تنفرد الإذاعة بالسبق وأولوية النشر . والأثر الأول للخبر أو الرأى لا يمحى بسهولة ، كما تصعب معارضته[1] وهكذا يصبح المدلول العربى للفظ الإذاعة « broadcast » دالاً على خصائص الفن الإذاعى فى النشر وإذاعة الأخبار والبرامج والأغانى والتمثيليات والموسيقى .. إلخ .

على أننا يجب أن نفرق بين « الإذاعة » و « الفن الإذاعى » فالإذاعة هى النشر عن طريق الاتصال اللاسلكى بصرف النظر عن استخدام الفن الإذاعى ، ذلك أن الإذاعة تقوم على الإرسال ونقل الصوت عبر الموجات اللاسلكية (متوسطة الطول أو القصيرة أو متناهية القصر والتى تسمى بالموجات الميكرو أو السنتميترية) . أى أن الإذاعة وسيلة نتوسل بها فى الإرسال للمادة الإذاعية التى تتميز بخصائص فنية هى خصائص الفن الإذاعى يستغلها جمهور من المستمعين عن طريق أجهزة الاستقبال المختلفة ، فالفن الإذاعى يوظف التطور التكنولوجى فى الإرسال والاستقبال ، ولقد اقتضى التوسع فى حجم الاستوديوهات مع تشغيل مجموعات كبيرة أن يعاد تصميم الميكروفون مثلا ، بحيث يواجه الاحتياجات المترتبة على هذا الوضع . بل لقد ظهر ما يعرف بالميكروفون الغائب ليعاون الفن الإذاعى فى تحقيق خاصية من أهم خواصه ، وتعنى الحيوية التى يتميز بها هذا الفن ، إذا أنه ظهر من الدراسات أن الندوات الحية وخاصة إذا كان المدعوون من غير المتآلفين مع الميكروفون ــ تفقد الكثير من مقومات الحيوية لمجرد الإحساس بوجود الميكروفون .

لغة الإذاعة وخصائصها :

ومهما يكن من أمر زعم « ورف » أننا أسرى اللفظ ، فأن موقفه كعالم سوفيتى يؤمن بالمادية الديالكتيكية التى تقول بأن العالم يسبق الإدراك والأشياء تسبق الأسماء المخصصة لها ــ لا يمكن أن نقبله على علاته رغم صحته من بعض

---

(١) دكتور إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ص ١٧٧ .

جوانبه[١] . فهل صحيح أننا حين نكتسب لغة الأم نكتسب معها فى نفس الوقت بطريقة غير واعية أسلوبا نوعيا ومتميزاً للتفكير كما نكتسب .. « ميتافيزيقا » باطنية خافية ؟ وبمعنى آخر هل تؤثر اللغة على التفكير ؟ لاشك أنها تؤثر ولكن لاعلى الجوهربل على أساليب التفكير . فجوهر الفكر أنه انعكاس للواقع الموضوعى ... وهدف اللغة هو التواصل أى نقل المعلومات عن الواقع ، من خلال الرسائل . وبغض النظر عن التسهيلات الفنية التى يترتب عليها تنوع أساليب التفكير فإن كل لغة قادرة على إعطاء صورة حقيقية عن العالم الخارجى .

ويذهب علماء النفس إلى أن الطفل يبدأ فى إدراك العالم المحيط به حتى من قبل أن يكون هناك أى « تفكير لغوى » ويدور فى ذهنه . وأخيرا وبعد أن يتعلم الطفل الكلام يبدأ فى استخدام لغته ليتم خبرته الحسية المكتسبة بمسميات لغوية . فالأشياء تسبق المفردات والعكس ليس بصحيح . ولنفرض أن رائدين من رواد الفضاء أحدهما أمريكى والآخر سوفيتى قد هبطا على سطح القمر ، وعاد كل منهما ليروى انطباعاته بلغته الخاصة . فهل تكون الصورة الأمريكية مختلفة عن الصورة السوفيتية للقمر ؟ .

لقد زار الرحالة العرب قبل أكثر من ألف عام أراضى دول الشمال وكانت طبيعة وتقاليد وعادات الفايكنج من سكان الشمال غريبة تماما فى نظر الرحالة العرب ، وكانت الغرابة تضاهى غرابة القمر بالنسبة لسكان الأرض وبالإضافة إلى ذلك فإن اللغة العربية تختلف اختلافا تاما عن اللغة النورماندية . ومع ذلك ترى وصف العرب يتفق مع وصف النورمانديين بالنسبة لنفس الظواهر والحوادث والمدن . إن كل لغة تصور العالم بطريقتها الخاصة ، ولكن الرسالة عن الحقيقة تنقل بدقة وصواب[٢] .

ويقارن علماء اللغة المعاصرون نظام اللغة بنظام الإحداثيات الهندسية ، فالانتقال من لغة إلى أخرى شبيه بالانتقال من نظام هندسى للعلاقات إلى الآخر . إن العالم الخارجى هو نفسه غير أن صورته تختلف باختلاف اللغات .

(١ ، ٢) دكتور إبراهيم إمام : دراسات فى الفن الصحفى ص ٣٨ ، ٣٩ .

لقد كان « ورف » على حق حين قال أن اللغة تؤثر على تفكيرنا فى ظروف معينة ونضيف إلى ذلك قول « كندراتوف » إنها تؤثر على نمط التفكير لا جوهره ، وبالتالى فإنها تؤثر فى سلوك الناس . ولكن « ورف » نسى حقيقة أخرى وهى أن الفكر يتأثر بالواقع أى أنه يتأثر بالخبرة العملية للبشر أو بالحياة . وهى التى يتعامل معها الفن الإذاعى ، أن الواقع الموضوعى والحياة هما فى نهاية الأمر اللذان تتعامل معهما لغة الفن الإذاعى .

والإذاعى تعمل جاهدة على توثيق الوجدان الإنسانى ، فهى لم تظهر هذا الوجدان فى مجال قومى معين ، محدد بلغة قومية معينة ، فحسب ، ولكنها أعانت على التمكين لهذا الوجدان وتقويته أيضا ، فبعد أن كانت الجماعات تعيش منبثة فى الريف وفى القرى وفى مدن ذات أسوار مادية ومعنوية ، حطمت الإذاعة هذه الأسوار ووجدنا أن إذاعة مصر مثلا تتجاوز حدود الوطن المصرى إلى جميع الناطقين باللغة العربية . فالإذاعة عامل هام يعمل على تقارب المجتمعات ، ولكن هذا التقارب يحدث فى نطاق معين تحدده اللغة القومية العامة Lingua Franca لمجتمع كبير ولقومية كبيرة . وطبيعى أن اللغة العامة غير اللهجات المحلية أو الطبقية الخاصة [١] .

فإذا نظرنا إلى الرباط بين الإذاعة وبين الثقافة أو بين الإذاعة وبين المجتمع وهى عامل حيوى خطير – وجدنا أنها أولا وقبل كل شىء قد أعانت من الناحية اللغوية على إظهار المفهوم الاجتماعى الصحيح للغة ، وهذا بلا شك من المهام الكبيرة التى قامت بها الإذاعة [٢] وليس من شك فى أن الإذاعة من خلال لغتها وأساليبها الفنية تساهم فى صوغ صورة العالم فى أذهان المستمعين ، ولغة الفن الإذاعى هى الوسيلة الإذاعية الأساسية لنقل المعلومات إلى المستمعين . ولكن لغة الإذاعة قادرة على ما هو أكثر من ذلك إذ يمكنها أن تكون بمثابة منشور تحليل الطيف الذى ينظر إلى العالم من خلالها وهنا يكمن وجه الخلاف الأساسى بين لغة الفن الإذاعى وبين الشفرات التكنيكية التى تنقل المعلومات بصورة محايدة ودون أى انفعال ، أى دون أن تصوغها أو تقدمها بصورة أو أخرى .

إننا – كما يقول « كندراتوف » – نمتلك ناصية العلوم الطبيعية والرياضيات

(١ ، ٢) دكتور عبد الحميد يونس : مرجع سبق ذكره ص ١٥ .

والفنون عندما نكون فى سن يسمح لنا بأن نعى العالم المحيط بنا وعيا ناضجا وكاملا ، أما اللغة فإننا نكتسبها منذ طفولتنا المبكرة فاللغة قاسم مشترك بين الناس جميعا . وتستطيع الإذاعة بفضل اللغة أن تناقش الظواهر التى لم يكشف العلم غوامضها ، وتستطيع أن تتبادل مع ذهن المستمع الحديث عن أمور تدخل فى عداد المستحيل والخيالى . فاللغة تيسر للإذاعة نقل المعلومات ، ثم إنها تمكن الفن الإذاعى من التعبير عن الآراء والاتجاهات إزاء المعلومات التى تحملها الإذاعة للناس .

إن الفنان العبقرى قادر على أن يبتكر لنفسه أسلوبا خاصا به أى « لغته » الفنية الخاصة ، والعالم قادر على أن يبتدع نسقا جديدا من الرموز العلمية أو الصيغ الرمزية فى الطبيعيات أو الكيمياء أو الرياضيات أو المنطق . على أن أيا منهم مهما بلغ من الذكاء والعبقرية ليس بقادر على أن يستبدل بلغة الأم التى يتحدث بها الكافة لغة أخرى غريبة أو لغة مصطنعة . ونحن ــ كما يقول « كندراتوف » ــ نكتسب اللغة بطريقة لا شعورية منذ طفولتنا المبكرة ولكننا لا نبدأ فى فهم قوانين اللغة إلا فى مرحلة أخرى تالية وذلك عندما نتعلم القراءة والكتابة . ولكن الإذاعة تحدث هنا هذا الفهم من خلال التفريق بين اللغة المنطوقة المجهورة ، أى لغة الحديث والخطاب ، وبين تلك الرموز التعسفية ، على خطرها وجلال مهمتها ، التى اصطلحت البشرية عليها ، وهى التى عرف تركيبها بالتدوين أو الكتابة ، وما تحمله من تمثل الصوت[١] .

إن لغة الإذاعة هى اللغة المنطوقة المجهورة التى نتوسل بها فى الإعلام وصوغ العالم ، على النحو الذى يجعلها قسمة شائعة بين أفراد المجتمع جميعا . فالفلاح والملك والفقير والغنى كلهم يستمعون إلى لغة واحدة . ومصدر ذلك أن لغة الإذاعة تتسم بالشمول ، والسرعة والمباشرة والعادية والواقعية ، فهى تستطيع أن تذكر كلمة « كلب » أو « جمل » دون الدخول فى التسميات الدقيقة التى قد يهتم بها عشاق الكلاب أو خبراء الجمال . إن تجربتنا العملية ، تجعلنا نستطيع أن نلخص ، ونكتسب الخبرات عن طريق تبسيط المعانى ، ومسرحتها ونمذجتها فى قوالب خاصة ، وهذا هو أساس الفن الإعلامى بوجه عام[٢] . والفن الإذاعى على نحو أخص تغدو لغته ذات قوة إيحائية ، حين تخترق الحواجز لتصل إلى أذن المستمع ، فضلا عما

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ .　　(٢) دكتور إبراهيم إمام : دراسات فى الفن الصحفى ص ٤٠ .

تتيحه الوسيلة من خاصية الدق المنتظم للكلمات ، واستخدام أقل عدد ممكن من الألفاظ للتعبير عن أكبر عدد ممكن من الأشياء فى وضوح وبساطة واقتصاد وتأثير . وهنا يصدق قول « برجسون » : إن فن الكتابة هو أن ينسى الكاتب أن الكلمات عدته ، ومعنى ذلك أن كل كلمة يجب أن تعبر عن شيء ما ، ومعنى ذلك أيضا أن تستبعد الكلمات الغامضة والعبارات العامة التى لا تؤدى إلى معنى .

ويمكن القول أن لغة الفن الإذاعى تصبح بمثابة منشور تحليل الطيف الذى ننظر إلى العالم من خلاله فاللغة قاسم مشترك بين الناس جميعا ، وتستطيع الإذاعة بواسطة اللغة أن تناقش الظواهر التى يكتشفها العلم وتتبادل مع ذهن السامع الحديث عن أمور تدخل فى عداد الخيال أو المستحيل . والفن الإذاعى بلغته تلك ينقل المعلومات ويعبر عن الآراء والاتجاهات والمعلومات ويؤدى وظائفها المختلفة من خلال رموز صوتية تتعامل مع الخبرة العملية للمستمع ، وحيث يستحيل الاتصال وجها لوجه ، ويقرر « مندلسون » H. Mendelson أن الحقيقة التى تقول أن « الراديو » مازال منافسا خطيرا للتليفزيون توحى بأن لكل منهما وظائف مختلفة ، ويقرر أن هناك بعض الوظائف الواضحة يحققها الراديو للمستمعين ، فمن الواضح أن الراديو يسلى الناس ، ويرفه عنهم ، ويمدهم بالمعلومات بوصفه وسيلة إعلامية كما أنه يقدم إطارا مناسبا من الضوضاء أو التشويش يسمح للناس بأن ينجزوا أعمالهم ويصرفوا أمورهم بينما – هم يتسلون به أو يتلقون عن طريقه المعلومات . وعند هذه النقطة يلاحظ بعض الباحثين أنه من غير المجدى أن نبحث عما هو معروف بالفعل لأن البحث بهذه الطريقة سوف يختزل إلى مجرد عملية إعادة تسجيل ما هو مسجل ومدون بالفعل . والعمل المجدى بالنسبة لهذا الباحث هو محاولة الكشف عن الوظائف غير الواضحة أو غير المعروفة التى يحققها الاستماع إلى الراديو ويعتقد – وهو معيب – أن هذا الاتجاه الصحيح لدراسة وظائف الراديو فمن الضرورى الكشف عن الوظائف والخصائص والمزايا الكامنة والظاهرة على السواء فى إطار مواقف معينة وهذا هو لب التحليل الوظيفى الذى يستخدم فى البحث [١] .

إلا أن التداخل بين الراديو والتليفزيون يقف عقبة أمام الباحث الذى يحاول

(١) د . محمود عوده : أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى – دار المعارف القاهرة ١٩٧١ .

الكشف عن الخصائص الفريدة التى يتميز بها الراديو عن غيره من وسائل الاتصال بالجماهير ، وهنا تبرز حقيقة هامة مؤداها أن فقدان الظهور أو البروز الواضح للراديو بالنسبة لمستمعيه يضطر الباحث إلى الاعتماد على البحث الكيفى المتعمق للكشف عن الاستعمالات السيكولوجية أو الفوائد النفسية التى يجنيها المستمع من « الراديو » ، وأنواع الاشباعات التى يحققها عن طريق هذا الاستماع ، علما بأن أغلب هذه الاستعمالات والإشباعات التى قد لا يستشعرها المستمع ، ومن ثم فإنه لا يستطيع كشفها حينما يوجه إليه سؤال مؤداه لماذا نستمع إلى الراديو ؟ حيث لا يستطيع الإجابة البسيطة التى تتضمن سماع الأخبار والبرامج المفضلة ، ومن الواضح أن هذه الإجابات ليست بكافية لتفسير تفضيل الراديو على غيره من المصادر التى يمكن أن تقدم المعلومات أو الترفيه . أما الإجابة الحقيقية عن هذا السؤال فإنها تتحقق عن طريق القياس المتعمق لحاجات المستمع النفسية ودوافعه ومفضلاته وعاداته[١] .

وفى دراسة لمستمعى « الراديو » فى مدينة نيويورك عام ١٩٦١ سنحت أمام « مندلسون » فرصة لكشف أبعاد وظائف عديدة تجاوز وظيفتى الإعلام والترفية اللتين يحققهما الراديو ، ومن أهم هذه النتائج التى كشفت عنها هذه الدراسة ما يلى[٢] :

١ ــ يعتبر أغلب المستمعين الذين كانوا موضوعا للبحث (٧٨ ٪) أن الراديو يلعب دورا هاما فى حياتهم اليومية ، هذا الدور الشامل والموحد للراديو إنما هو نوع من الوجود الهام المتعدد الجوانب والمزايا ، والذى يستطيع أن يثير وأن يريح وأن يهدىء وهو بمثابة رفيق عزيز وغير طفيلى ، كما أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه أن يعرض الأحداث الكبرى التى تقع فى العالم الخارجى فأنه يستطيع أيضا أن ينبىء بارتداء ملابس معينة تصلح لحالة الطقس التى يعلن عنها . ولقد ذكرت سيدة تقطن إحدى الضواحى .. « إننى أشعر بأن البيت خلو أثناء إغلاق الراديو . كما أحس أن الحياة مرتبطة بتشغيله .. إننى أحب الاستماع إلى الأخبار من الراديو علما بأننى قد أكون سمعتها من مصدر آخر أو قادرة على الاستماع إليها من مصادر أخرى ، ومع

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ــ ٤١ .

أننى استمع إلى الموسيقى من جهاز التسجيل إلا أنى لا أستطيع الاستغناء عن الاستماع إلى الموسيقى المنبثقة من الراديو .. إن الراديو مهم جدا وبخاصة إذا كان الإنسان من سكان الضواحى » .

٢ ــ **يحصر الراديو يوم المستمع أو ينظمه ، أو يضعه بين قوسين** : يرتبط الراديو بوظيفة هامة أيضا وهى أنه يحقق نغمة أو ايقاعا معينا للنشاط اليومى ، فالأسلوب الإذاعى ينساب إلى المستمع فى الصباح وبعده قبل أن يخرج إلى العالم الخارجى بأن يقدم له ما يجرى فى العالم من أحداث بالأمس وحال هذا العالم اليوم ، والتهديدات المحتملة الروتينية اليومية ، كما يساهم الإرسال الصباحى مساهمة كبيرة فى تشكيل مزاج المستمع وفى تحديد إطاره العقلى ، كما أن إرسال نهاية السهرة يهدئه ــ سيكولوجيا ــ ويساعده على الاستغراق فى النوم ، ومن ثم فإنه يهيئه لاستقبال يوم جديد بهمة ونشاط .

٣ ــ **وظيفة المرافقة** : ولقد تبين أن الراديو يلعب دور الرفيق ــ بصفة عامة ــ ويساعد فى خفض التوترات الناتجة عن روتين العمل اليومى من جهة ، والشعور بالعزلة من جهة أخرى .

٤ ــ **الوظائف المزاجية للراديو** : يرى « مندلسون » أن قابلية الراديو للتعديل وفقا لمزاج المستمع وإطاره السيكولوجى فى وقت معين من أهم وظائف الراديو ومميزاته ، حيث أن وجود محطات إرسال عديدة إنما يعنى ــ فى نفس الوقت ــ وجود مجال واسع للاختيار والانتقاء بحيث يصبح من السهل ــ أمام المستمع ــ أن يدير المؤشر لكى يستمع إلى مايوافقه سيكولوجيا ومزاجيا . ومن ثم فإن الراديو يتطابق مع الحالة المزاجية للمستمع ، كما يمكن أن يؤثر على تغير مزاجه أيضا .

٥ ــ **الراديو كوسيلة لنقل الأخبار والمعلومات ونشرها** : إذا كانت المناقشة السابقة تشير إلى الترفيه الظاهر Manifest Entertainment الذى يحققه الراديو كوظيفة فإن الباحث يناقش جانبا آخر وهو الدور الإعلامى للراديو ، حيث لاحظ أن مستمعى الإرسال الإذاعى عادة مايديرون مؤشرات الراديو للاستماع إلى الأخبار الهامة وحيث يتضح أن الراديو وسيلة هامة تربط المستمع بما يدور حوله من

أحداث ، كما أن هناك وظائف أخرى مشتركة بين الراديو والصحافة ، وهى تقديم أخبار شخصية تحدد نمط السلوك اليومى كأخبار الطقس والتغيرات المنتظرة فيه .

٦ ــ **الوظيفة الاجتماعية للراديو Social Lukricating** أو وظيفة التسهيل الاجتماعى . وكما يتيح الراديو الفرصة أمام المستمع فى أن يشارك ــ سيكولوجيا فى أحداث اليوم وأخباره فإنه يسمح له أيضا بأن يشترك مع الآخرين فى تشكيلة متنوعة من الأحداث ذات المغزى والاهتمام المشتركين ، وحيث يستخدم المستمع الراديو لتحقيق نوع من الاقتراب أو الارتباط بينه وبين غيره من المستمعين لمجرد اشتراكه فى الاستماع إلى الأخبار نفسها والبرامج ذاتها ، بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من أنه قد يناقش الآخرين فيما سمعه من أخبار أو فيما تابعه من برامج إذاعية ، ومن هنا يلاحظ أن الراديو قد يخلق مجال اهتمام مشترك ومن ثم فإنه قد يدعم التفاعل الاجتماعى بموضوعات جديدة[١] وتتلخص أهم الوظائف التى خرج بها « مندلسون » من خلال تحليله فيما يلى :

١ ــ الوظيفة الإعلامية .

٢ ــ الوظيفة المزاجية .

٣ ــ وظيفة الاسترخاء والتحرر النفسى .

٤ ــ وظيفة الرفقة والصداقة .

٥ ــ وظيفة التفاعل الاجتماعى[٢] .

وتمثل المناقشة التى تثيرها دراسة مندلسون هذه أهمية خاصة لأنها تعرض لصعوبة التمييز بين الإعلام والتعليم من جهة ، وبين الثقافة الجماهيرية Mass Culture والترفيه Entertainment من جهة أخرى وذلك عند الحديث عن وظائف الاتصال الجماهيرى أو دوره[٣] .

(١ ، ٢ ، ٣) د. محمود عبده : مرجع سبق ص٤٢ .

Harold Mendelsoin (Listening to Radio) in Dexter & White ceds, op., cit., pp. 239 - 240 .

الفصل العاشر

الإعلام التليفزيونى .. والبلاغة الجديدة

أوصت حلقة الإذاعة المرئية بـ : ضرورة أن يكون الهدف الرئيسى للبرامج الثقافية مؤديا إلى تحقيق المقومات الكبرى للثقافة العربية المعاصرة وإبرازها مع مراعاة ما يلى :

(١) **نشر الثقافة العربية** عن طريق التعريف بالمعالم الثقافية الهامة فى الوطن العربى ، وتبادل البرامج التى تحقق هذه الغاية بين البلاد العربية على نطاق واسع .

(٢) **ترسيخ القيم العقلية** وأساليب التفكير العلمى السليم ومحاربة الجهالات ــ والخرافات والتخلص من العاطفية المفرطة التى تجعل الإنسان العربى عاجزا عن ملاحقة تطورات العصر .

٣ ــ **الاهتمام بثقافة الشباب** على نطاق أوسع وأعمق مما يتمثل حتى الآن فى البرامج المخصصة للشباب .

٤ ــ **استخدام الإذاعة المرئية** وسيلة لتحقيق هدف التثقيف مدى الحياة سواء بين أولئك الذين ضاعت منهم فرصة التعليم أو من نالوا بالفعل نصيبا من التعليم والثقافة .

٥ ــ **أن تعايش الإذاعات المرئية العربية التطور الذى يحدث فى الحياة** الثقافية بحيث لا تكون هذه الإذاعات فى معزل عما يجد فى الحياة الفنية والثقافية من أساليب ومناهج ، وذلك بأن تتناولها بالعرض والتقديم ولكن فى إطار من التوازن بين ــ العوامل التالية :

(أ) **التدقيق فى اختيار الأصيل والجاد** من هذه التجارب الفنية .

(ب) **المراعاة الكاملة لجمهور الإذاعة المرئية المتعدد المستويات** والمختلف الاتجاهات بحيث يختار من هذه التجارب والأساليب الفنية الحديثة ماليس مغرقا فى الإغراب والتعقيد .

(جـ) **الحرص على أن يصاحب تقديم هذه الأساليب الفنية المستحدثة** وعرضها تعريف واضح بها وشرح لها وللجديد فيها .

٦ ــ **أن تعمل الإذاعات المرئية العربية على دراسة المناهج والأساليب الحديثة** فى الإخراج والإنتاج للأعمال والبرامج الثقافية فى الإذاعة المرئية . لتطوير الأساليب القديمة التى يكاد يملها الجمهور . وتحقيق الاستفادة الكاملة من إمكانيات الإذاعة المرئية الفنية والتقنية مما يتيح اكتشاف اللغة الفنية الخاصة بهذه الأداة الخطيرة ، على أن يكون ذلك فى إطار من التدرج فى هذا التطوير ، ومراعاة أن هذه البرامج تخاطب جمهورا واسعا متفاوت الثقافة .

٧ ــ **الاستفادة من إقبال الجماهير على برامج الترفيه والإمتاع الفنى ،** وايثارها لها وذلك بتضمين هذه البرامج مضامين ثقافية غير مباشرة ، وهو ما يساهم فى تحقيق الأهداف الثقافية للمجتمع ويرفع فى الوقت ذاته من مستوى هذه البرامج ويحميها من الهبوط فى المستوى والابتذال والإسفاف .

٨ ــ **وضع خطة للارتفاع التدريجى بمستوى اللهجات العامية** التى تقدم بها بعض البرامج الإذاعية بحيث تصبح الألفاظ الفصحى وتعبيراتها أكثر تداولا على الألسن . تمهيدا لتعميم استعمال اللغة العربية الفصحى فى جميع البرامج ، إذ أن هذه اللغة الفصحى هى الأساس الأول للثقافة العربية ، وتعميم استعمالها يمكن الإذاعات المرئية العربية من تجاوز العوائق المحلية فيحقق لها بذلك مخاطبة جمهور أوسع ويجعل برامجها أكثر صلاحية للتبادل بين مختلف البلاد العربية والإذاعات المرئية العربية .

وفى تقديرنا أن الفصحى فى التليفزيون ، يمكن أن تلقى نجاحا من جانب المشاهد العربى فى الاستقبال ، ذلك أن لغة التليفزيون ، هى لغة المشاركة ، فالجمهور يشاهد لأنه يبحث دائما عن المشاركة فى أحداث ومشكلات من صنع الواقع أحيانا ومن صنع الخيال أحيانا أخرى ، ولقد أصبحت فرص المشاركة الاختيارية اليوم أعظم بكثير بسبب التقدم التكنولوجى فى قرننا هذا . ومع كل فإن هذا التقدم التكنولوجى نفسه والإذاعة المرئية من بين مظاهره قد زاد فى تحول شرائح كبيرة من المجتمع ــ بتعبير « مورى جرين » تزايدت إليها الحاجة بالتالى إلى المشاركة الاختيارية كى نحتفظ بمفهوم للروابط الإنسانية ، واللغة هى السبيل لتحقيق هذه المشاركة من خلال رموزها

التى تشير الى خبرات ومعانى خاصة وعلاقات تتضمنها الخبرة . ولعلنا نستطيع أن نقدم فيما يلى عرضا لأهم الخصائص التى تجعل من الفصحى لغة تليفزيونية :

الفكرة الزمنية فى اللغة العربية :

من أهم المقاييس التى يعرف بها ارتقاء اللغات : مقياس الدلالة على الزمن فى أفعالها ، ثم فى سائر ألفاظها .

وهذا المقياس يصبح من أهم لوازم اللغة الإعلامية ، لأن الصحفيين أو رجال الإعلام يكتبون لكل الناس فى كل الأوقات ، وليس لجزء من الناس فى كل الأوقات أو لكل الناس بعضا من الوقت ، فكل كلمة أو كل مجموعة من الكلمات تتضمنها عبارات النص الإعلامى يجب أن تكون مفهومة من عامة القراء وجمهور المستقبلين ، ولهذا تظهر بلاغة اللغة الإعلامية من علامات الزمن فى أفعال لغتها الأم . لأن عامل الوقت يلعب دورا رئيسيا فى تغطية الأخبار وتحريرها وإخراجها من جهة ، كما يتميز الإعلام بالدورية والإيقاع من جهة أخرى ، فهو يروى حدثا بعينه فى إطار زمن محدد . فاللغة التى تدل على الزمن بعلامات مقررة فى الفعل أنسب وأصلح للإعلام من اللغة التى خلت من تلك العلامات . وبمقدار الدلالة تكون هذه اللغة إعلامية أكثر من تلك .

ولا نحسب أن لغة نفهمها — أو نفهم عنها — كما يقول الأستاذ العقاد[١]قد اشتملت على وسائل للتمييز بين الأوقات كما اشتملت عليها اللغة العربية . سواء نظرنا إلى ضرورات سكانها أو نظرنا إلى تصريف أفعالها وكلماتها .

فكل لحظة من لحظات النهار والليل قد كان لها شأنها فى حياة سكان البادية بين السفر والإقامة والحل والترحال . فمنها ما هو صالح لبدء المسيرة ، وما هو صالح للراحة القصيرة ، وما هو صالح للراحة الطويلة . وما ليس يصلح لغير السكنية والاستقرار .

ولهذا وجدت كلمات البكرة والضحى أو الغدوة والظهيرة والقائلة والعصر والأصيل والمغرب والعشاء والهزيع الأول من الليل . والهزيع الأوسط . والموهن .

(١ ، ٢) اللغة الشاعرة ص ٧١ ومابعدها .

والسحر . والفجر . والشروق .. ويكاد التقسيم على هذا النحو ينحصر بالساعات . على صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات فى كثير من اللغات الأخرى بغير الجمل والتراكيب(١) .

وكل موسم من مواسم السنة له شأنه فى المرعى والانتجاع وطلب الماء أو التجارة أو الأمان ولهذا وجدت أسماء المواسم والفصول جميعا ووجدت معها ثلاثة أسماء مختلفة للدلالة على الدورة حول الشمس فى مصطلح الفلكيين : فهى السنة . وهى العام . وهى الحول . ولكل منها موضعه فى التعبير . بل لهذا وجدت للأوقات كلمات مختلفة على حسب الطول والقصر فى المدة . فالمدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن . وتنطوى فيها اللحظة أو اللمحة للوقت القصير . والبرهة والردح للوقت الطويل . والفترة للمدة المعترضة بين وقتين . بل وجد فيها الحين للزمن المقصود المعين . والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته والزمن للدلالة على جنس الوقت كيفما كان . والدهر للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود والأحيان(٢) .

مثل هذا الإحساس بالزمن لا تصوره الكلمات فى لغة من اللغات التى نفهمها ، على صورة أدق من هذه الصورة ولا أدل على الفوارق بين أجزائها كما يقول أستاذنا العقاد : « فإن الزمن الماضى « مهم » عند أبناء البادية العربية فى كل عهد من عهوده . لأنه مستودع المفاخر والأنساب والثارات والسوابق والذكريات وليس من المصادفة أن يسمى التاريخ هنا باسم الأيام . وأن يعرف لكل يوم أثره فيما كان ويكون .

« أما الزمن الحاضر فلاغرابة فى العناية بأجزائه وتقسيماته . لأن كل لحظة منه ذات شأن فى الحركة والإقامة . وفى المرعى والتجارة وفى الحرب والأمان »(٣) .

وليس من الطبيعى أن يبلغ إحساس قوم بالوقت هذا المبلغ ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس فى مختلف مواضعه ومناسباته .

فإذا نظرنا فيما يقوله النحاة من العرب فى هذا الصدد وجدناهم يربطون ربطا وثيقا بين الصيغة والزمن ، فيقسمون الأزمان إلى ثلاثة : الماضى والحال والمستقبل ،

(١ ، ٢ ، ٣) المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣ .

مكتفين بتلك الأزمنة الأساسية على أن بعض المتكلمين من العرب قد أنكر وجود الزمن الحالى ورآه مندرجا فى الماضى والمستقبل ، بعضه فى الماضى والباقى فى المستقبل ، ولكن جمهور النحاة يأبون هذا[١] .

فيقول ابن « يعيش » وقد أنكر بعض المتكلمين فعل الحال ، وقال إن كان قد وجد فيكون ماضيا ، وإلا فهو مستقبل ، وليس ثم ثالث ، والحق ما ذكرناه وأن لطف زمان الحال .

وقد فطن لهذه الحقيقة عالم من أقدر علماء الأجروميات والمباحث اللسانية ــ على حد تعبير العقاد[٢] ــ ففى كتاب أصول الأجرومية الإنجليزية لمؤلفه الدكتور « أوتو جسبر سن » يقول هذا الباحث المحقق ، « أن لنا على الأصح أن نحسب أن الزمن ينقسم إلى جزئين : ماض ومستقبل . وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية التى لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع ولكنها على الدوام منصوبة إلى المستقبل .

وهذه التفرقة الفلسفية المنطقية ملحوظة فى التفرقة الأجرومية بين الحاضر والمستقبل فى لغة العرب ــ كما يقول العقاد ــ فإذا أراد المتكلم أن يذكر المستقبل بشتى معانيه فهو موجود بمعنى الاستمرار وبمعنى الدلالة على ما يأتى وبمعنى الإنشاء واستحداث الفعل على الطلب . فصيغة المضارع تدل على الحال والاستقبال ، وصيغة المضارع مسبوقة بالسين تدل على المستقبل القريب ، ومسبوقة بـ « سوف » تدل على المستقبل البعيد .

ومن أشهر أقوال النحاة العرب ما جاء فى فقه اللغة للثعالبى وغيره من كتب اللغة ، من أن المضارع قد يستعمل مكان الماضى ، كما قد يستعمل الماضى مكان المضارع ، مثل قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ أى سيأتى ، وقوله : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين ﴾ أى تلت ، ومثل ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ ، أى ولا يزال .. إلخ ، ويقرر علماء البلاغة أن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى إنما يكون

---

(١) ابن يعيش ص ٤ جزء سابع .

(٢) اللغة الشاعرة ص ٧٦ .

تنبيها على تحقق وقوعه ، ويمثلون لذلك بقوله تعالى : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ أى — يصعق . ومن أسرار الفكرة الزمنية فى اللغة العربية الاستعمالات المختلفة للفعل « أتى » .

اللغة العربية : لغة معرفية :

تقدم أننا فى لغة الإعلام ، لابد أن نفرق فى الوظيفة اللغوية بين الأسلوب « المعرفى » أى الذى يؤدى إلى معلومات والأسلوب « اللامعرفى » ويؤدى إلى خرافات وأوهام ، لتنقية اللغة الإعلامية من الاستعمال التحذيرى للغة فى الدعاية والسياسة .

وهذه الخصيصة المعرفية فى اللغة العربية ، تحقق سمة « تليفزيونية » هى سمة التطابق بين الكلمات والصور لأن المشاهد « يميل إلى تصديق الصورة أكثر مما يثق فى الكلمة » ويلاحظ الصحفى البريطانى هنرى فيرلى ذلك عندما يقول : أن معظم التقارير التليفزيونية تكتفى فقط بوصف الصورة ، وبهذا فهى لا تقوم بأكثر من إلصاقه عليها فقط . ولكن الهدف من وراء الكلمات فى اخبار التليفزيون لابد وأن يكون تحويل الانتباه عن الصورة ، والقول : أن القصة لم تكن كذلك فقط . فهذا لم يكن مجملها كلها » .

ويؤكد فيرلى أن أخبار « التليفزيون » تقفز من حادث إلى حادث . وبدلا من عالمنا الحقيقى المتميز بالرتابة المألوفة ، فهى تعطى البديل فى صورة عالم غير حقيقى يموج بالحركة ويستحيل فى هذه الأيام تقريبا أن تعتبر أية مشكلة أو حدث إلا بمثابة أزمة ، ونتيجة لرؤية الأشياء من خلال هذا المنظار فإن المشكلات والأحداث تصبح أزمات فى الواقع . ومن ذلك يبين أن تحرير المادة التليفزيونية ، ينبغى أن يضع معنى الحدث فى الاعتبار ، وأن ينقل هذا المعنى بأكبر قدر من الوضوح . وعندما تشوه الصورة فلابد من استخدام التطابق بين الصورة والألفاظ .

وقد كثر حديث اللغويين من الأوربيين عن هذين النوعين ،فنرى فى كتاب Alec King[1] فصولا خمسة لما أسماه : النثر العلمى أى المعرفى والنثر العاطفى ،

(1) The contral of language, P; 30 - 10 .

وتحدث المؤلف فى هذه الفصول عن خصائص كل من النوعين فى الألفاظ والعبارات والموضوع ، وما يثيره كل من النوعين فى الأذهان والعقول ، وما يهدف إليه النثر المعرفى من محاولة التعبير عن الأفكار بقدر مساو من العبارات ، رغبة فى إبراز الحقائق المجردة دون مبالغة فيها ، ودون التأثير فى الأذهان بالصورة الخيالية والمجازات . أما فى النثر العاطفى فيؤكد لنا المؤلف أن الأمر لا يكاد يقتصر على مدلولات الألفاظ ، بل يتعدى هذا إلى ما توحيه تلك المدلولات من ظلال المعانى ، وما تثيره فى الذهن من صور وأخيلة بها يتأثر السامع أو القارىء ، وتستنتج منها الأذهان من المعانى فوق ما تحتمله تلك الألفاظ أو العبارات . ولذلك يمكن الربط بين النثر العاطفى والشعر ، أو يمكن أن يعد نوعا من الشعر غير منظوم .

ومع هذا يرى صاحب الكتاب أنه ليس من اليسير أن نضع حدا فاصلا بين النوعين المعرفى والعاطفى ، فلا يكاد يخلو المعرفى من كل عاطفة خلوا تاما ، كما قد نرى فى العاطفى أحيانا عبارات لا تهدف إلا إلى التعبير عن الحقائق المجردة .

ويؤمن المؤلف إلى أن ترتيب الكلمات فى جمل كل من النوعين قد يختلف ، فلا نرى نظاما واحدا فى هندسة الجمل .

ولكن « فندريس »[1]يذهب فى كتابه « اللغة » إلى الفصل بين النوعين حتى كاد يجعل كلا منهما لغة مستقلة ، متخذا من أسلوب التخاطب بين الناس ميدانا لتلك اللغة الانفعالية ، ومن الأسلوب الكتابى ميدانا للغة المنطقية .

، ولعل أوضح مافى علاجه لهذين النوعين شرحه لاختلاف ترتيب الكلمات فى كل منهما إذ يقول :

« ينحصر الفرق الأساسى بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية فى تكوين الجملة . وهذا الفرق ينبثق جليا عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة . فاللغة المكتوبة واللغة المتكلمة تبتعدان فى الفرنسية إحداهما عن الأخرى إلى حد أن لا يتكلم إطلاقا كما يكتب ، ولا يكتب كما يتكلم إلا نادرا . وفى كل حالة يوجد اختلاف فى ترتيب الكلمات إلى جانب الاختلاف فى المفردات ، وذلك لأن الترتيب الذى تسلك

---

(١) ترجمة الدواخلى والقصاص « اللغة » مكتبة الأنجلو المصرية ــ ص ١٨٢ .

فيه الكلمات فى الجملة المكتوبة ، ينفصم دائما فى الجملة المتكلمة إن قليلا أو كثيرا » .

وهذه الخاصة المعرفية فى اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة ، إلى تركيب مفرداتها على حدة ، إلى تركيب قواعدها وعباراتها بنية الشكل الصحفى وفنون الإعلام المختلفة .

فاللغة العربية فى طبيعة تركيبها لا تحتاج الجمل الخبرية « الإعلامية » فيها الى إثبات مايسمى فى اللغات العربية « فعل الكينونة » : فنحن نقول فى العربية على سبيل الإخبار : « فلان شجاع » دون حاجة مثلهم إلى أن نقول : فلان هو شجاع ، ونقول : « كل إنسان فان » دون حاجة إلى أن نقول : « كل إنسان يكون فانيا » أو « كل إنسان يوجد فانيا » ، أو « كل إنسان كائن فان » كما هو شأنهم فى تركيب كلامهم . وإذا قلنا مثلا إن « الأمة العربية واحدة ، ثبت هذا المعنى فى أذهاننا ثبوتا لايحتاج معه إلى شيء من الخارج ، لا فعل الكينونة ولا أى رمز آخر من رموز اللغة أو أى أمر من أمور الحس . والفكرة المفهومة من الارتباط واضحة ماثلة دائما فى نفس العربى ، يلتفت إليها حين يواجهه المعنى فإذا أراد أن يبرزها أو أن يؤكدها مثلها بلفظ كقوله : « إنه هو الحق »(١) .

ومعنى هذا أن الإسناد فى اللغة العربية يكفى فيه إنشاء علاقة معرفية بين « موضوع » و « محمول » أو مسند إليه ومسند ، دون حاجة إلى التصريح بهذه العلاقة نطقا أو كتابة فى حين أن هذا الإسناد الذهنى لا يكفى فى اللغات « الهندو ـ أوربية » إلا بوجود لفظ صريح مسموع أو مقروء ، يشير إلى هذه العلاقة فى كل مرة ، وهو فعل « الكينونة » فى اصطلاحهم .

واللغة العربية إذا كانت تعنى بالألفاظ فذلك من أجل المعانى ، أى لكى يؤدى الرمز وظيفة معرفية تحفز السامع أو القارىء للعمل . وخير الأدلة على ذلك لغة القرآن الكريم والتى وصلت إلى أقصى آيات الإعجاز لفظا ومعنى ، فكان لها ذلك التأثير العظيم فى استنهاض الهمم ، لتحقيق المثل الإنسانى الأعلى .

---

(١) مقال الدكتور عثمان أمين ـ مجلة العربى ـ العدد ١١٨ ـ ١٩٦٨ م الكويت

وتأسيسا على هذا الفهم لروح اللغة العربية ، قال ابن جنى فى « الخصائص » فى باقى الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى :

« فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها ، وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا عزوبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ ، بل هى عندنا خدمة للمعانى وتنويه وتشريف » ثم قال : « فكأن العرب إنما تحلى ألفاظها وتدبجها وتزخرفها عناية بالمعانى التى وراءها ، وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها .. وقد قال رسول الله ﷺ : « إن من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » . فإذا كان رسول الله يعتقد هذا فى ألفاظ هؤلاء القوم التى جعلت مصائد وإشراكا للقلوب ، وسببا وسلما إلى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعانى ، والمخدوم أشرف من الخادم . والإخبار فى التلطف بعذوبة الألفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من يؤتى عليها» .

وإذا كانت اللغة العربية تختلف عن اللغات الأوربية ، من حيث أن الجملة فى الأخيرة اسمية يتقدم فيها الفاعل على الفعل ولا يتقدم الفعل فيها إلا شذوذا فى حالات قليلة جدا أهمها حالة الدلالة على المفاجأة ووقوع الفعل على غير انتظار ، فإن القول فى الذهن العربى ، هو اسم يقابل الفعل المسبوق بعلامة المصدر ، ومن هنا يتساوى « القول » وأن نقول « فى الإدراك الصحيح »(١) .

على أن الجملة الاسمية موجودة فى اللغة العربية ، وليست مع وجودها قليلة الأستعمال فى مواضعها ، فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزا عن التركيب الذى يتقدم فيه الفاعل على الفعل ، ولكنه تقسيم للكلام على حسب مواضعه ، وتصحيح لموقع الفعل وموقع الفاعل من إرادة المتكلم وفهم السامع . وتلك أخص الخصائص فى لغة الإعلام .

فإننا نقول « محمد حضر » إذا كنا ننتظر خبرا عن محمد أو عن حضوره على الخصوص ولكننا نقول « حضر محمد » لمن يسمع خبرا من الأخبار على إطلاقه ولا يلزم أن يكون الخبر عن محمد ولا عن الحضور بل لعل السامع كان ينتظر كلاما عن

---

(١) العقاد : أشتات مجتمعات ص ٥٨ .

حسن وعن على كما ينتظره محمد ، أو لعله خبر سفر وليس بخبر حضور منتظر أو غير منتظر [١] .

وخاصة أخرى تجعل اللغة العربية أكثر « إعلامية » من غيرها من اللغات الحية المعروفة ، وهى خاصة « الإيجاز المعرفى » وفى هذا المعنى قال ابن خلدون : « ولما كانت الملكات الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى ، مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول ، والمجرور أعنى المضاف ، ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال إلى الذوات من غير تلك ألفاظ أخرى . وليس يوجد ذلك إلا فى لغة العرب وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام العجم فى مخاطبتهم أطول مما نقدره بكلام العرب » .

وتلك أخص الخصائص فى لغة التليفزيون التى تتسم بسمة الدلالة ، ذلك أن إدراك – العلاقات الدلالية للألفاظ يساعد المحرر على جعل معنى خبره أو مادته المذاعة واضحا ، وترتبط هذه السمة ارتباطا وثيقا بسمة الإيجاز ، والتنظيم . وبدون تفهم العلاقات الدلالية للألفاظ فإن الأحداث تصبح غير ذات معنى ، فى حين أن المستمع أو المشاهد يبحثان عن هذا المعنى .

« ولما كان العالم يزداد مع الزمن تعقيدا ، والمنازعات المتشابكة تزداد خطورة فإن معنى الأحداث يصبح أكثر أهمية مما كان عليه فى أى وقت مضى ، والمستمع أو المشاهد يدرك كلاهما ذلك بالغريزة ، إن لم يكن بالوعى . ذلك أن العالم الذى يعيش فيه هو ذاته الذى تحدق به المخاطر » [٢] .

وفى العربية يظهر الفارق فى الدلالة على المعانى المختلفة عن استخدام الفعل فى الجمل المفيدة على حساب دلالتها .

فإذا قلنا « فتح محمد الباب » فهذا خبر لمن يهمه أن يعرف من الذى فتح الباب .

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) مورى جرين : نفس المرجع .

وإذا قلنا « فُتِح الباب » فقد يكون الخبر موجها - أيضا - إلى سامع يهمه أن يعلم شيئا عن الفاعل ، ولكن المتكلم يخبره بأنه لا يعرفه أو يخبره بأنه يعرفه ولا يريد أن يذكره .

ولكن هناك حالة غير هذه وتلك ، وهى حالة إنسان ينتظر فتح الباب ولا يعنيه من الذى فتحه كما لا يعنيه أن يقول له المتكلم أنه يجهله أو يسكت عنه [١] .

فى هذه الحالة يقول العربى : « انفتح الباب » فيؤدى المعنى المطلوب بغير خلط بينه وبين الحالات التى ينتظر فيها السامعون خبرا عن فاعل الفتح ، معلوما كان أو مجهولا أو مسكوتا عنه مع علم السامع به تعمدا لإخفائه أو لإهماله .

واللغة الدقيقة التى استوفت وجوه الدلالة - هى كما يقول الأستاذ العقاد [٢] - اللغة التى تلاحظ مقتضى الحال فى كل عبارة من العبارات الثلاث ، ولا تستخدم عبارة واحدة لموضعين ملتبسين ، بل تستخدم كل عبارة لوضعها الذى لا لبس فيه .

وهذه هى صفة اللغة العربية فى وفائها بالمعانى المقصودة فى الاتصال الإعلامى على حسب إرادة المرسل والمستقبل ، أو على حسب ضرورة التفاهم بين الإثنين .

وهذه الصفة فى اللغة العربية تميزها بما يمكن أن نسميه « الدينامية » أو الحركية التى تجعلها أصلح اللغات لطبيعة الإعلام ، وتمنحها طواعية فى إيراد حادث وقع حالا يبعث على اهتمام القراء به . كما تتمكن من إعلام القراء بكل ما يريدون أن يلموا به ، من سرد صحيح موقوت لأحداث وكشوف وآراء وأمور من أى نوع تؤثر فى القراء وتثير اهتمامهم .

فاللغة العربية بذلك تضم فى ثناياها أخص خصائص لغة الإعلام ، وهى بيان العلاقات المتغيرة بين الإنسان والإنسان وبين المرء وبيئته ، اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو مادية أو غير ذلك من العلاقات أو تغييرها على نحو ما .

وعلى ذلك فإن للغة العربية طواعية تمكنها من الإجابة على الأسئلة التى تجول فى خاطر رجل الإعلام دائما وهى : « ماذا حدث ؟ » و « ماذا يجرى الآن ؟ » ألا

---

(١) العقاد : أشتات مجتمعات ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) نفس المرجع .

من جديد ؟ « أثمة مايثير » « أهناك ما يؤذن بجديد ؟ »

ويرجع ذلك إلى وجود الخصائص الإعلامية الأصيلة فى اللغة العربية ، والتى تبين من تكيفها وفقا للقوالب الإعلامية المختلفة ، بحيث استخدمت فى الصحافة الحديثة ، وفى الوسائل الإعلامية المستحدثة ، ولم تقع فى أخطاء لغوية كالتى تقع فيها اللغات الأوربية ، حينما تتحرر من بعض القيود اللغوية ، ولاسيما عند صوغ العنوانات المختصرة .

ذلك أن الخصائص التى تتميز بها لغة العرب استوفت وجهة الدلالة على ما نعلم فى ملاحظة مقتضى الحال ، وقد رأينا من ذلك مثلا خاصتها فى المبنى للمجهول ، ووجدنا العربية تثبت للفاعل درجاته وأنواعه بدقة نبعت من منطق اللغة الذى يفهم بالقياس كما يفهم بالسماع والتوقيف .

ولذلك فإننا عندما نقول فى معطيات هذا الفصل : إن اللغة الإعلامية هى اللغة العربية الفصحى ، نعنى ذلك جميعا ، على نقيض ما يذهب إليه البعض فى اللغات الأوربية [١] من أن لغة الإعلام ولغة الفن الصحفى بالذات مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة الأصيلة الفصيحة .

والاعتراضات التى تثار حول اختيار عبارات العنوانات فى الصحيفة هى اعتراضات أقرب إلى الجوهر منها إلى القالب اللغوى ، فاللغة فى العنوانات لا يقصد بها إلا إلى عرض الخبر عرضا موجزا ، أما الخبر نفسه فينبغى ألا يكتب بهذا الأسلوب الموجز .

على أن اللغة العربية بمرونة خصائصها ، تمكنت من تجاوز هذه الاعتراضات ، لأنها لغة تتميز بالإيجاز والوضوح والنفاذ المباشر والتأكيد والأصالة والجلاء والاختصار والصحة وذلك ماعنيناه من قولنا : إن اللغة العربية ، لغة معرفية .

اللغة العربية : وظيفية هادفة :

ويبين مما سبق أن اللغة العربية تمتعت بخصائص إعلامية ، تجعلنا نلاحظ أنها

---

(١) ستانلى جونسون : استقاء الأنباء فن ص ٤٠ .

تتفق مع غايات الإعلام الحديث من حيث أنه أداة وظيفية ، وليس فنا جماليا يقصد لذاته ، لأنه يهدف إلى الاتصال بالناس ونقل المعانى والأفكار إليهم .

وذلك ما نريد إن نذهب إليه من قولنا : أن اللغة العربية ، وظيفية هادفة ، لأنها كما رأينا لغة معرفية تهدف إلى الإعلام والتفسير والتوجيه والتنشئة الاجتماعية .

فإن من خصائص هذه اللغة العربية فى تعبيراتها أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العلمية الواقعية فى وقت واحد بغير لبس بين التعبيرين .

الفصل الحادى عشر

وسائل الإعلام ... والبيان التليفزيونى

منذ سنوات خلت اقترح « أموند كارينتر » و « مارشال ماكلوهان » استعارة مفيدة للدارسين فى مجال الإعلام ، ألا وهى أن أية وسيلة من وسائل الاتصال العامة – سواء كانت الإشارات أو التلغراف ، أو الكلمات المكتوبة – يمكن معالجتها على أنها « لغة » لها قواعدها وتراكيبها ، أو بمعنى آخر لها فقهها وأصولها ، التى تؤدى إلى التأثير والاستجابة .

لذلك فإنه يمكن دراسة وسيلة الإتصال على أنها طريقة للتخاطب تؤدى إلى تكوين لغة ، فما هى هذه اللغة ؟ وكيف تستخدم ؟ وماذا ينجم عن استخدامها ؟ والإجابة عن هذه الأسئلة تؤدى إلى إدراك طريقة استخدام هذه اللغة ، وأبعادها فى مجال الاتصال كما يذهب إلى ذلك « مالونى » [(١)] . فبينما لا يوجد خلاف حول اعتبار التليفزيون « لغة » لها خصائصها ومقوماتها ، إلا أنه لا يمكن التمسك به كوسيلة لغوية دقيقة تستطيع أن تعالج – المشكلات التى تحتاج إلى تعبيرات خاصة . ولا شك أننا لانستطيع أن نتحدث عن أى شىء بأية لغة نختارها إذا لم تكن لدينا المواهب الكافية ، أو إذا كنا نود استثمار وقت ومجهود كافيين – كما أنه يمكن لأى متحدث لبق لديه درجة كافية من الذكاء أن يعبر عن معلوماته الخاصة بلغة ذات طابع أمريكى هندى ، أو بلهجة رجل الغابة فى استراليا . كذلك فإنه لا يمكننا أن نصدر حكما قاسيا على أولئك الذين يختارون لغة غريبة كوسيلة للتفاهم . فقد تحدث « أينشتين » عن النسبية فى التفاهم ببساطة ، فقال : لا يمكننى أن أشرحها لك ولكنى أستطيع أن ألعبها على كمانى » [(٢)] .

(١ ، ٢) مارتن ج . مالونى : « فلسفة التليفزيون التعليمى » فى : « نحو تطلع أفضل » تحرير ألن أى كوينج وروان ب . هيل (وترجمة) : منصور حسين وفؤاد اسكندر – القاهرة ١٩٧٣ .

ومهما يكن من شيء ، فقد بدأ التليفزيون يأخذ مكانه فى بيوت العالم وأخذت أجهزة الإرسال التليفزيونى تنتشر فى كل ركن من هذا العالم . ونجد أن البلاد الصناعية بها أكثر من شبكة تليفزيونية واحدة ، كما نجد أن سكان المناطق الآهلة بالسكان ، فى هذه البلاد المتقدمة يستطيعون أن يديروا مفاتيح أجهزتهم ليحصلوا على برامج خمس قنوات أو حتى عشرة . وأخذت النواحى الفنية فى الإرسال التليفزيونى تتطور ، وفى إطار الموجات الكهربائية الأرضية وباستخدام الإرسال العالى الذبذبات . أخذ التليفزيون ينتشر أكثر فأكثر ، وفى بعض البلاد نجد أنها تستخدم الموجات الكهربية فى إرسال البرامج .[١]

ويحاول العلماء والفنييون إدخال تجديدات تبشر بالأمل على أجهزة الإرسال اللاسلكية مثل الوصول إلى ١٨ بليون دائرة فى الثانية وهو ما يعرف بنظام (جيجاهيرتز) ، نسبة إلى العالم الألمانى (هيرتز) ، بل ويستخدمون أشعة الليزر والأشعة تحت الحمراء خلال الأثير للإرسال (ظهر أن استخدام أشعة الليزر والأشعة تحت الحمراء تبشر بتطور جديد إذا استخدمت خلال قنوات نظرية) .[٢]

وتجوب الأجواء الآن أقمار صناعية إذاعية ، منها (الطائر المبكر **Early Bird**) (مولينا **Molnyia**) و (انتلسات **Intelsat**) وهذه الأقمار تقوم بإرسال البرامج الإذاعية والتليفزيونية داخل القارات وعبرها إلى القارات الأخرى ، وإن كانت التطورات الفنية الحالية لا تزال تحد من إمكانيات هذه الأقمار . ونتيجة لذلك ينبغى إقامة محطات أرضية خاصة لها هوائيات ضخمة وشديدة الحساسية حتى تستطيع أن تلتقط الاشارات من القمر الصناعى وتضخمها حتى يتم الإرسال .[٣]

وقد دخل التليفزيون الآن جميع الدول العربية تقريبا ، ويبلغ معدل ساعات الإرسال التليفزيونى لكل محطة ما بين ٢٥ ، ٣٥ ساعة أسبوعيا باستثناء الكويت التى تبث ٥٤ ساعة أسبوعيا ومصر التى تبث ١١٠ ساعة أسبوعيا على

---

(1) I Gnacy Waniewicz : Broadcasting for adult et education.

أصدرت اليونسكو هذا البحث عام ١٩٧٢ وقامت الأمانة العامة لاتحاد إذاعات الدول العربية بترجمته إلى العربية ونشره تحت عنوان : « الإذاعة وتعليم الكبار » .

(٢ ، ٣) نفس المرجع ص ٤٥ ، ٤٦ .

القناتين .[١] وتوجد ٣ محطات أرضية فى المنطقة العربية إحداها فى لبنان وترتبط بالقمر الصناعى المتمركز فوق المحيط الهندى والثانية فى الكويت وترتبط بنفس القمر والثالثة توجد فى الأردن وترتبط بالقمر الصناعى المتمركز فوق المحيط الأطلسى وتيسر هذه المحطات الإرسال والاستقبال من هذه الدول إلى بقية أطراف العالم طبقا للنظم الهندسية السائدة والمقررة . أما دول المغرب العربى (تونس والجزائر ومراكش) فهى مرتبطة معا عن طريق شبكات أرضية ويمكن لهذا الشبكة أن تربط مع الشبكة الأوربية عن طريق وصلة أرضية أيضا عبر جبل طارق .[٢]

التليفزيون كلغة :

إن الرأى الذى كان يقول : إن « التليفزيون » سيصبح شيئا مختلفا تماما عن راديو مصور كان رأيا مسلما به . أما إذا كان أحد قد قال : إنه قد يصبح أيضا شيئا مختلفا عن سينما — منزلية ، فذلك قول كان يثير مزيدا من الدهشة ، على حد تعبير « أريك بارنو »[٣] ، فما أن بدأ السينمائيون يرون الأفلام فى التليفزيون حتى تبينوا أمورا معينة . تبينوا أن عليهم فى الأفلام المعدة للتليفزيون أن يزيدوا من اعتمادهم على اللقطة القريبة المكبرة وأن يقللوا من اللقطات البعيدة ، وأن يستعينوا بعدد أصغر من الممثلين ، وأن ينسوا ما فى الإضاءة من سحر ودهاء . وعلى الفور ، تقريبا ، بدأ الفيلم السينمائى ينفصل عن الفيلم التليفزيونى فقد اتخذ الفيلم السينمائى الشاشة العريضة واهتم بالمناظر ، وطلب من المؤلفين قصصا يمثلها سبعة أو ثمانية نجوم . أما « التليفزيون » فركز الأهمية على قرب الصورة من المتفرج وما فيها من عناصر الألفة Intimacy مطالبا المؤلفين بقصص لا تحتاج إلى أكثر من ثلاث شخصيات رئيسية . ولذلك قال « إرفنج جتلين » أحد مخرجى التليفزيون بشركة : « التليفزيون ميكروسكوب لا تلسكوب » .[٤]

ولقد ذكر « رودلف أرنهيم » الذى كانت له دراسات عن السينما والراديو

(١ ، ٢) صلاح الدين عبد القادر : « الوضع الراهن للإذاعة المرئية فى الوطن العربى » و « حلقة الإذاعة المرئية وآثارها الاجتماعية والثقافية فى الوطن العربى — طرابلس الجمهورية العربية الليبية ٢٣ — ٣٠ / ٩ / ١٩٧٢ .

(٣) الاتصال بالجماهير — القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٧ وما بعدها

(٤) نفس المرجع ص ٢٧٠

لسنوات طويلة قبل أن يكتب بحثه عن « التليفزيون » فى عام ١٩٣٥ ــ أن الوسيلة الجديدة تعتبر امتدادا مباشرا لتجارب الإنسان (التجارب الخام) لو كان أحد مثلا قد توصل إلى طريقة مطورة لجعل أشعة إكس تظهر صورة ، لسوبرمان ، وذلك خدمة للأغراض التجارية وقد أصر أرنهيم فى بحثه على أن التليفزيون بلا فن ولا يتطلب مهارة ، وإنما هو مجرد امتداد للرؤية . ولاشك أنه لن تكون له لغة معينة ، فقال : « إن الكلمات الوصفية تصبح ذات ــ أهمية ، وبذلك يزول الحاجز اللغوى ، ويدخل العالم الواسع إلى حجرتنا » .

وقد تحدث أرنهيم عن « الراديو » بالمقارنة مع « التليفزيون » فقال : « إن الإستماع يسهم فى نقل الحديث والموسيقى بطريقة ممتازة ، وكلاهما من نتائج الروح ولا يهتم كثيرا بالحقائق المادية » . إن أصوات الحياة تحتاج إلى معلق أو مقرر لكى تصبح قابلة للفهم ، ومن هنا فإن الراديو ــ بالنسبة لأرنهيم ــ يعتبر وسيلة رمزية من حيث الأفكار والمشاعر والأشياء المجردة التى يمثلها ، فى حين يقدم التليفزيون من ناحية أخرى تجربة فورية ذات نوعية مرئية[١] .

ويذهب « مارتن مالونى »[٢] إلى أن هذه النظرة المنحازة لأرنهيم جعلته ينظر إلى التليفزيون على أنه تطور مزعج ، وأنه حقيقة سوف يثرى التجارب ، ولكن على حساب الفكر ، وهو هنا يسترجع أفكار بعض الفلاسفة من أمثال « جوناثان سويفت » الذين عالجوا الموضوع ، لا بالكلمات ، ولكن بالأشياء المحسوسة ، ولذلك فهو يرى أن التليفزيون ــ على أقل تقدير ــ يعمل على إهمال شأن اللغة ، فنحن نستطيع أن ننظر إلى الأشياء فحسب .

وطبقا لهذا الاتجاه ، فإن هذه الوسيلة التى دخلت فعلا حياتنا الثقافية ، تصبح ذات خطورة ، وأن مجرد ظهور الأشياء لا يعلمنا إلا القليل فى مجتمعنا المعاصر . فنحن لا نستطيع إدراك معنى الحرب مثلا لمجرد رؤية إذاعة المعركة ، ولا معنى السياسة بمجرد تصفح وجوه رؤساء الدول أو رؤساء الوزارات أو الدكتاتوريين .[٣] .

(١ ، ٢ ، ٣) مارتن ج مالونى المرجع السابق ص ٢٦ و ٢٧

ويتضح لنا من مجرد القراءة المبدئية للبحثين المشار إليهما أن أرنهيم لا يتفق مع آراء مارشال ماكلوهان كما عبر عنها فى كتابه « كيف نفهم وسائل الاتصال » فبينما يذكر أرنهيم أن « التجربة الخام » هى أهم سمات التليفزيون . وأن الوسيلة نفسها لا تعدو أن تكون عدسة إضافية للعين . فإن ماكلوهان بجملته المشهورة « الوسيلة هى الرسالة » يكون قد فصل بين المحتوى وبين دراسة الوسيلة ذاتها ، ويكون قد قرر أن الدور الحسى الذى يقدمه التليفزيون هو عمل ملموس أكثر منه مجرد عمل مرئى .[١]

وعلى الرغم من أنه يتعذر هنا أن نلخص نظرية ماكلوهان وملاحظاته ، إلا أنه يمكننا أن نذكر مع « مالونى » بعض الأمور التى تناسب المقام ومنها :

١ ــ أن الصورة فى « التليفزيون » ــ كما هو معروف ــ تتكون من مجموعة مرسومة من النقط الضوئية تظهر على الشاشة بواسطة شعاع إلكترونى ، وهى لذلك ليست كالصورة السينمائية أو الصورة الفوتوغرافية ، وإنما يمكن أن تشبه ــ طبقا لتكوينها ــ بنوع من الحفر ذى اللون النصفى .

٢ ــ أن الصورة « التليفزيونية » تختلف عن الصورة الفنية فى أنها ليست ثابتة ، ولكنها تتكون وتتغير بصفة مستمرة ، والصورة بهذه الطريقة تصبح مفصلة بقدر تزايد عدد النقط الراسمة ــ فلو أننا أردنا رسم شكل لزهرة مثلا باستخدام عشر نقط ، فإن الرسم سوف يكون مجردا ، وفى غاية البساطة ، وقد لا يدل على شكل الزهرة على الإطلاق ، فى حين أننا لو استخدمنا عشرة آلاف نقطة مثلا فإننا سنصل إلى شكل يمثل صورة الزهرة نظرا لتفاصيله الكثيرة . ويذكر ماكلوهان أن التليفزيون يقدم صورة من هذا النوع العام . وأن التفاصيل قد تختلف على نطاق ضيق .

٣ ــ من أهم ملاحظات ماكلوهان ــ التى تستند إلى هذه النظرية التكنولوجية ملاحظتان :

(أ) إن « التليفزيون » ، بالرغم من أنه يبدو كوسيلة مرئية ، إلا أنه يزودنا بالقليل من المعلومات المرئية ــ وأن الصورة التليفزيونية تعتبر من المرئيات محدودة

---

(١) نفس المرجع ص ٢٧ .

المعلومات ، وأنها لا تعتبر على أى وجه صورة فوتوغرافية ، نظرا لأنها عبارة عن تشكيل متجمع من الأشياء (وسيلة للتفاهم) .

(ب) أن الصورة « التليفزيونية » ـــ حتى إذا حاولنا تحديدها لإظهارها بشكل تفصيلى أكبر ـــ فإنها بصرف النظر عن التغيرات التكنولوجية لن تصبح كالصورة السينمائية مثلا أو حتى كصورة مقارنة لها ، وهنا يذكرنا ماكلوهان بأن الصورة التليفزيونية تعتبر حاليا بمثابة قطعة من الموزايكو التى تتكون من نقط مضيئة وأخرى معتمة ، وأنها لا ترقى إلى مستوى الصورة الفوتوغرافية مهما تكن رداءة هذه الصورة .

كل هذا يؤدى بنا إلى فكرة ماكلوهان عن الصورة التليفزيونية كصورة مخطوطة أو رديئة النوع ، وأن مظهرها يتسم بالانطباع أكثر مما يتسم بالرؤية الحقيقية ، ولإبراز هذه النقطة ناقش المستوى الضئيل للمعلومات والصورة الموزايكوية المهوشة التى يكون لها تأثير سقيم أو عديم القيمة ، فى حين أنه لابد للمشاهد من أن يرى المعلومات فى صورة دقيقة وواضحة ، بحيث يصبح التليفزيون وسيلة فعالة كالورقة المطبوعة التى تحتوى على قدر كبير من المعلومات والأشياء بطريقة سريعة ومؤثرة .

وعلى الرغم من ذلك كله فإن ماكلوهان ذكر أن التليفزيون ـــ كما عبر عنه كنيث بروك ـــ يقلل المجال ، فهو يجعل المناظر صغيرة وقريبة ، ويجعل الغريب مألوفا ، ويجعل الساخن باردا ، وأنه يقدم تجربة نشطة وبناءة للغاية وأن المشاهد دائما يعتبر بحق شريكا متعاونا فى إنتاج التليفزيون .

وقد يظن أن هذه الاتجاهات من جانب أرنهيم وماكلوهان تشكك فى قيمة التليفزيون كوسيلة لا أمل فيها ، ولكن ربما يكون هذا الحكم سريعا إذا نظرنا إلى تحليل الموضوع وأهملنا قيمة الوسيلة نفسها ، فإن أرنهيم يرى أن التليفزيون بدون فن كالتجربة المرئية الخام . وأن ـــ الأمر يتطلب مزيدا من الفكر لكى يتقدم ، ولكن ماكلوهان ـــ الذى يقول إن الوسيلة هى الرسالة ـــ يختلف معه فى أن حاجة التليفزيون إلى الفن ربما تبدو غير ذات معنى ، تماما كما يبدو « محتوى التليفزيون » غير ذى معنى .

ويركز ماكلوهان على فكرة أرنهيم فى أن يكون « الفكر » والكلمات هى أكبر

ما يوجه الاهتمام إليه لإبراز الفكرة إلى حيز الوجود ، ولكى يسهم التليفزيون كوسيلة تعليمية مبتكرة تخالف فى طبيعتها الراديو والسينما والمطبوعات ، وبالتالى لكى يسهم فى إحداث تغيرات جذرية فى المنطق الذى اعتاده وألفه المشاهدون . وهذا الرأى علق عليه ماكلوهان تعليقا قد لا يقبله أرنهيم ، إذ قال إن التليفزيون يعتبر فتحا جديدا فى عالم المبتكرات التعليمية ، ومن جهة أخرى فإن كتاباته قد علقت أهمية كبرى على هذا الاكتشاف ، وأنه من الممكن أن تحدث فيه تطورات هادفة تمكنه من تأدية دوره على خير وجه(١)

ولا نستطيع أن نقول إن « التليفزيون » هو خاتمة المطاف بين الوسائل الإعلامية ، وأنه صاحب الكلمة الحاسمة فى لغة الإعلام الجديدة ، التى استشعرتها الحياة ، بفضل التقدم الباهر فى الطاقة والحركة ، وإنتاج الأجهزة الإعلامية .

« والتليفزيون » يعتمد على ما يسمى بالشاشة الصغيرة ، وهو يجمع المسموع إلى المنظور ، ويستغل الصورة والصوت ، وأنه يفضل الإذاعة من هذه الناحية ، ويشبه السينما من ناحية المنهج ، ولكنه يختلف عنها فى أن ما يعرض على الناس ، حيث هم ، فينتقل إليهم ، ولا يكلفهم مشقة الانتقال إليه ، وهو يوجه إلى الأفراد فى إطارهم الاجتماعى والقومى ، ولكنه بحكم ارتكازه على المنظور فى المقام الأول ، يقتضى من المتلقين له موقفا سلبيا ، فهو ليس كالمذياع ينقل اللغة أو الثقافة حتى للعاملين فى المصانع والمزارع والدكاكين ، إنه يتطلب استغراقا كاملا أو شبه كامل ، لتتم الإفادة من عروضه ، و « التليفزيون » ، على خطره ومكانته قد حول الناس من الحركة إلى السكون . وإن غشيان المسرح أو السينما إنما يكون فى وقت محدد ، وعادة الذهاب إلى دور التمثيل أو العرض السينمائى وغيرها لا تتحقق إلا فى مواقيت الراحة وليست فى كل يوم . ومع ذلك فهذا الوعاء من أقوى الأجهزة الإعلامية ، لأنه ينتزع الصورة والصوت ، ويوزعهما على الناس فى بيئة متسعة ، ولا تزال هناك خطوات فسيحة يخطوها التليفزيون حتى يقترب من كافة الإذاعة المسموعة على طى المكان .(٢)

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠ .

(٢) د. عبد الحميد يونس : مرجع سابق .

« فالتليفزيون » يعرض على شاشته العالم والأحداث وشتى مظاهر الحياة ، وهذه الطبيعة تهيىء له الفرصة لمخاطبة شتى فئات الناس على اختلاف طبائعهم واتجاهاتهم ، وذلك عن طريق لغة مشتركة ، تستفيد من الصورة والحركة فى الاتصال اللغوى ، والإعلامى ، ذلك أن التليفزيون لم يعد يعتمد على الراوية فحسب ، كما تعتمد عليه الإذاعة المسموعة والأفلام الناطقة (الجرائد السينمائية وأفلام الإعلام) . وإنما أصبح يعتمد كذلك على أناس يخاطبون الجمهور مباشرة : أشخاص يقدمون تمثيليات ، وأشخاص يظهرون كرواة ، وممثلين فكاهيين يؤدون أدوارا فردية ، وباعة يروجون سلعا ، مرشحين للمناصب يدافعون عن ترشيحهم ومحاضرين يشرحون ويفسرون . وكل هؤلاء يلجأون إلى اللغة الإعلامية المشتركة التى تعتمد على السرد والرواية ، للسماح للغة المرئية إن جاز هذا التعبير ، بإنشاء علاقة المواجهة الشخصية مع المشاهدين .

ولذلك فإن هذه اللغة المرئية تتجه إلى الهدوء والتبسيط والخلو من التكلف . وتنطوى مثل هذه اللغة الإعلامية على ألفة تسبغ على السرد أقوى تأثير يمكن أن يبلغه لدى جمهور المشاهدين .

وتشترك اللغة المرئية مع لغة الإذاعة المسموعة فى سمات الوضوح والإيجاز والتبسيط .

ونخلص مما تقدم إلى أن أجهزة الإعلام الجديدة ، قد بعثت مرة أخرى الفلسفة البلاغية القديمة ، ذلك أن الفن إنما يستهدف المخاطبين أو المستقبلين بالدرجة الأولى أى أن الأثر الفنى أو الإعلامى يقوم على مقومات الصناعة ، وهى تصميم العمل طبقا لمقال سابق وثانيا تنفيذ هذا العمل ، على أساس قواعد محكمة ، تعنى أولا ، وأخيرا بعلاقة الجزء بالجزء ، وعلاقة الجزء بالكل ، وثالثا افتقار هذا العمل إلى آلات وأجهزة ، لا يمكن أن يتحقق بدونها ، والمقدم الوحيد الذى يخرج من مجال الصناعة ، هو أن البرامج الإعلامية ليست مجرد إعادة لصياغة مادة سابقة .

وعلى الرغم من هذا كله ، يبرز جيل جديد يجمع تجارب الكتاب والسينما والإذاعة والتليفزيون فى صعيد واحد ، وهذا الجيل يدرك أن اللغة ليست إلا وسيلة لتحويل المسموع إلى مرئى ، ثم إعادته بالاصطلاح أو الرمز إلى مرئى مرة أخرى ، وأن

القلم والقرطاس ليسا وسيلة إبداع ولكنهما آلتين لمجرد التدوين والإبداع ، يتم بهما وبدونهما على السواء ، وكذلك بقية أجهزة التسجيل وأدواته .[١]

وفطن هذا الجيل الطامح إلى تحقيق لغة مشتركة بأسلوب مغاير لأساليب الذين سبقوهم ، وقد تم لهم ذلك من خلال استخدام فنون تحريرية تستوعب خصائص الكلمة المسموعة والمرئية على نحو ما فعلت الصحافة لتحقيق لغتها المقروءة وجعلها لغة مشتركة ذات خصائص وسمات .

ولكننا لا نستطيع أن نفصل بين هذه اللغة المشتركة والبرامج التى تؤدى بها فى التليفزيون ، حيث ينبغى أن « تكون هذه البرامج متفقة و حاجة الجماهير » . وليس صحيحا أن جماهيرية الوسيلة تفرض عليها أن تتواءم و « رغبات » الجماهير . ذلك ترف لا يمكن لدولة نامية محدودة الموارد أن تتحمله ، وهى التى تنشىء الإذاعة لتتحمل وظيفة ريادية فى المجتمع ، وتعول من خلالها على الارتقاء بالجماهير والنهوض بها إلى مستوى معين وليس الهبوط إلى مستواها . بالرغم من أنه لا يمكن لأحدنا أن يزعم أن التكيف مع مستوى الجماهير يستتبع هبوطا معينا .[٢]

وحتى فى أكثر الدول تقدما ــ بالمعنى الاقتصادى على الأقل ــ تجد اتجاها عارما للارتقاء بمستوى البرامج . ويتحدث توم جريس « Tom Greis » عما يجب أن يقوم به الإذاعيون فى الولايات المتحدة مثلا فيقول : إنه يجب أن نضغط للحصول على نوعية أفضل من البرامج . يجب أن نضغط للحصول على وقت أطول لإذاعة البرامج الإعلامية والتسجيلية . إننا فى حاجة إلى البرامج الجادة التى تغوص فى أعماق المجتمع وتلك ليست نظرة مغرقة فى المثالية . فنحن نعرف ، ونقر ، بأنه سيظل هناك وقت لإذاعة المسلسلات مثل « بونانزا » و « القديس » و « أحب لوسى » لأن البعض منا يحتاج فى أمسية ما أن يشاهد شيئا ما ليس له معنى حقيقى . ولكن المجموعة الكبرى يجب أن تتضمن البرامج التعليمية والتثقيفية وبرامج التربية الاجتماعية والبرامج الإعلامية التى تحقق فى الأنباء ولا تكتفى بمجرد عرضها .[٣]

---

(١) نفس المرجع ص ٦١ .

(٢) حمدى قنديل : « مستقبل الإذاعة المرئية فى الوطن العربى ــ مجلة الإذاعات العربية ــ أكتوبر ــ تشرين أول ١٩٧٢ .

(٣) المرجع السابق .

وما لم تقم الإذاعة المرئية فى المستقبل ، والمستقبل القريب ، بدور فى محو الأمية مثلا فى وطن تبلغ فيه نسبة الأمية نحو ٧٠ ٪ فهل يمكن أن يكون هذا المستقبل مشرقا للإذاعة المرئية ، بل للوطن نفسه ؟ إن الإحصائيات الأمريكية تفيد ــ وهنا تتبين الحاجة إلى إحصاءات عربية ــ أن الطالب عندما يصل إلى الجامعة يكون قد قضى ٨ آلاف ساعة فى قاعات الدراسة و ١٥ ألف ساعة يشاهد « التليفزيون » والسينما ويستمع إلى الراديو ، وأنه لا يقرأ سوى فى النادر ، وأنه يستقى جل معلوماته من مصادر مرئية ، حتى أصبحنا نزداد تعودا على ماسماه فرانكلين سميث Franklin Smith« بالثقافة المرئية » وعلى ذلك فالإذاعة المرئية هى التى تعطى النشء صورة ــ ليست صحيحة بالضرورة لما هى الحياة عليه ، وهى التى يجب عليها أن تعطى صورة ــ يتحتم أن تكون صحيحة إلى أكبر قدر ممكن ــ لما يجب أن تكون الحياة عليه .

على أنه حتى تعطى الإذاعة المرئية هذه الصورة . وحتى ترتقى بالجماهير وحتى تقوم بدورها فى دفع عجلة التنمية ، يثار سؤال . فى يد من تترك الإذاعة المرئية ؟ والإجابة المباشرة والحاسمة : ليس فى يد الشركات التجارية ويد المعلنين . إن منشآت الإذاعة المرئية لم تقم لترويج الصابون أو ترويج الثقافات الأجنبية والأفكار الغريبة عن البيئة العربية ولكن ذلك لا يعنى منع إذاعة الإعلانات ، بل يعنى أساسا التحرر من سيطرة المعلنين . ولقد حاولت غالبية الدول بالرغم من اختلاف قناعاتها السياسية وفلسفاتها الاقتصادية أن تتحرر من هذه السيطرة . فنجد أن تليفزيون ألمانيا الديموقراطية هو الذى يحدد السلعة التى يعلن عنها بناء على ضمانات حكومية بتفوقها فى الجودة على غيرها من السلع المماثلة ، ونجد أن هيئات الإذاعة المرئية فى الدول الإسكندنافية لا تقبل البرامج المكفولة Sponsored Programmesومثلها غالبية الهيئات العربية .[1]

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

خــاتمــة

هل نحتاج إلى دستور أخلاق لغوى .

إننا حين نبحث عن «ياقوتة العقد الأخلاقى للكتابة والكتاب » ، فإننا ننشد القيود ولا نسعى إلى أغلال تحد من الحرية والحركة والخلق والإبداع .

فالالتزام الأخلاقى يضع القوانين التى ينبغى أن يسير بمقتضاها السلوك الإنسانى بعامة ، والسلوك اللغوى بخاصة ، وهذا الالتزام لا يستقيم إلا إذا كان الفعل صادرا من تمثل وحرية اختيار .. يقول « ليفربول » : ليس ثمة عقبة تحول دون اطراد الموضوعية فى البحث الخلقى ، وتمنع من اعتماد أجزاء جديدة من التجربة فى التصور العقلى للطبيعة واعتبار هذه الأجزاء خاضعة لقوانين ثابتة ، وليس علم الاجتماع ــ وعلم الأخلاق فرع منه ــ إلا فتحا من فتوحات هذا النوع الجديد من البحث .

أخلاق لغوية : لماذا ؟

ولما كانت اللغة هى قوام إنسانيتنا ، وأكبر وسيلة نحقق بها شخصيتنا المفردة والجماعية على السواء ، وهى الفكر بأوسع معانيه ، فإن « أخلاقيات » الاستعمال اللغوى لا تحدد للكاتب طريقة تناول كل موضوع يعرض له ، ولكنها تهدى الكاتب إلى الاتجاه القويم ، وتترك حرية التصرف وأن قيدتها بما يحفظها من الانحراف ، فياقوتة العقد للكتابة والكتاب إذن تستهدف تزويد الكاتب بمهارة فنية مستنيرة تيسر له أن يضع الفكر فى لفظ دقيق يؤديه ، ولا تتجاوز هذه الياقوتة ذلك إلى بيان الجزئيات والتفاصيل التى يقتضيها كل موقف ، فحسب ياقوتة الكتاب أن تحدد لهم الاتجاه العام ، وأن تدع لهم حرية التصرف وفقا لكل ظرف .

فالكاتب هنا ــ أشبه بالحكيم الذى كان يسميه القدماء باسم « الرجل العارف » ويقصدون بالمعرفة هنا « الذوق » فالإنسان « العارف » عندهم « المتذوق » ، الذى يقول عنه « هارتمان » إنه المخلوق ذو البصيرة الذى يصح أن

نطلق عليه اسم « رائى القيم » ، ولو أننا فهمنا « الأخلاق » بمعناها الواسع ، لقلنا مع الدكتور زكريا إبراهيم : إن رجل الأخلاق والكاتب هنا ينبغى أن يكون « رجل أخلاق » هو ذلك الإنسان الواعى الذى يتمتع بقوة نفاذة تعينه على تذوق قيم الحياة بكل ما فيها من وفرة وامتلاء وخصوبة ، ليس من الضرورى تسمية تلك القوة — كما فعل هارتيمان — باسم الملكة الخلقية — وإنما يكون هنا بإزاء حساسية أخلاقية تتفتح لشتى ضروب الثراء الكامنة فى الحياة ، وتنفذ إلى أعماق « القيم » الباطنة فى الوجود ، وليست مهمة فيلسوف الأخلاق اليوم سوى أن يأخذ بيد الكاتب الحديث لمساعدته على استرداد تلك « الحاسة الأخلاقية » حتى يعاود النظر من جديد إلى عالم الأشياء والأشخاص بعين نافذة ترى « القيم » وتدرك « المعانى » .

واللغة — هنا — هى كل ما اصطلح المجتمع عليه للإبانة عن وجدانه العام ، ووجدان أفراده ، وقوامها إلى جانب التلفظ عادات ومراسيم واصطلاحات تعبر عن فعل الجماعة وفكرها ووجدانها .

(٧) حيل رئيسية ضد شرف الكلمة :

ومع أن اللغة هى التى تفرق بين الإنسان والحيوان ، فإنها قد تستعمل بحماقة وخبث عند القلة التى فقدت « شرف الكلمة » واستهدفت إشاعة الإرهاب الفكرى مستغلة المناخ الديمقراطى فالكلمة قد تستعمل فى سبيل الخير ، ولكنها قد تستعمل أيضا فى سبيل الشر ، على حد تعبير الدكتور « إبراهيم إمام » فمن ألزم الضرورات فى ياقوتة الكتاب ، أن « تعلم هذه القلة احترام الميثاق الأخلاقى للقلم » ، من خلال التأكيد على استعمال اللغة كقوة فاعلة للتنوير ، وكشف « الحيل » التى تستخدم اللغة بهدف الخداع والتضليل ، ونذكر هنا سبع حيل رئيسية يستخدمها هؤلاء فى الإرهاب الفكرى ، اكتشفها معهد تحليل الدعاية الأمريكى فى سنة ١٩٣٧ ، وهى :

(١) استعمال ألفاظ التعميم البراقة لتهويش القارىء ، وأخذه على غرة بحيث يتأثر ببريق اللفظ الطنان ، فيخدعه ذلك عن التفكير أو المطالبة بالأدلة والبراهين ، فهناك مثلا ألفاظ : الصدق ، والحرية ، والتقدم التى تتناثر فى أنحاء الجيل والعبارات ..

وقد تستعمل العبارات المجازية للتعبير عن موضوعات يريد الداعية ألا يظهرها صراحة . فهناك مثلا « تقصير خطوطنا » التى استعملت لتغطية مرارة الانسحاب فى حرب فلسطين ١٩٤٨ و « النكسة فى ٦٧ » بدلا من « الهزيمة » .. إلخ . وكانت النازية تروج لعبارة « القوة عن طريق اللذة أو المتعة » لتغطية جرائم الإباحية والانطلاق بين الشباب .

(٢) الوصم أو استعمال ألفاظ السب والانتقاص من القيمة والكرامة ، وذلك للتأثير فى الضحايا ، وشل قوة التفكير فيهم ، دون تقديم أدلة أو براهين .

(٣) خلع المزايا والفضائل على موضوع الدعاية ، وذلك عن طريق الربط بينه وبين الشعارات الوطنية والدينية ، فيربط الشيوعيون مثلا بين صحفهم وكلمة « الأهالى » .. إلخ ..

(٤) استغلال الشهود فيقنع الداعية بعض المشاهير بالإدلاء بأحاديث أو عبارات معينة ، ولا بأس عند الداعية من استغلال الجماهير ، وشل التفكير لديهم ، للوصول إلى بغيته ..

(٥) الإيهام بالسذاجة والبساطة والشعبية .

(٦) العرض المغرض للحقائق ، وترتيبها ترتيبا يفيد الداعية ..

وتشبه هذه الحيلة بالغش الذى يعمد إليه لاعب الورق حين يرتب الأوراق ترتيبا مقصودا يؤدى إلى الكسب بالضرورة ، وقد علقت صحيفة نيويورك تايمز على هذه الحيلة فى أحد أعدادها الصادرة سنة ١٩٣٧ بقولها : « ليس الشر فى الدعاية نفسها ، وإنما فى احتكار الدعاية واستغلالها بحيث تسلسل أوراق اللعب لصالحك ، دون إعطاء الفرصة لخصمك كى يراجع التسلسل أو يعيد ترتيب الورق » ..

وفى مواجهة هذه الحيلة ، قال الرئيس السادات إن قانون « العيب » هو الذى « يحرم اتهام مواطن بغير دليل » وهى الحيلة التى تلجأ إليها « الأقلام المريضة الرخيصة » والتى كشفها الرئيس ، حين يلجأ أصحابها إلى طرق الغش والمبالغة ، والسرد المغرض ، وحذف بعض جوانب الحقيقة وتعمد الكذب وتطبيق هذه الحيلة فى صحافة الشيوعيين لا يحتاج إلى أمثلة لأنها واضحة مكشوفة للعيان .

(٧) ترتكز هذه الحيلة على عقلية القطيع ، فيصور الداعية ما يدعو له بأنه شيء يحدث فى جميع أنحاء المجتمع ، وأن الناس مجمعون على صدقه وصوابه .. إلخ .

ياقوتة العقد للكتابة والكتاب :

فاللغة لا تستعمل للإبانة والوضوح والتفكير فحسب ، وإنما تستعمل كذلك للخداع والإثارة وإيقاظ الغرائز ، فقد تسمى إحدى الجبهات الشيوعية نفسها باسم « لجنة الشعوب للسلام » أو أى اسم آخر من هذا القبيل ، لأن كلمتى « الشعوب » و « السلام » لهما جرس يوحى بالثقة والخير ، وفى روسيا السوفيتية استبدلت بكلمة الدرجة الثالثة « فى الملاحة الفئة الثالثة » للإيهام بإلغاء كل المميزات والفروق الطبقية ، وكذلك حين يسمى حزب نفسه فى مصر « التجمع الوحدوى » .. إلخ . ولكن الحقائق هى واقع أمرها وماهيتها ، وليس ما نطلقه عليها من أسماء ومسميات ، أو على حد تعبير أحد الشعراء المجهولين :

إن شكسبير كان على حق ، فالأسماء لا تحيل الأبيض إلى أسود أبدا ، ولا الصواب إلى الخطأ ، ومع ذلك فينبغى أن نفكر مع « ليونيل روبى » أن الأسماء قد تؤثر فى حياة أولئك الذين نتحدث إليهم إن خيرا وإن شرا ..

وإذا كان الكثير من الفلاسفة قد درجوا على تصور « الأخلاق » بصورة العلم المعيارى الذى يحدد لنا السلوك الفاضل أو « ما ينبغى أن يكون » فإن من واجبنا أن نضيف إلى ذلك قول الدكتور زكريا إمام إن الأخلاق أيضا فلسفة عملية تفتح أمام الإنسان ، « ملكوت القيم » ، والحق إن الحياة الخلقية تفرض على الكتاب أن يكونوا « ياقوتة العقد الاجتماعى » فى نشر كل ماله دلالة وما ينطوى على قيمة ..

ولحكيم الأدب العربى قول يعتز به الكتاب مجمله إن : « الكاتب الحر هو الحكم النزيه فى حلبة اللاعبين .. إنه هو الذى يحصى الأخطاء بغير تمييز ولا تحليل . وهو الذى يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم ، وهو الذى ينبه الغافلين إلى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا .. فالكاتب الحر هو الحارس الأمين لجوهر الفضائل الإنسانية» .

وفى تقديرنا أن هذا القول يمثل « ياقوتة العقد للكتابة والكتاب » إن جاز لنا

أن نستعير هذا التعبير من صاحب « العقد الفريد » فى تراثنا العربى ، هذا التراث الذى عنى بأدب الكاتب عناية تنبع من مقومات أصالته ، ونكتفى هنا بأن نذكر كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة الذى ألفه لمواجهة ظروف تتشابه مع ظروف مجتمعنا اليوم ، حيث خشى ابن قتيبة على اللغة أن تنحدر أو يقل إدراك الناس لدقائقها ومعرفة الفروق بين مترادفاتها وقد وصف بعض المستشرقين هذا الكتاب وصفا دقيقا فى كلمات موجزة ، فقال « البارون دى سلان » « إنه دليل المعارف الأدبية والنحوية والتاريخية التى لا يستغنى عنها الكاتب الفنى » .. ويقول جورجى زيدان إنه : « كتاب يبحث فيما يحتاج إليه الأديب فى صناعة الكتابة من الآداب والعلوم وإصلاح ما كان يقع فيه الكتاب فى أيامه من الخطأ أو الوهم فى معانى الألفاظ أو الاشتقاقات والتراكيب مما نحن فى حاجة إليه حتى اليوم .

ملاحق الكتاب

ملحق رقم (أ)

اللّغة العَربية وَتَحدّيات العَصر

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

لسنا فى حاجة إلى بيان الدور الذى اضطلعت به اللغة العربية كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الإحساسات وأرق العواطف إذ يكفى أن نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذى عزَّ نظيره فى معظم لغات العالم .

ففى مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والأدبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هى القوام الأساسى للتفاهم بين العلماء والتعبير عن أعمق النظريات التقنية يوم كانت الحضارة العربية فى عنفوان ازدهارها ويكفى أن تتصفح كتابا علميا أو فلسفيا لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة ففى العربية إذن « مقدرات » شاسعة لايتوقف حسن استغلالها إلا على مدى ضلاعتنا فى فقه اللغة .

والكل يعلم أنه منذ أواخر القرن الهجرى الأول « انبثقت حركة فكرية واسعة أذكت جامعات الشرق » ولم تستفد من هذه الحركة — كما يقول مؤلف « المعجزة العربية » — السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وإنما استفاد منها شعب عاش لحد ذلك التاريخ خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن هنالك فى الظاهر ما يحدوه إلى الاضطلاع بالدور الخطير الذى قام به مع ذلك فى تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربى .

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع إلى الثمار المادية والروحية التى جنتها من الإسلام أكثر منها إلى القرار الذى اتخذه الأمويون بجعل العربية إجبارية فى الوثائق الرسمية وخلال القرن الثانى الهجرى بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق الأدنى ، وتمخض هذا الانحلال عن « أكبر فوضى فى اللغات والأديان » فقد بدأت شعوب عريقة فى الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من

تراثها الخاص لتعتنق على أثر احتكاكها بالعرب معتقداتهم وأعرافهم وعوائدهم .

وقد أوضح كوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب »[١] أن العربية أصبحت اللغة العالمية فى جميع الأقطار التى دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التى كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ...

وقد عربت أهم المصنفات اليونانية فى عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الآداب الأجنبية بحماس « فاق الحماس الذى أظهرته أوربا فى عهد الانبعاث » وقد خضعت اللغة العربية لمقتضيات الإصلاح الجديد فانتشرت فى مجموع أنحاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة وقد قضت حتى على اللاتينية لا سيما فى شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والأندلس) حيث ندد الكاتب المسيحى « الفارو » ــ وهو من رجال القرن التاسع الميلادى ــ بجهل مواطنيه باللاتينية فقال : « إن المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا بقصد تنفيذها بل من أجل التمرن على الأسلوب الصحيح الأنيق .

وقد أكد المؤرخ « دوزى »[١] أن أهل الذوق من الأسبان بهرتهم فصاحة الأدب العربى واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين .

كما نقل « دوزى » عن صاحب كتاب « ألوسى موزار أيبس دوطوليد » أن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر فى أسبانيا إلى عام ١٥٧٠ م .

إن اللغة العربية التى بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة فى العهد الجاهلى أدركت فى القرن الرابع الهجرى أى فى عنفوان العصر العباسى أوج كمالها وقد وصف زكى مبارك روعة النثر الفنى العربى فى هذا القرن ووصف « فيكتور بيرار » اللغة العربية فى ذلك العصر بأنها أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأمتن وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة فهى كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير » .

---

(١) الطبعةالفرنسية ص ٤٧٣ .

(٢) تاريخ مسلمى أسبانيا ، (ج [ص ٣١٧) .

إن نفوذ اللغة العربية أصبح بعيد المدى حتى أن جانبا من أوربا الجنوبية أيقن بأن العربية هى « الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب » وأن رجال الكنيسة اضطروا إلى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها فى الكنائس الأسبانية وأن « جان سيفيل » وجد نفسه مضطرا إلى أن يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس[١] .

وقد أكد جوستاف لوبون (ص ٤٧٢) « أن العربية من أكثر اللغات انسجاما فهى وإن كانت تحتوى على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها إلا بفوارق جد طفيفة بينما نلاحظ أن سكان قرية فى شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة فى قرى الجنوب ونرى سكان شمالى المغرب الأقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز » وقد قال الرحالة « بوركارد » بأن كل من عرف إحدى هذه اللهجات فهم سائرها بدون عناء » .

ومعلوم أن الجامعة الأوربية كانت عاملا مهما فى ذيوع اللغة العربية التى أصبحت فى العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل أصبحت لغة دولية للحضارة ففى عام ١٢٠٧ م . وجود معهد فى جنوب أوربا لتعليم اللغة العربية ثم نظم المجمع المسيحى العالمى بعد ذلك تعليمها فى أوربا وذلك بإحداث كراسى فى كبريات الجامعات الغربية . وفى القرن السابع عشر اهتمت أوربا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية شرها ففى ١٦٣٦ قررت حكومة « السويد » تعليم العربية فى بلادها ومنذ ذلك العهد انصرفت « السويد » إلى طبع ونشر المصنفات الإسلامية وبدأت « روسيا » تعنى بالدارسات الشرقية والعربية خاصة فى عهد البطرس الأكبر « الذى وجه إلى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين وفى عام ١٧٦٩ قررت الملكة « كاترينا » إجبارية اللغة العربية وفى عام ١٨١٦ أحدث قسم اللغات السامية فى جامعة « بتروكراد » .

وقد اتجه اقتباس أوربا من العربية نحو الميدان العلمى فدخلت إلى اللغات

---

(١) منذ القرن العاشر الميلادى تبنى اليهود لغة الفاتحين العرب كلغة علمية فى أفريقيا وغيرها ويجدر أن نذكر الحبر يهودا بن قريش لما يمتاز به كتابه فى فقه اللغة المقارن والذى وجهه فى ذلك العهد إلى بيعة فاس (كودار ص ٤٥٤) .

الأوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والأكسير والجبر واللوغريتم وقد استمد الأسبان ــ حسب ليفيى بروفنصال ــ معظم أسماء الرياحين والأزهار من العربية ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية إلى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموع مصطلحات الرى هى كذلك من أصل عربى كما تحمل الحلى فى أسبانيا أسماء عربية ويتجلى نفس التأثير فى الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت أسبانيا وبواسطتها أمريكا اللاتينية من اللغة العربية الشىء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

وقد لاحظ عالم إيطالى كبير أن معظم التعابير العربية التى تغلغلت بكيفية مدهشة فى لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعمارى ولكن بفضل إشعاع الإسلام الثقافى .

بل إن الإصلاح الخاص بالكنيسة تأثر إلى حد بعيد بالطابع العربى فقد اعترف « لبارون كارادوفو » مؤلف « مفكرو الإسلام » ـــ وهو مسيحى متحمس ـــ بأن الإسلام علم المسيحية منهاجا فى التفكير الفلسفى هو ثمرة عبقرية أبنائه الطبيعية وأن مفكرى الإسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التى استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك استكمال عقيدتها جوهرا وتعبيرا وهذه ظاهرة لا سيما إذا اعتبرنا مدى مساهمة الفلسفة الإسلامية فى تكوين « علم الكلام Theology خلال القرون الوسطى والدور الذى قام به فى ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير على أشهر مفكرى المسيحية .

وقد عبر الأستاذ « ماسينيون » عن نفس الفكرة قائلا : « إن المنهاج العلمى قد انطلق أول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية فى الحضارة الأوربية » .

ثم قال : « إن العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية أن تضفى سربان الفتوة على التفكير الغربى كما أنعشت « ألف ليلة وليلة » فى القرن السابع عشر الميلادى ذهنية أوربا التى أتخمتها أساطير الإغريق والرومان » .

وقد ختم « ماسينيون » وصفه الرائع قائلا : « إن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولى وأن استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهرى للسلام بين الأمم فى المستقبل » .

وهكذا يمكن القول بأن اللغة العربية انتشرت فى العالم من قبل ، وذيوعها فى بلاد المشرق وفى أفريقيا قد تم تحت كنف الحضارة الإسلامية .

أما اليوم وقد تغيرت عجلة الزمن فإن التقدم العلمى والتكنولوجى جعل اللغة العربية تتعثر نظرا لعدم وجود مراجع علمية عربية كافية فى مختلف العلوم للتدريس الجامعى (وحركة الترجمة والتعريب فى العالم العربى تسير سيرا بطيئا لايوازى التطور السريع للعلوم والفنون ، الشىء الذى جعل اللغة العربية تفتقر دائما إلى كثير من المصطلحات العلمية والتقنية) ونظرا لاختلاف المصطلحات بين البلاد العربية ، وانعدام المناهج المنطقية الموحدة والوسائل الصالحة ، وصعوبة اللغة العربية من حيث القواعد والكتابة ، وعدم اهتمام أبناء العروبة بنشر لغتهم فى الخارج وخاصة فى الدول الإسلامية غير العربية .

ولذلك وجب تشجيع تعريب وترجمة الكتب والمراجع العلمية الجامعية والبحث والتأليف فى مختلف العلوم والفنون باللغة العربية وإصدار معاجم علمية وتقنية تهتم بالمصطلحات فى مختلف العلوم وتوحيدها بين البلاد العربية ومتابعة ما استجد من مفاهيم ومدركات علمية تحت إشراف هيئة مختصة كمكتب تنسيق التعريب بالرباط حتى لاتتفرع اللغة العربية ــ لاقدر الله ــ إلى لهجات إقليمية مختلفة كما حدث للغة اللاتينية بأن يقتصر التعريب الحرفى على المصطلحات الدولية للمفاهيم العلمية ، ويكتفى بالوضع والاشتقاق والتوليد والنحت فى بقية المجالات .

وهذا يتطلب الوحدة الثقافية العروبية بتوحيد المناهج والكتب الدراسية وتوحيد المصطلحات العلمية فى مؤتمرات تعقد لهذا الغرض تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بمشاركة الهيئات المختصة ووضع كتاب مبسط فى قواعد اللغة والنحو وتبسيط الطباعة العربية والعناية بالكتاب المدرسى وبالمناهج المقررة وبأسلوب التعليم بصفة عامة ، وذلك بتوسيع المجال الفكرى والعاطفى للطفل العربى وتعليم اللغة العربية للأجانب ونشرها فى العالم ، واللغة العربية صالحة للتدريس الجامعى للعلوم الإنسانية وهى صالحة أيضا لتدريس العلوم الحديثة بالاستعانة بلغة أجنبية فى الوقت الراهن ولزمن محدود والاستناد دوما إلى المراجع العلمية المتعددة اللغات لأن مشكل الإرتكاز على اللغة الوطنية كأداة للتعليم الجامعى ضرورة قومية ولكن الحفاظ على المستوى العلمى الإنسانى يستلزم عدم الارتجال ودعم هذا النوع من التعريب المرحلى بلغات

ومراجع أجنبية وليس المشكل خاصا باللغة العربية فالمفاهيم العلمية المستجدة تكاد تبلغ الخمسين فى كل يوم وتصطدم دول عظمى كفرنسا بصعوبات جلى فى كل يوم بحيث لا تستطيع – رغم ما تبذله من جهد عن طريق عشرات الهيئات المختصة – فرنسة أكثر من نصف المدركات الجديدة وهى تعانى باستمرار من النقص المتزايد بالتدريس الجامعى التقنى الدقيق دون اللجوء إلى مصطلحات أجنبية .

كيف يعمل مكتب التعريب ؟ :

إن إيجاد هذا المكتب عمل ثورى فى حد ذاته ، إنه ثورة هادئة عميقة معقولة ، إنه ثورة مدروسة مخطط لها انطلقت من مبدأ ثابت رصين وسلكت سبيلا نيرا ورمت إلى هدف واضح معروف ... ولاحظ المكتب هذه الفوضى فى التعريب ورأى كيف يوضع للمصطلح الواحد أكثر من مرادف معرف أحيانا وعرف أن من أهم الأسباب فى ذلك اختلاف أثر الثقافات الغربية فى العلماء العرب فبعضهم تأثر بالثقافة اللاتينية كسوريا ولبنان والمغرب العربى وبعضهم تأثر بالثقافة السكسونية كالعراق والأردن ومصر وأن بعض العلماء على حظ كبير جدا من العربية ومن الثقافة الإسلامية كخريجى الأزهر والنجف ودمشق والزيتونة والقرويين وبعضهم على حظ ضئيل منها كخريجى المعاهد الأجنبية .

ولاحظ المكتب كذلك أن مستوى المدارس الابتدائية فى معظم الوطن العربى دون مثيلاتها فى البلاد الراقية ، وقام بإحصاء دقيق للمصطلحات والمدركات الواردة فى جميع الكتب المدرسية وجردها فاكتشف أمرا عجيبا وهو أن مجموع مدركاتنا لا يتجاوز ثمانمائة مدرك ، بينما يتجمع فى ذهن التلميذ الأجنبى ألف وخمسمائة مصطلح [١] ، ومعنى ذلك أن مستوى إدراك الطفل العربى يقل عن مستوى زميله الأجنبى بمقدار النصف ولذلك يعانى تلميذنا فى ملاحقة المدركات العلمية فى المدارس الثانوية والجامعية معاناة مؤلمة جدا هى التى جعلت نسبة الناجحين بالامتحانات العامة والانتقالية فى مستوى منخفض .

عرض المكتب هذا الواقع على الدول العربية ودعاها إلى إعادة النظر فى الكتب

(١) سبق للأستاذ أحمد الأخضر غزال أن قام بإحصاءات موفقة فى هذا المجال .

والمناهج معا وقدم لها نموذجا هو معجم رياضى شامل وسيلحقه بمعجم لدروس الأشياء استكمالا للمفاهيم الإنسانية فى الأطفال أى دعا إلى ثورة عميقة فى أول درجة من درجات الثقافة لأن الكتب المدرسية ما هى إلا صدى للمناهج وكان ذلك أول أعماله ثم التفت إلى المصطلح المعرب فوجد أن حاجة البلاد العربية إليه متفاوتة تفاوتا بعيدا كذلك ، حيث تغلغل الاستعمار فى بعض البلاد إلى أعماق مجتمعنا وحاول اجتثاث ثقافتنا العربية من أصولها ونشر لغته بكل وسيلة حتى أصبحت لغة المدرسة والمعمل والشارع والبيت .

إن النخبة المثقفة فى البلاد العربية على العموم وفى المغرب على الخصوص متأثرة بقدرة المصطلحات الأجنبية العلمية على الدقة فى التعبير والتصوير للمدرك العلمى والتقنى فلا يرضيها التعريب الارتجالى ولا الفوضوى المتنافر ولا المتعدد المتكرر أو الناقص فى دقته وإحكامه ، وهى على حق فى هذا لأنها ترى الفكر العربى على مفترق الطرق وتريد له أن يسلك السبيل السوى وترى لغتها وقد قبلت فى المجامع الدولية لغة خامسة إلى جانب اللغات الحية العظمى فتريد لها دوام التقدم واطراد النجاح ، ولقد لاحظ مكتب التعريب هذا الأمر فاتخذ لذلك خطة علمية دقيقة يحمل مسئوليتها علماء العرب مجتمعين فهو يضع المصطلح بلغتين أجنبيتين معا هما الإنكليزية والفرنسية ويضع أمامه جميع المصطلحات التى عرب بها منسوبا كل منها إلى صاحبه إن كان مجمعا علميا أو أستاذا لغويا مشهودا له بالتفوق ، أو معجميا معروفا ... وينشر ذلك على شكل معجم الفبائى الترتيب ويضعه تحت أنظار العلماء العرب لمدة لاتقل عن ستة أشهر ثم يدعو إلى مؤتمر للعلماء المتخصصين يعقد فى ظل الجامعة العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الآن) بالعواصم العربية على التوالى فيتدارسون المعجم وينقدونه ويختارون المصطلح الذى يريدون فيصبح شبه إلزامى ، واختيار مصطلح واحد من بين مجموعة مصطلحات يوحد التعريب حتما ويسهل السبيل على الدارسين والمدرسين والمؤلفين والكتاب .

إن الحضارة العلمية تقذف فى كل يوم بما يتراوح بين خمسين ومائة مصطلح جديد إلى ساحة التداول العلمى ، فكيف نلاحق هذا التراكض ؟ إن المكتب يتراكض معها ويلاحق تطورها ويجمع المصطلحات فيعربها على هيئة ملاحق معجمية ويختار للمصطلح ما يقابله ويعرضه مع المعاجم الأولى على علماء العرب للمداولة .

وتنبه المكتب إلى أن جميع معاجم اللغة لم تجمع مفرداتها كلها ، فهناك مفردات متناثرة فى كتب العلوم والأدب والتاريخ والجغرافيا القديمة لم تدخل المعاجم وجمعها يحتاج إلى وقت طويل جدا فماذا فعل ؟ إنه جرد أكبر المعاجم العربية المعروفة (مثل لسان العرب) وقد قمت شخصيا بذلك ونسقته فى جزازات وجعلته منطلقا أضيف إليه كل يوم ما يجتمع لدى من جزازات مصنفة تصنيفا أبجديا حتى بلغت مئات الألوف هى التى ستكون أساسا لمعجم المعانى الجديد واستخلصت منها عددا من المعجمات فى بعض الفنون كمعجم الفقه المالكى ومعجم الأطعمة ومعجم الألوان ومعجم الرياضة واللعب ومعجم الآلات والأدوات والأجهزة ومعجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ومعجم الحرف والمهن ومعجم البناء والمعجم المنزلى ومعجم الأطعمة وعشرات أخرى أعددت بعضها والآخر فى طور الإعداد .

منهاج لتنسيق التعريب
فى الوطن العربى

إن تدارك النقص الذى تعانيه اللغة العربية فى أداة كثير من المفاهيم الإنسانية بصفة عامة ، وفى التعبير عن المدركات العلمية والتقنية بصفة خاصة قد أصبح بلا نزاع ضرورة حتمية يؤمن بها الجميع ولا يزال العاملون فى مختلف البلاد العربية منذ القرن الماضى يسعون فى سبيل القيام بها ما وسعهم السعى ، لكن دون خطة مرسومة ولا طريقة محددة ولا منهاج معلوم بل كل يعمل على شاكلته وفى عزلته ليسد بعض ما يواجهه من فراغ .

ولا يسع أحدا أن ينكر أن هذه الجهود رغما عن تشتتها وتنوعها وعدم منهاجيتها قد أتت بنتائج حسنة قيمة فى حد ذاتها لكن قيمة هذه الثورة النفسية التى اكتسبتها لغتنا تتضاءل أمام ضخامة الزمان الذى استغرقته تلك الجهود فى جمعها وأن جدوى هذه الحصيلة الضخمة من المصطلحات الجديدة والكلمات المستحدثة لتكاد تتلاشى إزاء السرعة التى تتقدم بها العلوم والفنون وتسير بها الحضارة والإنسانية فى هذا العصر .

أجل ، إن لغة الضاد صارت فى مطلع هذا القرن بفضل أولئك العاملين أقدر منها فى القرن الماضى على إبانة مقاصد الناطقين بها ثم أصبحت فى منتصف القرن

العشرين أكثر اقتدارا منها فى الربع الأول من هذا القرن ، فحينما نستعرض مثلا المصطلحات العلمية والفنية التى أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى الثلاثين عاما التى مرت على تأسيسه وحينما نمعن النظر فى القواعد اللغوية التى أعدها هذا المجمع لعمل المعربين وسائر اللغويين فإننا لانملك إلا أن ننحنى إعجابا وإكبارا لهمة رجاله وكفاءتهم وغيرتهم على لغتنا القومية ، فإنهم رغما عن محاربتهم النقص فى واجهتين معا : وضع المصطلحات الجديدة من ناحية وسن القواعد لوضعها من ناحية أخرى ، ورغما عن قلة الوسائل المادية المتيسرة لديهم وعدم تفرغهم للعمل فقد تمكنوا من توفير الأداة اللازمة لعمل التعريب من قواعد للوضع والاشتقاق والنحت والتركيب والجمع إلخ ... مثلما وفقوا إلى وضع المقابل العربى لكثير من المصطلحات العلمية والفنية والأعجمية .

وقد تعززت أعمال هذا المجمع بأعمال مؤتمرات وهيئات علمية ومهنية مختلفة وبأعمال أفراد من الشخصيات العلمية ذوى الثقافة المزدوجة من أمثال إنستاس الكرملى والدكتور أمين معلوف ومصطفى الشهابى وعبد الرحمن الكواكبى وخليل شيبوب فازدادت بذلك ضخامة حصيلة المصطلحات الموضوعية .

لكن هذه الحصيلة كلها ليست سوى غرفة من بحر بالنسبة إلى مجموع مصطلحات العلوم الحديثة التى تزداد نحو ٥٠ مصطلحا جديدا فى كل يوم .

ولا مندوحة عن الاعتراف بأن تلك الطريقة العفوية غير المحدد موضوعها ولا شكلها ولا زمانها والتى سار عليها حتى الآن عمل التعريب فى العالم العربى لا يمكنها أن تكفل حاجة العرب اللغوية ولن يتسنى لها أن تسد خصاصة لغة الضاد فى يوم من الأيام مهما تضاعفت الجهود واشتد نشاط المترجمين والمعربين والواضعين ، فإن تخلف اللغة العربية لن يتدارك بغير خطة علمية وتقنية مرسومة بأحكام أهدافها محددة بدقة وتفصيل ، ووسائلها العملية معينة بوضوح خطة صالحة لتكون إطارا لجميع ما يجرى من أعمال فى ميدان التعريب وما يبذل من جهود فى إصلاح اللغة .

إن التخطيط لازم لعمل التعريب وهو بالتالى ضرورى للقيام بمهمة التنسيق المنوطة « بمكتب تنسيق التعريب بالرباط » مادام التنسيق يعنى جعل العمل يسير على نسق محدد نحو غاية معينة وهذا بالذات هو موضوع التخطيط .

لذلك رأى هذا المكتب لزاما عليه أن يرسم لعمله منهاجا يحيط بجميع ما يبذله من جهود ويصدر عنه من منجزات وفى نطاقه يجرى التعاون مع جميع الهيئات والمؤسسات اللغوية والأفراد المعنيين بشؤون التعريب فى كل البلاد العربية .

اللغة العربية كأداة للتعليم الجامعى

أجرى مكتب تنسيق التعريب استفتاء عام ١٩٦٦ حول صلاحية اللغة العربية للتعليم الجامعى وأصدر عددا خاصا من مجلة « اللسان العربى » أسهم فى إعداده أقطاب الفكر العربى والإسلامى فى هذا الموضوع الذى هو موضوع الساعة واتسمت الأبحاث والدراسات بطابع الجدية والموضوعية والمنطقية ونلخص المشاكل المطروحة مع حلولها المقترحة فيما يلى :

(١) المشاكل الى تعترض سير اللغة العربية والتى تحد من انتشارها هى :

١) تخلف الدول العربية العلمى والحضارى .

(٢) صعوبة اللغة العربية من حيث القواعد والكتابة .

(٣) إهمال الدول العربية نشر اللغة فى الخارج وخاصة فى الدول الإسلامية غير العربية .

(٤) وجود لغات دارجة إقليمية مختلفة تضايق الفصحى .

(٥) انعدام الطرق والوسائل الصالحة لتعليم اللغة العربية لأبنائها وللأجانب .

(٦) عدم وجود مراجع عربية كافية في نواحى العلوم المختلفة .

(٧) عدم تشجيع الابتكار العلمى والتأليف باللغة العربية فى مختلف فروع العلوم .

(٨) عدم تحقيق الوحدة الثقافية بين الأقطار العربية .

(٩) محاربة الدول الاستعمارية اللغة العربية لأنها أصبحت ترتبط بمفاهيم الحرية .

الحلول المقترحة :

(١) الاهتمام بنهضة البلدان العربية علميا وثقافيا لجعلها فى مستوى البلدان المتقدمة .

(٢) تبسيط قواعد اللغة العربية فى مؤتمر عام لعلماء اللغة .

(٣) اهتمام الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بفتح مراكز ثقافية عربية ومعاهد لتعليم اللغة العربية للأجانب فى مختلف بلاد العالم وخاصة فى الأقطار الإسلامية غير العربية مع العناية بإعداد المتخصصين فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وبتأليف الكتب ووضع البرامج والأشرطة المسجلة والأفلام الصالحة لهذا التعليم وتوسيع التبادل الثقافى والعلمى بين البلدان العربية والبلدان الأخرى ونقل كل ما نتوسم فيه الجدة من فكرنا وأدبنا إلى اللغات الأجنبية .

(٤) تشديد الرقابة على أجهزة الإعلام من أجل استعمال الفصحى دون العامية وتقريب الشقة بين الفصحى والعاميات .

(٥) عناية الدول العربية بالكتاب المدرسى والمناهج المقررة وبأسلوب التعليم .

(٦ و ٧) تشجيع ترجمة جميع المراجع العلمية الجامعية إلى اللغة العربية وتشجيع البحث والتأليف فى مختلف العلوم .

(٨) بناء الوحدة الثقافية بتوحيد المناهج والكتب الدراسية وإيجاد مجمع عربى لغوى وعلمى موحد مع توحيد المصطلحات العلمية بين البلدان العربية وتنسيق جهود التعريب .

(٩) اهتمام الدول العربية بصد التيارات الاستعمارية المضادة لتعليم اللغة العربية فى الدول الحديثة الاستقلال .

(٢) هل اللغة العربية صالحة للتدريس الجامعى ؟

أولا : اللغة العربية صالحة للتدريس الجامعى للعلوم الإنسانية وهى صالحة كذلك لتدريس العلوم الحديثة لكن يلزم فى هذا التدريس الاستعانة بلغة أجنبية .

والمشاكل التى تعترض الأساتذة هى :

(١) عدم وجود المراجع العلمية وكتب الدراسة باللغة العربية .

(٢) نقص المصطلحات العلمية والتقنية العربية

(٣) اختلاف المصطلحات بين الدول العربية

(٤) ضعف الأساتذة والطلاب الجامعيين فى اللغة العربية .

(٥) تقصير الجامعات فى ميدان البحث العلمى .

(٦) عدم تعاون الجامعات وحتى كليات الجامعة الواحدة على اختيار المناهج والمراجع والكتب الدراسية .

الحلول المقترحة :

١) تكوين المكتبة العلمية بترجمة الكتب التى تختار للتدريس من المؤلفات الأجنبية بالإضافة إلى تشجيع حركة تعريب المراجع العلمية المختارة وعقد حلقات دراسية جامعة لمشكلة المعجم العربى يشترك فيها فقهاء اللغة وأساتذة العلوم على مستوى الدول العربية مع العمل على إصدار المجلة المتخصصة التى تحتاج إليها الجامعات ومراكز البحث إلخ ...

٢) السرعة فى عمل تعريب المصطلحات بكيفية موازية لسرعة تطور العلم .

٣) إصدار كتب دراسية جامعية موحدة بين الدول العربية واشتراك الجامعات العربية فى إيجاد المصطلح العلمى الملائم .

٤) إيجاد لجنة جامعية من هيئة التدريس تشرف على ترجمة البحوث التى يضعها الأساتذة إلى لغة عربية سهلة ومتينة .

٥ و ٦) تنسيق الجهود بين مختلف لجان الجامعات ونشر البحوث المترجمة لتعميم الفائدة .

٣) كيف يمكن للعالم العربى أن يتخلص من مشكلة المصطلح العلمى ؟

١) اختلاف المصطلحات ينبغى القضاء عليه بالإكثار من عقد المؤتمرات العلمية

٢) ينبغى للمصطلحات أن يضعها المتخصصون من أعضاء المجامع العلمية كل حسب اختصاصه ثم تعرض على المجامع اللغوية لإقرارها مع السرعة فى عمل تعريب المصطلحات .

٣) توحيد المصطلحات العربية تحت إشراف الجامعة العربية أى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبمعاونة أعضاء المجامع الثلاثة بالقاهرة ودمشق وبغداد مع تحديد مدلولها وتوضيح مفهومها العلمى .

٤) تتبع الأساتذة لما تقره المجامع اللغوية من المصطلحات وتطبيقهم إياها فى تدريسهم وتأليفهم .

٥) قبول المصطلحات العلمية العالمية بألفاظها اللاتينية كما تقبلها جميع اللغات الحية وضمنها الروسية .

٦) الاقتصار على التعريب الحرفى للمصطلحات ذات الطابع الدولى وتوفير الجهد على المجامع اللغوية .

٧) الإكثار من ترجمة أمهات الكتب العالمية وإيجاد لجان متخصصة للتأليف فى مختلف الفروع باللغة العربية وانعقاد لجان دائمة تابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تضم أساتذة الجامعات ورجال الصناعة من أجل توحيد المصطلحات العلمية .

٨) إدخال الألفاظ العامية التى لا يوجد لها مقابل فى الفصحى مثل مصطلحات أهل الصنائع واستغلال اللغات الأجنبية التى أخذت من العربية فى القرون الوسطى وبعدها ألفاظا مازالت فيها حية إلى الآن بعد أن انعدمت فى اللغة العربية والتنقيب فى مؤلفات القرون الوسطى العربية عن الألفاظ المولدة التى تخلو منها معاجم اللغة ووضع كلمات جديدة عن طريق الاشتقاق وتضمين مفردات قديمة معانى جديدة .

٩) قيام مكتب التنسيق بمهمة التوجيه والتعميم .

١٠) نشر معجم للمصطلحات التقنية الأجنبية مع جميع مقابلاته العربية .

١١) إصدار قاموس عربى علمى عصرى تساهم فيه جميع الهيئات العلمية بالوطن العربى

١٢) عقد حلقات على نطاق الوطن العربى لبحث مسألة تحديد اللغة العربية تحت إشراف مكتب تنسيق التعريب .

ويعد المكتب الآن مشروعا ثوريا للنهوض بسرعة وعلى أوسع نطاق بهذا العبء طبقا للمنهجيات الحديثة . فنظرا لما أوصت به الحلقة الدراسية لاستخدام الحاسب الإلكترونى فى مجالى البيلوغرافيا والتوثيق فى ٢٩ / ١١ / ١٩٧٥ قام المكتب بوضع مشروع لاختزان المصطلحات العلمية والتقنية المستخلصة من الخمسين معجما التى

أصدرها المكتب لحد الآن فى الحاسب أو الدماغ الإلكترونى بصورة تضمن الإضافة إليها والتصحيح والتغيير والاسترجاع بعد التصديق عليها فى مؤتمرات التعريب ، وذلك بتوزيع هذه المصطلحات على الأشرطة المغنطية انطلاقا من شفرة رائدة code indicatif تمكننا من إعداد قوائم جديدة بصورة آلية للمصطلحات المتعلقة بمختلف القطاعات التقنية ، التى نود أن نستكمل بها الهيكل المصطلحى التكنولوجى والعلمى فى اللغة العربية .

تلك بعض الوسائل المستعجلة التى يجب توفرها بتضافر الدول العربية من أجل إحلال لغة القرآن المقام الأمثل الذى كان لها فى العصور الوسطى كلغة علم وحضارة .

ملحق رقم (٢)

اللّغة العربية وَعلوم العَصر

الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن

« مازال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى عن عجز العربية عن أداء العلوم الحديثة ، حتى كدنا ننسى ماضيها العلمى فى عصر الحضارة الإسلامية وفجر العصر الحديث » .

« ومنذ عزلت عن الميدان العلمى تدريسا وتأليفا ، صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التى لا تحتمل الجدل ، ولم تفلح جهود نصف قرن فى رد اعتبارها العلمى إليها حتى عربت « موسكو » علوم العصر : فهل كنا نحرث فى الماء ؟! »

فى صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية ، حسبتها أول الأمر مما ينشره « المجمع العلمى للاتحاد السوفيتى » من ذخائر تراث لنا ، يرى فيها رواد الفضاء أكفان موتى وأحافير أثرية من عصور غبرت ، ولا يسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوع جدل أو مناقشة ، فممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمى يجب أن يوفر كله للسباق الظافر إلى غزو القمر .

فلما نظرت فى كتب هذه الرسالة من مطبوعات موسكو العربية ، وجدتها جميعا من صميم علوم العصر التى وضعت لتكون مرجعا للدارسين فى الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفنى .

وأوشكت أن أطرح هذه الكتب جانبا ، أو أتخفف من عبئها على خزانة كتبى ، بالتماس من يهتم بموادها التى لا شأن لى بها ولا اتصال .

غير أنى ما لبثت أن ذكرت ما أشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، أحاول أن أستبين إلى أى مدى طوع العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما وصلوا إليه فى المجال العلمى والصناعى .

بعد أن تحدثت فى مادتها العلمية إلى عدد من صفوة علماء الاختصاص وفى

مقدمتهم عالمنا الحكيم الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور أسامة أمين الخولى وكيل هندسة القاهرة .

وكانت مفاجأة لى ، أن أقرأ لغتى فى هذه العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طيعة ميسرة ، لا تتوقف ولا تتعثر .

وأن أمضى فى قراءة المواد العلمية التى انعزلت عنها طويلا ، مأخوذة بلهفة من يكتشف فجأة أن أسرارا من لغته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به أفقنا العربى المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبرر عذر جامعاتنا فى الإصرار على تدريسها بلغة أجنبية .

وتنذرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علميا وصناعيا ، إن نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة لا مجال لها فى عصر العلم !

فمبلغ علمى ، أن جيلنا مازال منذ وعى ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الأمة فأيقنوا أنها حق لاريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضى الأمة ودرسوا تراثها العلمى ، فقد وقفوا فى حيرة من أمر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهى التى استطاعت منذ عشرة قرون ، وأكثر ، أن تستوعب كل التراث الفلسفى والعلمى للأمم القديمة ، وأن تنقل إلى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التى عرفها التاريخ ؟

وكيف يعييها اليوم أن تنقل علوما كان للعلماء العرب ، فى عصر الحضارة الإسلامية ، مجد الزيادة فيها وتحريرها من المنهج التأملى الفلسفى الذى كان يسيطر على العقلية اليونانية فى عصر قيادتها للفكر الإنسانى فيردها إلى غيبيات مما وراء الطبيعة ، مترفعا أو عاجزا عن التجربة العلمية بمنهجها الاستقرائى الدقيق وأجهزتها المعملية ؟

تاريخ :

ومن وراء ثلاثة عشر قرنا ، مضيت أساير التاريخ العلمى لأمتى ، وأنا فى أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موسكو !

من القرن الأولى الهجرى ــ السابع الميلادى ــ بدأ اتصال العربية بالتراث العلمى القديم ، فى حركة ترجمة الكتب فى النجوم ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الأموى ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بنى أمية .

على أن الترجمة لم تلبث أن أخذت فى العصر العباسى الأول ، وضعا رسميا تدخل به فى سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخى من الخزانة العامة ، وقد استوعبت الحركة فى عصر الرشيد وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكرى والعلمى فى الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الإسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحا جديدة على نحو ما فعلت مدرسة الإسكندرية بالفكر اليونانى حين هاجر إليها .

وتلقى معجم العربية رصيدا ضخما من المصطلحات العلمية المعربة ، إلى جانب الألفاظ العربية التى أمكن تطويعها للمصطلح العلمى .. ولا يذكر التاريخ أن حركة إحياء التراث العلمى قد انتظرت طويلا ريثما يستقر رأى المختصين على إمكان نقل العلوم إلى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين فى جواز تعريبها ..

وفى طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الإسلامية ينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المريرة بين العلم والدين ، فلم يمض قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديدا أصيلا من العلوم الطبيعية والرياضية ، ودخلوا التاريخ العلمى روادا لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرن الثالث الهجرى ــ التاسع الميلادى ــ بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكتب العلمية التى ألفها أولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا أن تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية فى الحساب والجبر والهندسة والفلك وأن تطوع المصطلحات العلمية فى الطب والصيدلة والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان والجغرافيا ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الأجهزة العلمية التى اخترعها علماؤنا الذين تم على أيديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية إلى مجال البحث العلمى التجريبى ، وكانت فى التراث البابلى مختلطة بالسحر ، وفى المدارس اليونانية داخلة فى نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية ..

وكل هذا مما لا يجهله دارسو التاريخ العربى والحضارة الإسلامية ، وقد كان جديرا بأن يصل إلى المنتمين منا إلى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدى علمائنا فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، واعترفوا بأن حركة الأحياء (الرنيسانس) التى بدأت بها النهضة الحديثة فى أوربا ، إنما قامت أساسا على ما انتقل إلى الغرب الأوربى من تراثنا العلمى الحضارى ، على المعابر التاريخية الكبرى فى العصر الوسيط : الأندلس وصقلية والدردنيل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء ، سارت فى الغرب الحديث على الدروب التى عبدها رواد هذه العلوم من أعلام الدولة الإسلامية ، وقد ثبت تاريخيا أن أكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية كانت تدرس فى جامعات أوربية إلى القرن السابع عشر ، فى أصولها العربية أو مترجماتها اللاتينية التى تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم أن رسائل « جابر بن حيان » (ت ١٩٨ هـ) التى ألفها فى الكيمياء باللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، عرفتها أوربا فى نصوصها العربية وفى ترجمات لاتينية ثم ألمانية (هولميارد Holmyard ـــ ١٦٧٨ م) ، ثم ترجمها إلى الإنجليزية (ريتشارد راسل R. Russel) فى طبعة لندن ١٩٢٨ .

وكتاب حساب الجبر والمقابلة الذى ألفه « أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى » (ت ٢٣٦ هـ) فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله « جيرار الكريمونى » إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر الميلادى ، ثم نشر (روزن F Rosen) نصه العربى مع ترجمة إنجليزية فى طبعة لندن ١٨٥٠ .

ونشر (ناجل A . Nagel) ترجمة الأبواب الخاصة منه بالحساب كما وضع (جاندز S . Gandz) كتابا عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب « الحاوى لصناعة الطب » الذى ألفه طبيبنا « أبو بكر الرازى » (ت ٣١١ هـ) من علماء القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى ، تحمل أقدم نسخة عربية منه فى أوربا ، تاريخ سنة ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس (الناسيونال)

وترجمه إلى اللاتينية « جيرار الكريمونى » عام ١٤٨٦ م ونص (رينو) فى ترجمته الفرنسية لكتاب إدوار براون « الطب العربى » على أن كتب الرازى التى ترجمت إلى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءا .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف بالمنصورى - أهداه إلى المنصور بن إسحاق والى خراسان - نشرت ترجمته فى طبعة ميلانو ١٤٨١ م ، ثم نشره (كونينج P . Koning) - مع أجزاء من كتاب « الكناش الملكى » لعلى بن عباس والقانون لابن سينا - فى طبعة ليدن سنة ١٩٠٣ ، وترجمه (برونر W bronner) إلى الألمانية فى طبعة برلين ١٩٠٠ .

ورسالته فى الجدرى والحصبة ترجمها (فالا E. Valla) إلى اللاتينية فى طبعة البندقية عام ١٤٩٨ م ، و (جاك جوبيل J . Goupyl) إلى اليونانية فى عام ١٥٤٨ وترجمه إلى الفرنسية (جاك بوليه J . Poulet) فى طبعة باريس ١٨٦٦ ، و (لوكلير ، ولينوار Lenoir ، Leclere) فى طبعة باريس سنة ١٨٦٦ .

ونشر (جرينهل W . Greenhill) نصه العربى مع ترجمة إنجليزية فى طبعة لندن ١٨٤٨ ..

كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام ١٨٩٦ ..

وترجمه (كارل أوبتر K . Opitz) إلى الألمانية فى طبعة ليبزج ١٩١١ .

وكتاب على بن العباس (ت ٣٨٣ هـ) - « كامل الصناعة الطبية » المعروف بالكناش الملكى الذى ألفه بالعربية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجم إلى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٢ ، ثم فى طبعة ليدن سنة ١٥٢٣ .

وبصريات الحسن بن الهيثم (ت ٤٢٢ هـ) التى ألفها بالعربية فى كتاب من سبعة أجزاء بعنوان (المناظر) عرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم فى ترجمات لاتينية بالعصور الوسطى ، ونشر (ريزنر Risner) ترجمة كاملة له بأجزائه السبعة عام ١٥٧٣ ، كما نشر (كارل شوى K . schoy) بالألمانية عام ١٩٢٠ رسالة ابن الهيثم فى استخراج القطب .

وكتاب « الأدوية البسيطة » للطبيب الأندلسى (ابن الوفد) نشرت ترجماته

اللاتينية نحو خمسين مرة !

وكتاب « التصريف » للطبيب الأندلسى « أبى القاسم الزهراوى » (ت ٤١١ هـ) ترجم إلى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٧ ثم فى طبعتى ستر اسبورج سنة ١٥٣٢ ، وبال ١٥٤١ م . والجزء الخاص منه بالجراحة كان أساساللتعليم الجراحى بأوربا لبضعة قرون . وقد نشر نصه العربى مع ترجمة لاتينية فى طبعة إكسفورد سنة ١٧٧٨ م .

وقانون (الشيخ الرئيس ابن سينا) ، أبى على الحسين (ت ٤٢٨ هـ) فى الطب المؤلف بالعربية فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة أجزاء ، ترجمه إلى اللاتينية (جيرار الكريمونى) ونشر فى طبعات ميلانو ١٤٧٣ ، و (بادوا padoa) ١٤٧٦ ، والبندقية ١٤٨٢ . ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته العشرين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونشر نصه العربى فى روما سنة ١٥٩٣ م .

وكتاب « الشريف الإدريسى » — (ت ٤٥٧ هـ) — « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه فى صقلية ، فى القرن الخامس الهجرى ، كان المرجع الجغرافى الأول فى عصر النهضة ، ونشرت أجزاء منه فى ليدن سنة ١٨٦٦ م ، وفى روما مع ترجمة إيطالية سنة ١٨٨٣ ، وفى مدريد سنة ١٩٠١ . وترجمة (دى جويه ودوتز M . D . joeie ,R . Doz) إلى الألمانية فى طبعة (أوبسالا) سنة ١٨٩٤ م .

ومفردات (ابن البيطار) — (ت ٦٤٦ هـ) فى الأدوية ، التى ألفها بالعربية فى كتابه « الجامع فى الأدوية المفردة » فى أوائل القرن السابع الهجرى عرفت فى نصها العربى بأوربا فى عصر النهضة ، وترجمت إلى اللاتينية قبل أن ينقلها (فون زونتهايمر) إلى الألمانية فى طبعة (شتوتجارت) (١٨٤٠ — ١٨٤٢) ، و (لوكلير) إلى الفرنسية فى طبعة باريس (١٨٧٧ — ١٨٨٣) .

* * *

ثم لا أمضى فى سرد ما أحيا الغرب من ذخائر تراثنا العلمى[1] الذى صد عنها

---

(١) من أقرب المراجع لهذا الموضوع كتاب « العلم عند العرب » لألدوميلى ترجمة د. عبد الحليم النجار ، و د. محمد يوسف موسى ط دار العلم بالقاهرة ١٩٦٢ ، وتجد فى الفصل الأول من كتاب د. توفيق الطويل « العرب =

المتفرنجين من مثقفينا ، كونها من حفريات ماض غبر ، ومخلفات موتى أفناهم البلى .

فى الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال « سارتون » ، وويل ديورانت ، والدوميلى ، ونللينو ، وأمارى ، وآدم ميتز ، ولوبون ، ودى بور ، وأوليرى ، وبراون ، وكراتشكوفسكى ، وتوينبى ، وسيجريد هونكه .. » أن هذه الذخائر فى أصولها العربية وترجماتها اللاتينية ، هى التى أضاءت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعلم الحديث .

* * *

وأدع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لغتنا العربية قد سايرت التقدم العلمى فاستطاعت فى فجر العصر الحديث عندنا ، أن تأخذ دورها فى مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطبية والزراعية ، فى أوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا ، (كلوت بك) الطبيب ، والدكتور (فيجرى) عالم النبات ، كان المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضرون معهم فى قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية إلى بداية عصر الاحتلال . ولم يفكر أعضاء البعثات العلمية الأولى (من العرب) الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة ، عند عودتهم إلى بلادهم ، فى أن يلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العربية العليا بلغة أجنبية ، بل قدموا إلى مكتبتنا العلمية رصيدا ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم .

ألف الجراح الشهير (محمد على البقلى) كتبا عربية فى الجراحة ، و (محمد الشافعى) فى الأمراض الباطنية ، و (محمد ندى) فى النبات والحيوان والجيولوجية والطبيعة ، والصيدلى (على رياض) فى الصيدلية والسموم ، و (محمد الدرى) فى الجراحة والأمراض الوبائية ، و (سالم سالم) فى الطب الباطنى ، و (محمود الفلكى) فى التقاويم والمقاييس والفلك ، و (محمد بيومى) فى الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية ..

= والعلم فى عصر الإسلام الذهبى » ط النهضة العربية ١٩٦٨ دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعه . وراجع محاضرة تراثنا بين شرق وغرب ، فى كتاب « تراثنا بين ماض وحاضر » من مطبوعات معهد البحث والدراسات العربية » ١٩٦٨ .

وشارك علماء اللغة فى هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون فى تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم (محمد عمر التونسى) مؤلف « معجم الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية » و (إبراهيم الدسوقى) الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية ، و (رفاعة رافع الطهطاوى) و (أحمد فارس الشدياق) و (المعلم بطرس البستانى) فى ألفاظ الحضارة والفنون[١] .

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين أيدى المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وشاركوا فى هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها بالعربية .

وقد اشتهر منهم (الدكتور كورنيليوس فانديك) الذى درس فى بيروت بالعربية : الكيمياء والجويات وعلم الأمراض . وعرفت مؤلفاته العربية : الباثولوجية فى مبادىء الطب البشرى ، والنقش فى الحجر (فى تسع مجلدات صغيرة ، كل مجلدة منها موجز فى علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية) . وله كتب عربية أخرى فى الرياضيات ، وأصول الجبر ، والأصول الهندسية ، وأصول علم الهيئة ، ومحاسن القبة الزرقاء ، فى الفلك ..

و (الدكتور جورج يوسف) قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية . ومن مؤلفاته فيها (المصباح الوضاح فى صناعة الجراح) والأقرباذين والمواد الطبية ، ومبادىء التشريح والصحة والفسيولوجية ، وكتاب من جزأين فى مبادىء علم النبات . وقد ألف معجما قيما باللغة الإنجليزية فى (نبات سورية وفلسطين والقطر المصرى وبواديها) ذيله بفهرس للأسماء العربية ، فصحى أو عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو ألف وخمسمائة اسم .

و (الدكتور يوحنا ورتبات) علم فى كلية بيروت ، التشريح والفسيولوجية

---

(١) من مراجع هذا الموضوع :

« تقويم النيل » و « التعليم فى مصر » لأمين سامى — ط القاهرة .

« تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » — لأحمد تيمور : ١٩٤٠ .

« المصطلحات العلمية فى اللغة العربية للأستاذ مصطفى الشهابى مطبوعات المعهد ١٩٥٥ » « تاريخ التعليم فى مصر » للدكتور أحمد عزت عبد الكريم القاهرة ١٩٤٥ .

بالعربية ، وألف بها كتب التشريح ، والفسيولوجية ، وحفظ الصحة ، ورسائل عديدة فى مسائل طبية[١] .

* * *

وقصة :

إلى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا العلمى ، قبل أن تتسلل إلى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها ..

أما ما بعد ذلك فيشبه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن يميز خيوطها المتشابكة فى نسيج معقد أشد التعقيد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟

وإلى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة فى أقطار الوطن العربى . وقد أكتفى فى هذا المجال المحدود بتتبع فصولها فى مصر التى كانت مركزا للغزو الفكرى ، بحكم دورها القيادى فى فجر اليقظة العربية ، وإن تكن القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى فى سائر أقطار الوطن العربى .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال عزلت اللغة عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التى فرض المستعمر دراستها بلغته . وساير هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث ، وإنما حسبها أن تبقى فى الكتاتيب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية المحجوبة تماما عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن جاوزت مجالها المحدود ، فى القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، إلى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى فى عصور الانحطاط ، إنما يرجع إلى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حداء الإبل والوقوف على الأطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين

---

(١) الأستاذ مصطفى الشهابى . « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » ص ٤٢ ط المعهد .

والبدو فى مجتمع الزراعة والرعى ، إذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة إلى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى فى بعض مراحلها الأولى بالدعوة إلى اللغة العامية ، فالدكتور (سبيتا) كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة إلى الموت ، إلى اللغة العامية — على أن نكتبها بحروف لاتينية !

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده فى طريقين ، أحدهما يدعو إلى العامية ، والآخر يدعو لى لغة أجنبية حية بديلا للعربية الميتة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

مع بوادر الثورة العرابية ، روج عدد من المثقفين العرب لفكرة استبدال لغة أجنبية بلغتنا العربية ، وإذا كان قادة الأمة قد وجدوا فى العامية وسيلة إلى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فإنهم لم يجدوا فى الدعوة إلى لغة أجنبية سوى مسخ لشخصية الأمة والقضاء عليها .

وبدأ (عبد الله النديم) من العدد الأول من « التنكيت والتبكيت »[1] حملته على دعاة اللغة الأجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد و « عربى متفرنج » ، ثم كتب فى العدد الثانى مقالا عنوانه : « إضاعة اللغة تسليم للذات » سأل فيه الناطق بالضاد : بم يستعيض عن لغته وما لها من مثيل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن فى لغة أجنبية حديثة ليس فى لغتنا ؟ ثم استطرد يقول : « إن اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم ... فهى أنت إن كنت لا تدرى من أنت ، وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فلأنك بها تعرف أهلك ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيدا غريبا ، فى الوجود لا يقول لك قائل من أنت ، وأما كونها وطنك فإنه إنما يعمر الوطن ويسمى وطنا بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« أسمعك تقول : إذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى . اعتضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية .. فتبيت وأنت وطنى حر ، وتصبح وأنت فى يد أجنبى يصرفك كيف يشاء ... لأن إضاعة اللغة تسليم للذات » .

---

(١) مجلة أصدرها « النديم » عام ١٨٨١ .

وهنا تقدم الأستاذ « أمين شميل » فدخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافى ومكانته الأدبية فلم يكتف بأن نستعير لغة أجنبية (لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها) ، بل نادى بأن نتخلى عن العربية ، فصحى وعامية إلى لغة أجنبية تحيينا علميا وثقافيا واقتصاديا . وأكد عقم كل محاولة تبذل لإحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتما بالموت !

وكانت وجهة نظره :

ــ أن اللغة أداة للتعبير . والمرء لا يقيد بلغة خاصة إذا ما استطاع أن يصل إلى الهدف وهو التعبير عن نفسه . وإذا كانت اللغة العربية ليست أداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف أهلها فلا لوم عليه إذا تركها إلى غيرها من اللغات الأجنبية لأن الإنسان مفطور على طلب التقدم .

ــ أن اللغة العربية سائرة حتما إلى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العبرية ، ومع ذلك لم تستطع أن تتغلب على الموت .
فبأى شىء نستبقى اللغة العربية ونغرى بالتمسك بها : بحسن كلام أم بلطافة لفظ أم بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ أليس ذلك كله كان كثيرا فى لغات ماتت كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون أن يقيها من الموت شىء ؟

ــ أن إحياء اللغة العربية بعد موتها أمر معجز عسير غير مأمون العواقب فضلا عن كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء . وأنى لنا أن نكون خيرا من أصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال بإحياء ما قضت الحياة بموته يؤتينا خبزا ؟ اذهب إلى دوائر حطامنا ومراكز تجارنا ، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم ألف كتابا واجعله كله ضادا ، واصرف فيه عمرك واعرضه على قومك ، فترى مالبضاعتك من رواج .

« أما اللذة العقلية التى أحصلها من درس لغتى لأفهم كتب علمائها الجليلة وأملأ صدرى من فرائد أقوالهم البديعة ، فإنك تعلم أولا أن كل لذات علوم الدنيا

لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غذاء جسده . وقد نسيت **ثانيا** أن مؤلفاتنا التى نفتخر بها — يعنى ذخائر تراثنا — قد نهبت لفظا ومعنى إلى مراكز الأمم النامية — يعنى الراقية المتقدمة — فزادوا عليها أمورا كثيرة ، فهى حية فى تلك الأمم ميتة عندك ، لأسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها أغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها أن كثيرا قد نسخ بما أظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى هذه الكتب . ومنها عدم وجودها كلها إذ لم يبق منها إلا الطفيف :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها　　　كلاها وحتى سامها كل مفلس

وهذا الهزال الباقى إذا كنت سعيدا وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه مالا جزيلا ، ومن أين لك المال يا أخى وأنت تتجر ببضائع أكلها العث وبدلتها الموضة ؟ »

— أن من أراد كسبا ماديا وعلميا فليختر لغة غير العربية « أية لغة أجنبية إن كتبت بها راجت كتابتك ، وإن طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتبا لا تحصى فى غاية الضبط والكمال امتلأت خزانتك . منها كتب أجدادك قد تصفحها أضدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك بثمن أرخص من الفجل . فإذا اشتبه عليك معناها وجدت ألوفا يكشفون لك غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم إن فى لغة الطفولة لذة ووطنية ، إلا أن الوطنية الحقة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لا فى الألفاظ أعنى فى صيانة حقوق الأفراد وأحكام العدل والتسوية والالتفات إلى الأمة ولغتها وعدم إعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فإذا فعلت هيئتنا ذلك هان عليها كل شىء ، وإلا فأنت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمرا واشتعل الرأس شيبا » .

وقد نشر النديم مقال شميل بعنوان « كلمة غيور على لغته » فى العدد الخامس من (التنكيت والتبكيت) — (١٠ / ٧ / ١٨٨١) .

ثم بدأ الرد عليه ، فرأى أن يفرغ أولا من بيان حقيقة أن إضاعة اللغة تسليم للذات ، واستغرق الشرح مقالا مطولا فى العدد الثالث عشر من (التنكيت) حيث أوضح أن من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية رأسا ويتجنسون باللغة

الطارئة ، « فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فإذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العرابية لفته فى دوامتها ، حتى إذا عاد إلى الظهور بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الإنجليزى قد تسلط على مرافق البلاد الحيوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمى والعلمى ، وفرض اللغة الإنجليزية لغة للتعليم .

وإذا كانت السلطة حين رخصت للنديم فى إصدار صحيفة « الأستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد فى معركة الغزو اللغوى الذى كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسى والقضاء على الأمة .

وبدأ نضاله من حيث انتهى به القول فى « إضاعة اللغة تسليم للذات » عام ١٨٨١ م ، فاستأنف رده على المقال الذى كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاما ، فلم يلمه على ترك اللغة العربية وهى ليست لغة الإنجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهو أنه لدى الحكام وأصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالى وقيمته « بأن الأمة ليست كلها فى دوائر الحكومة ولا متجرة مع أوربا ، وإنما ألجأ بعض الأمة إلى تعلم اللغات الأجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الأوربى المنتقل إلى بلادنا اتجارا واستيطانا ، تعلم لغتنا ليعاملنا أو يخاطبنا بها ،، علموا هم بعض الأمة ليخدم الأوربى ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل ــ الأستاذ شميل ــ أن يبكت الذين أحيوا لغة الأجانب بإماتة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الأجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث (شميل) عن ذخائر تراثنا الذى رأى أن يلتمسها من شاء منا لدى الأجانب الذين نهبوها وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، رد عليه النديم بأن فى كلامه إقرارا بأن الإنجليزى أو الفرنساوى ، لم يفهمها إلا بعد أن تعلم لغتنا وأتقن معرفة قواعدها ، وإلا لاستحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من مخارجها فضلا

عن فهم معناها . فإذا كان الأجنبى يقدر على فهم معانى لغتنا لينقل ما فيها إلى لغته ، أفلا نتعلمها نحن للمحافظة على ما عندنا ؟ وإذا كان الأجنبى يقدر على فهم معانى لغتنا وهى أجنبية عنه ، أفلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ وأما تعليله بالأغلاط ــ فى كتب تراثنا ــ فأظنه من باب التنكيت ! فإن الذين تمدح بهم من الإفرنج ما أخذوا تلك العلوم إلا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لأنها مأخوذة من أغاليط لا صواب فيها .. فإن قيل أنهم صححوها وهى بغير لغتهم ، قلنا : أفلا يقدر أصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم أدرى بها من غيرهم ؟ وأما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فإنه منقوض بنفس القائل ، فإنه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معانى تلك المؤلفات والأخذ منها والنقل عنها كما فعل فى مؤلفاته العربية[1] مع كونه غير مشتغل بجميع العلوم العربية . فالعلماء القائمون بتعلم تلك العلوم ودارستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش . تشهد بذلك الكتب التى ألفت من القرن الأول الإسلامى إلى الآن . على أن العلوم التى أهملت فى الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت فى الغرب قد ترجمها الشرقيون إلى لغتهم وقرأوها فى مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفتها شىء مما كتب فى أوربا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنساوية أو الإنجليزية إلا فى هذه السنة ، وهى نشأة موقتة لا تمكث إلا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التى يصرفون أموالهم على المدارس التى هى فيها ، ولا يعارضهم فى ذلك معارض ، فإن الأجنبى لم ينفق على المدارس درهما ولا دينارا حتى يحتم علينا لغته التى لا حاجة لنا بها فى التدريس . (الأستاذ : ٢٠ / ٣ / ٦ / ١٨٩٣) .

* * *

وهذا الحوار بين النديم وشميل يكفى هنا لإعطاء فكرة عن أبعاد المعركة وأسلحة الفريقين فيها ، لكى نتابع قضية العربية والعلوم والحديثة فنرى أنه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلى عن لغة الأمة ، عجز عن التصدى لفرض العربية على

---

(١) ألف الأستاذ شميل فى القانون والسياسة والأدب . ومن مؤلفاته : « الوافى » فى تاريخ المسألة الشرقية ، و « المبتكر فى الأدب » (٥ مقالات + ٢٥ قصيدة) ، و « نظام الحكومة الإنجليزية » و « الدرة الجليلة فى المباحث القضائية » .

المجال العلمى ، وقد عزلت تماما عن هذا المجال ، حتى اعترف الوطنيون أنفسهم بقصورها عن أداء العلوم الحديثة ما لم تبذل جهود مخلصة لعلاج هذا القصور .

ويمكن القول أن الشعور بمحنة العربية بدأ منذ أغلقت المعاهد العلمية مدرسة الألسن فى عصر (سعيد) . ففى عام 1860دعا (أحمد فارس الشدياق) فى مجلة « الجوائب » إلى تآزر جهود المشايخ والعلماء ، لتعريب مصطلحات العلوم والفنون التى لم يكن لسلفهم معرفة بها . وحمل الدعوة من بعده (عبد الله فكرى) فى « الآثار الفكرية » عام 1876 ، ثم تولاها (النديم) فى « الأستاذ » من عام 1892 لافتا إلى واجب القائمين بالأمر فينا ، فى أن يحولوا بين اللغة وموتها ، بأحداث جمعية من مشايخ الأزهر وأفاضل العلماء العارفين باللغات الأجنبية ، ليضعوا للإصطلاحات الطبية والكيماوية والهندسية ومفردات الكلام ، أسماء عربية تدرس بها تلك العلوم .

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففى أوائل عام 1893 اجتمع فى دار السيد محمد توفيق البكرى عدد من العلماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى ، ومحمد عبده ، وحمزة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفنى ناصف ، ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد كمال .

ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد البكرى لرياسته ، ومحمد بيرم لأعمال السكرتارية . وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عددا من المصطلحات العلمية ، وكان آخر الجلسات يوم 27- 2- 1893 .

وفى العام نفسه ظهرت مجلة « المهندس » فقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الفصحى تحديا لمجلة « الأزهر » (1) ودحضا لدعوى من قالوا بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى « المهندس أحمد كامل » تحرير القسم الهندسى والرياضى و « الدكتور مهدى » تحرير القسم الطبى ، و « حسن بك حسنى » تحرير القسم الفلسفى .

وشهدت مرحلة اليقظة حركة تطور فى أساليب العربية ونهوض باللغة ، استوعبها الأستاذ العميد محمد خلف الله فى كتاب « معالم التطور الحديث فى اللغة

---

(١) مجلة آلت الى (وليم ويلكوكس) فى ديسمبر ١٨٩١ حاول أن يجعل منها منبرا للدعوة الى العامية وإماتة الفصحى .

وآدابها » (ج 1 ـــ القاهرة 1961) .

ثم شهد النصف الأول من هذا القرن عددا من علمائنا ، عكفوا فى إخلاص باذل ، على وضع معاجم للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور محمد شرف (بالإنجليزية والعربية) فى العلوم الطبية والكيمياء والطبيعة والمواليد والنبات ، ومعجم الحيوان والمعجم الفلكى للدكتور أمين المعلوف (بالإنجليزية والعربية أيضا) ، ومعجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى (بالعربية والفرنسية) ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى (بالعربية والفرنسية) . ونشرت مجلات المرحلة ـــ كمجلة المجمع العلمى بدمشق ومجلة لغة العرب ببغداد ومجلة المقتطف بمصر ـــ بحوثا علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية أو المعربة . واشتغل عدد من أعلام العصر بتحقيقات لغوية للألفاظ العلمية . منهم أحمد تيمور وأحمد زكى فى بحوثهما فى ألفاظ الحضارة وأسماء البلدان ، والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لألفاظ الفلك . ونشر الدكتور مأمون الحموى بحثا فى المصطلحات الدبلوماسية (دمشق 1949) والدكتور عدنان الخطيب فى لغة القانون (دمشق 1952) والدكتور بشر فارس فى مصطلحات فن التصوير (مصر 1945) .

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الأستاذ جريفل فى (الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف فى تحقيق أسماء نباتية طبية ، وشرح أسماء العقار لابن ميمون الأندلسى ، والدكتور رينو والأستاذ كولين ، فى شرحهما لمخطوط عربى مجهول المؤلف ، عنوانه « تحفة الأحباب فى ماهية النبات والأعشاب » .

وتألفت لجان فى مصر وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية ، وتألفت المجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها ، فتأسس المجمع العلمى بدمشق عام 1919 ، والمجمع اللغوى بالقاهرة عام ١٩٢٣ ، ثم المجمع العلمى ببغداد عام 1947 .

* * *

ولكن هذه الجهود المبذولة على مدى نصف قرن ، لم تستطع أن تعيد اللغة العربية إلى مجالها الحيوى فى الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك أن تحسم الجدل

القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الأجانب بعد أن خرج ويلكوكس ودخله الأستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسئولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى إلى جانب مسئوليتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الأستاذ واعيا لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، فى المجتمع وفى اللغة ، حريصا على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد أخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسئولة عن كل أمراضنا !

واشتدت حملته على (الأحافير اللغوية) وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد أن لغتنا تستطيع أن تجتر نفسها . وهذا الاعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التى نعانيها فى وقتنا : « لأن هذه اللغة لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر ، إذ هى لا تخدم الأمة ولا ترقيها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مائة من العلوم التى تصوغ المستقبل »[١] .

واضطرب بين الدعوة إلى العامية والدعوة إلى لغة علمية ، ليست هى لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الإلحاح فى النصح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

.. ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فنراه يتصور أننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، إذا اشتغلنا بتأليف الكتب عن أقطاب الصناعة فى عصرنا ، بدلا من التأليف فى أعلام تاريخنا .

ويطرح هذا السؤال :

« نحن نحاول أن نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرقى يعنى أننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق إلى البينات لا إلى **العقائد** ... فيجب لهذا السبب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

---

(١) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والمجامع فى هذا المجال ، اقرأ كتاب الأستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) ط لمعهد ١٩٥٥

أما اللغة العلمية ، فتعنى عنده أن كتب المطالعة فى المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة » ــ 96.

كما تعنى أن نكف عن الأساليب الأدبية ، لتكتب بلغة الأرقام واللغة العصرية .

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية : من الطب :

ــ اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع .

ــ خوف الغارات قد نفذ إلى جميع مسام المجتمع .

ــ يمشى فى تثاقل روماتيزمى .

ــ الوقف كالخثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية .

ــ يعانى تخمة ذهنية .

من الكيمياء :

ــ كان مذهب التطور من أعظم الخمائر الاجتماعية .

ومن الطبيعة :

ــ الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى .

ــ من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ...

ــ الطاقة الموطرية فى الكلمات .

ومن الميكانيكا :

ــ يرى المصباح الأحمر أينما سار .

ــ الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور

ومن الموسيقى :

ــ الحياة تفقد إيقاعها فى المرض .

ومن السيكولوجية :

ــ تجرثمت الفكرة عندى .

ولست أدرى ما قيمة هذه العبارات الركيكة التى ساقها فى باب « اللغة العصرية » (ص 75) . ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى أقلامنا بأساليب بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، وأخذة المفاجأة ، واتزان الرأى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، وفلك التصور ، وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، وأعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة الحس ، وشلل الخطى ، وعمم الوجدان ...

دون أن تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه الأساليب فى نقلنا إلى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون أن لغة القرآن التى زعموا أنها تنأى بنا عن روح عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الأعلى ، تستخدم ما يسمونه اللغة العلمية ، على نحو يتضاءل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم العصرية الهابطة ، كمثل آيات :

﴿ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ (محمد : ٢٠) .

﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾ (ابراهيم : ١٨) .

﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (النور : ٤٠) .

﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ (النور : ٤٣) .

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾ (النور : ٣٩) .

* * *

فأين من هذه الآيات المحكمات ، تجرثم الفكرة وقاطرة التاريخ والخبرة فى الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية فى الكلمات ؟ ما أرى الأستاذ سلامة موسى قدم

حلا لأزمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو إلى « الخط اللاتينى » الذى انتهت إليه آماله فى رقى الأمة وتطورها وإصلاح المجتمع ، وحامت حوله أحلامه فى عالم سعيد أو « يوتوبيا الضائعة » .

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الأستاذ عبد العزيز فهمى باقتراحه فى العدول عن الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية قصدا إلى التيسير فى ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بما يغنى عن ضبطها بالشكل .. فتلقف الكاتب المصلح « الأستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا فى حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وأدى بنا التفكير إلى اليقين بأن إصلاحها مستطاع . والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار أعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجرىء إلا فى رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم أمين ، أو أحمد أمين فى الدعوة إلى إلغاء الإعراب ، ومثل عبد العزيز فهمى حيث يدعو إلى الخط اللاتينى والواقع أن اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا (؟!) التى أغلق عليها هذا الخط أبواب **ماضيها** وفتح أبواب مستقبلها .

« وهذا الاقتراح يحتاج أولا إلى إلغاء الإعراب » وميزاته :

« أولا : الاقتراب من التوحيد البشرى لأنه وسيلة القراءة والكتابة عند **المتمدنين** الذين يملكون الصناعة ، أى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الأمم التى ترغب فى التجدد كما فعلت تركيا . ومن المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله تقريبا .

« وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتينى يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان **المشئومتان** : شرق وغرب ، فلا نتغير من أن نعيش العيشة العصرية . ولا بد أن يجر هذا الخط فى أثره كثيرا من ضروب الإصلاح الأخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية أيضا ، إلخ .

« وثالثا : ورابعا وخامسا ...

« وسادسا : أننا عندما نكتب بالخط اللاتينى نجد أن تعلم اللغات الأوربية قد سهل أيضا ، فتنفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة .

« وبالجملة نستطيع أن نقول أن الخط اللاتينى هو وثبة فى النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ » (1)

* * *

فهل الأمر حقيقة بمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا — القدوة والمثال — أن تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعى والرقى العلمى ما بلغته اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا — والإنكليزية لغتها الرسمية والثقافية ، أن تملك من العلم والقوة والمستقبل مالا تملكه مصر أو المغرب مثلا ؟

أو هل خرج السودان الجنوبى — ولغته الإنجليزية — من الشعوب المتخلفة إلى الدول المتمدنة ، وتحرر من الكلمتين المشئومتين : شرق وغرب ، فاستطاع أن يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمى والنفسية العلمية ، وانفتحت أمامه آفاق موصدة فى وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التى يجبن عن التخلى عنها ، رجال تعوزهم الجرأة والنباهة كيلا يبالوا الجهلة والحمقى ؟

لكن هذه الدعاوى العريضة التى لا تصمد لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غربيا « لأن هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر إذ هى لا تخدم الأمة ولا ترقيها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التى تصوغ المستقبل وتكفيه » — كما أكد سلامة موسى فى كتابه « البلاغة العصرية واللغة العربية » .

بل أخشى أن أقول أنها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن

---

(١) سلامة موسى : « البلاغة العصرية » ص ١٠٩ .

مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر ..

ومن هنا كان الخطر ..

فالأمة حين تحس هجوما على عناصر ذاتها ومقومات أصالتها ووجودها من أجنبى غريب عنها مهما يكن زيه أو قناعه ، تتحفز لاتقاء الخطر فى مواجهة عدو سافر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه إلى حد الرفض والتحدى .

أما حين تنتقل السهام إلى أيدى نفر من أبنائها فإن الخطر يأتى من حيث لا تتوقع ، ودون أن تتأهب لاتقائه بشىء من التوجس والحذر والارتياب .

وما يكتبه الأجانب عن عقم العربية ، قلما يصل إلى مجال التأثير العام بحكم عزلة الجماهير ونفورها من الأجنبى ، وإنما يصل إليهم عن طريق المثقفين الذين ينتمون فكريا إلى الغرب ، وهم عادة ينفقون إلى المجال الثقافى بدعوات إصلاحية تقدمية ، ثم لا يلبثون أن يكتشفوا فى شخصيتهم لأمراض المجتمع ، أن لغتنا العربية هى علة العلل وأصل الداء ، والقيد الباهظ الذى يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الأصم الذى يحجز بيننا وبين آفاق العصر .

ويمضى وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعى القومى لمواجهة الخطر ، لكن بعد أن يحدث الضجيج أثره فى المناخ الفكرى للأمة ، بحيث تحتاج إلى جهد شاق يستغرق أمرا لكى تسترد اتزان خطاها وصفاء أفقها .

وفى قضية « العربية والعلوم الحديثة » كانت دعوى عجز هذه اللغة وعقمها ، من جانب « سبيتا ، وويلكوكس ، وويلمور » ، وغيرهم من الأجانب الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لو لم تجذب إليها عددا من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا فى التقدمية والتطور والاشتراكية . وعن طريقهم أخذت مجراها فى حياتنا القومية .

وكان ربط تخلفنا العلمى والثقافى والاجتماعى والحضارى ببداوة العربية وجمودها ، هو الذى مكن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من صدق عن جهل أو غفلة ، وتحير المثقفون العرب الأصلاء من أمر لغتهم التى عرفوا تاريخها العلمى ..

وكان رأى الكثرة من علمائنا ، أن العلوم الحديثة تقدمت أشواطا بعيدة المدى عن العهد بها أيام آبائنا الأقربين ، فضلا عن جيل اليقظة فى القرن الماضى الذى عرب علوم زمنه .

وعلى مدى نصف قرن أو أكثر ، شهدت حياتنا اللغوية ما أشرنا إليه من جهود فردية سخية لوضع المصطلحات العلمية فى اللغة العربية ، إلى جانب ما قامت به الهيئات العلمية من جهود فى هذا الميدان .

وتمضى عشرات السنين ..

وما تزال لجان المصطلحات العلمية ، حتى يومنا هذا ، تتابع عقد جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت فى تقاريرها أو مجلاتها ، ما يستقر عليه الرأى من مصطلحات علمية . وما يزال مركز تنسيق التعريب فى الرباط يوالى إرسال رسائله إلى علماء الوطن العربى يستفتيهم فى مشكلات تعريب العلوم .

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق ، يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا ، وقد يكفى أن أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

ــ مختارات من رسائل جابر بن حيان ، (ت 198 هـ) تحقيق بول كراوس ــ ط الخانجى بالقاهرة 1935 .

ــ « المختصر فى حساب الجبر والمقابلة » ، للخوارزمى (ت 236 هـ) ــ د . على مشرفة ، و د . محمد مرسى أحمد ــ القاهرة 1937 .

ــ « صورة الأرض » ، للخوارزمى ، [(١)] ظهرت منه طبعة كاملة بمعرفة متزك ، وبحوث عنه بقلم تاللينو (1895) ومتزك وهو نجمان (1929) . ويقول كراتشوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعا لنللينو ، وبارتولد ، بأنه لا يوجد شعب أوربى واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن أن يقارن بهذا الكتاب الذى ألفه

---

(١) الكتاب ذكره أبو الفدا باسم « رسم الربع المجهول » ودرسه المؤرخ البولندى ليلويل (Lelewuel)وخرج بدعوى أعلنها ، هى أن الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف أغريقى عاش فى بلاد الإسلام ، من المصادر الإسلامية لكن دعواه انهارت من أساسها بعثور « سبيتا » على أصل المخطوط العربى بالقاهرة سنة ١٨٨٣ وقد لفت إليه العلماء بمقالين نشرهما فى عامى ١٨٧٩ و ١٣٨٨ ، ثم إنتقل المخطوط بعد وفاته سنة ١٨٨٣ إلى ستر =

الخوارزمى ، أكبر رياضى عصره ، وواحد من أكبر رياضى جميع العصور على الإطلاق ، إذا أخذنا فى حسابنا اختلاق الظروف » .

ـــ « الذخيرة فى علم الطب » لثابت بن قرة (ت 288هـ) ـــ تحقيق الدكتور جورجى صبحى ـــ ط الجامعة المصرية 1928 .

ـــ« الحسن بن الهيثم » بحوثه وكشوفه البصرية (ت 422 هـ) ـــ الأستاذ مصطفى نظيف ـــ الجامعة المصرية 1942 .

ـــ « استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها » للبيرونى (ت ٤٤٠ هـ) .

ـــ أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية للنشر بالقاهرة .

ـــ « الآثار الباقية » لأبى الريحان البيرونى ـــ معهد الاستشراق ، طشقند .

ـــ « كتاب الجماهير فى معرفة الجواهر » للبيرونى ـــ كرنكو ، حيدراباد 1937 .

ـــ « القانون المسعودى » فى الهيئة والنجوم ، للبيرونى . د . بول كراوس .

ـــ « القانون فى الطب » ، للرئيس ابن سينا (ت 428 هـ) ، 13 جزءا ، ط بولاق 1877 ، طشقند 1956 .

ـــ « الشفاء » فى المنطق والطبيعات والإلهيات لابن سينا ـــ المجمع اللغوى بالقاهرة ، 1951 ، 1965

ـــ « شكل القطاع » لنصير الدين الطوسى ، (ت 673 هـ) ـــ الأستانة ، سنة 1309 هـ

- « المعتمد فى الأدوية » لابن البيطار (ت 646 هـ) ـــ الأستاذ مصطفى السقاء ـــ ط الحلبى 1951 .

ـــ « الفوائد فى أصول علم البحار » لأمد بن ماجد ـــ ق 9 هـ ، ط باريس 1924

= اسبورج . انظر كراتشوفسكى فى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ص ٦٨ من الطبعة الأولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم .

ـــ « ثلاثة راهمانجات ـــ أراجيز ، فى علم البحار » لأحمد بن ماجد ـــ شوموفسكو ، موسكو 1957 .

ـــ « بحوث قيدمان فى كتاب « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » لقطب الدين مسعود الشرازى ت 634 هـ) ، تلميذ العالم الفلكى نصير الدين الطوسى . وفى الكتاب مباحث فى الكوزمولوجيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات .

ـــ وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب الفلكى والجغرافى والملاحى ، فى فهارس كراتشكوفسكى لكتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، وفى كتاب نللينو : « الفلك عند العرب » .

إلى جانب ما نشر علماؤنا من بحوث فى المجلات العلمية ، بمصطلحات عربية أو معربة فى العلوم . تجدون بيانا لها فى محاضرات الأمير مصطفى الشهابى : « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » .

* * *

ولا أثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل إلى حياتنا العلمية ، ودعونا من حياتنا العامة التى التقطت من بعض مصطلحات المعجمين ، ما اتخذت منه موضوع فكاهة ومادة تندر ..

والمفروض أن جهود العلماء فى نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، واستكمال الحركة العلمية فى التأليف والترجمة لمطلع العصر الحديث فى النصف الأول من القرن الماضى ... كانت موجهة إلى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها فى تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل كل جديد مستحدث إلى المكتبة العلمية العربية .

لكن الذى حدث هو أن الكليات العلمية فى جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات ... باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، وكأن الجامعات فى واد وجهود العلماء والهيئات فى تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها فى واد آخر .

باستثناء كلية الطب فى الجامعة السورية ، التى تأسست فى دمشق سنة

1919 ــ فى عهد الملك فيصل الأول ، باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية . وكان مجلس أساتذتها أشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيها المصطلحات التى جاءت فى تراثنا من كتب الطب ، وفى الكتب المصرية التى ألفها علماؤنا ، فى عهد محمد على ، والكتب التى ألفها أساتذة الطب فى جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية إلى اللغة الإنجليزية .

واستطاع أساتذة دمشق أن يؤلفوا كتبا قيمة فى فروع الطب المختلفة ، وفى الكيمياء والفيزياء والمواليد .

فألف الدكتور مرشد خاطر سفرا فى علم الجراحة من ستة مجلدات ، وأوجزها فى مجلدين .

وألف الدكتور أحمد حمدى الخياط كتابا فى علم الجراثيم ، والأستاذ محمد جميل الخانى فى علم الطبيعة ، والدكتور حسنى سبح فى الأمراض الباطنية (٧ مجلدات) ، والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبى فى الكيمياء ...[١]

ولكن هذه التجربة الناجحة فى العربية لم تتكرر ..

بل لم تستطع ، بعد أن طال بها الزمن أربعين عاما ، أن تقنع جامعات مصر وبيروت والخرطوم بتعريب كلياتها العلمية .

وكانت المفارقة العجيبة أن جامعة الأزهر ، أعرق جامعة إسلامية ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الإنجليزية للتدريس فيما استحدثتا من كليات علمية[٢] .

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت إلى باب مسدود ...

* * *

---

(١) لكلية طب دمشق جهود أخرى فى الميدان : أشار اليها الأمير مصطفى الشهابى : المصطلحات ص ٥٨ .
(٢) تعربت الدراسة فى الكلية الطبية ببغداد أيضا ، فى الأعوام الأخيرة .

ثم كان الفصل الأخير من هذه القصة المعقدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى فى (دار مير) للطباعة الحديثة سنة ١٩٦٨ !

ولم نسمع أن لجانا عقدت لبحث مشكلات هذا التعريب ، أو أن جدلا أثير حول صلاحية اللغة العربية لاستيعاب علوم العصر !

وإنما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذى ألفه :

* ف . تسيجيلسكى : اللحام الكهربائى .
* س . فومين : المرجع لملاحظى عمال الخراطة والعمال الفنيين .
* ماليشيف ، ونيكو لاييف ، وشوفالوف : أسس الميكانيكا العملية .
* أفروتين : أسس تشغيل المعادن .
* جلاجوفا : الدوال ومنحنياتها .

ما أقسى الدلالة التى تعطيها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موسكو ، بعد كل ماتضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات المجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن من الزمان !

وما أبلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعقدت أزمتنا به .

لقد بدأت القضية بعزل الاستعمار لغتنا عن العلم ، ثم الدعوة إلى هجر لغتنا واستعارة الإنجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكأن هاتين اللغتين دون الألمانية أو الروسية أو اليابانية مثلا ، هما المفتاح السحرى لكنوز العلم .

وانتهت بكتب (دار مير) للطباعة فى موسكو ، فى عصر غزو القمر .

فأين نحن من البداية والنهاية ؟

وحين أقول : انتهت القصة ، فإنى أعنى أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهى ، من حيث هى قضية لغوية ظلت مطروحة أكثر من نصف قرن ، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية ...

ويبقى أن يلتمس الباحثون أسبابا أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها ، من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح أننا فى تبرير موقف جامعاتنا بهذا العقم فى العربية ، والتماسنا شتى الوسائل لعلاجه ، كنا كمن يحرث فى البحر ...

وإذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التى جاءتها من الأجانب الغرباء ومن أبنائها المتغربين ، تحاربنا باللهجات العامية حينا وبالخط اللاتينى حينا آخر ، وتتهمها بالبداوة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر .

أقول إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلأنها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت * .

* محاضرة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء : أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس) .

ملحق رقم (٣)

من الأخطاء الشائعة

أ . حسن الجافى

١ ــ خطأ كلمة « أحفاد »

يقال : هذا المعمر له أحفاد كثيرون .

والصواب هذا المعمر له « حفدة » كثيرون أو « حفداء » .

والسبب : أن المفرد إما :

أ ــ « حافد » وجمعه جمع تكسير « حفدة » مثل كاتب وكتبه وساحر وسحرة ، ولا يصح جمع « حافد » على « أحفاد » مع كثر شيوعه فهو خطأ : قال تعالى فى سورة النحل من آية ٧٢ : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ .

ب ــ وإما « حفيد » وجمعه جمع تكسير حينئذ « حفداء » مثل كريم وكرماء وعظيم وعظماء ، ولا يصح جمع « حفيد » على « أحفاد » فهو خطأ : قال الشاعر : يفخر بشجاعة حفدائه وبأس آبائهم والجدود :

حفداؤنا قبل الشباب جميعهم ... أبطال حرب فى الوغى آساد

نسل الأسود عن الجدود فكلهم ... يوم الوغى ليست لهم أنداد

٢ ــ خطأ كلمة « البواسل »

يقال : كان البطل عمر المختار من القواد البواسل .

والصواب : كان البطل عمر المختار من القواد الباسلين أو « البسّل » كركع أو البسلاء كعظماء ، أو « البسيلين » كعليمين أو البسلين كفرحين أو البسل مثل

بازل وهو الجمل فى سنته التاسعة وبزل « بضم فسكون » أو البسال مثل عاذل وعذال .

ذلك أن المفرد من هذه المادة يأتى على عدة صور « أوزان » كما فى القاموس المحيط والمعجم الوسيط والمختار من صحاح اللغة فهو :

أ – أما « باسل » وهو أكثرها دورانا ، وباسل : إما أن يجمع جمع مذكر سالما « باسلون – باسلين » وإما أن يجمع جمع تكسير على بسل كراكع وركع أو بسل مثل بزل أو بسال مثل عاذل – عذال » ولا يصح جمع باسل على « بواسل » بوزن « فواعل » لأنه يشترط فى « فاعل » الوصف المذكر الخالى من التاء الذى يجمع على « فواعل » أن يكون لغير العاقل مثل جبل شاهق وجبال شواهق ، وحصان صاهل وحصن صواهل و « باسل » صفة لمذكر عاقل خال من التاء فلا يجمع على « فواعل » « بواسل » كما فى كتب الصرف فى باب جمع التكسير .

وشذ من هذه القاعدة : فارس وفوارس وهالك وهوالك وناكس بمعنى خاضع ونواكس فقد سمعت عن العرب كما فى كتب الصرف .

أما النوابغ فهو مرجع « نابغة » وفاعل إذا كانت فيه التاء « فاعلة » وهو وصف لمذكر عاقل يصح جمعه على « فواعل » .

ب – وأما « بسيل » ويجمع جمع تكسير على بسلاء مثل : كريم وكرماء ، أو جمع مذكر سالما « بسيلون بسيلين » مثل « عليمون وعليمين » .

جـ – وأما بسل « بفتح وكسر » ويجمع هذا الوزن جمع مذكر سالما على « بسلون بسلين » مثل « فرح » تقول فى جمعها « فرحون وفرحين » قال تعالى : فى سورة الروم آية ٣٢ فى الحديث عن المشركين : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ..

ومما تقدم يعرف أن أى مفرد من هذه إفادة لا يجمع على « فواعل » بواسل فهذا الجمع خطأ بالرغم من كثرة دورانه ...

٣ – خطأ كلمة « الخضروات »

يقال : لا تأكل الخضروات قبل غسلها جيدا .

والصواب : لا تأكل الخضر قبل غسلها جيدا « بضم الخاء وسكون الضاد » ..

والسبب : أن المفرد المؤنث من « الخضروات » – « الخضراء » – على وزن فعلاء ... والمفرد المذكر « أخضر » على وزن أفعل ويشترط فيما يجمع جمع مؤنث سالما مما زيدت فيه ألف التأنيث الممدودة مثل « خضراء » ألا يكون المفرد المذكر على وزن أفعل ، وخضراء مذكرها « أخضر » فلا يصبح حينئذ أن تجمع جمع مؤنث سالما على « خضروات » وإنما تجمع جمع تكسير على « خضر » بضم فسكون « عملا بالقاعدة الصرفية المشهورة » وهى : كل مالا يجمع مذكره جمع مذكر سالما لا يجمع مؤنثه جمع مؤنث سالما و « أخضر » لا يجمع جمع مذكر سالما لمخالفته شروط هذا الجمع التى يشترطها النحاة فلا تجمع خضراء جمع مؤنث سالما : قال تعالى فى سورة الإنسان من آية ٢١ فى جزاء الأبرار بالجنة : ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴾ .

ومثل خضراء – حمراء وزرقاء وسوداء وبيضاء – : فكلها لا تجمع جمع مؤنث سالما وإنما تجمع جمع تكسير على حمر وزرق وسود وبيض « مع كسر الباء فى بيض لمناسبة الياء » قال تعالى فى سورة فاطر من آية ٢٧ فى بيان ما خلق الله وآثار قدرته : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ .

وقال بشار بن برد :

للبخيل على أمواله علل   زرق العيون عليها أوجه سود

وقال أبو تمام يرثى على سبيل الاستئناس عظيما مات فى الحرب :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى   لها الليل إلا وهى من سندس خضر

٤ – خطأ كلمة « الرسومات »

يقال : بمقابر الفراعنة رسومات رائعة .

والصواب : بمقابر الفراعنة رسوم رائعة .

والسبب : أن « الرسومات » جمع رسوم ، ورسوم جمع « رسم »

فالرسومات جمع الجمع وجمع الجمع سماعى عن العرب يعرف ماورد منه عن كتب اللغة وأفواه العارفين ولم ترد « رسومات » . وكذلك أهرامات . وإنما وردت جموع أخرى .

منها بيوتات جمع بيوت ، وبيوت جمع بيت ، ومنها أقاوم جمع أقوام ، وأقوام جمع قوم ، كما فى كتب اللغة والصرف ..

قال تعالى فى سورة المرسلات آيتى ٣٢ ـــ ٣٣ فى وصف ما يتطاير من النار يوم القيامة . ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ﴾ .

وقال الشاعر يمدح جماعة من الرجال بالشجاعة وشرف النجار :

نعم الرجال الباسلون فإنهم   نشئوا جميعا فى بيوتات الشرف

وقال الشاعر يفخر بشجاعة فوارسه :

تلك الأقاوم ذاقوا من فوارسنا   كأس المنون فأضحوا كلهم رمما

٥ ـــ خطأ الفعل « يحبذ »

يقال : من وسائل النصر فى الحروب على العدو مفاجأته ولذلك يحبذ القواد الهجوم المفاجىء .

والصواب : ولذلك يفضل « يؤثر » أو « يؤيد » أو « يمتدح » القواد .... إلخ .

والسبب : أن حبذا ماضى المضارع « يحبذ » فعل جامد مثل « ليس » فلا يتصرف : أى لا يأتى منه المضارع أو الأمر أو أى مشتق كاسم الفاعل مثلا : « محبذ » ، ومن هنا فالمضارع « يحبذ » خطأ واسم الفاعل « محبذ » خطأ أيضا ، فلا يصح أن تقول :

أنا « محبذ » التعجيل بالصلح ، وإنما الصحيح أن تقول :

أنا مفضل أو مؤثر أو ممتدح التعجيل بالصلح .

خطأ استخدام الكلمات الأربع الآتية :

« التعاسة ، التعيس ، تعساء ، نشط »

يقال : أ ـــ فلان تلازمه التعاسة .

والصواب : فلان يلازمه التعس . « بفتح التاء المشددة والعين أو التعس بفتح التاء المشددة وسكون العين »

ب ـــ فلان تعيس الحظ .

وفى « ب » فلان « تعس الحظ بكسر التاء والعين .. »

جـ ـــ هؤلاء قوم تعساء .

وفى « جـ » هؤلاء قوم تعسون « بوزن » فرحون .

د ـــ فلان نشط فى عمله .

وفى « د » فلان نشيط فى عمله . بتنوين الطاء ..

والسبب أن الكلمات الأربع الأولى وهى : تعاسة ـــ وتعيس ـــ وتعساء ـــ ونشط « بتنوين الطاء » لم ترد فى كتب اللغة ..

خطأ كلمة مزركش

يقال : هذا الثوب مزركش .

والصواب : هذا الثوب مبرقش ..

والسبب : أن كلمة مزركش غير عربية فهى فارسية أما اللفظ العربى الذى يؤدى معناها فهو « مبرقش » اسم مفعول من « برقش » كما جاء فى المعجم الوسيط إذ يقول برقش الشىء نقشه بألوان شتى وبرقش الشىء زينه .

فاسم المفعول من برقش حينئذ « مبرقش » وهو مايؤدى معنى « مزركش » الكلمة الفارسية وعلى سبيل الاستئناس قول الشاعر فى وصف غانية :

ولم يزد حسنها ثوب تبرقشه   فحسنها فائق عن كل تجميل

الخطأ فى استعمال أساليب يأتى فيها خبر المبتدأ منصوبا مع أنه واجب الرفع ..

أكثر ما تذكر هذه الأساليب الخاطئة فى الإذاعة والصحف وتقل فى الكتب الدراسية ..

فيقال : أ ــ الادخار معروف منذ بدء الخليقة للإنسان والحيوان وذلك محافظة على النوع « بنصب محافظة »

ب ــ صدر هذا القرار وذلك تحقيقا لأهداف التنمية ..

جـ ــ حكم فى قضية كذا .. وذلك وفقا لنص المادة كذا ..

د ــ زيد عدد السيارات العامة وذلك تنفيذا لأمر الوزير ..

هـ ــ نال فلان جائزة نوبل وذلك بناء على ماقدمه للبشرية من خدمات جليلة « بنصب بناء » ..

والصواب فى أ ــ الادخار معروف من بدء الخليقة للإنسان والحيوان وذلك محافظة على النوع « برفع محافظة »

على حذف مضاف تقديره ذو : أى وذلك ذو محافظة .... الخ .

وكذلك يقال فى الباقى ب ، جـ ، د ، هـ : أى برفع ما بعد اسم الإشارة مباشرة مع تقدير حذف مضاف « ذو » فى الجميع .

والسبب : إن « ذلك » فى الجميع « مبتدأ » وما بعدها مباشرة خبر فى المعنى لاسم الإشارة ولذلك يجب رفعه ولا يصح نصبه بأية حال : قال تعالى فى سورة البقرة آية « ١٧٨ » :

﴿ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ .

برفع « تخفيف » خبرا لاسم الإشارة قبله الذى يعرب مبتدأ .

تتمـــة

يصح تصويب الأساليب الخمسة السابقة الخاطئة بصورة أخرى أخصر ، وذلك بحذف اسم الإشارة والواو التى قبله وبقاء ما بعد اسم الإشارة مباشرة منصوبا

على أنه مفعول لأجله فتقول : فى أ ـــ الإدخار .. والحيوان محافظة على النوع بنصب « محافظة » .

وفى ب ـــ صدر هذا القرار تحقيقا لأهداف التنمية وهكذا فى الأساليب الباقية وما يماثلها وبالطبع لا يصح هذا الوجه فى الآية الكريمة المذكورة .

أخطاء شائعة

حسن الجافى

ب

الأخطـــاء فى العدد (١)

لعل الخطأ فى باب العدد أكثر من غيره من أبواب النحو الأخرى ، ويشيع الخطأ فى الأعداد من عدة وجوه ، نذكر منها فى هذا المقال وجهين هما :

(أ) الخطأ فيما يميز العدد ويفسره من ٣ ــ ١٠ ، والخطأ فى ١ ، ٢ .

(ب) عطف العدد على مثله .

يقال : (١) : اعتمدت الحكومة لمشروع ٢٠٠٠٠٠ مليون جنيه من جملة تكاليفه البالغة ٣ مليون جنيه .

(٢) : سافر الضيف الكبير فى الساعة العاشرة وخمسين دقيقة من صباح اليوم ، وكلا الأسلوبين خاطىء والخطأ فيهما كثير جدا . والصواب :

فى (أ) اعتمدت الحكومة لمشروع .... هذا العام مليونى جنيه من جملة تكاليفه البالغة ثلاثة ملايين .

وفى (ب) سافر الضيف الكبير فى الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين من صباح اليوم .

والسبب فى (أ) أن العدد (اثنين) لا يصح أن يذكر بعده المعدود الذى يفسره ويميزه فلا يقال (٢ مليون) و (٢ رجل) و (٢ امرأة) ، بل يكتفى بذكر المعدود مثنى بدله فيقال : (مليونى جنيه) كما فى التصويب ، و (رجلان أو رجلين وامرأتان أو امرأتين) بحسب ما يستدعى الأسلوب من الرفع والنصب والجر .

ومثل (٢) فى هذا الحكم العدد (١) فلا يقال مثلا : هنا واحد رجل ، ولا هناك واحدة امرأة ، فكل هذا تعبير أجنبى خاطىء ، وإنما الصحيح أن يقال : هنا

رجل ، وهناك امرأة . قال تعالى فى سورة البقرة من آية (٢٨٢) : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ﴾ فلم يقل (٢ شهيد) ولم يقل (٢ رجل) ولم يقل (٢ امرأة) . وقال تعالى فى سورة النساء من آية (١٢٨) : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ فلم يقل : وإن (واحدة امرأة) .

تتمة : للعددين ١ ، ٢

ما تقدم من أنه يكتفى بالمعدود مع العددين (١، ٢) هو الواجب إذا لم يرد المتكلم التوكيد ، أما إذا أراد المتكلم التوكيد فحينئذ يذكر المعدود أولا وبعده العدد (لا قبله فهو خطأ كما تقدم) فيقال : هنا رجل واحد ، وهناك امرأة واحدة ، وهنا رجلان اثنان وهناك امرأتان اثنتان (أو ثنتان) .

* * *

وإذا كان المقام يدل على نوع من تتحدث عنه وعدده : هل هو رجل أو امرأة ؟ وهل هو رجلان أو امرأتان ؟ جاز الاكتفاء بذكر العدد ، وجاز عدم الاكتفاء به فيذكر معه المعدود ، أو يذكر المعدود وحده ، فإذا قيل لك : كم شغالة تريد ؟ جاز لك أن تقول فى الإجابة : واحدة ، وجاز : شغالة واحدة ، وجاز : شغالة ، ومن نوع الإجابة الأولى قوله تعالى فى سورة النساء آية (٣) : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ : فواحدة : أى امرأة واحدة أو زوجة واحدة بذكر العدد فى الآية الكريمة فقط لدلالة المقام والسياق ، وعلى سبيل الاستئناس فى هذا النوع قول الشاعر :

يكفيك فى التزويج واحدة　　　فإذا تزيد تزيد من تعبك

* * *

أمـا السبب فى أن (٣ مليـون جنيـه) خطـأ فى أسلـوب (أ) السابـق فهـو أن الأعداد من (٣ ــ ١٠) يجب أن يكون المميز المفسر بعدها جمعا مجرورا ، فيجب أن يقال : (ثلاثـة ملايين جنيـه) . قال تعـالى فى سورة آل عمـران من آيـة (٤١) :

﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ ، وقال تعالى فى سورة الحاقة من آية (٧) : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ .

والسبب فى (ب) أن الـواجب فى العـدد المعطـوف على عدد آخـر أن يتفقـا فى التعريف والتنكير ، وفى العبارة الخاطئة (ب) المعطـوف (خمسين دقيقـة) وهـى نكـرة والمعطوف عليه (الساعة العاشرة) وهـو معرفـة ، وهـذا لا يصـح ، ولـذلك حينما قيـل (الخمسين دقيقة) صح العطف إذ صار المعطوف معرفة كالمعطوف عليه .

ومثالهمـا نكـرتين : استذكـرت أربـع ساعــات وخمس دقائـــق (ولا يصح إن اختلفا) .

وسنذكـر بقيـة أوجـه العـدد التـى يكثر فيها الخطـأ بدرجـة كبيرة فى مقـال تال بمشيئة الله .

* * *

(٢)

الخطـأ فى استعمـال الصفـة على وزن (فعيـل) بمعنـى مفعـــول الجاريـــة على موصوفها ، واستعمال الصفة على وزن (فعول) بمعنى فاعل الجارية على موصوفها :

يقال : (أ) بنى غازى الجريحة الحسناء (وهو عنوان فرعـى فى موضوع بكتـاب مطالعـة للصف الأول الثانـوى ببلـد عربى (غير ليبيـا) من نحو عشر سنـوات حتـــى عام ٧٥ ــ ٧٦) .

(ب) هذه خطة طموحة .

والصواب فى (أ) بنى غازى الجريح إلخ .

وفى (ب) هذه خطة طموح .

بدون تاء تأنيث فيهما .

والسبب فى (أ) : أن الصفة على وزن فعيل بمعنى مفعول الجارية على موصوفها (بنى غازى) يجب ألا تلحقها تاء التأنيث ، بل يستوى فيها المذكر والمؤنث تقول : رجل جريح وامرأة جريح ، ورجل قتيل وامرأة قتيل ، وشذ عن هذه القاعدة : امرأة حبيبة بمعنى محبوبة ، وصفة ذميمة بمعنى مذمومة وفى لسان العرب من مادة (جرح)

مزيد شرح .

أما قوله تعالى فى سورة المدثر آية (٣٨) : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

فقد قال النحاة : إن رهينة هنا ليست صفة ، وإنما انتقلت إلى الاسمية ، وأن المعنى : كل نفس رهن بما كسبت ، فرهينة أصبحت اسما غير صفة فلا تنطبق عليها هذه القاعدة .

* * *

وكذلك قال النحاة فى قوله تعالى فى سورة المائدة من آية (٣) : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ﴾ ـــ قالوا : إن النطيحة فى الآية خرجت عن الصفة وأصبحت اسما فلا تنطبق عليها هذه القاعدة أيضا .

إما إذا كانت (فعيل) بمعنى فاعل فتلحق التاء المؤنث تقول : امرأة رحيمة بمعنى راحمة .

وإذا لم تجر الصفة (فعيل) على موصوفها لحقت التاء المؤنث أيضا منعا للبس : تقول : عثرت المباحث الجنائية أمس على قتيل وجريح ، واليوم عثرت على قتيلة وجريحة .

أما فى حالة جريانها على موصوفها فلا لبس إذ الموصوف كاف فى منع اللبس : امرأة قتيل ، وامرأة جريح .

والسبب فى (ب) أن الصفة على وزن (فعول) بمعنى فاعل الجارية على موصوفها يجب ألا تلحق التاء المؤنث ، بل يستوى فيها المذكر والمؤنث : تقول رجل

صبور وامرأة صبور ، ورجل غضوب وامرأة غضوب ، ومن هنا يجب أن يقال : خطة طموح لا طموحة : قال تعالى بسورة مريم فى قصة السيدة مريم آية (٢٨) : ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ : (فإن (بغيا) أصلها (بغويا) على وزن (فعولا) أى أنها صفة على وزن (فعول) قبل زيادة الألف فى حالة النصب (بغوى) . اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فى الياء بعدها ، ثم كسرت الغين لمناسبة الياء المشددة ، فصارت (بغيا) فى حالة النصب ، إذ هى هنا خبر لكانت .

وعلى سبيل الاستئناس قول الشاعر :

ركوب الصعب فى نيل المعالى　　　له نفس طموح لا تبالى

وشذ عن هذه القاعدة كلمة (عدوة) عند من ألحق التاء بها ، إذ سمعت بالتاء ومن غير تاء للمؤنث .

وأما إذا كانت الصفة على وزن فعول بمعنى (مفعول) لا فاعل ، أو كانت بمعنى (فاعل) ولم تجر على موصوفها فإن التاء تلحق المؤنث فى الحالتين تقول : جمل ركوب وناقة ركوبة وتقول : كنت أمس غضوبا وأنت اليوم غضوبة .

* * *

(٣)

الخطأ الشائع كثيرا من استعمال كلمة (بعض) المضافة : يقال :

(أ) وقف الجنود وراء بعضهم .

(ب) وضعت الكتب على المكتب فوق بعضها ، وكلتا العبارتين خطأ والسبب :

فى (أ) أن الأسلوب : (وقف الجنود وراء بعضهم) ــ يفيد أن الجنود قسمان : القسم الأول هو كل الجنود ، والقسم الآخر هو بعض الجنود ، وهذا التقسيم غير صحيح ، إذ لا يمكن أن يقف كل الجنود وراء بعض الجنود ، فما دام كل الجنود قد وقفوا أولا ، لا يمكن أن يوجد بعض منهم يوقف (بالبناء للمجهول) وراءهم ، ففى الأسلوب تناقض وخلف كما يقول المناطقة ، وحينئذ فالصحيح ما جاء

في التصويب وهو : وقف الجنود بعضهم وراء بعض . وبمثل هذا البرهان يقال فى تخطئة العبارة (ب) وتصويبها .

أما فى مثل : كافأ الوزير بعض العاملين فى وزارته ـــ فاستعمال (بعض) هذا صحيح .

تتمـــة

ذهب أكثر اللغويين والنحويين إلى منع دخول الألف واللام على (بعض) ومقابلها (كل) فلا يجوز أن تقول (الكل والبعض) كما هو شائع كثيرا وحجة هؤلاء أمران :

الأول ـــ أن ذلك لم يسمع عن العرب ، وفى القاموس المحيط عند الحديث عن كلمة (بعض) إشارة إلى هذا ، وتجهيل لمن يدخل عليها (بعض) الألف واللام من أئمة اللغويين والنحويين .

الآخر ـــ أن القرآن الكريم والحديث الشريف قد وردت فيهما كلمتا (كل وبعض) خاليتين من الألف واللام ، وورود كل منهما إما : مضافة لفظا وإما مقطوعة عن الإضافة مع نيتها معنى كما يقول اللغويون والنحاة : قال تعالى فى سورة الإسراء من آية (٣٦) : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ ، وقال تعالى فى سورة الإسراء أيضا من آية (١٣) ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ ، وقال عليه السلام من حديث شريف « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » : ففى الآيتين والحديث (كل) مضافة لفظا .

وجاءت منقطعة عن الإضافة لفظا مع نيتها معنى فى قوله تعالى فى سورة الإسراء من آية (٨٤) : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ .

أما (بعض) فجاءت فى سورة الإسراء من آية (٢١) مضافة لفظا مرة ومنقطعة عن الإضافة مع نيتها مرة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ .

وجاءت مقطوعة عن الإضافة مرتين مع نيتها فى البيت الآتى :ـــ

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

أى بعضهم لبعضهم .

ورأى أن ما ذهب إليه أكثر اللغويين والنحويين هو الذى يجب أن يتبع فى الاستعمال العربى الصحيح الفصيح .

(جـ)

خطأ استعمال المفردات الآتية الشائعة كثيراً وهى خاطئة : إما لأنها غير واردة فى اللغة الصحيحة ، وإما لما جاء بعدها ، أو لاستعمالها فى غير معناها بغير طريق المجاز ، أو لعدم استكمالها شرط صحة استعمالها ، وتصويب كل كما سيأتى فى البيان الآتى :

(١)

يقال خطأ : عند هذا الغنى مال وفير : والصواب : وافر : وذلك لأن (وفير) غير وارد فى اللغة الصحيحة ، وعلى سبيل الاستئناس قول الشاعر :

عجباً ترى النحرير قد صفرت يداه   وجاهلا بيديه مال وافر

(٢)

ويقال خطأ : (قفل) التاجر محله وظل (مقفولا) طوال يوم الجمعة : والصواب : (أقفل) التاجر محله وظل (مقفلا) طوال يوم الجمعة : والسبب : أن قفل (الثلاثى) لم يرد فى اللغة الصحيحة بمعنى إغلاق الباب وإقفاله ، وإنما معناه — كما فى كل كتب اللغة — رجع : تقول : هجم الفدائى على مستعمرة إسرائيلية وقفل سالماً : أى رجع سالماً .

ومن حيث إن (قفل) الثلاثى غير وارد فى اللغة الصحيحة بمعنى أغلق فاسم مفعوله (مقفول) بمعنى مغلق ومقفل خطأ أيضاً ، لأن (مقفول) يجب أن يكون من فعل ثلاثى كما تقول مكتوب من كتب مثلا ، فالصواب حينئذ (مقفل) من الفعل الرباعى (أقفل) كما تقول (أكرم مكرم) بفتح الراء .

وورد أيضاً بمعنى أقفل الرباعى (قفل) بتشديد العين للدلالة على الكثرة كما فى المختار من صحاح اللغة العربية تقول : قفل البستانى أبواب الحديقة : أى أبوابها الكثيرة .

ومن هنا نعرف خطأ العبارة التى تقال فى المجالس النيابية وغيرها وهى : وافق الأعضاء على (قفل) باب المناقشة ، إذ (قفل) مصدر الفعل الثلاثى (قفل) ، وقد تقدم أنه لا يأتى بمعنى الإغلاق والإقفال ، فالصحيح حينئذ أن يقال : وافق الأعضاء على إقفال باب المناقشة .

وفى اللغة العربية مادة أخرى بمعنى الإقفال وهى مادة (غلق) وقد اختلف اللغويون فى الفعل الثلاثى منها اختلافاً بيناً واسعاً :

فذهب بعضهم إلى جواز استعمال الفعل الثلاثى بغير قلة : فتقول : غلق التاجر محله كما فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة (المصرى) .

وذهب بعض ثان إلى أن الفعل الثلاثى بمعنى أغلق لغة قليلة كما فى المصباح المنير ، وأشهد على ذلك قول الشاعر : ولا أقول لباب الدار مغلوق . لأن « مغلوق » اسم مفعول الثلاثى .

وذهب بعض ثالث إلى عدم جواز استعمال الثلاثى بمعنى الإغلاق كما فى المختار من صحاح اللغة ، إذ جاء فيه ما نصه بعد أن قال — أغلق الباب — وغلقه لغة رديئة متروكة (يريد الفعل الثلاثى) .

أما ما أجمع عليه اللغويون من هذه المادة بمعنى الإقفال فهو (أغلق) الرباعى بزيادة الهمزة ، (وغلق) الرباعى بتضعيف اللام عند إرادة التكثير تقول : أغلق الحارس الباب ، وغلق الحارس الأبواب بتشديد اللام أى الأبواب الكثيرة ، ومن هذا الأخير قوله تعالى فى سورة يوسف فى قصة امرأة العزيز من آية ٢٣ : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ﴾ (أى أبواباً كثيرة فى قصرها) .

(٣)

ويقال خطأ ولا سيما فى الإذاعة : وبلغ ثمن المشتروات كذا : والصواب : المشتريات (بالياء) وذلك لأن المفرد (مشترى) وهو اسم مقصور ألفه زائدة على ثلاثة ، فطبقاً لقاعدة جمع المقصور جمع مؤنث سالماً تقلب ألفه هنا ياء كما تقول فى مستوى مستويات وفى فضلى فضليات .

(٤)

ويقال خطأ وخاصة فى الإذاعة : وغنم الجيش من العدو معدات كثيرة (بكسر العين) : والصواب (معدات) بفتحها ... والسبب أن المعدات بفتح العين هى الأشياء المأخوذة من العدو ، فيجب أن تنطق على أنها اسم مفعول من (أعد) الرباعى ، أما المعدات بكسر العين فهى الأيدى التى عملت وصنعت تلك

الأشياء المأخوذة ، فتنطق على أنها اسم فاعل من الفعل (أعد) الرباعى .

(٥)

ويقال خطأ : يحرص الشريف على أن يظل عرضه مصاناً : والصواب : (مصوناً) ، لأن الفعل الثلاثى (صان) ومضارعه واوى يصون ، فاسم المفعول منه حينئذ (مصون) كما تقول (مقول) من قال يقول .

(٦)

ويقال خطأ : كان فلان مساقاً إلى هذا العمل السيىء بفكرة خاطئة : والصواب : (مسوقاً) : والسبب : أن الفعل ثلاثى (ساق) ومضارعه واوى (يسوق) ، فاسم المفعول منه (مسوق) كما تقول (مروم) من رام يروم .

(٧)

ويقال خطأ : سرق اللص المصاغ من المنزل : والصواب : المصوغ اسم مفعول من صاغ يصوغ كما تقدم شرحه فى (مسوق) .

(٨)

ويقال خطأ : البضاعة المباعة لا ترد : والصواب : المبيعة : لأن الفعل ثلاثى (باع) ومضارعه يأتى (يبيع) ، فاسم المفعول منه للمذكر (مبيع) وللمؤنثة (مبيعة) ، كما تقول فى اسم المفعول من (دان يدين) للمذكر — (مدين) وللمؤنثة (مدينة) ، ويحضرنى بهذه المناسبة قول الشاعر الأبى المحدث :

وما عرضى بملء الأرض مالا مبيع فهو أغلى من حياتى
عليه الدهر أحرص كل حرص ليسلم دائماً حتى الممات

ومثل هذا أرض مقاسة فالصواب : أرض مقيسة .

(٩)

ويقال خطأ : مزقنا بمدافعنا وسيوفنا أجسام جنود العدو إرباً : والصواب : إرباً إرباً ، وذلك لأن (إربا) من غير إعادتها مرة أخرى لا تؤدى المعنى المراد ، وهو أننا

قطعنا أجسام جنود العدو قطعة قطعة ، (فإرب) معناه اللغوى (عضو) : فالمعنى من غير إعادتها مرة أخرى : هو أننا قطعنا أجسام العدو عضواً أو قطعة ، وهو غير مراد ، ولا يطابق الحقيقة التى يريدها الشاعر .

ولذلك اشترط اللغويون لصحة استعمال (إرب) أن تعاد مرة أخرى فتقول : قطع الجزار اللحم إرباً إرباً : قال الشاعر :

إربـــاً إربـــاً مزقنـــا بسيـــوف الهنـــد الباغينـــا

(١٠)

ويقال خطأ : سوف لا أسافر إلى إنجلترا إلا بعد سنة حينما أحصل على « بكالوريوس » الطب : والصواب :

إما : حذف (لا وإلا) معاً فتقول : سوف أسافر إلى إنجلترا بعد سنة حينما أحصل على « بكالوريوس » الطب .

وإما حذف سوف وبقاء إلا فتقول : لا أسافر إلى انجلترا إلا بعد سنة إلخ ، ويصح أن تأتى بكلمة (لن) النافية بدل (لا) النافية .

والسبب فيما تقدم أن اللغويين اشترطوا لصحة استعمال (سوف) أن تتصل بالفعل بعدها مباشرة فلا يفصل بينهما فاصل لا بنفى ولا غيره : جاء فى لسان العرب بمادة (سوف) ما نصه : (... ولا يفصل بينها وبين الفعل لأنها بمنزلة السين فى سيفعل) .

وهناك خطأ آخر فى استعمال (سوف) : ذلك أن أكثر ما يكتب أو يسمع ولا سيما فى الإذاعة تستعمل فيه (سوف) للدلالة على الزمن مطلقاً ولو كان

قريباً : فيقال : وبعد الغذاء بساعة سوف تستأنف المفاوضات ، مع أن (سوف) إنما وضعت فى اللغة للدلالة على الزمن البعيد على القول الصحيح ، وفى المثال السابق الزمن القريب فيجب أن يقال : وبعد الغذاء بساعة ستستأنف المفاوضات (بالسين التى تدل على الزمن القريب) .

والخلاصة : أن لصحة استعمال (سوف) شرطين : الأول : أن تدخل على الفعل مباشرة ، فلا يفصل بينهما أى فاصل كحرف نفى مثلا ، الآخر : أن تكون للزمن البعيد على القول الصحيح .

(١١)

ويقال خطأ : اختصر السائح الرحلة لقرب نفاذ المال منه (بالذال المعجمة) فى نفاذ : والصواب : (نفاد) بالدال المهملة : والسبب أن نفاذ الشيء معناه اختراق شيء جسم شيء آخر ، وفعله (نفذ ينفذ) من باب دخل كما تقول نفذ السهم من الرمية ، وكذلك يطلق النفاذ على عمل الشيء وتنفيذه .

أما نفاد (بالدال المهملة) فمعناه الفناء والانتهاء ، وفعله (نفد ينفد) من باب تعب كما فى كتب اللغة ، وهذا المعنى هو الذي يلائم التصويب فى العبارة الخاطئة السابقة : قال تعالى فى سورة الكهف آية ١٠٩ ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ وعلى سبيل الاستئناس قول أبى العلاء مشيراً إلى بعث الناس يوم القيامة وانتقال بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار :

خلق الناس للبقاء فضلت أمـــة يحسبـــونهم للنفـــــاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

(١٢)

ويقال خطأ فى بعض الصحف : بلغ ماء الفيضانات بسبب الإعصار ثلاثة أقدام : والصواب : ثلاث أقدام ، وذلك لأن القدم مؤنثة إذ يقال : له فى العلم قدم راسخة ، والعبرة فى مراعاة تذكير العدد وتأنيثه مع المعدود إنما هى بالمفرد لا بالجمع ،

وبما أن (قدم) مؤنثة فيجب حذف تاء التأنيث من العدد وفقاً لقاعدة تذكير العدد وتأنيثه .

ولذلك يجب أن تقول : ثمانية جنيهات مثلا بتأنيث العدد ، لأن مفرد المعدود مذكر وهو (جنيه) ، وتقول ثمانى نوافذ بحذف تاء التأنيث من العدد ، لأن مفرد المعدود مؤنث وهو (نافذة) : قال تعالى فى سورة الحاقة من آية ٧ : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ .

(١٣)

ويقال خطأ : كان بحث المجلس قاصراً على الشئون الداخلية : والصواب : كان مقصوراً إلخ بصيغة اسم المفعول من قصر الشىء على كذا لم يجاوزه إلى غيره (وبابه نصر) كما فى كتب اللغة .

أما (قاصر) فمعناه (عاجز) اسم فاعل من قصر عن الشىء عجز عنه ولم يبلغه وبابه نصر أيضاً كما فى كتب اللغة : ومن هذا المعنى سمى الولد الذى لم يبلغ سن الرشد (قاصراً) لعجزه عن إدارة شئونه كما ينبغى .

(١٤)

ويقال خطأ : المعرفة الحقة ، والرجولة الحقة ، والصداقة الحقة ، والحرية الحقة ، وكل ذلك خطأ : والصواب : حذف التاء فى العبارات الأربع من كلمة (الحقة) : فيقال : المعرفة الحق بدون تاء إلخ . والسبب : أن كلمة (الحق) هنا مصدر للتوكيد فلا تلحقه التاء : جاء فى الأثر : (إن الجنة حق ، وإن النار حق إلخ) ، ومن هذا النمط وإن لم يكن من المادة نفسها قوله تعالى فى سورة طه آية ١٢٤ : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ، ويقول الشاعر يخاطب منافقين وإن كان من الشعراء المحدثين :

صداقتى الحق أما عن صداقتكم ... فزيفها عند كل الناس مشهور

(١٥)

ويقال خطأ : أكثر أهل الريف (مزارعون) : يراد أنهم يزرعون الأرض التى يمتلكونها أو التى يستأجرونها بالنقد : والصواب : أكثر أهل الريف زارعون :

والسبب : أن معنى مزارع فى اللغة وهو مفرد (مزارعون) إنما هو من يزرع الأرض التى ليست ملكاً له ويعطى صاحبها شيئاً من المحصول غالباً ما يكون النصف وقد يكون الثلث ، وفعله زارع ومصدره المزارعة ، وفى كتب الفقه فى الأزهر والشريعة فى كليات الحقوق باب يسمى (باب المزارعة) يدرسه الطلاب فيهما والمزارعون فى الريف قلة محدودة فى المعتاد .

أما الذى يزرع أرضه التى يمتلكها أو التى يستأجرها بالنقد فيسمى

(زارعاً) وجمعه (الزارعون) : وهم أكثر أهل الريف وفعل هذا الجمع زرع يزرع ومصدره (زرع) قال تعالى : فى سورة الواقعة آية ٦٣ وآية ٦٤ : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ والله أعلم .

(د)

(١)

خطأ وقوع الجار والمجرور خبرا للفعل (أوشك)

يقال كثيرا فيما يكتب أو يسمع :

أ ـــ أوشكت الجلسة على الانتهاء .
ب ـــ أوشك القطار على المجىء .

والعبارتان خطأ ، والصواب :

أ ـــ أوشكت الجلسة أن تنتهى .
ب ـــ أوشك القطار أن يجىء .

والسبب : أن الفعل (أوشك) من أفعال تسمى أفعال المقاربة ، وهى تعمل عمل كان فترفع الاسم وتنصب الخبر ، ولكنها تخالف (كان) فى أن خبرها يجب أن يكون جملة فعلية فعلها مضارع كما فى التصويب ولا يجوز غيرها كالجار والمجرور مثلا كما فى العبارتين الخاطئتين : قال الشاعر :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا ... إذا قيل : هاتوا أن يملوا ويمنعوا

ومضارع أوشك كماضيها : قال الشاعر :

يوشك مَنْ فر من منيته   فى بعض غِرَّاته ـــ يوافقها

ومن الشواهد القرآنية لفعل آخر من أفعال المقاربة مثل (كاد) قوله تعالى فى قصة مخالفة اليهود لنبيهم بذبحهم البقرة فى سورة البقرة من آية (٧١) : ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ .

ومضارع كاد مثلها فى العمل والخبر : جاء فى وصف حنق جهنم على من يشركون بالله قوله تعالى فى سورة الملك من آية (٨) : ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيظِ** ﴾ ومن الشعر لـ (كاد) :

كاد جَسمى أن يذوبْ   عندما صَدّ الحبيبْ

تتمــة :

يلاحظ القارىء الكريم من الأمثلة السابقة الواردة شواهد لكل من الفعلين (**أوشك** وكاد) أنهما يشتركان فى أن خبر كل منهما يجب أن يكون **جملة فعلية فعلها** مضارع ، ولكنهما يفترقان فى اقتران الخبر بالحرف (أن) :

فالغالب فى أوشك أن يقترن خبرها بأن كما فى التصويب والبيت الذى أوله : ولو سئل الناس إلخ . ويقل تجرد الخبر من (أن) كما فى البيت الذى أوله : يوشك إلخ .

أما (كاد) فعكس (أوشك) : فالغالب فى خبرها تجرده من أن كما فى الآيتين الكريمتين ، ويقل اقتران خبرها كما فى البيت الذى أوله : كاد جسمى إلخ .

(٢)

الخطأ فى استعمال ضمير الفصل الذى يؤتى به فى الأسلوب للتوكيد

وهذا الخطأ كثير الدوران حتى أنه قلما يخلو منه مقال أو إذاعة : يقال خطأ :

أ ـــ إن توحيد المسلمين وتوحيد المسيحيين هو توحيد على كل حال .

ب ـــ إن أجزاء الكلام هو اسم وفعل وحرف .

جـ ـــ إن العلم والمال هما عمادٌ قوىٌّ لتقدم الدول وهكذا .

والصواب : إذا لم ترد التوكيد حذف ضمير الفصل من كل أسلوب :

(هو فى أ ، وهى فى ب وهما فى جـ) :

والسبب أنه يشترط لصحة استعمال ضمير الفصل أن يذكر بين معرفتين وما بعده فى الأساليب الثلاثة السابقة الخاطئة نكرة ، ولذلك عُدت خطأً ، فإذا حذف صارت صحيحة كما فى التصويب .

ومن مجيئه بين معرفتين قوله تعالى فى سورة البقرة من آية (٣٧) : ﴿ **إنه هو التواب الرحيم** ﴾ وقوله تعالى فى سورة لقمان من آية (٢٦) : ﴿ **إن الله هو الغنى الحميد** ﴾ ، ولذلك عيب على الشاعر استعماله ضمير الفصل وبعده نكرة فى قوله ينصح لابنه :

عمل الفتى هو مُنْبِىءٌ عن خُلْقه : أبنىَّ فاعمل صالح الأعمال .

وقيل ضرورة شعرية .

اللهم إلا ما استثنى : كأن يكون الاسم الذى بعد ضمير الفصل اسم تفضيل مجردا من أل والإضافة ، فيصح مجىء ضمير الفصل حينئذ ولو بعده نكرة : تقول خالد هو أسْمَحُ من أخيه نفسا : قال تعالى فى سورة النحل من آية (١٢٥) : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ، وقال تعالى فى سورة المزمل آية (٦) : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا** ﴾ .

أما إذا أردت الإبقاء على ضمير الفصل فلا يحذف ، فيمكن حينئذ تصويب الأساليب السابقة بطريقتين أخريَيْنِ مع بعض التغيير : إما قبل الضمير ، وإما بعده ، وهاتان الطريقتان هما :

١ ـــ إما جعل النكرة التى بعد الضمير معرفة فتقول فى :

أ ـــ .... هو التوحيد إلخ .

وفى ب ـــ ... هى الاسم والفعل والحرف .

وفى جـ ـــ ... هما العماد القوى إلخ . وحينئذ يسمى الضمير ضمير فصل .

٢ ـــ وإما أن تأتى بكلمتى (إنما) قبل الضمير ، وفى هذه الحالة لا يسمى الضمير ضمير فصل ، وإنما يعرب مبتدأ فى الأساليب الثلاثة الآتية وما بعده خبر فتقول :

أ - ... إنما هو توحيد إلخ .

وفى ب - ... إنما هو اسم وفعل حرف .

وفى جـ - ....إنما هما عماد قوى إلخ .

(٣)

خطأ استعمال كلمة (تقييم) الشائعة نحو ٩٥٪ فى كل ما يكتب أو يسمع : ومع أنها خطأ بإجماع اللغويين :

يقال خطأ : كوّن الوزير لجنة لتقييم أعمال من يراد ترقيتهم إلى وظائف أعلى .

والصواب : ... لتقويم إلخ .

والسبب : أن كلمة (تقييم) يجب أن يكون فعلها يائيا (قيّم) بتشديد الياء ، كما تقول شيَّد تشييدا وعيَّن تعيينا ، والوارد فى كتب اللغة (قوّم) بتشديد الواو ومصدره التقويم كما تقول : كون تكوينا وصور تصويرا ، ولم يرد (قيم) فقد جاء :

فى المعجم الوسيط بمادة (قام) : وقوّم السلعة سعَّرها وثمَّنها) ولم يذكر قيَّم) .

وفى القاموس المحيط : بمادة (القوم) : (**قومت السلعة ثمنها**) ولم يذكر قيَّم) .

وفى المصباح المنير بمادة (قام) : (**قومت المتاع جعلت له قيمة معلومة**) ولم يذكر (قيم) .

وفى لسان العرب بمادة (قام) : (**والقيمة ثمن الشىء بالتقويم**) ولم يذكر (قيم) :

فمن كل هذه النصوص يتبين بوضوح أن الصواب فى الأسلوب السابق الخاطىء هو (التقويم) لا (التقييم) بالرغم من شيوعها الكثير ، وعلى سبيل الاستئناس قول الشاعر :

تقويمك المرء بالآباء يَنْقصُهُ   تقويمه بجميل الفعل والخلق

ولعل الذين يحرصون على استعمال (تقييم) الخاطئة قد تسرب إليهم أنها صواب من كلمة (القيمة) مع أنها ليست يائية : فلسان العرب يقول فى مادة (قام) : (**والقيمة واحدة القيم أصلها الواو**) : أى أن أصلها (**قِوْمة**) (**بكسر فسكون**) قلبت الواو ياء لسكونها بعد كسرة طبقا للقاعدة الصرفية فصارت (قيمة) ، كما فى كلمة ميزان ، إذ أصلها مِوْزان (بكسر فسكون) ، فهى من

(وزن) قلبت الواو ياء طبقا للقاعدة الصرفية المذكورة ، فصارت (ميزان) .

أو لعلهم ظنوا أن التقويم خاص بالتعديل كما يقال (قومت الغصن) أى عدلته ، وكما فى قوله تعالى فى سورة والتين آية (٤) : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ أى تعديل لصورته ، وقول الشاعر :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعهُ فقوِّم النفس بالأخلاق تستقِم

وغاب عنهم أن الكلمة اسما أو حرفا تأتى أحياناً لأكثر من معنى ، والسياق يعين المعنى المراد :

فالاسم (عين) يأتى لعين الإنسان ، وعين الماء ، وعين البلد أى عظيمه .

والفعل (ذهب) يأتى بمعنى توجَّه وسار : تقول : ذهب الطالب إلى المدرسة ، ومنه قوله تعالى فى سورة القيامة آية ٣٣ : ﴿ **ثم ذهب إلى أهله يتمطىَّ** ﴾ ، ويأتى بمعنى أطفأ وأزال كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة من آية (١٧) : ﴿ **ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾ .

والحرف (فى) يأتى للظرفية كما تقول : الماء فى الكوب ، ويأتى بمعنى السببية كما فى الحديث الشريف : (**إن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاَشِ الأرض**) .

وأذكر أن المرحوم الضليع (أمين الخولى) أستاذ اللغة العربية وآدابها سابقا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ـــ كتب مقالا فى إحدى الصحف أو المجلات ـــ أثبت فيه صواب كلمة (تقويم) وخطأ كلمة (تقييم) ، ومع ذلك شاع الخطأ ، وغشى النسيان الصواب مع سهولته حتى كأن ما يحدث لبعض الناس من المفارقات يحدث للكلمات : فقد ترى عالما نحريرا مغمورا ضاقت موارده ، على حين ترى جاهلا مشهورا يجرى المال بين يديه كما يقول الشاعر فى بعض هذا المعنى :

كم عالمٍ عالمٍ أعيتْ مذاهبُه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقاً

ولله فى خلقه شئون والحمد لله .

(٤)

خطأ أسلوب شائع نحو ٩٥ ٪ فى كل ما يكتب أو يسمع :

يقال خطأ :

أ ــ يمكن لمحمد أن يقترض من المصرف (بلام بعد يمكن) .

أو ب ــ يمكن محمدٌ أن يقترض من المصرف (برفع محمد) .

أو جـ ــ يمكن لى أن أقترض من المصرف (بلام بعد يمكن) .

أ ، ب يمكن محمداً أن يقترض إلخ بحذف حرفى الجر فى أ ، ونصب (محمد) فى ب .

وفى جـ ــ يمكننى أن أقترض إلخ بحذف حرف الجر (اللام) واتصال الضمير بالفعل : والسبب : أن مفهوم الأساليب الثلاثة هو أن الذى يمكن ويحصل إنما هو (الاقتراض) المنسوب والمسند إليه الإمكان المفهوم من الفعل (يمكن) ، وذلك من نوع (اخضرَّ الزرع) فالاخضرار منسوب ومسند إلى الزرع ، والزرع هو الفاعل ، ومن ثَمَّ فالفاعل فى الأساليب الثلاثة هو الاقتراض الذى يتصف بالإمكان ، فالفاعل هنا من نوع الذى يتصف بالفعل ، لا الفاعل الذى فعل الفعل كما فى قولك (ذبح الجزار الشاة) والاقتراض الذى ثبت أنه هو الفاعل مأخوذ من (أن والفعل) وهو ما يعبر عنه النحويون بقولهم (المصدر المؤول من أن والفعل) ، وبذلك يكون (محمد) فى أسلوب (أ ، ب) مفعولا به ويجب نصبه (محمدا) .

ويتضح ذلك جليا إذا قلت : (يمكننى أن أقترض من المصرف) : فياء المتكلم المتصلة بالفعل حلت محل (محمدا) ، وكل ياء متكلم متصلة بالفعل تعرب مفعولا به ، أما الفاعل فهو المفهوم من (أن والفعل) كما تقدم وهو الاقتراض .

كما يتضح بصورة أجلى إذا لم يذكر المفعول به بعد الفعل (يمكن) فلا ضمير ولا اسم ظاهر بعده : كأن تقول : يمكن أن تسافر فى قطار الصباح : فالمفهوم بداهة بسرعة أن الذى يمكن هو سفرك وهو الفاعل المأخوذ من (أن والفعل بعدها) : ومن هذا النمط قول شاعرٍ فلسطينى يتطلع إلى عودته لوطنه السليب ، ويراها ستحصل عن قريب بمشيئة الله وقوة العرب

أيمكن أن أعود إلى بلادى وأطرد من أتى فيها غريبا ؟
بإذن الله والأسياف حقًا أرى عَوْدِى إلى وطنى قريبا

ففاعل (يمكن) الذى يعرف بسهولة هو (عودتى) ، إذ التقدير : أتمكن عودتى .. ؟

وفى لسان العرب فى مادة (مكن) ما يؤيد ماتقدم ، وحسبى أن أذكر بعض ما قاله : يقال : (**لا يمكنك الصعودُ إلى هذا الجبل**) برفع (الصعود) على أنه هو الفاعل ، ولا يقال : أنت تمكن الصعود إليه (بنصب الصعود) وجعل فاعل تمكن ضميراً مستتراً فهذا تعبيرٌ خطأ والله أعلم .

الأفعال العشرون الآتية المرتب أكثرها بحسب حروف الهجاء على طريقة المصباح المنير تتداول كثيرا خاطئة ولا سيما فى الإذاعة المسموعة : إما لأنها غير واردة فىاللغة الصحيحة ، وإما لاستعمالها متعدية وهى لازمة ، أو لتعديتها الواحد وهى متعدية لاثنين ، وأما لتعديتها لاثنين وهى متعدية لواحد ، ولاستعمالها فى غير معناها اللغوى بغير طريق المجاز كما سيأتى فى البيان الآتى وتصويب كل :

(١)

يقال خطأ : تأكد الوزير من صواب ما عُرض عليه : والصواب : تيقن الوزير صواب إلخ .. والسبب : أن (تأكد) فعل مطاوع لا يسند للشخص ، وإنما يسند إلى الشىء الذى تأكد ، ولذلك يصح تصويب العبارة بصورة أخرى فتقول : تأكد للوزير صواب .. الخ . على أن (صواب) فاعل تأكد قال الشاعر :

تيقنت أن الله لاشك واحد وأن دعاوى المشركين هبـاء

ويلاحظ أن تيقن لا تأخذ حرف الجر بعدها لأن الفعل متعد بنفسه وذكر حرف الجر بعده خطأ .

ومن هنا يعرف خطأ العبارة التى بأحد (الهوامش) بكتاب مبادىء النحو للصف السادس الابتدائى بالمدارس المصرية والتى ظلت به أكثر من ثلاث عشرة سنة إلى طبعة ١٩٧٥ ـــ ١٩٧٦ م بالرغم من طبعه كل سنة وهى : يناقش المدرس التلاميذ ليتأكد من فهمهم .. إلخ . فالصواب ليتيقن فهمهم .. إلخ . أو ليتأكد له

فهمهم .. إلخ . على أن (فهم) هو الفاعل ليتأكد .

(٢)

ويقال خطأ : يأمل المتفاوضون فى التوصل إلى اتفاق بالإجماع : والصواب : يأمل المتفاوضون التوصل .. إلخ : والسبب : أن (يأمل) متعد بنفسه قال من يعتد بشعره :

أرجو وآمل أن تدنو مودتها   وما أخال لدينا منك تنويل

وقال آخر

وآمل منك الخير والخير كله   فأنت عن الآباء خير كريم

(٣)

ويقال خطأ : يحبذ الوزير هذه الطريقة لحل المشكلة : والصواب : يمتدح أو يفضل بدل (يحبذ) : والسبب : أن (يحبذ) مضارع حبذا ، وحبذا فعل جامد مثل عسى وليس ، فلا يأتى منه المضارع ولاغير المضارع فى اللغة الصحيحة : قال الشاعر :

أتمتـــــدح الشلاف لشاربيها   وعقباهـــا بدنياهـــم هلاك
وفى يوم الحساب لهم عذاب   جهنـــم مالهم منها فكـــاك

(٤)

ويقال خطأ : حرمت وزارة التموين التاجر الذى يبيع بأزيد من التسعيرة من نصيبه ثلاثة أشهر :

والصواب : حذف (من) التى قبل نصيبه ونصب (نصيبه) على أنه مفعول به ثان : وذلك لأن (حرم) متعد لاثنين بنفسه دائما ما داما قد ذكرا بعده : قال الشاعر :

ويقلتنـــى أن تحرمينـــى مودة   بها يا أعز الناس أحيا وأنعم

أما قول امرىء القيس فى معلقته :

فقلت لها سيرى وأرخى زمامه   ولا تحرمينى من جناك المُعلل

ردا على من قالت له معلقته أيضا البيت الآتى بعد أن ركب معها الهودج الذى يحمله بعيرها :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا   عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

فضرورة شعرية تحفظ ولا يقاس عليها .

(٥)

ويقال خطأ : كانت المفاوضات بشأن ما تحتاجه البلاد من الخبرات و (التكنولوجيا) والصواب :.. بشأن ما تحتاج إليه البلاد .. إلخ . والسبب أن احتاج ومضارعها يحتاج كل منهما فعل لازم لا يتعدى إلا بحرف الجر بعده : قال المتنبى على سبيل الاستئناس :

وليس يصح فى الأفهام شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل !

وقال آخر :

ويحتاج طلاب العلا فى مناها   إلى الجد موصولا ووعى مع الجد

(٦)

ويقال خطأ : هذا الاتفاق يخول للدولة قرضا طويل الأجل .

والصواب : يخول الدولة قرضا .. إلخ . وذلك لأن (يخول) متعد بنفسه لاثنين ما داما قد ذُكرا بعده : قال الشاعر على سبيل الاستئناس :

خولتــــه ما يبتغـــــى   لكنــــه ما أتقنــــه !

(٧)

ويقال خطأ : أرجوك المسامحة فيما فرطت . والصواب : إما : أرجوك فى المسامحة ، أو للمسامحة .. الخ . وإما : أرجو منك المسامحة .. الخ . والسبب : أن (أرجو) متعد لواحد فقط وهو إما : الشخص الذى ترجوه ، وإما الشىء الذى ترجوه من الشخص : فينصب أحدهما مفعولا به ، ويجر الآخر بحرف الجر كما فى التصويبين السابقين .

ومن الشواهد على نصب من ترجوه وجر الشىء الذى ترجو من أجله كما فى

التصويب الأول قول الشاعر :

وكنت أرجوك للجُلى لتنصرنى فأنت تخذلنى فى الحادث الجلل

ومن عكس شواهد ما سبق كما فى التصويب الآخر قوله تعالى فى سورة النساء

من آية ١٠٤ : ﴿ **وترجون من الله ما لا يرجون** ﴾

وكذلك قول الشاعر :

إنى لأرجو منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

(٨)

ويقال خطأ : استلم الموظف راتبه أو عمله (مثلا) . والصواب : تسلم الموظف .. إلخ . والسبب : أن استلم معناه فى اللغة (لمس) ، ولذلك يقال : استلم الحاج الحجر الأسود : أى لمسه .

وتكملة للفائدة هناك خطأ آخر من هذه المادة يتداول كثيرا إذ يقال خطأ : سلمت القائد رسالة من الوزير . والصواب : سلمت للقائد رسالة من الوزير وذلك لأن (سلم) (المضعف) متعد لواحد لا اثنين ومن هنا يقال : سلم المريض أو فلان أمره إلى الله . ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة آل عمران من آية ٢٠ : ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن** ﴾ (فسلم) المضعف يساوى (أسلم) المزيد بالهمزة فى التعدية للمفعول به .

(٩)

ويقال خطأ : عرضت عن فلان لنفاقه : بمعنى صددت عنه . والصواب : أعرضت .. الخ . قال تعالى فى سورة طه من آية ١٢٤ : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ أما (عرض) فله معان أخرى منها : ظهر كما تقول : عرض لى وجه فى حل هذه المشكلة : أى ظهر ، وعرضت السلعة للبيع : أظهرتها .

(١٠)

ويقال خطأ : قامت مظاهرة ضخمة طافت شوارع لشبونة عاصمة

البرتغال . والصواب :.. طافت بشوارع .. إلخ . والسبب : أن طاف فعل لازم لا متعد قال الشاعر :

أطوف بالحى علىَّ أن أحدثها (فبلسم) الداء حلو الدر من فيها

(١١)

ويقال خطأ : الأحزم من يتفادى الأمر قبل وقوعه . والصواب :.. يتفادى من الأمر .. إلخ . والسبب : أن يتفادى فعل لازم لا متعمد .. جاء فى المختار من صحاح اللغة ما نصه : تفادى فلان من كذا تحاماه وانزوى عنه . قال الشاعر :

تفاديت من شرب السلاف فإنها هلاك بدنيانـــا ولله تغضب

وأما قوله تعالى فى سورة البقرة من آية ٨٥ : ﴿ **وإن يأتوكم أسارى تفادوهم** ﴾ فمعنى آخر هو : أنهم يفدونهم من الأسر بالمال أو غيره ، ولذلك جاء فى قراءة أخرى : ﴿ **وإن يأتوكم أسارى تفدوهم** ﴾

(١٢)

ويقال خطأ : كما فى كتاب المطالعة « المصرى » بالصف الأول الثانوى : أعطت القوات المسلحة نفسها كلها لواجبها .

والصواب : إما : أعطت القوات المسلحة واجبها نفسها كلها وهذا أحسن . وإما : أعطت القوات المسلحة نفسها كلها واجبها .

أى لابد من حذف حرف الجر فى المفعول به الثانى أو الأول وذلك لأن (أعطى) متعد لاثنين ما داما قد ذكرا بعده . قال تعالى فى سورة الكوثر : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ وقال الشاعر :

أعطيت ملكا لم تحسن إدارته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

ومن هنا يعرف خطأ العبارة التى تقال كثيرا فى مجلس الشعب وهى : أعطى رئيس المجلس الكلمة للعضو صاحب السؤال . والصواب : إما : أعطى رئيس المجلس العضو صاحب السؤال الكلمة وهذا أولى . وإما : أعطى رئيس المجلس الكلمة العضو صاحب السؤال : أى بحذف حرف الجر فى العبارتين .

(١٣)

ويقال خطأ : يعتقد المراقبون السياسيون فى صحة أو بصحة مانقله إليهم السفير . والصواب : حذف حرفى الجر (فى) و (الباء) ونصب (صحة) على أنها

مفعول به للفعل (يعتقد) والسبب : أن (يعتقد) متعد بنفسه للمفعول به ما دام المفعول به قد ذكر بعد الفعل .

(١٤)

ويقال خطأ : هذا العتاد يكفى للحرب أسبوعا . والصواب : هذا العتاد يكفى الحرب .. إلخ . والسبب : أن يكفى فعل متعد بنفسه : قال الشاعر :

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

بل هو متعد لاثنين تقول : الادخار يكفى المدخر ذل السؤال عند الشدائد . قال تعالى فى سورة البقرة من آية ١٣٧ : ﴿ **فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾ .

(١٥)

ويقال خطأ : استكشف كولومبس أمريكا . والصواب : كشف أو اكتشف ، لأن معنى (استكشف) كما فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية (المصرى) سأل أن يكشف له ، إذ قال : استكشف عنه : سأل أن يكشف له عنه .

(١٦)

ناشد الوزير الجماهير فى ترك تخزين السلع . والصواب : حذف (فى) وذلك لأن ناشد متعد لاثنين دائما ما داما قد ذكرا بعده .

(١٧)

ويقال خطأ : أودع الغنى ماله فى المصرف خشية اللصوص . والصواب : حذف (فى) ، لأن أودع متعد لاثنين دائما ما داما قد ذكرا بعده . وعلى سبيل الاستئناس قول الشاعر :

أودعتك الآمال يا خير الألى　　　أوفوا طوال الدهر للإخوان

(١٨)

ويقال خطأ : تنازل الرجل عن حقه . والصواب : نزل الرجل عن حقه ،

وذلك لأن (تنازل) من أفعال المفاعلة يحتاج لأكثر من فاعل فتقول فى استعماله الصحيح : تنازل الرجل وخصمه كل عن حقه . ومن هنا يعرف خطأ العبارة المتداولة .

ملحق رقم (٤)

مصطلحات مولـدة
شائعة فى الأوساط الكتابية الحديثة
من صحف وسواها مرتبة ترتيبا أبجديا

أ . أنيس المقدسى

المصطلح	المعنى
أبعاد المسألة	أى جميع ما تتناوله أو تتعلق به
أتى على الأخضر واليابس	أى لم يبق شيئا إلا قضى عليه أو التهمه
احتج على كذا	أى أنكره وعده افتئاتا وظلما
أحيل على التقاعد	أعفى من العمل ودفع له ما يترتب له مقابل ذلك
أخذ المبادرة	أى سبق غيره فى الكلام أو العمل
أخرج الرواية	أى هيأها لتمثل بصورة فنية
أدب ملتزم	ما يقصد به إلى غاية مفيدة للعموم
استدعى كذا	أى اقترحه للتصويت عليه
استقلال ناجز	أى استقلال تام لا قيد له
أشربة روحية	أى مسكرة
أصاب عصفورين بحجر واحد	أى طلب غرضا فأصاب غرضين
اصطاد فى الماء العكر	أى اغتنم اضطراب الأمور فحاول الانتفاع خلالها بما يريد
أغرق التاجر أو المعمل السوق	أى أنزل فيها الكثير من البضاعة
أكثرية مطلقة	ما يزيد على النصف بواحد على الأقل
إلى الملتقى	أودعك إلى أن نلتقى
انتهاك صارخ لحرمة الحق	انتهاك واضح شديد
انسحب من المجلس	خرج منه أو تركه
بالنظر إلى كذا	أى لأجله أو بسببه
تبلورت الفكرة	أى تركزت فى شىء محدد

العبارة	المعنى
تبنت الحكومة أو الجمعية المشروع	قبلته وأخذت على عاتقها لقيام به
تجاوب معه فى أمر ما	قبل رأيه وما شاء فيه
تجميد الإمكانيات	حال دونها فوقفها أو عطلها
ترتيبات فورية	إجراءات تعمل حالا أو دون استعداد
ترجم لفلان	أى كتب سيرته
تزعم الوفد أو الحزب	أى قام على رئاسته
تعبير عفوى	أى ما كان طبيعيا دون تكلف
تغطية الحوادث	متابعة الحوادث ووصفها لإحدى الصحف
تفرج على الشيء	سلى نفسه بمشاهدته
يتمتع بالحصانة النيابية والسياسية	كان بنجوة من سطوة القانون العادى
توترت العلاقات بينهم	أى ساءت ومالت إلى الشدة
توحيد النمط فى الإنتاج	الاقتصار على صنع نموذج واحد توفيرا للإنتاج
جلسوا إلى طاولة مستديرة	جلسوا للتشاور وهم متساوو المراتب
جمد المال فى المصرف	أى منع إخراجه أو التصرف به
جهاز الاستقبال (فى الراديو ونحوه)	الجهاز الذى يلتقط الصوت
الحرب الباردة	وحرب الدعاية فى الصحف والخطب ونحوها
حجرة أو غرفة الاستقبل	ما يستقبل فيها الضيوف ويقال لها أيضا غرفة المقعد
الحساب الجارى (فى البنك)	غير المقيد بزمن محدود
الحياد الإيجابى	ما كان للمحايد فيه رأى
دور طليعى	نقول لعب فلان دور طليعيا فى الأمر أى كان من المتقدمين فيه
دورة المجلس	أى مدة انعقاده
ذر فى عينه الرماد	خدعه وحجب الحقيقة عنه
رشح فلان لمنصب ما	أى قدم اسمه ليتولاه

ركبه الهم والحزن	استولى عليه
ساعة الصفر (فى الحرب)	الوقت السرى المحدد للبدء بعمل حربى
سرح العامل	أخلاه من عمله
السوق السوداء	سوق يتعامل بها خفية « تهربا » من التسعير القانونى
السيولة النقدية	ترجمة (منى لكودتى)
الشارع يناصر فلانا	أى العامة والرعية تناصره
شم الهواء	التنزه
الشهر الجارى	أى الحالى
صاحب شعبية	أى محبوب من الشعب
صاحب الكرسى (فى مجلس ما)	أى رئيس المجلس
صوت فى المجلس	أى أعطى رأيه فى الانتخاب
ضرب إلى لون كذا	أى مال إليه
ضرب الرقم القياسى	أى تجاوزه إلى حد أبعد
طرح المسألة على بساط البحث	أى عرضها للمناقشة
طلب يد فلانة	تقدم من ذويها ليخطبها
الظروف الآنية	الأحوال الحاضرة
عضو فى النادى أو المجلس	أى أنه أحد أفراده القانونيين
على صعيد كذا	أى على مستوى معين نقول مثلا اجتمع المؤتمر على الصعيد الوزارى
على ضوء هذه المعلومات نحكم بكذا	أى إذا تبين لنا من هذه المعلومات كذا إلخ
على ضمن إطار القومية	أى لم نخرج فيما قام به عن ولائه أو واجبه القومى
غسل يديه من هذه المسألة	تبرأ منها
فرض نفسه عليهم	أى أرغمهم على قبول ما يريد
فك النقود	أى استبدال الكبيرة منها بقطع صغيرة

قام بمساع حميدة	سعى لتسوية النزاع بين خصمين بوسائل سليمة
قصوا الأمر بالتسوية	أى بما يرضاه الطرفان
قطع الغيار (للآلات)	قطع منفردة تركب فيها بدلا من مثلها
القوات الرادعة	قوات مسلحة تردع العدو
القوات الضاربة	التى تتمكن من ضرب العدو
كلل العروسين	زوجهما (على الطريقة المسيحية)
لاحظ عليه	أى انتقده أو قدم بعض ملاحظات
لسان الحال	ما يعبر عن أحوال البلاد أو فكر شخص أو هيئة ما
لعب دورا فى المسألة	أى اشترك فيها
لعب بالنار	أى عمل ما قد يؤذيه
مناطق نفوذ	البلاد التى تبسط الدول القوية سلطتها عليها
مذهب تأثرى	مذهب فنى يعتمد على التأثير النفسى
المنافع العامة	ما كانت فوائدها مشتركة بين الناس ومنافع الدار مرافقها .
مؤونة مصرفية	مال كاف لسحب حوالات عليه
موضع ثقة	أى يعتمد عليه ويوثق به
ناطحات السحاب	أبنية شاهقة ذات طبقات عديدة
النظام الإقطاعى	ما كان قائما على حكم الإقطاعيين
النظام التعاونى	ما كان قائما على تعاون الأفراد
النظام الدستورى	ما كان قائما على الحكم النيابى طبقا للدستور
النظام الطبقى	ما كان قائما على وجود طبقات فى الشعب
النظام الوحدوى	ما كان قائما على وحدة الحكم
نغم مجسد	أى مرقوم

نقطة ارتكاز	قاعدة للعمل
نقط متسامته	أى على استقامة واحدة
الهيأة التنفيذية	فى الدولة المسئولون عن تنفيذ الأحكام
وارد وغير وارد	نقول هذا الأمر غير وارد أى ليس داخلا فى البحث
الأوراق المصرفية	أوراق مالية يصدرها بنك الإصدار
ورق مرمل	ورق خشن لحك المصنوعات الخشبية . والنجارون فى لبنان يسمونه (ورق قزاز)
الوزن النوعى	فى علم الطبيعة ثقل الجسم بالنسبة إلى الماء
وضع النقط على الحروف	بين الأمر وأوضحه
وفاق الأشراف	اتفاق يعتمد فى تنفيذه على شرف المتفقين

الألفاظ المولدة فى المعاجم الحديثة

نثبتها على الترتيب الأبجدى بحسب أصول الكلمات مشيرين بعلامة (×) حيث ترد فى المعاجم التالية :

محيط المحيط (مح)

أقرب الموارد (أق)

المنجد (من)

البستات (بس)

الوسيط (و)

معجم متن اللغة (مت) وهر (٧٧)

القاموس العملى لفهمى وشلالة (ف) — (ويشير الحرف (ق) إلى أنها وردت قديما) .

اللفظ — (**باب الألف**) مح أ ق من بس و مت ٧٧ ف

الإبابة (الحنين إلى الوطن) (ق)

الأبوية (نظام اجتماعى من أسر يرأسه الآباء) .

الاتباعية (مذهب السائرين فى طريق القدماء) .
الأثير (سائل طيار يستعمل فى الطب)
الإيثارية (تفضيل الغير على الذات) (ق)
الأدب (ما ينتجه الأديب من نثر)
أدبى (١) إلى الأدب (٢) عكس المادى كقولنا قيمة أدبية)
الآذن (حاجب المحكمة ونحوها)
الأذونات (البريدية وسواها)
المأذون (موثق عقد الزواج)
الأراض (البساط الكبير)
الأرضية (أجرة العامل فى الأرض واللون الرئيسى فى البسط ونحوها مثلا ننسج رسوما صفراء على أرضية حمراء) .
الأرفة (علامة الحدود) (ق)
الأزار (للحائط ما يلصق به للتقوية أو الزينة)
الأزميل (راجع باب الزاى)
المأساة (المسرحية المحزنة)
التأشير (وضع الإشارة)
المأمور (أحد رجال الشرطة أو الإدارة أو من عهد إليه القيام بأمر)
استمارة (استمارة)
المؤتمر (مجتمع للتشاور أو البحث)
التأميم (جعل الشىء ملكا للأمة)
الاستئناف (طلب إعادة النظر فى الحكم) .
الإياس (سن اليأس الجنسى)
التأنس (التجسد بصورة إنسان)
أهلى (وطنى . بلدى)
أهلية (استحقاق . كفاءة)
المؤلف (كاتب الكتب ونحوها)

بـاب البـاء :

البـاخرة (مركب بخارى)
البحران (تغير فجائى يحدث للعليل مع انخفاض سريع فى الحرارة) .
بديهة . بديهى
البدائية (حالة الشعب البدائى)
المبدأ (تقول صاحب مبدأ أى ذو خلق ثابت أو عقيدة) (ق)
البذلة (ثوب يلبس كل يوم أو وقت العمل) .
البراد أو البرادة (جهاز للتبريد)
برقية (رسالة تلغرافية)
برمائى (نسبة إلى الحيوان الذى يعيش فى البر والماء) .
البرامة (أداة لولبية لثقب)
برنس (رداء فوقانى ذو قلنسوة) (ق) (يقول الخفاجى غير عربى)
البستنة (علم زراعة البساتين)
التبسيط (جعل الشىء بسيطا كقولنا تبسيط النحو للطلاب) .
المبسم (أنبوب السيكارة)
البصريات (ما) يختص بالبصر من علوم وآلات .
البطاح (هذيان الحمى) (ق)
البطة (للقارورة) (ق)
البطاقة (رقعة صغيرة من الورق) (ق)
البقال (البدال)
بلدية (المجلس البلدى)
البلاط (قصر الملك)
البليلة (قمح مسلوق يقدم للأكل)
البندقية (آلة لرمى الرصاص)
الإباحية (التحلل من قيود القوانين)
البنائنة (ما يدفعه أهل العروس وهو الدوطة)
بيارات (مزارع)
التابعية (النسبة إلى الدولة التى يتبعها الإنسان)

بـــاب التـاء :

المتحف (مكان التحف)
المتراس (ما يوضع فى طريق العدو)
الترعة (بمعنى قناة الماء) (ق)
التريكة (ما يترك من الضرائب)
تف (أى بصق) أو تفل
تكتك (تكتك الفرس مشى كأنه على شوك) .

بـــاب الثـاء :

الثريا (منارة من عدة مصابيح)
الثقافة (التهذيب العلمى والخلقى)
الثلاجة (البرادة)
الاستثمار (استثمار المال أو الأرض)
الثانية (جزء من ستين من الدقيقة)

اللفظ ــ ع أق من بس ومت 77 ف

بـــاب الجيـــم :

الجبر (علم الرياضيات المعروف)
الجبرية (ضد القدرية) (ق)
الجبانة (المقبرة) (ق)
الجدول (للصحيفة ذات الخطوط المتوازية طولا وعرضا فتكون مربعات ومنها جدول الضرب للتلامذة)
التجربة (ما يوقع فى الخطية . كقولهم وقعت فى تجربة من الشيطان)
التجربة (اختبار خاص فى نفس الشاعر) . (أو ما يعمل أولاً لتلافى النقص)
الجرثومة (الجراثيم الميكروبات)
الجراح (الطبيب الجراحى)

التجريدة (كتيبة من الجيش ترسل لغرض حربى)
الجريدة (صحيفة الأخبار)
المجردات (الأمور المعنوية التى لا تدرك بالحواس)
التجريس (التشهير والتنديد)
الجاروك (أداة لجرف الطين)
الجرايات (ما يحدد لكل فرد من طعام وسواه)
الإجراءات (الأعمال)
الماجريات (ما يجرى من الحوادث) (ق)
الجزازة (قصاصة من ورق وسواه تكتب فيها فوائد)
الجلخ (آلة لشحذ السكاكين)
الجلسة (انعقاد الجمعية ونحوها)
المجلس (هيئة إدارية لمنظمة ما مجلس الأمة ـــ مجلس الإدارة) (ق)
الجالية (الذين رحلوا عن وطنهم وأقاموا فى وطن آخر ، مثلا الجالية الأمريكية فى بيروت والجالية اليونانية فى مصر إلخ) .
الجامعة (معهد علمى يضم كليات)
الجمعية (هيئة تؤلف لغرض ما)
المجتمع (الجماعة كقولنا المجتمع الشرقى وخدمة المجتمع إلخ) .
المجمع (مؤسسة لغرض علمى أو مذهبى ونحوهما)
الجمهورية (نظام حكومى السلطة فيه للجمهور)
جنحة (جريمة بسيطة)
الجناس (نوع من البديع)
تجنس (اتخذ جنسية ما)
الاجتهاد (فى المسائل الفقهية)
المجهار (الميكروفون آلة لتكبير الصوت)
المجهر (الميكروسكوب آلة لتكبير الأشياء الصغيرة)
جيب (كيس الثوب لحمل الدراهم وسواها)
جهاز (إدارة أو مجموعة أدوات تؤدى عملا معينا) (كالجهاز الهضمى والجهاز الكهربائى إلخ) .

جواز (للسفر)

اللفـظ ــ مع أق من بس ومت ٧٧ ف

بـــاب الحـــاء :

الحجاب (التميمة يتعوذ بها) (ق)
التجذيف (تسوية الشعر وتصفيفه)
الحر (الخارج عن رق الدين أو التقليد)
المحرر (كاتب الصحيفة والكتاب أو المشرف على كتابتها) .
التحاريق (جفاف المياه أو الأرض) (ق)
المحراك (لما يحرك النار أو استعير لمحرك الفتنة ونحوها)
المحرك (الذى يحرك الآلة ويجعلها تجرى)
الحرامى (اللص . فاعل الحرام محسوبية) (ق)
المحة (ما تحس به الدابة)
المحسوسات (ما يدرك بالحواس)
الحاشية (حاشية الكتاب أو الثوب)
الحاصل (محل لخزن الأشياء)
حصل له كذا (أى حدث)
المحصول (الناتج من شيء)
الحصة (فترة من الوقت كقولنا حصة الدرس)
الحضارة (مظاهر الرقى والعمران الفكرى والاجتماعى)
الحضير (فسحة من الغرف)
المحاضرة (خطبة علمية) (ق)
محضر الجلسة (سجل وقائعها)
المحطة (محل نزول المسافرين)
المحفظة (كيس لحفظ الأموال والأوراق ونحوها)
المحافظ (متولى المدينة أو المقاطعة)

الحافلة (للمركبة العامة)
حفلة (احتفال)
الحكومة (هيئة تدير شئون البلاد)
المحكمة (هيئة تتولى القضاء)
المحلفون (من يعهد إليهم الحكم فى قضية خاصة)
الاحتلال (استيلاء دولة على بلد)
المحامى (وكيل قضايا لدى المحاكم وسواها) .
فى سائر المعاجم يوجد الفعل ولكن لا نص على الاسم
حمضيات (الفواكه كالبرتقال ونحوه)
الحميراء (داء الحصبة)
الحملة (كتيبة ترسل للقتال)
الحوالة (صك مالى)
الحنفية (منفذ الماء)
الحوالة (قناة صغيرة يتحول فيها الماء إلى جهة أخرى)
المحولة (أداة التحويل سكة الحديد)
حيثيات (كقولنا حيثيات الحكم) والحيثية أيضا المقام العالى
الاحترام (التكريم) كقولنا رجل محترم

اللفـــظ ـــ مع أق من بس ومت 77 ف

بـــاب الخــــاء :

المخبار (ما يختبر به فى المخبر)
المخابرة (مبادلة الأخبار أو المفاوضة)
المختبر أو المخبر (مكان إجراء الاختبارات)
المخدة (الوسادة)
التخدير (تعطيل الإحساس بالبنج)
الاختزال (الاختصار أو التقليل)

الخزان (ما يخزن الماء مثلا خزان أسوان)
الإخصائى (المتخصص بعلم أو فن)
الخطيفة (الفتاة يخطفها رجل ليتزوجها)
الخطيبة (المخطوبة)
المخفقة (ما يخفق به البيض ونحوه)
الخلية (وحدة بنيان الحيوان)
الخولى (الوكيل : أو من يقوم على الخيل أو المزروعات أو المال) إلخ .
المختار (شيخ المحلة المعين من قبل الحكومة)

بـــاب الدال والذال

الدبابة (نوع من مركبات القتال)
الدرج (جرار الطاولة)
الدراجة (مركبة ذات عجلتين)
المدرج (مكان واسع ذو مقاعد مدرجة)
مدرسة (بمعنى طريقة أو مذهب)
مدرعة (سفينة حربية مصفحة بالدروع) .
التدرن (مرض فى الرئة ــ السل)
استدعاء (طلب شكوى أو أمر ما)
الدعاية (الدعوة لمذهب أو لغرض ما)
الدعوى (رفع دعوى إلى المحكمة)
المدفع (آلة لقذف القنابل)
دفة السفينة (الخشبة التى توجهها)
دكك (وضع التكة فى السروال)
المدمرة (سفينة حربية)
المدماك (الصف من الحجارة فى البناء)
المداولة (تبادل الآراء فى قضية مال)
الدورية (العسس)
الدوام (مدة البقاء فى الديوان أو العمل)

الدائرة (قسم مخصص لعمل من أعمال الإدارة وسواها أو قسم من المدينة ينتخب عنه نائب)

الدالية (بمعنى الكرمة)

المذبة (ما يدفع به الذباب)

الذرى (كقولنا القوة الذرية)

المذياع (جهاز للإذاعة اللاسلكية)

الذاكرة (القوة الحافظة)

المذاكرة (الاشتراك فى الدرس أو البحث)

المذكرة (دفتر صغير يكتب فيه ما يراد تذكره)

التذكرة (بطاقة أجرة السفر أو نحوه)

الإذاعة (نشر الأخبار بواسطة جهاز لاسلكى)

بـــاب الـــراء :

الرأسمالية (نظام الرأسمال)

المرأب (محل حفظ وتصليح السيارات)

رأسى ــ رأسا .

الرابطة (جماعة يربطهم غرض كالجمعية)

الرجعية (الجرى على مذاهب السلف دون مسايرة التطور)

الترادف (تماثل الكلمات فى المعنى)

الردهة (مدخل البيت تفتح عليه حجراته فى الفيروزبادى البيت الذى لا أعظم منه)

المرذاذ (آلة تنشر الماء)

الرسالة (مقالة . بحث أطروحة)

المرسل (من الكلام ما لم يتقيد بسجع)

الرسمى (الحكومى أو الأصولى)

المرسوم (ما تصدره الحكومة أو السلطان من قوانين)

الروسم (طابع يطبع به أو عليه) (ق)

الرشاش (مدفع يرش الرصاص رشا)

الرصيد (ما بقى من الحساب كقولنا رصيد مالى فى البنك) .
الرصاص (ما يقذف من البنادق ونحوها) .
الرصيف (ممشى المارة على جانبى الطريق) .
الرضوخ (بمعنى الإذعان) .
المرضعة أو الرضاعة (أداة للرضاعة) .
المرطبات (الأشربة المنعشة) .
أرعب (أخاف فهو مرعب) .
فى سائر المعاجم رعب على أنه قد وردت أرعب فى الأدب القديم .
استرعى السمع (طلب أن يصغى إليه) .
ذكرها الحريرى راجع محيط المحيط فلم ترد فى الفيروزبادى .
المرافعة (الأخذ بالدفاع أمام المحكمة) .
رفيع (أى دقيق مثلا خيط رفيع) .
المرقب (ترجمة تلسكوب) .
رقعة الشطرنج (اللوح يلعب عليه) .
الرقاص (للساعة) .
المركوب (الحذاء) .
المركب (السفينة) .
المكرن (وعاء لغسل الثياب) .
الرمدى (طبيب العيون) .
الرمزية (مذهب شعرى يعتمد على الموسيقى والإيحاء فى اللفظ) .
الرواية (قصة طويلة) .
الروح (الجزء الطيار من المادة بعد تقطيرها مثل روح الزهر) .
الريشة (للقلم) لأنهم قبلا كانوا يستعملون ريش الطيور للكتابة رياضيات .

باب الزاى :

الزبدية (وعاء فخارى صغير للبن) .
الزبون (زبون المحل المشترى منه) .
الزحافة (آلة لتسوية الأرض بعد حرثها) .
المزراب (الميزان) (ق) .

الزغل (الزيف الغش)
الزلال (مادة بروتينية منتشرة فى أنسجة الحيوان والنبات ومنها أح البيض)
الأزميل (آلة لنقر الخشب)
وقد وردت فى الفيروزبادى بمعنى شفرة الحذاء
الزناد (فى البندقية ما يدق كبسولة البارود فتنفجر)
الزهر (قطعة من عظم معلمة بنقط تستعمل فى لعب الطاولة) (النرد)
الزهرى (داء السفلى)
المزولة (الساعة الشمسية)
المزين (الحلاق)

بـاب السيـن :

المسئولية
السابقة (ما سبق للمرء من عمل أو جريمة)
المسبحة والسبحة
السجادة (الطنفسة)
المسدس (سلاح نارى ذو مشط يحشى رصاص)
المسرحية (رواية تمثيلية)
المسطرة (ما يسطر به الكتاب) (ق)
السعرة (   ) الوحدة الحرارية
السفرة (مائدة الطعام) (ق)
وقد وردت فى الأغانى بمعنى ما يبسط تحت الخوان
السفير (مبعوث دولة لدى دولة أخرى) (ق)
الاستسقاء (تجمع مصلى فى البطن)(ق)
الإسقاط (إلقاء الأم جنينها قبل أوانه)
التسكير (التحلية بالسكر)
السكرية (لما يوضع به السكر)
السلطنة (مملكة يرأسها سلطان)
السلطانية (وعاء خزفى لحفظ اللبن ونحوه)

السلة أو السل (وعاء من قصب) (ق)
التسميط (فى الشعر أن ينظم بأشطار متنوعة القوافى) (ق)
السماعة (آلة للسمع يستعملها الطبيب لفحص المرضى)
السند (صك الدين أو الالتزام)
السهارة (مصباح ضيئل للنور يستعمل فى البيت بعد نوم سكانه)
المساهمة (المشاركة فى الأمر)
وقد استعملها قديما التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة 1/ 4 وسواه .
المسودة (صحيفة تكتب أول كتابة ثم تنقح)
المسوغات (البيانات الرسمية لتجويز أمر ما)
السيارة (الأوتومبيل)
سياق الكلام .

بـاب الشيـن :

شبابة (مزمار من قصب)
مشبع (كقولنا جو مشبع بالماء أى لا يحتمل زيادة منه)
شباك (نافذة) (ق)
المشبك (أداة يشبك بها الشىء)
الشبكة (هدية الخطبة)
الشبكة (ما تصون به المرأة شعرها)
المشبهة (نحلة يشبه أصحابها الخالق بالمخلوقات) (ق)
الشتلة (النبتة الصغيرة المعدة للزرع)
تشحيل الأشجار (تقليمها وتقضيبها)
تشحيم الآلة (تليينها بالشحم ونحوه)
الشخصية (ما يميز الشخص من صفات)
التشخيص (فى الطب فحص المريض وتعيين علته) (ق)
التشخيص (التمثيل)
الشريط (سير من نسيج ونحوه ممدود ضيق الغرض)
الشرابة (ضمة خيطان تعلق بالثوب ونحوه)

الشراعة (نافذة فوق الباب للتهوية والإضاءة)
الشارع (الطريق الواسع) (ق)
الشرفة (من البيت ما يستشرف منه)
الشرعية (حق الشرع)
الاشتراكية (مذهب يرمى إلى المساواة وإلغاء الملكية الخاصة)
شطب الكلمة (طمسها عدولا عنها) (ق)
شطح (فى السير تباعد وفى الخيال استرسل كما يفعل الصوفى أو الشاعر أحيانا)
الشطيرة (ما يعرف بالساندوتش)
إشعار (إعلام بأمر)
شاغر (وظيفة شاغرة أى خالية) (ق)
الشعريات (نسيج من خيوط كالشعر) ومنه نقاب الوجه للمرأة
الشقة (أحد أدوار البيت)
الشقى (بمعنى اللص أو المجرم كقولنا الحكومة تلاحق الأشقياء) .
شل الثوب (خاطه خياطة خفيفة)
شلة (جماعة من الأصحاب)
الشلال (منحدر الماء من فوق صخر عال)
الشمسية (المظلة)
الشماعة (ما يعلق عليه الثياب فى البيت)
المشمع (ق)
الشمام (نوع من البطيخ الأصفر)
المشنة (وعاء لحفظ الخبز)
الشهادة (ورقة مدرسية تعطى لمن أنهى دروسه)
الشاش (نسيج رقيق لضمد الجراح) (ق)
الشاشة (ستار للصور المتحركة)
الشوكة (أداة لتناول الطعام)
التشويش (التخليط) (ق)
الشيوعية (مذهب يقوم على إشاعة الملك)
المشير (أعلى رتبة عسكرية)

بـاب الصـاد والضـاد :

الصباحية (صبح ليلة الزفاف)

الصبانة (أداة يوضع فيها الصابون)

الصحافة (مهنة الصحافى)

الصحن (الصحفة)

الصامولة (قطعة حديد ذات جوف مسنن توضع فى طرف مسمار لتثبيته)

المتصرف (حاكم مقاطعة دون الولاية)

الصادرات (البضائع ترسل إلى الخارج)

التصريح (بمعنى الرخصة والإذن)

الصاروخ (قذيفة نارية بشكل اسطوانى)

المصرف (البنك)

المصعد (جهاز يصعد به)

تصاعدى (كقولنا ضرائب تصاعدية)

التصفيح

المصفق (البورصة حيث تكثر عقود البيع والشراء)

المصفاة (مكان أو جهاز التصفية ويطلق خاصة على تصفية النفط أو البترول) .

المصقلة (آلة الصقل)

الصلاحية (حسن التهيؤ أو ما يخوله القانون)

الصينية (ماعون من الخزف أو المعدن تقدم عليه أوانى الطعام)

المضخة (آلة لاستخراج الماء والنفط من جوف الأرض)

المضاربة (أن يشترى الإنسان بالأرخص ويتربص ليبيع بالغلاء)

المضربة (كساء ذو طاقين بينهما قطن)

الضمام (أداة تضم شيئا إلى آخر)

الضميمة (مايزاد على المرتب)

الضمانة (وثيقة يضمن بها شيء لقاء مبلغ يدفع سنويا)

المضيفة (فتاة تعتنى بركاب الطائرة وتقوم بخدمتهم)

بـاب الطـاء والظـاء :

الطوابع (أوراق بريدية تلصق على ظروف الرسائل)
المطبعة (مكان الطبع)
الطابق (الدور فى البناء)
الطبق (إناء للأكل)
المطبق (سجن تحت الأرض ـــ زنزانة)
المطبقة (أداة فى المطبخ توضع فيها الأطباق)
الأطروحة (رسالة تطرح للنظر والمناقشة)
الطراحة (فراش مريح للجلوس)
الطرحة (غطاء نسائى يلقى على الرأس والكتفين)
المطرحة (أداة تطرح بها الخبز فى الفرن)
الطراد (سفينة حربية سريعة)
الطرد (رزمة فى البضاعة ترسل بالبريد أو سواه)
الاستطراد (الخروج من معنى إلى آخر) (ق)
التطريف (تسوية الأنامل وفى الأصل خضب الأنامل)
الطشاش (ضعف البصر)
الطقم أو الطاقم (طائفة من الأشياء متشاكلة تؤخذ معا طقم سفرة مثلا)
المطلمة (آلة يسوى بها الخبز وهو عجين)
المنطاد (البالون)
الطاقية (غطاء للرأس)
الطوالة (رجل خشبية)
المطواة (سكين صغيرة تطوى فى نصابها)
الطائرة (مركبة هوائية)
المطار (محطة الطائرات)
الأطيان (الأراضى التى تزرع)
المظروف (ما اشتمل عليه الظرف من رسائل)
المظلة (الواقية من الشمس والمطر والتى يهبط بها الطيار) (ق)
المظان (مظنة الشيء ويراد الآن بها ما يرجع إليه للمعلومات)

الظهارة (ما يوقى به ظهر الدابة)

الظواهر (ما يظهر من الأحوال الطبيعية)

التظاهرات (تجمعات عمومية لإعلان الرضا والسخط أو لمناصرة أمر ما) .

بـــاب العيـــن والغيـــن :

العبيط (غير ناضج عقليا ـــ الأبله) (ق)

العجة (نوع من البيض المقلى) (ق)

العجلة (دولاب مركبة ـــ أو مركبة أو دراجة)

العداد (آلة لضبط العدد)

العدسة (عدسة العين . أو زجاجة كعدسة العين)

عديل الرجل (زوج أخت إمرأته)

فى المعاجم عموما النظير والمعادل

المعادلة (عملية رياضية)

الإعدام (بمعنى الموت كقولنا حكم على المجرم بالإعدام)

المعادن (كالذهب والفضة وسواها والأصل مكانها أى المنجم)

المعدية (مركب يعبر عليه من ضفة إلى ضفة)

العريس (للرجل بدل عروس التى هى فى الأصل للاثنين)

المعارضة (الحزب المعارض للحكومة فى النظام النيابى)

المعرض (مكان لعرض نماذج فن المنتجات)

التعريفة (ما يحدد من رسوم على البضائع)

العزبة (لفظة مصرية للمزرعة أو القرية)

العاشوراء (نوع من الحلوى)

العصارة (آلة لعصر الفواكه)

العصفورة (خشبة على شكل عصفور يغلق بها الباب ونحوه)

العضو (فرد من جمعية أو حزب)

العضوية (الانتماء إلى جمعية أو حزب) (ق)

المعطاف (رداء يلبس فوق الثياب)

العطلة (إجازة من العمل)

العطاءات (ما يقدمه المتعهدون والمقاولون من تعهدات وتقديرات مالية)

المعطيات (قضايا مسلمة توصل بها إلى قضايا مجهولة)
العقيد (رتبة فى الجيش)
عفص (ثمن الملول يستعمل للحبر) (ق)
التعقيم (إبادة الميكروبات ــ التطهير)
علمانى (مقابل الكهنوتى نسبة إلى العلم أو العالم) .
العلاوة (مايزاد على المرتب)
اعتماد (مالى أو سواه)
العماد (المعمودية)
العمدة (فرد أو هيأة مناط بها إدارة أو مسئولية)
العميد (مدير كلية فى الجامعة أو رئيس حزب)
المعتمدية (مركز معتمد دولة ما لدى دولة أخرى)
المستعمرة (إقليم يحتله ويحكمه أجنبى)
الاستعمار (استغلال دولة لأخرى)
العمارة (أسطول حربى)
العمارة (مبنى كبير مؤلف من طبقات وشقق)
المعاملات (التصرف بين طرفين فى بيع وشراء)
العمولة (ما يتقاضاه المصرف أو العمالة (السمسار)
العملية (ما يقوم به الطبيب الجراح)
العميل (من تعامله فى التجارة)
المعمل (المصنع محل العمل)
العنابر (أماكن لخزن البضائع)
العناصر (المواد الأولية)
المعنويات (فى مثل قولنا معنويات الجيش أو الأمة أى مقوماتها الروحية)
المعنوى (ضد المادى أو اللفظى)
المتعهد (المرتبط بالتزام عمل)
المعهد (مؤسسة للعلم والبحث ونحوه)
العوائد (رسوم حصبة تفرض على الأبنية)
التعاونية (جماعة مشتركة بمشروع ما لمصلحة أعضائها) .

العائد (ما يعود من ربح)
العيادة (مكان عمل الطبيب)
المعيد (من يعيد على الطلبة شرح الأستاذ فى الجامعة)
العائلة (الأسرة) (ق)
الغدارة (قطعة سلاح صغيرة كالبندقية)
غشيم (ساذج . وحجر غشيم أى غير منحوت)
الأغلبية
الغمازة (دارة فى الخد تظهر حين الابتسامة)
الغموس (ما يؤتدم به)
الغامق (من الألوان المائل إلى السواد)
المغناة (تمثيلية غنائية)
الغواصة (سفينة تغوص تحت الماء)
الغيرية (خلاف الأنانية) (ق)
الغيار (لبس أهل الذمة قديما)
قطع الغيار (الأجزاء التى تغير وتجدد فى السيارات ونحوها) (ق)
غب (بمعنى بعد)

بـاب الفـاء :

الفتاحة (أداة لفتح العلب)
إفتتاحيات الصحف
المفتش (موظف يقوم بعمل التفتيش)
المفحمة (أرض يكثر فيها الفحم أو مكان يعمل فيه)
الفاخورة (مصنع الفخار)
الفدائى (المجاهد المضحى بنفسه للوطن)
تفرج على الشىء أو به (تسلى بالنظر إليه)
الفراش (من يتولى خدمة المنزل)
الفراطة (قطع العملة الصغيرة)
الفراطة (آلة يفرط بها حب الذرة ونحوه)

أنفرط (انفرط العقد تبدد وانحل)
الفريق (رتبة عالية فى الجيش جنرال)
فرم اللحم (قطعه وسواه)
المفرمة (آلة الفرم) (ق)
الفذلكة (خلاصة ما فصل أو شرح يقول الفيروزبادى مأخوذة من فذلك كذا وكذا (ق)
الفرنى
الفرنية (نوع من الحلوى أو الكعك)
الفسيخ (نوع من السمك المملح)
الفشار (حب الذرة يشوى وينشف عن لبابه الأبيض)
الفشار (الكذاب)
الفشل (الإخفاق)
المفصلة (أداة حديدية ذات جزئين تثبت بها درف الأبواب والنوافذ)
المفصليات (شعبة فى اللافقاريات كالعناكب ونحوها)
فضولى (الذى يدخل فيما لا يعنيه)
الفطائر (رقاق من العجين تحشى وتخبز)
المفاعل الذرى (جهاز تتحول فيه المادة إلى طاقة)
الفاعلية (كون الشيء فاعلا أو مؤثرا)
الفعالية (القوة والتأثير)
الفقرة (جملة فى كلام أو جزء فى موضوع)
المفكرة (دفتر يقيد به ما يراد تذكره)
الفلق (عود تربط به الرجلان لتجلدا)
الفوضوية (نحلة سياسية تدعو إلى إلغاء الحكومات)
الفائض (فائدة المال)
المفوض (موظف كبير يعهد إليه الحكم . أو ضابط فى الشرطة)

بـاب القـاف :

القابس (سلك معدنى يذوب إذا اشتد تيار الكهرباء)
القابض (ما يمسك فضلات الطعام)

المقبلات (مشهيات الطعام)

القداحة (الولاعة) (ق)

المقدحة

القدرية (خلاف الجبرية) (ق)

القدمة (مقياس تقاس به الأطوال)

القذيفة (ما يقذف من المدافع ونحوها)

الاقتراح (رأى يمد ويقدم للنظر)

القارة (إحدى القارات الجغرافية الخمس)

القرار (ما قر عليه الرأى)

القرار (اللازمة الموسيقية أو الشعرية)

المقرر ــ (مسجل التقارير) .

القرن (من الخضروات والأشجار كاللوبيا والخروب مثلا)

المقشة (المكنسة)

المقششة (زجاجة لها غشاء من قش أو عيدان)

الأقصوصة (قصة صغيرة)

المقصف (مكان اللهو والطعام والشراب)

المقصلة (آلة للقطع بسرعة)

تقضيب الأشجار (تقليمها أو تنقيتها من الأغصان اليابسة)

الاستقطاب (التركيز فى قطب واحد)

القاطرة (المركبة التى تجر القطار)

القطار (مركبات سكة الحديد)

القطار (أداة يقطر بها الماء أو الدواء)

القطر (حل السكر)

القطرة (سائل يقطر فى العين)

القطاع (جزء مقتطع أو مفصول عن سواه مثل القطاع الزراعى والصناعى ونحوه)

المقطع (نصل يقطع به الورق)

المقاطعة (فى الجغرافيا قسم إدارى من البلاد)

المقاطعة (إلتزام العمل بأجرة معينة أو قطع المعاملات)

المقطوعية (مقدار الاستهلاك)
الإقطاع (ما يقطع من الأرض لفرد أو لجند)
اقتطف (بمعنى قطف)
القطائف (رقاق تحشى وتلقى بالسكر) (ق)
انقلاب (تغيير فجائى فى نظام الحكم)
القلادة (وسام يجعل فى العنق تمنحه الدولة لمن تشاء تقديرا له) (ق)
القهوة (مغلى البن)
المقهى (محل شرب القهوة)
القواد (سمسار الفاحشة)
المقورة (أداة للتقوير)
القاعة (غرفة واسعة للاجتماع أو الردهة)
المقاول (المتعهد للقيام بعمل ما)
المقالة (بحث قصير فى صحيفة ونحوها)
قائم الماء (بناء مرتفع لتوزيع الماء)
القائمة (ورقة تقيد الأشياء فى صف قائم)
المقامة (خطبة أو قصة صغيرة مسجوعة) (خ)
القومية (رابطة القوم المعنوية)
التقييم (تقدير القيمة)
تقويم (كتقويم البلدان)
التقاوى (ما يبذر فى الأرض للزراعة) اصطلاح مصرى

باب الكاف :

الكباسة (آلة الكبس)
المكبس
الكبس (سلك معدنى قابل للانصهار يوضع على مجرى تيار كهربائى)
الكابوس (حلم ضاغط على صدر النائم ــ الجاثوم)
الكبيس (ما يحفظ من الخضر بالخل ونحوه)
الكبيس (للسنة التى تقسم على أربعة دون كسر)
المكاتب (مراسل الصحيفة)

المكتب (مكان الإدارة)
الأكثرية
المكثاف (جهاز يبين كثافة السائل)
المكثف (آلة تحول البخار ماء)
الكرسى (المركز فى الجامعة يشغله أستاذ)
الإكرامية (منحة . عطية)
الكزاز (داء)
التكزز (انقباض الفكين لتقلص العضلة الماضغة)
الكساح (مرض يصيب العظام فى الأطفال)
الكسارة (أداة يكسر بها الجوز ونحوه)
الكشافة (جمعية الفتيان المعروفة)
التكعيبية (اتجاه معاصر فى التصوير يعبر عن الشيء برسم هندسى)
الكفاءة (القدرة الكافية على القيام بالعمل) (ق)
الكلبتان الكلابة (أداة تخلع بها الأسنان)
التكاليف (النفقات كقولنا تكاليف البناء)
الكليم (نوع من البسط)
الكماشة (آلة لنزع المسامير ونحوها)
الكماليات (ضد الضروريات)
الكمية (مقدار الشيء)
الكنافة (نوع من الحلوى)
الكهرباء (وما يتفرع منها مثل كهربة الشيء)
الكنه (حقيقة الشيء) .
الكوفية (نسيج يلف حول العنق أو يلبس تحت العقال)

باب اللام :

اللبخة (دواء كالمرهم أو خرقة تجعل فيها نخالة سخنة أو بذر كتان توضع محل الألم)
الملبس (اللوز الملبس بالسكر)
الملبن (نوع من الحلوى يصنع عادة من عصير العنب ويحشى بالجوز ونحوه)

الملابسات (ملابسات المرض أو القضية مثلا)
الملاحقات (فى القضايا)
الملحق (ما يلحق بالكتاب ونحوه أو من يلحق بسفارة وغيرها من المصالح . كقولنا الملحق التجارى والملحق الثقافى)
ملحمة (فى الشعر)
لحم (فلانا شغله بما يحيره أو يثقل عليا)
اللزقة (نسيج مشمع يلصق يوضع على الألم حتى يبرأ)
الملازم (ضابط فى الجيش أو الشرطة)
(اللوازم مثل لوازم السفر ـــ اللوازم المدرسية إلخ)
الملتزم (المتعهد بأداء شىء أو القيام بعمل)
الملزمة : (آلة يستعملها النجار للقبض على ما يروم تسويته)
الملزمة (جزء من كتاب يكون ٨ / صفحات أو ١٦ أو ٣٢ عادة تحت الطبع)
اللسان (جغرافيا) أرض داخلة فى البحر (ق)
التلاشي (الاضمحلال)
اللطيعة (بيض دودة القطن تضعه على باطن الورقة)
الملطف (ما يستعمل لتسهيل الأمعاء)
الملطفة رسالة عتاب لطيفة (الخفاجى) (ق)
الألطاف (الهدايا)
واستلطف الشيء (وجده لطيفا)
اللغم (ما يحشى مواد متفجرة فينفجر إذا وطىء أو أشغل)
اللافتة (لوحة يكتب عليها مايلفت النظر)
اللفافة السيكارة
اللفيفة
الملف (اضبارة تجمع أوراقا مختلفة فى موضوع واحد)
اللقاح (ما يلقح به للمناعة ضد المرض)
الملاكمة (ضرب من الرياضة البدنية يقوم على اللكم باليدين)
الملهاة (تمثيلية مضحكة)
اللائحة (ورقة تدرج فيها مواد لتنظيم مصلحة أو أعمال حسابية)
الملوحة (آلة تشير بالسير أو الوقوف)

اللوزة (لحمة بجانب الحلق قرب اللهاة)
لولب (مسمار حلزونى ويعرف فى الكلام العامى بالبرغى)
الملين (دواء مسهل لإخراج الفضول من الأمعاء)
تمييز الحكم (رفعه إلى محكمة عليا) .

باب الميم :

المثالة (درس معين للطالب)
التمثيلية (رواية للتمثيل المسرحى)
الممثل (من يزاول التمثيل المسرحى)
ممحاة (قطعة من المطاط لمحو الخط وسواه) (ق)
محاية
المادة (كل جسم ذى امتداد ووزن أو كل ما يقوم به الشيء)
المادية (القول بأن لا وجود لغير المادة)
المدنية (الأخذ بأسباب الحضارة أو التمدن واتساع العمران)
المتمرن (المتدرب على ممارسة مهنة ليمهر فيها كمحام متمرن وطبيب متمرن إلخ)
المزة (ما يؤكل على الشراب من بقل وكامخ ونحوهما من المقبلات)
الإمساك (يبس البراز فى الأمعاء)
تمصر (صار مصرى الجنسية)
وصيغة (تفعل شائعة الاستعمال فى إطلاقها على البلدان مثل تفرنس وتأمرك إلخ)
المصل (ما يتخذ من دم حيوان ما فيحقن به حيوان آخر) (ق)
الممطر (ثوب لا ينفذ فيه الماء)
المطاط (مادة قابلة للمط أصلها عصير شجرة تصنع منها إطر السيارات ونحوها)
المكوك (ما يستعمل فى نول الحياكة أو آلة الخياطة)
الملاك (السلك القانونى للموظفين)
مول (مول المشروع قدم ما يلزم له من المال) .
الماهية (ماهية الشيء حقيقته)
الماهية (بمعنى المرتب نسبة إلى ماه الفارسية أى الشهر)
الميوعة (مصدر مستحدث بمعنى لا تنص عليه المعاجم ولكنه مستعمل فى الكتابة

الحديثة) (الارتخاء) .
المينا (مرسى السفن) (ق)
يرجع محيط المحيط أنها معربة عن الإيطالية .
الميناء والمينى (طلاء تغشى به المعادن ونحوها)

باب النون :

المنبه (ساعة لتنبيه النائم)
المنجزات (ما تم على يد إنسان من إنجازات أعمال)
النجفة (مجموعة مصابيح وتدعى أيضا الثريا)
المنجلة (لما يعرف بالملزمة)
المنحت أو المنحات (ما ينحت به) (ق)
الانتخابات العامة (إجراء قانونى لاختيار شخص لعضوية مجلس ونحوه)
المندوب (من ينوب عن دولة أو هيئة رسمية)
النرجيلة (أداة يدخن بها التمباك)
النارجيلة (ق)
النزل (الفندق) (ق)
التنازل (عن كذا)
المنسوب (يستعمل فى مصر لمستوى النيل فى الفيضان) .
النسافة (سفينة حربية) .
النسبية (نظرية رياضية وضعها آينشتين)
النسيرة (قطعة صغيرة من اللحم المطبوخ)
الإنشاءات (أعمال البناء)
النشرة (بيان يذاع بين الناس)
المنشور
الناشر (من يحترف نشر الكتب أو الصحف)
المنشفة (فوطة ينشف بها) (ق)
النشاق (ورق يمص الحبر)
النشال (محترف الاختلاس)
نشى الشرب (عالجه بالنشا)

المنصب (ما يتولاه من عمل أو يحتله من مقام)
الناصية (رأس الشارع لدى ملتقاه بآخر) (ق)
النص (صيغة الكلام الأصلية)
المنضدة (الخوان . الطاولة)
تمنطق (لبس المنطقة أو تعاطى علم المنطق)
المستنطق (قاض أو شرطى يستجوب المتهم)
المنظار (آلة لرؤية الأشياء البعيدة)
الناظر (المتولى أو المشرف على إدارة أو عمل)
النظارة (حرفة الناظر)
النظرية (رأى أو قضية علمية تحتاج إلى برهان) (ق)
النظارة (المشاهدون لحفل أو مسرحية ونحوهما)
النظائر (فى علم الطبيعة ذرات لها فاعلية إشعاعية)
منظمة (هيئة تنظم لغرض ما)
النفاثة (طائرة سريعة جدا)
النفاخة (لعبة من مطاط ينفخها الصغار)
المنفضة (آلة لنفض الغبار)
المنفضة (وعاء لرماد السجائر)
النقابة (هيئة تختار لرعاية شؤون جماعة ذوى مهنة واحدة)
النقيب (رئيس النقابة أو رتبة فى الجيش)
النقبة (قطعة ارض نقبت وغرست حديثا)
المناقيش (أرغفة خبز مخبوزة ومطلية بالزيت والصعتر)
النقد (المال) النقود .
نقط (العروس أهداها مالا حين الزواج)
المنقلة (لعبة ذات حفر يستخدم فيها صغار الحصا)
النقالة (ما ينقل عليه المريض)
الناموسية (كلة تقى من البعوض)
النملية (صوان للأطعمة يمنع النمل والحشرات)
المنهاج (خطة أو ترتيب مرسوم ممثل منهاج التعليم)

المنهج (منهاج الحفلة)
المنوم (عقار يحدث النوم)
النوم (مرض النوم)
النيابة (هيئة قضائية)
اللفظ

باب الهاء :

الأهبل (فاقد التمييز)
الهاتف (التليفون)
المهجر (مقر المهاجرين)
تهجم عليه (هاجمه بعنف وتحمل معنى الاعتداء)
هدف إلى الشيء (جعله هدفا)
انهزامى (لاثقة له بالفوز)
المهرق (ورق مشمع يكتب عليه ثم يطبع على آلة خاصة)
انتهازى (الذى يترصد الفرصة السانحة لينال مأربه)
الهيضة (حالة وبائية يصحبها قىء وإسهال) (ق)
الهشوشة (خاصة للمادة تجعلها ضعيفة قابلة للكسر)
الاستهلال (الابتداء بالشيء نحو استهل الكتاب بكذا)
الهلام (مادة بروتونية تستخرج من الجلد والعظام)
الهوائى (جهاز يستعمل لتجلية صوت الراديو)
الهوية (بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته وعمله إلخ)
الهيئة (صورة معنوية لجماعة تقوم بعمل خاص مثل هيئة المجلس ونحوه)

باب الواو والياء :

الوثيقة (مستند أو صك يعتمد عليه)
الموجبات (ما يترتب على قضية من أمور واجبة)
وجدانيات (أمور نفسية أو عاطفية)
الوجودية (مذهب فلسفي حديث يدعو إلى الحرية المطلقة فى تصرف الإنسان) .
وجاهة (شرف المقام)

الواحدية (مذهب فلسفى يرد الكون إلى مبدأ واحد)
الوحدة (مذهب سياسى يعنى الاندماج فى نظام واحد)
الاستيداع (إعفاء الموظف من العمل قبل سن التقاعد)
المستوردات (بضائع تجلب من خارج البلاد)
الواردات
الإيراد (الدخل)
الوراقة (حقيبة تحمل فيها أوراق الكتابة)
الميزانية أو الموازنة (سجل تعادل فيه الموارد والنفقات)
الموزون (ذو العقل الراجح)
وسطه (جعله وسيطا)
الواسطة (ما يتوصل به إلى الشىء)
الموسوعة (دائرة معارف)
الوشاح (نسيج مستطيل يتشح به القاضى أو يمنح تكريما لعظيم)
المستوصف (مكان معاينة المريض)
وصفة (ورقة يصف فيها الطبيب الدواء للمريض)
وصولى (الساعى للوصول إلى غايته)
وصلة (فى الموسيقى قطعة صغيرة تفصل بين مشهدين أو فصلين)
المواصلات (أسباب الاتصال بين البلدان)
وصل أو توصيل (سند بتسلم شىء) (ق)
توصية (أن نقول رفعت اللجنة توصية إلى المجلس)
الموضوع (المادة التى ينبى عليها الكلام) وفى الفلسفة المدرك فى الخارج .
وضعى (الفلسفة الوضعية) ضد ما وراء الطبيعة .
الوضم (خشبة الجزار يقطع عليها) (ق)
الوطنية (الولاء للوطن)
الوظيفة (المنصب) العمل
الاتفاقية (ميثاق بين فردين أو جماعتين)
الوقاد (من يقدم الوقود للقاطرة أو الباخرة ونحوهما)
وقائع الجلسة (محضر ما جرى فيها)

الواقعى (ضد الخيالى)
التوقيع (كتابة الاسم فى ذيل رسالة) (ق)
الإيقاع (الضرب على آلة موسيقية)
الوكالة (بمعنى بناء كبير مؤلف من مكاتب ونحوها)
الوكالة (عمل الوكيل أو مركز عمله)
المولد (طبيب يتولى أمر توليد المرأة)
المولد (جهاز يولد الكهرباء) .
الولاعة (أداة تشعل بها السيكارة)
الموهبة (فى اللغة العطية واستعملت حديثا لصفات أو ميول طبيعية فيقال لفلان موهبة فى الشعر والرياضيات إلخ)
اليانصيب .
الميتم (محل الاعتناء بالأيتام)
اليسارى (المتطرف فى سياسته مأخوذ من كون أمثاله يجلسون ناحية اليسار فى مجلس الأمة)
اليمينى (خلاف اليسارى فى السياسة)
اليوسفى (شجر برتقالى ينسب إلى أول من جلب بذره ويدعى فى لبنان يوسف أفندى) .
يوميات (مذكرات يومية)

ملحق رقم (٥)

قَضِيّة الفُصحَىٰ وَالعَاميّة

الأستاذ ساطع الحصري

إن قضية الفصحى والعامية ، من أهم المشاكل التى تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ، فى مختلف البلاد العربية ، منذ مدة غير يسيرة .

ذلك لأن الفصحى لا يعرفها إلا المثقفون ، ولا يتخاطب بها إلا طوائف محدودة من هؤلاء ... وأما العامية الدارجة ، فكثيرة الأنواع تختلف اختلافا بينا لا من قطر إلى قطر فحسب ، بل من مدينة إلى مدينة فى القطر الواحد أيضا . حتى إنها تختلف بعض الاختلاف من حارة إلى حارة ، ومن جماعة إلى جماعة فى المدينة الواحدة ، فى بعض الأحيان .

إذن فنحن ــ عرب اليوم ــ بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس فى جميع البلاد العربية ، وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع الناس ، فى بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية .

ولا حاجة إلى القول أن هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة .

فإن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة « موحَّدة » تزيدها تجاوبا وتماسكا ، فتكون « موحِّدة » .

لأن مهمة اللغة ــ فى الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية ــ لاتنحصر فى ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون فى قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون إلى أقليم واحد ، أو قطر واحد ، بل هى ضمان التفاهم والتكاتب والتجاوب .. بين جميع أبناء الأمة ، على اختلاف مدنهم وأقطارهم .

والتاريخ الحديث ملىء بأمثلة بليغة ، على الجهود الجبارة التى بذلها ، ولا يزال يبذلها ، عدد غير قليل من الأمم والدول فى هذا السبيل توطئة لاستقلالها أو ضمانا لوحدتها .

فنحن العرب نفتقر اليوم إلى (لغة) يتفاهم بها جميع الناس فى جميع الأقطار العربية .

ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية ، والتنعم بنعمة « لغة موحّدة » فى جميع الأقطار العربية ؟

إذا تأملنا فى هذا الأمر بالمنطق المجرد خطر على بالنا ثلاثة سبل أساسية :

(أ) السعى وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة — أى لهجة من اللهجات العامية — على جميع البلاد العربية ..

(ب) السعى وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب ، فى كل قطر من الأقطار العربية .

(ج) السير على طريقة متوسطة بين الأولى والثانية ، على تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى .

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى — أى تعميم واحدة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية — غير منطقية وغير عملية ، فلا بد من التوجه إلى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة وأسس متينة ، وممثلون أقوياء ، فى جميع البلاد العربية ، لذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش فى الطريقتين الأخيرتين وحدهما :

من المعلوم أن قواعد الفصحى ، فى حالتها الحاضرة ، معقدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجات الدارجة بعدا كبيرا ، فيجدر بنا أن نتساءل : هل من الضرورى أن نتمسك بجميع تلك القواعد التى وضعها أو دونها اللغويون منذ قرون عديدة ؟ هل يتحتم علينا أن نصرف قوانا فى سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والأساليب ؟ ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى ، ونشذبها تشذيبا معقولا ، يكسبها شيئا من السهولة ، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية ؟ أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعيما يبعدنا عن حذلقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس فى وقت واحد ، فيوصلنا إلى فصحى متوسطة ، معتدلة ؟ أفلا يحسن بنا أن نلجأ إلى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير والتقدم نحو الفصحى التامة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ــ إجابة صحيحة ــ تتطلب القيام « بأبحاث علمية » واسعة النطاق ، تتناول الفصحى والدارجات فى وقت واحد ، وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .

أولا ، يجب أن نبحث : ما الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية ؟ ماهى الفروق التى تميز الأولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية نطقها من ناحية ، ومن حيث التراكيب وأسلوب ترتيبها من ناحية أخرى ؟

وفى أمر المفردات : هل يجوز لنا أن نعتمد على المعاجم والقواميس المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب أن نفكر فى ذلك مليا ، لأنه من المعلوم أن تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد أحد يشعر بحاجة إلى استعمالها ، ومقابل ذلك أنها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعملها ولا يزال يستعملها أشهر العلماء والأدباء فى أهم آثارهم العلمية والأدبية ، كما أن الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن فى معان تختلف عن المعانى التى كان قد دونها القدماء كل الاختلاف . فلا بد لنا من أن نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز الفصيح عن العامى تمييزا معقولا .

وفى أمر القواعد : هل يترتب علينا أن نعتبر آراء العلماء القدماء القول الفصل فيها ؟ أفلم يختلف هؤلاء أنفسهم فيما بينهم فى أمور التجويز والتفضيل والترجيح ؟ أفلا يحق لنا أن نعيد البحث والنظر فى تلك الأقوال والآراء ، وأن نسلك مسلكا يختلف عن مسالكهم فى أمر التجويز والتفضيل ؟ وهل يتحتم علينا أن نسعى وراء نشر وتعميم تلك القواعد بحذافيرها ؟ أفلا يمكننا أن نستغنى عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيدا وأكثر قابلية للانتشار ؟ وفى الأخير ، لو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، أفلا يجب علينا أن نرتبها ترتيبا معقولا ، لنقدم الأهم على المهم ، ونسير على قاعدة التدرج فى جهودنا « التفصيحية » ؟

ثانيا : يجب علينا أن ندرس اللغات العامية واللهجات المحلية ، المنتشرة فى مختلف البلاد العربية : ما أنواعها ؟ وما خصائص كل نوع منها ، من حيث الكلمات والألفاظ والتعابير ؟ وما حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والأساليب والتعابير ؟ وما أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ؟ ألا يوجد بين الكلمات الدارجة فى بعض

البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ؟ ألا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشتركة ؟ ألا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشتركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة ؟ أفلا يجب علينا أن نستكشف هذه الدوافع والحاجات ، لكى نستطيع أن نعالجها بأساليب أقرب إلى الفصاحة على قدر الإمكان ؟

إن كل هذه الأمور والمسائل يجب أن تدرس وتبحث بكل اهتمام .

وفضلا عن ذلك يجب علينا أن نتبع التطورات التاريخية أيضا : من المعلوم أن اللغة كائن حى ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع ، وينمو تبعا لنمو الأفكار وتنوع الحاجات ، إذ لكل كلمة وكل أسلوب ، فى كل لغة وفى كل لهجة تاريخ طويل أو قصير ، ماض قريب أو بعيد .

إن نظرة فاحصة سريعة إلى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية فى مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا — منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى مثلا — تكفى للتأكد من صحة ما قلناه آنفا : لقد حدثت تطورات كبيرة فى لغة الدواوين ، وفى لغة الصحف ، وفى لغة التخاطب فى مختلف البيئات ، فى جميع البلاد العربية ، فقد دخل فى كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة ، مشتقة من أصول فصيحة ، أو مقتبسة من لغات أجنبية . ومعظم هذه الكلمات المقتبسة كانت فرنسية فى بعض البلاد العربية وانكليزية فى بعضها الآخر ، وذلك تبعا للأوضاع السياسية الخاصة التى طرأت على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة أخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك الكلمات الأجنبية واستبدال كلمات عربية بها .

ثم إن ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والأرياف من جهة ، وبين الأقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى إلى حدوث تغير محسوس فى أوضاع اللهجات المحلية وفى التعابير العامية أيضا : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيرا كبيرا فى اللهجات الفرعية ، كما أن لغة عامة الناس أيضا أخذت تتهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وازدهار الصحافة ، وتعريب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالى إذا قلنا : إنه أخذ يتكون فى بيئات المثقفين فى جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشىء الكثير من خصائص الفصحى ،

وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية .

فيحسن بنا أن نتعمق ونتوسع فى درس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها منها ونستنير بها فى تقرير خططنا الإصلاحية .

* * *

يتبين من كل ما تقدم أن الأبحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ، بل يجب أن تخرج إلى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ فى تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب أن لا ننسى أن علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ودونوا ما سمعوه وما لاحظوه بل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، فى كل مدينة وفى كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والتجار ، فى المدن والأرياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والأطفال .

ولا يجوز أن نتقاعس عن العمل فى هذا السبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى .. إذ يجب علينا أن نعلم علم اليقين بأن تغيير الأشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها .

ملحق رقم (٦)

عكاظ ٥ العدد ٦٢٧٠ الأحد ٢٨ شوال ١٤٠٣ هـ ـ الموافق ٧ أغسطس ١٩٨٣ ٥

خطـرات بَدر أحمد كريم

لغة الإعـلام ..
بين النظرية والتطبيق

عن دار الرفاعى .. للنشر والطباعة والتوزيع ، صدر الكتاب رقم (١) ، في سلسلة « كتب في الإعلام » للدكتور « عبد العزيز شرف » تحت عنوان « العربية لغة الإعلام » .

ومن الواضح ، أن هذا الكتاب ، يركز على اللغة العربية ، التى يتعامل بها الإعلاميون ، سواء في مجال الكلمة المسموعة ، أم المقروءة ، أم المنظورة ، خاصة وأن المؤلف ، خصص الفصل الثانى ، من هذا الكتاب ، وكذا الفصل الثالث والأخير ، لوظائف اللغة العربية ، مركزا على الوظيفة الإعلامية ، والوظيفة التعبيرية ، والإقناعية ، وسمات اللغة الإعلامية (الكتاب من ثلاثة فصول)

ولعل ما يهمنا في هذا العرض ، الإشارة إلى وظائف اللغة العربية ، في مجال الإعلام ، لأنها تمثل حجر الزاوية ، والأداة التي يستخدمها رجال الإعلام ، في إيصال الفكرة ، أو الرأى ، أو الخبر ، إلى تلك القاعدة العريضة ، من الناس ، الذين تعتبر وسائل الإعلام بالنسبة لهم ، المدخل المهم ، في التوجيه ، والتثقيف ، والإرشاد ، والترفيه .

ومن هنا ، نرى المؤلف يقول : « وفي الاتصال بالجماهير ، تصبح طبيعة الرسالة ، التي يهدف المرسل توصيلها إلى المستقبل ، هي محور الدراسة الإعلامية .. ولذلك تعنى هذه الدراسة ، بطبيعة الرسالة ، من حيث الأغراض ، والوظائف ، والاستعمالات المختلفة للغة » .

كما يرى المؤلف من ناحية ثانية ، أن هناك ثلاث وظائف ، تؤديها اللغة الإعلامية ، وهي :

(١) الوظيفة الإعلامية ، من حيث أن الغرض من الاتصال اللغوى ، هو توصيل

المعلومات ، وإبلاغ الحقائق ، كما يحدث في الاتصال الإعلامي ، بوسائله المختلفة .

(٢) الوظيفة التعبيرية، إذ يتخذ الاتصال طابعا ، « تعبيريا » ، فى الفن والآداب بوجه عام . بهدف « التعبير عن المشاعر » أو « التحريك » لمشاعر أو اتجاهات الشخص المتلقى .

(٣) الوظيفة الإقناعية ، حين يستهدف الاتصال ، إقناع المتلقي ، أو جمهور المستقبلين ، بفلسفة محدودة ، أو رأى معين ، أو وجهة نظر ما ، أو دفعه لعمل شيء ما ، وهو ما يحدث في الاتصال الإقناعي ، بوجه عام .

غير أن هذا التقسيم للغة الإعلامية ـــ كما يشير إلى ذلك المؤلف ـــ يلقي معارضة من قبل علماء النفس ، الذين يرون « أن فصل هذه الأهداف عن بعضها البعض ، لا يتحقق في الواقع العملي » لأنهم يرون « أن الاتصال ، الذى يهدف إلى توصيل قدر من المعلومات والخبرات ، لا يمكن أن يحقق أهدافه مالم تصحبه ، بعض الجوانب الإقناعية » .

ولقد أراد المؤلف (الدكتور عبد العزيز شرف) أن يشير إلى جانب هام ، من تقسيم اللغة الإعلامية ، إلى تلك الوظائف الثلاث ، حينما قال « إن التمييز بين هذه الوظائف الثلاث . قلما نلجأ إليه في المدرسة الوظيفية ، وليس الأمر كذلك ، في مضمون الاتصال ، ولغته المستعملة » .

* * *

أما سمات « اللغة الإعلامية » ـــ كما يقول المؤلف ـــ فهي لا تحرص على مراعاة القواعد اللغوية المصطلح عليها ، بل إنها تحاول كذلك ، أن تحرص على خصائص في الأسلوب ، وهي : البساطة ، والإيجاز ، والوضوح ، والنفاذ المباشر ، والتأكيد ، والأصالة ، والجلاء ، والاختصار ، والصحة .

ويؤكد المؤلف ، أن اللغة الإعلامية ، لابد أن تستغنى عن :

« الكلمات الزائدة ، كأداة التعريف ، التى لا لزوم لها ، مثل « شبت النار في القرية » بحيث تكون أقوى في لغة الإعلام ، حيث تكون « شبت نار في القرية » في حين أنها لا تستغني ، عن أدوات التعريف اللازمة ، بحال من الأحوال .

• الأفعال التي لا قيمة لها مثل « قام بإعداد بحث » بحيث تكون أقوى في لغة الإعلام ، حين نقول ، « أعد بحثا » .

• الصفات ، وظروف الزمان والمكان ، وأحرف الإضافة ، مثل : « دمرت السيارتان تدميرا » وتقول لغة الإعلام : « دمرت السيارتان » .

وعلى هذا الأساس فإن من أهم سمات اللغة الأعلامية : استخدام الألفاظ البسيطة الصحيحة الواضحة ، فتؤثر استخدام الكلمات القصيرة المألوفة ، على كل ماعداها من كلمات ، فتستخدم : « حريق » بدلا ، « أتون » و « سافر » بدلا من « ظعن » ...إلخ .

ويضيف المؤلف ، المراحل التي مرت بها ، اللغة الإعلامية ، ويعتبر أن « الطباعة » « قد أدت إلى تفجيرات في المجتمعات ، وأصبحت فردية ، ومجزأة ، وارتبط بتلك التفجيرات ، ازدهار العاميات والدعوات إليها ، بينما العصر الكهربي ، ليس عامل تفجير وتجزيء ــ كما يقول ماكلوهان ــ » الأمر الذى يرى معه « أن الراديو والتلفاز ، أديا إلى التجمع والالتئام ، فنحن نعيش في عالم أقرب إلى التكتل والتكامل ، مثل الدائرة الكهربائية تماما ، وقد انتعش الإحساس الجمعي ، والشعور بالعالمية ، في هذه المرحلة الإذاعية » .

وهذا معناه : أن اللغة التي يخاطب بها الراديو (الإذاعة) والتلفاز ، جمهور المستمعين والمشاهدين . أدت وتؤدى إلى التجمع لا التفرق ، مما ينتج عنه بالضرورة ، الشعور بالإحساس الجمعي ، والشعور بأن العالم كله بين يديك ، بعد أن أصبح قرية واحدة ، بفضل وسائل الاتصال الحديثة ــ كما يرى ذلك ماكلوهان .

ومن هنا ــ والكلام لازال للمؤلف ــ نجد أن المرحلة الإذاعية ، على الصعيد العربي ، ترتبط باللغة العربية الفصحى المشتركة ، وطبيعة الإعلام الحديث ، تؤيد إلى حد كبير ، هذا الافتراض ، الذى نطرحه ، للمسار اللغوى العربي ، فالناس فى عصر الإذاعة المسموعة ، والمرئية ، لا يعكفون إلا بالمشاركة الإيجابية والالتزام . وهذا المطلب الاجتماعى ، يفرض على وسائل الإعلام ، التي تميز حضارتنا المعاصرة ، أن تكون لغتها ــ وخاصة بعد استخدام القمر العربي للاتصال الإعلامي ــ هي اللغة

العربية الفصحى المشتركة ، التي تعبر عن ذلك الدور الفعال .

* * *

ما اللغة الإعلامية إذن ؟ أليست هي اللغة العربية الفصحى ؟ بلى غير أن المؤلف ، لا يعني باللغة الإعلامية ، ما توصف به اللغة الأدبية ، من تذوق فني جمالي ، أو ماتوصف به اللغة العلمية ، من تجريد نظرى ، ولكنه يعني باللغة الإعلامية ، أنها لغة بنيت على نسق عملي اجتماعى عادى . فهي في جملتها فن يستخدم في الإعلام ، بوجه عام .

كما أن المؤلف يرى ، أن هذه الخاصة في اللغة العربية ، ظاهرة من تركيب مفرداتها ، وقواعدها ، وعباراتها ، تركيبا يومىء إلى ، النمذجة والتبسيط ، أخص الخصائص في اللغة الإعلامية ، التي تستخدم الرموز المجمدة ، أو الأنماط ، أو النماذج ، التي تقوم مقام التجربة الفردية . أو الجماعية . لتنظيم التجارب الإنسانية العديدة .

وأخيرا ، فنحن على اتفاق تام ، مع الدكتور « عبد العزيز شرف » الذى عرف اللغة الإعلامية ، بأنها « اللغة التي تشيع على أوسع نطاق ، في محيط الجمهور العام ، وهي قاسم مشترك أعظم ، في كل فروع المعرفة ، والثقافة ، والصناعة ، والتجارة ، والعلوم البحتة ، والعلوم الاجتماعية والإنسانية ، والفنون ، والآداب ، ذلك لأن مادة الإعلام ، في التعبير عن المجتمع والبيئة ، تستمد عناصرها من كل فن ، وعلم ومعرفة » .

يوميّـــــات
الإعـــلام ولـــغة العصـــر

يكتبها اليوم :

عبد الله بن علي العليان

يشهد العالم في عصرنا الحاضر تزايدا في وسائل الاتصال وأخذ الناس يعنون بهذه الوسائل بأهمية بالغة وازدياد خطر اللغة المنطوقة والمكتوبة بانتشار الصحافة ةالإذاعة والوسائل الأخرى في هذا المجال وهذا ما يسمى (باللغة الإعلامية) .

واللغة الإعلامية لغة فن تطبيقي لا يعتمد لذاته وإنما يهدف إلى تحقيق غايات معينة وأن يؤدي إلى وظائف محددة وهي ترتبط بست وظائف رئيسية هي : الإخبار أو الإعلام أو التفسير أو الشرح والتوجيه أو الإرشاد والتسلية أو الاجتماع والتسويق أو الإعلان والتعليم أو التنشئة الاجتماعية .

وليست اللغة الإعلامية مرتبطة بعلوم اللغة أو الاتصال بالجماهير فحسب بل إن بحوثها متصلة كذلك بشواهد وأدلة متكاملة تقدمها المصادر العديدة في الفلسفة وعلم النفس والفنون والآداب والأدب وعلم الاجتماع والسياسة ... إلخ .

فاللغة الإعلامية أهم مظهر للمحافظة على كيان المجتمع ، فوحدة الغايات والمبادىء تدعو إلى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والأفعال .

ولا شك أنه من ألزم الواجبات التي تواجه علم الإعلام في الوقت الحاضر هو أثر اللغة على تفكير الناس وفهمهم للأمور وتوجه مشاعرهم وإرادتهم ومسلكهم العملي والدور الذي يمكن أن تؤديه وسائل الإعلام المختلفة في إحداث الفعال والمطلوب بحيث يمكن القول : إن علم الإعلام اللغوي يحاول الإجابة عن هذا السؤال الجوهري :

ـــ ما مدى نجاح وسائل الإعلام ؟ وهل تستطيع الصحافة والإذاعة والتلفزيون

جريدة عمان ١٩٨٦ م .

والسينما أن تنقل الأفكار والمشاعر والأحداث والاتجاهات بالصورة اللغوية الفعالة ؟

ـ وإذا كانت اللغة الإعلامية تحرص على مراعاة القواعد اللغوية المصطلح عليها فإنها تحاول كذلك أن تحرص على خصائص أخرى في الأسلوب ، وهي البساطة والإيجاز والوضوح والنفاذ المباشر والتأكيد والأصالة والاختصار والصحة .

فأصبحت اللغة الإعلامية تجنح إلى الاستغناء عن الكلمات الزائدة بحيث تكون أقوى في لغة الإعلام من استعمالها .

ومن أهم سمات اللغة الإعلامية .. استخدام الألفاظ البسيطة الواضحة وتمتاز أيضا بالمرونة والقدرة على الحركة فهي لغة حركية وهذه الصفة تتمثل في استيعابها لمنجزات الحضارة وروح العصر وواقعية المجتمع الجديد ، وهذه المرونة هي التي تكسبها جمالها،والجمال شرط أساسي لأي لغة .

يقول الدكتور عبد العزيز شرف في كتابه (اللغة الإعلامية) إن المنهج العام لدراسة اللغة الإعلامية يولي وجهه في مشكلاتها شطر علم اللغة ويستمد منه المعونة ويتوصل إلى النتائج العلمية التطبيقية في تطويرها عن طريق قوانين علم اللغة وقواعده . ولذلك فإن بحوث اللغة الإعلامية لا يمكن أن تنفصل عن بحوث علم اللغة ولكنها في نفس الوقت تتصل اتصالا وثيقا بعلوم الاتصال بالجماهير ويستطرد الدكتور شرف قائلا : إن علاقة اللغة الإعلامية بعلم اللغة هى علاقة تأثير وتأثر فإذا كنا ننظر لعلاقة التأثر عل النحو السابق فإن علاقة التأثير بين اللغة الإعلامية وعلم اللغة هي : علاقة التنمية اللغوية وأهم عوامل التأثير في حياة اللغة ، ذلك أن اللغة في مختلف مظاهر حياتها شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ترتبط ارتباطا وثيقا بما عداها من مؤثرات العمران ولعل أهم هذه العوامل التى تؤثر فيها وسائل الاتصال الإعلامية التي تعكس مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها فهي تساهم في نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل وفي هجر كلمات تستخدم فيها أو انقراضها انقراضا تاما ، ذلك أن وسائل الاتصال الإعلامية تعكس أهم العوامل التي تدعو إلى نشأة كلمات في اللغة كمقتضيات الحاجة إلى تسمية متحدث اجتماعي جديد ، سواء كان نظما اجتماعية واقتصادية أو نظرية جديدة علمية أو فلسفية أو مخترعا جديدا .. إلخ .. فالإعلام لا يزدهر إلا في البيئة الصالحة للتقدم والتطور .

ويخلص الدكتور عبد العزيز شرف إلى أن المنهج العام الذي يشق طريقه لدراسة اللغة الإعلامية يعرف عددا من المناهج ينطلق من ثمار علم اللغة وينظر كذلك في قضايا اللغة الإعلامية على هذا المنهج التقابلي وعلم اللغة المقارن ويمضي إلى علم اللغة ويبحث في العلاقات اللغوية في العالم العربي المعاصر في ضوء علم اللغة الوضعي أو العلوم الاجتماعي والنفسية التطبيقي .

MASS COMMUNICATION AND THE MOTHER TONGUE

BY

DR . Abdel Aziz SHARAF

Egypt - Writers Union - Gairo

The world witnesses today an increasing interest in mass communication and mass media and a true belief in its mission and objectives . Mass communication in modern world develops in an astonishing manner , as a result of the technological progress in the mass media , electronics and printing . The Arab States , at present time , adapt themselves to keep pace with this progress in mass communication by sending forth an arabic space communication satellite for broadcasting radio and television programs dealing with cultural and informative subjects .

This astonishing development in mass communication is only an extension to the triumphs achieved by the language to realize mass communication on a large scale . The language became predominant due to its great influence on the thinking of individuals and communities . Therefore we consider that the victory of mass comm unication over the limitations on broadcasting , imposes upon the mass media in the first place , a promotion of the standard of Arabic language which witnessed as any other language, the different states of the human evolution , Since the dawn of the human life , as it employed the spoken word and then the written word , and later on the stage of printing until it witnesses now the stage of broadcasting and the rise of mass media .

On the basis of this conception we put on these pages a question about the effect of this communicative stage on the Arab homeland on the one hand and on the classical Arabic

language as the channel as the creative writings , on the other .

First , the subject of the relationship between the language and the communicative expression requires a kind of agreement of the basic idioms , among which we first cite the « Language », which is considered the most important means of the mass media . It is the tongue , nevertheless it was considered by ancient peoples as identical to dialect . The Arab tongue is the Arabic language in a wider sense . This language was confounded and included different dialects , each of which was known as a certain Language , such as the « modar language » and the « Tameem language » . Now we say the English language or the Arabic . This means the linguistic entity of a certain nation , although the dialects differ in pronunciation and meaning of words .

Language in the process of Mass Communication

If the special meaning prevails over the general meaning of the language, the « Informative » expression which is more restricted that the language, requires comprehending the relationship between the language and the mass media . Language is a series of gestures which exist in every community for the sake of this community and thus it is the most important means of mass communication . Therefore we have to know how to deal with and employ it in mass communication , through our understanding of its complex construction . Words , which are the smallest units of language are not mysterious things or riddles they have material dimension and symbolizes meanings .

If the conception of mass communication remained unlimited for a long time a new theory came into being in the last few years . This theory helps us to evaluate objectively the data, included in any message , whether it is a report about a matter , a poem by AL Akkad , a telephone call, a piece of music , the weather forecast or a scientific discovery . This theory is called the information theory , which emanated from mere practical

problems . Claude shanon , the American scientist laid the foundation of the theory of probabilities in information . Many scholars began later to apply this theory to great fields of sciencc ,.

Words in mass media have two forms of existence: compulsory existence and actual existence. Every word heard or uttered leaves a group of impressions in the mind of both the speaker and listener. The first plays a positive part, particulary in mass media as he begins communication and the second plays a negative part as he receives the message.

Shram says that when we communicate with others we try to have something in common with whom we communicate. In other words we have both a sender and a receiver of a certain message. The sender tries to communicate his information or endeavours to express his feelings which he transforms into words, heard or written. After sending the message the sender expects that the receiver has in mind, the similar image which the sender has in his own mind.

If we analyze the process of mass communication we find that it includes five main elements : **The sender** who formulates his indea in certain symbols and sends them to **the receiver** who deciphers these symbols and explains their meanings. He then responds to them, expressing his impression by sending a new message formulated in symbols, to the first sender, who in turn receives it, deciphers and responds to it. Thus the communication circulates and forms the most important charateristics of the reactive society.

Thus the role of the language in the process of mass communication and in editing the message, in particular is clearly shown. This linguistic message is transmitted through mass media to propagate rapidly. This depends naturally on the harmony between the sender and the receiver. If we realize the close relation of mass communication with life we find that the em-

phasis of mass communication is parallel to the relationship of communication's dexterities with life. The recent studies proved that it is possible to help the writer of any mass media to emphasize the most necessary aspects of communication. The efficient writer does not disregard the role played by the language in the process of mass communication and does not neglect exciting the interest of others. Mass communication idiomatioally-means providing people with the right news, sound data and established facts, which help them to form a pertinent opinion about a certain fact or a certain problem, in such a way that this opinion expresses what the masses think as well as their trends and inclinations. This means that the only end of mass communication is convincing the others through information, facts, figures, statistics and so on. Ottogrot gives a definition of mass communication and says « Mass communication is the objective change of the thinking of masses, their behaviour, their trends and their inclinations at the same time ». Mass communication is an objective expression of the contributor, whether he is a journalist, announcer, or engaged in cinema and television.

Mass communication and the language of civilization

Mass communication does mean communicating with all the people but according to Reevers and his two colleagues it includes selection of categories-groups or special masses who can be of great numbers-within the masses. The mass media meet with masses through a process of mutual selection. The mass media tend to select their masses basically through the content. The masses also tend to select the mass media through the content. The masses attracted by a certain mass medium may differ thoroughly from those attracted by another kind of mass media. Nevertheless it is obvious that they are interlaced to a great extent.

If the function creates the organ, the functions of mass communication created what we call « genres of the mass communication ». These functions have not changed, since cen-

turies, between the primitive culture and the contemporary civilization. But new forms and skeletons, emerged to enlarge these functions and extended them the « writing » developed to let the community keep its stock of knowledge so that it may not be lost by depending on personal communications or the memories of old folk. The « printing » developed so that the machine may multipny what is written to man, more cheaply and rapidly than man himself can do.

It is impossible to imagine a cilivized community. It is impossible too to imagine a primitive tribe employing what a modern community employs. Every social stage uses a suitable mass medium . Here we perceive the close relationship between mass communication and the language of cililization through investigating the human history. Mass communication is necessarily an art of civilization. It solves the problem of for mlating knowledge in an actuar practical way. Walter lippman, the American political commentator says. « The modern community does not lie in the scope of direct vision of anyone. It is not always comprehended and if a group of people comprehended it another group will not comprehend it ». Thus the language of mass communication becomes a language of civilization, endeavouring to explain and integrate. If we throw a comprehensive look at mass communication, we will find that it goes deeply into body of civilization.

The process of communication is achieved on different levels of language and symbols. Communication is achieved on three levels of linguistic expression

First : The aesthetic level used in literature;

Second : The theoretic scientific level used in science;

Third : The social functional objective level used by different kinds of mass communication.

These three levels exist in every human society. The dif-

ference between the sound integrated society and that decomposed ill community is that thelinguistic levels are approximately equal in the first while they are remote form each other in the second. The approximation of the linguistic expressions proves the homogeneity of the community, the equilibrium of its various classes, and the vitality of its culture, and consequently leads to its integration and soundness of mind. It is an established fact that the periods during which prevails a kind of harmony among the three levels are mainly the most flourished periods. If the linguistic level differs greatly from the other linguistic level there is mental severance in the community, which leads to disorder, weakness, senelity and decomposition.

We are of opinion that this is right when we say that our Arabic language is in need of intellectual and cultural affluence and approximation of intellectual levels. This necessitates employing the Arabic language in the fields of modern civilizations, including different sciences. The mass media are, in the first place, responsible for this because the language which they use with its social practical level is the language of civilization.

MASS COMMUNICATION AND LINGUA FRANCA

The Arabic language Like any human Language passed by the stages of the human development as H . G . Wells says that language is the main pivot of the Whole . human history movement . He divided this history into :

First the period of speech ;

Second the period of Writing ;

Third the period of printing ; and

Fourth the period of broadcasting .

He took into consideration the assisting factors of this main pivot like the invention of steam and electricity , as well as the close relation between printing and mass production . Wells , beyond any doubt , was one of the precursors of a new eloquence and art , He realized that human progress goes on with astonishing paces , especially in the field of controlling the immense energy , He expressed the need of the people to a new language for mass communication , which does not represent resucrection of old theories , or display the consequenccs of natural sciences in the human field , but they are a conditional response of what the language has gained of new energies .

On the basis of this conception we try to know the effect of mass communication on the Arab Homeland , on the one hand , and on the Arabic classical languaage , on the other .

We find first that the printing stage culminated in the decomposition of the Islamic World and dividing it into parts . When the Islamic and Arabic Orient knew the printing , press flourished . Nevertheless the regional calls appeared in the later years of the last centurv and the first years of this century . We

are of the opinion that the callings for using the colloquial language are not only connected with regionalism , but so with this printing stage .

Printing , as says Marshal Maclohan created the individualism and nationalism in the 16th century in Europe . The Gutenberg's invention of the movable type had great effect . Civilization derives its character from the mass medium . The European nationalities , in the stage of printing, were connected with putting an end to the Latin language . The colloquial Language flourished and turned into independent languages in Europe .

Those who were affected with this vision call for regionalism as those who call for regionalism for political purposes . Those who call for colloquial languages were naturally affected with printing too . They called for using numerous dialects and employing them as official languages in the Arab countries to put an end to the Arabic language as it was the case of the Latin language in Europe . The printing prepared a suitable climate for this call . Therefore we cannot differentiate between the call for using colloquial language and the call for writing the Arabic language with Latin letters when we assume the effect of printing with general social entity .

The later years of the last century and the first years of the present century witnessed a rise in printing and press in the Arab countries . This is the stage which witnessed the call of «Spetia» (1880) and Wilcox (1893) in the Review of «AL Azhar» and the Egyptian writers who followed them like salama Mousa . They predicted that the Arabic language would come to an end as did the Latin language .

Those orientalists and those who followed them among the Arabs , did not realize that the linguistic development in the Arab Homeland differs from The Latin language in the days of the nationalities in Europe . But those who call for this were

confused because the Arabs have to pass by a new stage of the human communicative development , i.. the stage of «broadcasting» which enabled the man to make the limited moment a universal instant .

If the printing led to explosions in the society and became individual and divided and if these explosions were connected with flourishing of the colloquial languages and the calls for using them , the period of electricity was not a factor of exploding and parting . Therefore we find that radio and television led to reunion , We live in a world which is more approximate to agglomeration and integration , like the elcctric circuit . The community feeling and the universal feeling Flourished in this stage of broadcasting .

for this reason, we see that the calls for using the colloquial language in Egypt and the other Arab countries , when they reached the apex in the later stages of printing - if this arbitary decisive differentiation between the stages can be done - the stage of broadcasting was striking the doors of the world . this meant on the Arabic ground announcing the birth of an « Arabic Village » from the Atlantic Ocean to the Arabian Gulf , if this expression is right .Using the artificial satellites in mass communication, will lead to the revival of the Arabic community feeling , and resistance of the regionalism and the calls for using colloquial language closely connected with it .

the stage of broadcastiog - garticularly on the Arabic ground is connected with the Arabic lingua franca . The nature of modern mass communication supports, to a great extent , this assumption of the proceeding of the Arabic language . people , in the age of radio and television are content only with positively taking part in mass communication . this social requirement imposes upon the mass media , which is a characteristic of our contemporary civilization to have the Arabic classical language as a lingua franca , which expresses this effective role , particularly after usig the Arabic artificial satellite .

in a long time . for this reason it is superior to the dialects used in daily talks , circulated in homes , streets and markets . Therefore it is used by those who like to improve their speech and expression , as well as the men engaged in mass communication on a large scale .

second it is , as says Henry Sweet , the language which the listener cannot discern to which locality belongs the speaker .

The Arabic lingua franca is renowned for its many communicative characteristics , among which is the fact that is a language Comprehended by the common people. The people's dialects did not prevent them from understanding the simplified texts of the classical language . It is also a democratic language which addresses the old and the young in the same tone and does not confuse the singular pronoun with the plural one . It is a universal language used by numerous peoples, since the establishment of the Arab State in the later years of the second Hegira century and the first years of the third Hegira century , which had the Arabic character in the fields of religion , language , culture and civilization . We are of the opinion that the characteristics of the Arabic language made it the most circulated language in the world . Modern linguistics consider it to be the third language in modern world , with regards to its circulation and extension .

Therefore the Arabic language of mass communication is the lingua franca . Our language is one of the richest languages in tradition . It is also one of the oldest Languages which survived till the present time . It included the knowledge of the ancient peoples . Now it has been proved that it can include the fruits of the modern human thinking.It takes even part in the development of the literary and intellectual riches of the modern world .

In the language of mass communication the classical language realizes this approximation between the three levels of the language , i . e , the scientific , literary and practical levels .

Mass media address the masses since the beginning The best linguistic levels for them are those which belong to the comprehensive perceptions and artistic impressions . The classical Arabic language is the means to achieve this , because it is the language of civilization. It is also in our countries because it is based on the restitution of the general Arabic and Islamic characteristics . The lingua franca is the language which goes beyond the borders of the Arab country to all those who speak Arabic .

In the language of mass communication it is necessary to differentiate between the classical language and the difficult language which can only be spoken by few people . Every classical language is not always difficult and every colloquial language is not easy to be understood by the listeners , as says Al Akkad .

Mass Communication and the Arabic Lingua Franca

Using the classical Arabic language in mass communication is not very difficult . The language of mass communication is that easy simplified language. The mass media are characterized by showing the essentials of the Arabic language ,like elasticity and depths , which made it pulsating with life and the true translation of meanings and thoughts as well as the wide scope of the world and expressions , which the practice , taste and circulation judge whether they are good or not -

Generlizing the classical language Arabic necessitates , in the contemporary stage of mass communication ,a constant effort to generalize this classical language and make use of its genuine characteristics . The mass media form the standard of people's activities and their relations. If their content conceals their nature , the « mass medium » itself reacts with the cultural model , within the frame of which it works .

In describing the Lingua franca we say : First it is subdued to certain rules , which very slowly make it far from development

The classical Arabic Language , beyond any doubt , made use of the Arabic development as well as that of mass communication , and gained more influence in mass communication , on the local and universal grounds . It is used in international organizations as an official language . This necessitates that the lingua Franca in mass communication surpasses the difficult equation between tradition and modernism , and tries to make the levels of the linguistic expression approximate so that it may not be separated from the traditional language and the language of civilization .

Dr . Abdel Aziz SHARAF

Writers Union ,

Cairo ,

Sarwat Street .

6th November 1979

محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ٨٩/٥٠٧٧


Bibliotheca Alexandrina
0615985